

# حكايات كانتربري السوداني

تحرير : دونالد هولي



ترجمة : محمد أحمد الخضر

مركز عبد الكريم مير غني الثقافي

استلهم السير/ دونالد هولز فكرة الكتاب من حكاوى  
كنتربري، (Canterbury Tales) الشهيرة، وهي  
مجموعة من القصص ألفها الشاعر الإنجليزي جفري  
تشوسر (Geoffrey Chaucer) باللغة الإنجليزية  
الوسيطة التي نسبت إليه فيما بعد، وشاع استعمالها في  
الفترة ما بين ١١٠٠ - ١٤٨٥ م. وتعد هذه الحكاوى من روائع  
الأدب الغربي.

لقد جمع جفري تشوسر تسعة وعشرين شخصاً من مختلف  
طبقات المجتمع في العصور الوسطى، وعبر معهم نهر التايمز  
في رحلة حج إلى ضريح القديس توماس بيكيت (Thomas Becket  
Saint) في كنتربري، ووافق كل منهم على  
أن يحكي حكايتين في رحلة الذهاب، وحكايتين في رحلة الإياب  
تزوجية للوقت. غير أن تشوسر لم يكتب منها سوى أربع  
وعشرين حكاية، ومنها أربع لم يكتب منها سوى أربع  
وصفاً دقيقاً لظهور أولئك الحجاج، وحياتهم الخاصة،  
والموضوعات المختلفة التي تطرقوا إليها، والتي يدور  
معظمها حول الحب، والزواج، والوفاء الأسري، فجات امرأة  
صادقة لشخصياتهم، مع ذلك لا نعلم سوى الكنيسة تجسدي  
شخصيات الراهب، والناسك، ويألف سكوك الفطران، ولعل  
محرد الكتاب عندما اختار عنوان (حكاوى كنتربري  
السودانية) كان يرمز بذلك إلى تشبيه المشاركين في تأليفه  
بأولئك الحجاج.





# حكايات كنتربري في السودان

**Sudan Canterbury Tales**

---

المحرر: دونالد هولمز

ترجمة: محمد احمد الخضر اللوم

الناشر  
مركز عبد الكرم ميرغني

# حكايات كنتربري السودانية

تحرير: دونالد هولي  
ترجمة: محمد أحمد الخضر التوم

الطبعة العربية الثانية

2007

## حكايات كنتبري السودانية

Sudan Canterbury Tales

○○

المحرر

دونالد هولي

○○

ترجمة

محمد أحمد الخضر التوم

○○

التصميم والإشراف العام

إلياس فتح الرحمن

○○

التنفيذ الداخلي

هفت إبراهيم

○○

حقوق الطبع محفوظة

○○

رقم الإيداع : ٢٠٢٤/٢٠٠٣

○○

الناشر

مركز عبدالكريم ميرغني

تليفون: ٥٥٢٦٣٨ (٢٤٩١١) فاكس: ٧٧٥٤٣٥ (٢٤٩١١)

أم درمان - (السودان)

Tel.: (249-11) 552638 Fax: (249-11) 775435

E-mail: karim.cult@yahoo.com

Omdurman (Sudan)

## صفحة المترجم

لفت نظري في أواخر عام ١٩٩٩ مقالات للدكتورة منى الماحي نشرت بصحيفة «الخرطوم» التي كانت تصدر آنذاك من القاهرة. كانت المقالات تلخيصاً جذاباً لكتاب (حكاوى كنتريرى السودانية Sudan Canterbury Tales). وبعد أسابيع قليلة وصل إلينا في مسقط الأخ الدكتور/ حسن أبشر الطيب، زوج الدكتورة/ منى، في زيارة قصيرة، فعبرت له عن إعجابي بالمقالات، وعن رغبتى في اقتناء نسخة من الكتاب، فوعدنى خيراً. وبعد ثلاثة أيام فقط من عودته إلى القاهرة تفضل مشكوراً وأرسل إلى نسخته الخاصة، وألح على أن أفكر جدياً في ترجمة الكتاب.

قرأت الكتاب، وتملكنى شعور قوى بضرورة ترجمته إلى اللغة العربية لأسباب عديدة أود أن أجملها في خمس نقاط :

أولاً: يضم الكتاب بين دفتيه مجموعة من المقالات في شكل حكاوى رواها موظفون بريطانيون عملوا في مختلف مهن الخدمة المدنية بالسودان أثناء فترة الحكم الثنائى الإنجليزى المصرى، وهى بالتالى تؤرخ لفترة هامة من تاريخ السودان قد تفيد الباحثين والعاملين فى الخدمة المدنية بفروعها المختلفة.

ثانياً: حرص رواة هذه الحكاوى بشكل عام على عدم الانزلاق فى المسئون السياسية، وسجل كل منهم انطباعاته وملاحظاته وتجربته الشخصية من

الناحيتين المهنية والاجتماعية فقط في تجرد وصدق بائتين، مع إضافة بعض اللسمات الإنسانية.

ثالثاً: لقد عمل هؤلاء الأشخاص في السودان في ظروف بالغة الصعوبة من حيث وعورة الطرق، وبداية وسائل المواصلات (الجمال والنور واللورى أخيراً)، ومحدودية الخدمات، وتشمش الأمراض في كثير من المناطق النائية، ولكنهم بالرغم من ذلك كانوا يؤدون واجبهم بحيوية دافقة، وبمستوى عال من المسؤولية يصلح أن يكون نموذجاً يحتذى به في تقديم العمل واحترامه.

رابعاً: استرعى انتباهي أن اختيار هؤلاء الأشخاص الذي كتبوا هذه الحكاوى وغيرهم من الموظفين البريطانيين الذي عملوا في السودان لم يكن عشوائياً، فكانوا جميعاً يحملون مؤهلات أكاديمية عالية، ويخضعون لاختبارات قاسية، وفوق ذلك كله يُفرض على كل منهم اجتياز امتحان خاص في اللغة العربية إذا أراد الترقى والاستمرار في وظيفته، وقد ساعدهم ذلك على تقوية علاقاتهم الاجتماعية والمهنية، بل وأجرى الكثيرون منهم بحوثاً علمية في مجالات تخصصهم، وأعتقد أنه قد حان الأوان لإحياء هذه القيم السامية إذا ما أريد لخدمتنا المدنية في السودان أن تنهض من كبوتها وتقف على أرجلها من جديد.

خامساً: قد يكون في ترجمة هذا العمل إلى اللغة العربية حافزاً للكثيرين من رجالات الخدمة المدنية السودانيين الذين عملوا مع البريطانيين في تلك الفترة، لكتابة مذكراتهم تكملة للصورة، وإثراء لتاريخ تلك الحقبة التاريخية الهامة.

وفي يوليو من عام ٢٠٠٠ قمت بزيارة إلى القاهرة حاملاً في حقيبتي كنموذج الترجمة العربية لـ (حكاية الضابط الإدارى)، وهى أولى حكاوى المجموعة، إلى جانب مقدمة الكتاب بقلم محرره المير/ دونالد هولى الذي عمل أيضا في السودان في تلك الفترة المشار إليها، وقد سعدت بمقابلته فيما بعد عند زيارته لمسقط، كما أقامت الجالية السودانية بمسقط حفل تكريم له وزوجته. وفي

القاهرة قدمنى الأخ/ الدكتور حسن أبشر الطيب إلى الأخ الكريم الوجيه/ محمود صالح عثمان صالح، الذى اطلع على النموذج، وشجعنى بدوره على مواصلة الترجمة، بل وشرفتى برعايته الشخصية لهذا العمل. كما تعهد مشكوراً بأن يطبع الكتاب بواسطة مركز «عبدالكريم ميرغنى، الثقافى بأم درمان.

استلهم السيد دونالد هولى فكرة الكتاب من «حكاوى كنتريبرى، Canterbury Tales الشهيرة،\* وهى مجموعة من القصص ألفها الشاعر الإنجليزي جفرى تشوسر Geoffrey Chaucer باللغة الأنجليزية الوسيطة التى نسبت إليه فيما بعد، وشاع استعمالها فى الفترة ما بين ١١٠٠ - ١٤٨٥ م، وتمتد هذه الحكاوى من روائع الأدب الغربى.

لقد جمع جفرى تشوسر تسعة وعشرين شخصاً من مختلف طبقات المجتمع فى المصور الوسطى، وعبر معهم نهر التايمز فى رحلة حج إلى ضريح القديس توماس بيكيت (Saint Thomas Becket) فى كنتريبرى، ووافق كل منهم على أن يعكس حكايتين فى رحلة الذهاب، وحكايتين فى رحلة الإياب تزجية للوقت، غير أن تشوسر لم يكتب منها سوى أربع وعشرين حكاية، ومنها أربع لم تكتمل. تتضمن الحكايات وصفاً دقيقاً لمظهر أولئك الحجيج، وحياتهم الخاصة، والموضوعات المختلفة التى تطرقوا إليها، والتى يدور معظمها حول الحب، والزواج، والوفاق الأمري، فجاءت مرآة صادقة لشخصياتهم، مع نقد لاذع لمساوئ الكنيسة تجسد فى شخصيات الراهب، والناسك، وبنات صكوك الغفران.١. ولعل محرر الكتاب عندما اختار له عنوان (حكاوى كنتريبرى السودانية) كان يرمز بذلك إلى تشبيه المشاركين فى تأليفه بأولئك الحجيج.

ولا يسمنى فى ختام هذه المقدمة إلا أن أتقدم بجزيل شكرى وفائق عرفانى إلى السيدة الفضلى الدكتورة/ منى الماحى فى القاهرة، لمؤازرتها لى، ولما بذلته من مجهود مضمّن فى استخراج هذه الحكاوى بالطباعة من البريد الإلكتروني حيث كنت أرسل ما أترجم أولاً بأول، لتكرّم بتسليمهم إلى الأخ/ محمود صالح

عثمان صالح الذى لم ييغل على بملاحظاته القيمة المستيرة التى كان يملينى إياها عن طريق الهاتف مهما استغرق ذلك من وقت. وقد أتاح لى تلك المحادثات الهاتفية فرصة التعرف عليه عن قرب، فوجدته مثالا للمثقف الموسوعى الذى يندر أن تجد مثيلاً له فى هذا الزمان، فله منى خالص التحية وعظيم الامتنان. والشكر موصول أيضاً إلى الأخ الكريم الدكتور/ الحاج سالم مصطفى لما بذله من جهد مخلص فى مراجعة هذه الحكاوى من حيث التراكيب اللغوية صياغة ومعنى، ولما أمدنى به من مراجع أعانتى كثيراً على فهم بعض المصطلحات اللغوية الإنجليزية، وأتوجه بشكر خاص إلى الأخ الأستاذ الأديب/ الزاكى عبد الحميد أحمد الذى تفضل بترجمة جميع القصائد الشعرية التى وردت ضمن عدد من هذه الحكاوى، ونقلها إلى العربية فى صياغة شعرية جذابة، خاصة ما بذله من جهد مقدر فى ترجمته الرائعة لتلك القصيدة التى تصدرت (حكاية الراهبة) والتى كتبت باللفة (السوشرية) الصعبة. ولا يفوتنى أن أتوجه بالشكر أيضاً إلى الأخ/ عمار محبوب محمد زكى الذى تولى مشكوراً مراجعة الطباعة وضبطها من النواحي الفنية، وإلى الأخ المهندس/ محمد أحمد أبو القاسم الذى أمدنى بالمقابل العربى المستخدم حالياً للمصطلحات الفنية التى وردت فى (حكاية مهندس المساحة).

إلى هؤلاء جميعاً أكرر شكرى وعرفانى بالجميل، سائلاً الله العلى القدير أن يمتهمهم بموفور الصحة والسعادة، وأن يجزيهم عنى خير الجزاء.

محمد أحمد الخضرا التوم

٢٠٠٢/١٠/١ م

## مقدمة

لقد خطرت لى منذ فترة فكرة جمع عدد من القصص التى رواها بعض الرجال والنساء الثنين عملوا بالسودان أثناء الحكم الإنجليزى المصرى خلال الفترة من عام ١٨٩٨ حتى عام ١٩٥٦م . ودار بغلدى ما يشبه "حكاوى كنتبريرى" (Canterbury Tales) حيث يقوم الأشخاص بسرد قصصهم من خلفية عملهم بالسودان. غير أننى لم أبداً فى تنفيذ هذا المشروع إلا منذ فترة قريبة نسبياً ، ولم يكن العمل فيه وفقاً لخطة محكمة كما قد يكون مرغوباً فيه ، فقد تم جمع هذه المجموعة من الحكاوى بصورة عشوائية وحسب ما سمعت به الظروف . لربما لم تكن هناك وسيلة واقعية أخرى أفضل من ذلك ، نظراً إلى أن الأحياء الذين عملوا بالسودان فى عهد الإدارة البريطانية السابق أصبحوا محدودى العدد الآن ، وتقدم بهم العمر، ذلك أن جميعهم تقريباً قد تقاعدوا فى عام ١٩٥٦م. وعليه مازالت هناك بعض الفجوات التى فضلت ألا أقوم بملئها ، إذ أنه لم يتبق من الأحياء من يتحدث فى مجالات بعينها، أو فى بعض الحالات الأخرى ، شمرت أن بعض من تقدمت بهم السن غير قادرين على المساهمة.

كان أول من تطوع بالمساهمة زملاء فى " لجنة اتحاد متقاعدى حكومة السودان"، فمثلاً تم الحصول على حكاية مهندسة الجيولوجيا بالصدفة عندما وجدت فرانسيم ديلانى (Frances Delany) جالسة أمامى فى حفلة غنائية بمدينة باث (Bath)؛ وجاءت حكاية "الطالبة" أثناء حفل زواج ؛ وعلى نحو غير

متوقع ، قدمت لى جوديث روبنسون (Judith Robinson) حكاية والدتها ماري برودبنت (Mary Broadbent) بعنوان "حكاية زوجة" . أما حكاية دنكان وير (Duncan Weir) التى قدمتها أرملته نورا (Norah) فقد كتبت أصلاً لمجلة بلاك وورد ماجزين (Blackword Magazine تحت الاسم المستعار "أشقر" (Ashgar) ، وهى من الأدب القصصى رغم أنها تستوحى المعرفة والصدق والممانى الأخلاقية . ثم أعطانى إليوت بالفور (Elliot Balfour) "حكاية مفتش المركز" قبل وفاته بفترة قصيرة للتصرف فيها بما أراه مناسباً .

لقد تم الاحتفاظ ببعض الحكايات الرائعة للأجيال القادمة حتى تساعد على تصحيح غياب القصص التى كان يمكن أن تروى . وأضيف الملحق (أ) للإشارة إلى ما هو متوافر فى أرشيف السودان بمكتبة جامعة درم (Durham) ، وقد تكون قائمة الكتب والمراجع التى اخترتها طويلة نوعاً ما ولكنها فيض من فيض ، ذلك ان المبدأ الذى اتبعناه هو أن نسجل الكتب التى تلقى ضوءاً على السودان أثناء حقبة النفوذ البريطانى الرئيسية ، بالإضافة إلى كتب البحوث الأكاديمية حول السودان التى ألفها كتاب بريطانيون وآخرون .

أود أن أتوجه بالشكر الجزيل إلى جميع الأشخاص الذين ساهموا فى هذا العمل، ووافقوا على أنه فى حالة وجود أى فائض مالى يفوق تكاليف نشر هذا الكتاب، أن يحول لصالح إحدى الجمعيات الخيرية السودانية . كما أود أن أعبر عن عميق شكرى وتقديرى للعمل الذى قام به جيم هودجز (Jim Hodg-es) الذى قرأ كل الحكايات وأكمل مهمة التتقيق الأولى الشاقة للكتاب، وكذلك إلى جينيفر وارن (Jennifer Warren) التى تولت طباعة بعض الحكايات الطويلة على القرص ، وإلى جوانا بوكلى (Joanna Buckley) التى لولا مساعدتها ما كان ليتم إخراج هذا الكتاب إلى وقت طويل ، ولم تكف بإخراج النسخة النهائية وطباعتها على القرص فحسب، وإنما قامت كذلك بإعداد الفهرست وقائمة المراجع وساعدتى كثيراً فى تنقيح النص النهائى.

وفى الختام ، لا يفوتنى أن أعبر عن شكرى الحار للبروفسير/ برايان  
جوداول (Brian Goodall) ، وهيثر براوننج (Heather Browning) التى تعمل  
رسامة للخرائط فى قسم الجغرافيا بجامعة ريدينج (University of Reading)  
وذلك لتوليها إعداد الخرائط رغم إخطارهما بوقت قصير .

دونالد هولى (Donald Hawley)

أبتل هيفريل، اكتوبر ١٩٧٧م

# 1

حكاية

الضابط الإداري

يوم الانتخابات

في «أم بطيخ»

---

*Sudan Canterbury Tales*

بنو حنظل من قبائل الأباله الرحل ، والقرية الوحيدة الموجودة في أراضيهم تسمى أم بطيخ رغم أنه لا يوجد من الأحياء من يذكر وجود بطيخ في هذه القرية، وكل ما هنالك بئر ماء مالح تحيط بها مجموعة من المباني المستطيلة مشيدة بالعلوب الأخضر وترتفع فوق سهل حصوى منبسط ، ويمتلكها التجار القادمون من المدن البعيدة ، وهي عبارة عن سوق تجارى يأتى إليه أفراد بنى حنظل من الصحراء على ظهور إبلهم لشراء احتياجاتهم البسيطة ؛ قليل من البن ، رأس أو رأسين من السكر ، بعض البهارات ، تمباك ، ولربما ، في حالات الإسراف والتبذير، قطعة قماش يابانى أو مرآة تشيكوسلوفاكية .

لذلك عندما اقترب موعد الانتخابات ، لم يكن هناك مكان آخر يصلح أن نقيم فيه مركز انتخابات دائرة بنى حنظل غير أم بطيخ .

كانت لجنة الإشراف على الانتخابات العامة المسئولة عن " نزاهة وكفاءة سير الانتخابات " تتكون من أشخاص آحاديين التفكير علمتهم خبرتهم أن أفراد القبائل الرحل ليسوا أكثر الناخبين تعاوناً، وأنه لا يوجد بدوى أصيل يعطى أكثر من اهتمام عابر بأسابيع وشهور التقويم، وهو في الغالب يحسب الزمن من خلال هطول الأمطار أو عندما تحبل نوقه. لذلك إذا أردت إنجاز أى مهمة لدى بنى حنظل، بالذات وفي وقت محدد، فلا بد كما جرت العادة أن تسمح بهامش خطأ لا يقل عن أسبوع تبكيراً أو تأخيراً .

لذلك ، أصدرت لجنة الانتخابات توجيهات باتخاذ " كافة الاجراءات الممكنة للتأكد من أن الناخبين في دائرة بنى حنظل يدركون أن الواجب العام وحقوقهم

الديموقراطى يحتمان عليهم الحضور إلى مركز الاقتراع للإدلاء بأصواتهم بين التاسعة صباحاً والخامسة مساءً من يوم "الاقتراع". وتم نشر هذا الإعلان بين أفراد القبيلة بعد إجراء التعديلات المناسبة عليه ، ولكن يبدو أنه كان أملاً بعيد المنال.

لقد كان من الصعب طبعاً إقناع بنى حنظل بأى نوع من الانتخابات ، ذلك أنه منذ أجيال مضت ظل قائد القبيلة ممثلاً لهم بالوراثة فى جميع الأغراض ، يحرس اهتماماتهم ، ويوجه مسار حياتهم ، فإذا كانت الدولة تريد نائباً لهم ، فليس هناك من هو أحق منه بهذا المنصب . ولذلك تم إقناع القائد من الناحية الشكلية ليسمح لنفسه بالتوقيع بقبول الترشيح ككاتب للدائرة فوق توقيعات أخوانه الخمسة أو بالأحرى بصماتهم . وهكذا أصبح القائد مستعداً لمسايرة الدولة ، بل وافق . ولو مُكرهاً . على دفع قيمة التأمين القانونى الذى يجب توريده عند الترشيح وقدره عشرة جنيهات، ولكن تخفيضه فيما بعد عند تقديرات الضرائب بنفس المبلغ المذكور لم يكن مجرد مصادفة .

عند اقتراب موعد الترشيح ، نأكد لى أن الأحوال تسير بشكل مرضٍ فى اتجاه أن يكون القائد هو المرشح الوحيد للدائرة . واستمر بنو حنظل يمارسون حياتهم الهادئة كالمتاد . غير أنه فى صبيحة يوم الترشيح لاحظ فى الأفق كتلتان من الغبار، ولم تمض نصف الساعة بعد ذلك حتى وصل إلى البلدة لوريان أحدثا جلبية وضوضاء ، ثم ما لبث أن ترجل منهما رجلان معفران بالغبار، تلى ذلك نشاط محموم بين الدكاكين . وقبيل منتصف النهار بقليل ، ومع اقتراب موعد قفل باب الترشيح حدث ما هو أسوأ ! فقد أصبح يتنازع الدائرة مرشحان إضافيان ، أحدهما السيد/عافل القوم وهو من بين تجار أم بطيخ المعروفين بالخبث والمماحكة ، والآخر هو السيد / الستار الحديدى الذى كان مؤهله الوحيد للشهرة هو محاولة فاشلة لابتزاز القائد .

كانت النتيجة الفورية لهذه التطورات أن قام القائد بزيارة رسمية إلى مركز الترشيح حيث طلب استرداد العشرة جنيهات مبلغ التأمين . وعندما أبلغ بأن الوقت قد تجاوز منتصف النهار ، ولا يحق له بعد ذلك الانسحاب من الترشيح ، ما كان منه إلا أن غادر المكان دون أن ينبس بكلمة واحدة .

بعد ذلك سارت الأمور في أم بطيخ من سيئ إلى أسوأ ، فقد بقى في القرية الرجلان القادمان من المدينة ينظمان حملاتهما الانتخابية باسم حزبيهما، غير أن بنى حنظل لم يكثرثوا كثيراً لاجتماعاتهما وخطبهما التي رأوا بفطرتهم السليمة أنها لا تعدو أن تكون من ضمن أكاذيب التجار وأهل البندر، ولكن بالرغم من ذلك استطاع "عاقل القوم" و"الستار الحديدي" أن يقسما القرية إلى قسمين، ويسبب الكراهية المتبادلة تجاه التاجرين المرشحين بلغت حدة المزاج العام أقصى درجات الغليان، وسرت إشاعات بأن هناك رشاوى قد دفعت لبعض الناخبين مقابل الإدلاء بصواتهم.

ولذلك أصبح من الضروري أن تدار الانتخابات بالطريقة التي تضمن إدلاء كل ناخب بصوته في سرية تامة، وبذلك يكون شراء الأصوات عملاً غير مريح، خاصة أن بنى حنظل يتميزون بالكثير من الصفات الحميدة اللهم إلا إذا كان الأمر يتعلق بالمال!

وهكذا تم نصب سقيفة ضخمة من البروش وسط حظيرة المواشى بمدخل ضيق في جانب منها، ومخرج مماثل في الجانب الآخر، على ألا يسمح لأى شخص بالدخول إلى الحظيرة ما عدا ضابطى الانتخابات اللذين يجب أن يجلسا في العراء على مرأى من الجمهور في منتصف الساحة الواقعة بين بوابة الحظيرة ومدخل السقيفة. ويسمح للناخب بدخول الحظيرة بمفرده حيث يقوم ضابط الانتخابات بمراجعة بيانات تسجيله، ثم يسلمه بطاقة خاصة مدموغة بختم الدولة بطريقة يصعب منها محوه أو إزالته.

ثم يدخل الناخب منفرداً إلى داخل السقيفة ليجدها خالية من أى شيء سوى ثلاث صناديق حديدية لكل منها فتحة من أعلى، ومكتوب على كل صندوق اسم ورمز أحد المرشحين الثلاثة. ثم يقوم الناخب بإدخال بطاقة الترشيح في الصندوق الذى اختاره ويفادر السقيفة، ثم الحظيرة قبل أن يسمع لمن يليه بالدخول.

وبالرغم من كل هذه الاحتياطات لم أكن مطمئناً، ولذلك قررت أن أكون على مقربة من المركز في يوم الانتخابات لأراقب بنفسى مجريات الأحداث من موقع مناسب خارج أسوار الحظيرة. غير أنه في آخر لحظة وصلت إشارة عاجلة من لجنة الانتخابات العامة توضح أن وجود المسؤولين الإداريين في مراكز الاقتراع يعتبر تدخلاً مباشراً في حرية الانتخابات، وعليه يتعين على المسؤولين الإداريين عدم القيام بأى دور شخصى في إجراءات التصويت، ولا يسمح لهم حتى بالوجود في مراكز الاقتراع.

لذلك ما كان منى إلا أن أقوم بالشئ الوحيد الممكن ، فاستدعيت الأمباشى "روكوسا" وشرحت له الوضع وعدت إلى كوخى في أقصى ضواحي القرية. ومن هناك ، ولدهشتى الشديدة ، كنت أرى طوال النهار أفواجا من بنى حنظل تتدفق إلى الحظيرة من كل الاتجاهات ، وقد أتى معظمهم بالطبع على ظهور الإبل ، بينما جاء آخرون على الحمير أو سيراً على الأقدام ، وهذا نوع من التحرك يلجأ إليه بنو حنظل في حالات الاستمجال القصوى ، ولهم فيه أهازيج ودعابات.

من الواضح إذن أنه كان هناك أمراً ما ، ولذلك فكرت في شئ واحد فقط يمكن أن يكون قد جذب اهتمام بنى حنظل للتحرك بهذه الطريقة ؛ ألا وهو المال ! ولم يكن أمامى إلا الانتظار في يأس، والاعتماد على كفاءة إجراءات التصويت وفطنة الأمباشى "روكوسا" ، ولذلك بقيت في كوخى أشغل نفسى

ببعض الأعمال. وفي تمام الخامسة مساءً قمت بعمل فتحة في السور العشبى لاسترق منها النظر، فلاحظت أن بوابات الحظيرة الخمسة مغلقة ورأيت الناس يتسابقون إلى الخلاء الذى تركوا فيه إبلهم. وما هى إلا برهة قصيرة حتى اشتمل الخلاء بنيران صغيرة لإعداد قهوة المساء. عند حلول الظلام تناولت وجبة المساء وأنا أتساءل: ما هو الوقت الذى تعتبره لجنة الانتخابات العامة مناسباً لظهورى من جديد فى عالم بنى حنظل؟

وفى حوالى الثامنة رأيت ضوء رتيبة يشع فى الحظيرة، ثم سمعت ضرباً على الطبول، وما هى إلا لحظات، حتى بدأ الناس يتجمعون من مختلف أنحاء القرية ليتجمعوا حول أسوار الحظيرة القصيرة، وكان يقف بالقرب من الرتيبة أحد الكتبة يقرأ عليهم من ورقة فى يده ، ولكن لم استطع أن أسمع ماذا كان يقول لهم. ثم توقف الكاتب عن القراءة ، وتلت ذلك لحظة صمت أعقبها هدير من الجمهور، ثم سمعت صوت آلاف السيوف تمسح من أغمارها، وأصوات طلقات نارية من ذخيرة مصنوعة محلياً يلبد دخانها أجواء الليل، وأمسكت بمسدسى وناديت على الحارس، ثم دلفت إلى خارج الكوخ لأجد نفسى بين ذراعى القائد الذى قال لى والابتسامة تملو وجهه: (جماعتي الحمد لله مبسوطون)، فقلت له: (الحمد لله ) وأنا اشد على يديه وأشمر بكثير من الارتياح.

استمر النقائد فى الحديث وهو لا يزال مبتسماً: ( لقد أمرت بإحضار خروف لك (كرامة)، ولكى علمت من الأمباشى "روكوسا" أنه فى مثل هذه المناسبة يخشى أن تفسر مثل هذه الهدية - مع كونها نافذة - بتفسير آخر، ولذلك صرفت عنها النظر.

فقلت له: كلامك صحيح، وأشكرك على كل حال، وتكفينى كلماتك الطيبة التى هى مثل الهدية تماماً.

فقال : نعم ، أعتقد ان روكوسا أعلم منا بهذه الأمور ولذلك أعطيناها  
الخروف لأنه أدار الانتخابات بجدارة ودون تكاليف ، وداعاً أسعدت مساءً .

استمر الاحتفال إلى ساعة متأخرة من الليل ، وعندما خرجت في الصباح  
بدت قرية أم بطيخ كأن لم تجر فيها أية انتخابات ، فقد اختفى بنوحنظل في  
الصحراء بأكثر من السرعة التي أتوا بها ، وكان يمكن أن يعتبر كل ذلك حلاً  
لولا آثار ركب الجمال على حصباء القرية ، وآلاف الدوائر السوداء الصغيرة  
التي تمثل بقايا الفحم الذي أعدت عليه القهوة بالأمس ، إضافة إلى خليط من  
نكهة القهوة ورائحة بول الجمال يفوح في الجو .

بعد ذلك خرجت بالإبل يرافقتي "روكوسا" جنباً إلى جنب لمدة نصف ساعة  
من أجل ترويض مفاصلها والاستمتاع بنسيمات الصباح . وعندما توصلنا  
إلى الخلاء تركناها ترمي على راحتها ثم أشرت إلى الأباشي "روكوسا" بأن يأتي  
إليّ ، وعندما حضر قال لي : (سيدي لقد ظلت أفكر كثيراً في موضوع هذه  
الانتخابات لأنني ناخب أيضاً ، ولأن الحكومة تقول أن التصويت واجب ، كذلك  
أنا شرطى يجب عليّ أن أؤدي واجبي ، وهذا هو ما فعلته .

لا يخفى عليك بالطبع أن إخواننا بني حنظل لا تهمهم الانتخابات طالما أن  
القائد هو الذي يمثلهم في كل الأمور ، وتعلم أيضاً أنه لم يفت عليهم أنهم إذا  
لم يصوتوا للقائد فإنهم سيجدون أنفسهم مع نائب لهم في برلمان الدولة لم  
يحلوا من قبل أن يكون قائداً بينهم .

ومنذ أن علمت أنت بذلك وتشككت في الرجلين اللذين جاءا من المدينة في  
يوم الترشيح لتسجيل أولئك الحمارين ، "عاقل القوم" و"الستار الحديدي" ، فقد  
أمرت بمعمل تلك الراكوبة (السقيفة) الجيدة لينحصر التصويت داخل زريبة  
(حظيرة) المواشي ، وبذلك يتم كل شيء بمعدل وكفاءة كما تريد الدولة له أن  
يكون .

لقد فوجئت كثيراً عندما رأيت أعداداً كبيرة من إخواننا بنى حنظل قد حضروا إلى التصويت مع أنني كنت سأندبهم كثيراً إذا زاد عدد الحاضرين عن اثني عشر شخصاً. ولذلك عندما أمرت الدولة بأن تبقى أنت في كوخك وتترك لي الأمر بأكمله، لم يكن أمامي غير أن أبذل كل ما أستطيع من جهد من أجل التأكد من سلامة وكفاءة عملية الاقتراع حتى لا تقوت الفرصة على انتخاب القائد. ألم يدفع القائد للدولة عشر جنيهات من أجل أن يتم انتخابه؟

لقد علمت أن القردين 'عاقل القوم' ، و'الستار الحديدي' قد أشاعوا في القرية أنهم سوف يدفعون مبلغ خمس شلنات لأي شخص من بنى حنظل يمد بإعطاء صوته حسب ما يريدون. عندما بلغني ذلك اعتقدت في البداية أن التدابير التي قمت أنت باتخاذها لعملية الاقتراع سوف تفسد عليهم خطتهم، ولن يكون هناك ما يمنع بنى حنظل ( وهم بحمد الله ليسوا بطيئين في فهم المسائل المتعلقة بالمال) من قبول المبلغ والتصويت للقائد بالرغم من ذلك. هذا هو الذي فكر فيه بنو حنظل، وهذا هو الذي جعلهم يأتون إلى أم بطيخ بالملئات.

غير أن القردين عاقل القوم، والستار الحديدي لم يكونا بهذه البلاهة، فقد أخبرا كل ناخب قابلاه بأنه من الضروري أن يذهب إلى مكان الاقتراع ليحصل على بطاقة التصويت، ولكن عند دخوله إلى مكان الاقتراع يتمين عليه ألا يدخل البطاقة في أي من الصناديق الثلاثة، وإنما يبقى في الفرفة لبعض الوقت ريثما يخفى البطاقة في مكان آمن داخل ملابسه. وبعد ذلك كل من يحضر بطاقته إلى عاقل القوم أو الستار الحديدي ، كيفما ما يكون الحال، سوف يتسلم خمسة شلنات.

لقد كانت الفكرة كما تلاحظ ألا يتم طوال النهار إدخال أية بطاقات في الصناديق وإنما تسلم كلها إلى الستار الحديدي أو زميله - بعر الجمل - عاقل

القوم. وحيث أن كليهما ناخبان ، فإنهما عندما يذهبان للإدلاء بصوتيهما فى حوالى الساعة الخامسة مساءً سيكونان قد أخفيا عشرات بل مئات البطاقات داخل ملابسهما ليقوم كل منهما بسرعة بحشر ما جمعه فى صندوقه.

لقد فكرت فى الأمر ملياً ، واتضح لى أن أصوات القائد بهذه الطريقة سوف تكون قليلة. وتملكتى حيرة شديدة ، ذلك انه بالرغم من أن هذين القردين قد ضمنا هزيمة القائد، إلا أنتى لا زلت أتساءل كيف ضمن أحدهما هزيمة الآخر. غير أننى سمعت خلال النهار إشاعة أخرى بأن عاقل القوم قد رفع سعر الصوت الواحد إلى ستة شلنات بدلا عن خمسة.

لم يكن صعبا علىّ اكتشاف المكان الذى كان يقوم فيه عاقل القوم والستار الحديدى بجمع البطاقات من الناخبين، ولكننى قررت عدم التدخل فى ذلك الوقت، ذلك أن بنى حظّل سوف يريحون فى النهاية من هذه العملية، خاصة وأن تلك السنة كانت صعبة بالنسبة لصغار الإبل. وهكذا عندما اقترب المساء ارتديت جلبابا أبيض لأعطى به الزى الرسمى، ثم ذهبت إلى المكان الذى كان يختبئ فيه عاقل القوم لشراء الأصوات حيث وجدت أمامه كوما من البطاقات ، فما كان منى إلا أن أكشف له عن شخصى، فارتعد من الخوف خاصة عندما أخبرته بأن الدولة قد جعلت عقوبة التزوير والغش فى الانتخابات عشر سنوات سجنًا.

أخذ عاقل القوم يتوسل إلىّ أن أرحمه، بل قدم لى جنبها كرشوة، ولكنى رفضت توسله، وقمت بجمع البطاقات التى أمامه فى كيس من القماش وأخبرته بأننى سوف أقدمها كمعروضات عند محاكمته. وسألنى وهو يكاد أن يبكى عن أوشى به، فقالت له إن صاحبه الستار الحديدى هو الذى أفشى بالمعلومات.

وبعد ذلك ذهبت إلى مكن الستار الحديدى لأجده مشغولاً بشراء البطاقات

رغم أن ما جمعه لم يكن بحجم كوم عاقل القوم. أخبرته بأن عاقل القوم قد فتح بلاغا ضده لانتهاكه قوانين الانتخابات، وقمت أيضا بوضع ما جمعه من بطاقات داخل الكيس.

ثم ذهبت بعد ذلك إلى مركز الاقتراع للإدلاء بصوتي حيث وضعت بطاقتي في صندوق القائد الذي سوف يظل دائما قائداً لى ولجميع أبناء قبيلة بنى حنظل، وفي ذات الوقت بدأت في وضع البطاقات الأخرى التي حصلت عليها من الرجلين في صندوق القائد.

لقد استغرق ذلك بعض الوقت لضيق فتحة الصندوق . وبينما كنت أقوم بهذا العمل كنت أفكر في أن الدولة تريد أن يتم كل شيء على ما يرام، كذلك فكرت في الرجلين اللذين قد أرسلنا إلى أم بطيخ لئلا أصوات الناخبين لحزبيهما، وفي أنه سيكون هناك عدد من الناس في أم بطيخ (مثل عاقل القوم والستار الحديدي وأهلهم) لن يصوتوا للقائد . لذلك قمت بوضع بعض البطاقات في الصندوقين الآخرين بعد أن تأكدت من امتلاء صندوق القائد وعدم تقبل فتحة صندوقه للمزيد من البطاقات.

بعد ذلك واصلت السير في صمت لبعض الوقت وروكوسا \* إلى جانبي، وكان الأمباشي روكوسا يترنم بنغم عاطفي ثم قال لى: (طبعاً لم تعد لدينا أية معروضات نقدمها في محاكمة عاقل القوم والستار الحديدي، ولذلك يجب علينا إطلاق سراحهما، ولكنى لن أخبرهما بذلك الآن فلا أحد من هذين الفردين لديه العقل الذى يستطيع أن يفهم به أن البيئة ضده قد تلاشت بذهاب البطاقات إلى صندوق قائد القبيلة، ولكن لا ضير في ذلك، فليظلا خائفين لبعض الوقت من عقوبة العشر سنوات سجننا).

كنت أميل إلى موافقة الأمباشي روكوسا في رأيه، ولكن جريا للمادة صححته قائلاً: (إن العقوبة لن تتجاوز ستة أشهر كحد أقصى يا أمباشي )

ولكنه تظاهر بأنه لم يسمع ما قلت، ورجع بيميره إلى مكانه الرسمي خلفي، وعندما ألتفت إليه وجدته يعالج أسنانه بمقدمة خنجره الحنظلي ذي الشفرة المزدوجة - وهو إنجاز يندر أن يتم على ظهور الإبل.

بعد عدة أيام وصل البريد الرسمي، وكانت من بينه برقية من لجنة الانتخابات أكدت فوز القائد عن دائرة بني حنظل، واختتمت بالآتي:

انقلوا لكافة المعنيين شكر وتقدير اللجنة للطريقة التي تم بها تنفيذ توجيهات وتعليمات اللجنة، خاصة في تلك الدوائر النائية التي تمتدز اللجنة عن عدم توفير مشرفين لها لتنظيم الانتخابات نظراً لصعوبة المواصلات. قف. إن العدالة والكفاءة اللتين أديرت بهما الانتخابات هما بفضل كفاءة وتغاني الإدارة والناخبين. انتهى.

كما وصل خطاب من ليروكس، وهو شخص محدود الذكاء يعمل مسئولاً إدارياً لمنطقة مجاورة أكثر تقدماً، يقول فيه:

..كانت الانتخابات عبارة عن مهزلة، فلقد أوقفت الناظرة القديمة أمنة عن العمل لأنها كانت تقوم بتحفيظ البنات أناشيد. بذينة عن جميع المرشحين ما عدا السيد ابنعوف الذي هو ابن أخيها. كما سرت إشاعة بأن بعض المرشحين قد اشتروا الأصوات، ولا أعرف كيف تسنى لهم ذلك بالرغم من تطبيقنا لنظام الفرقة ذات الحواجز الحديدية عند الإدلاء بالأصوات. لقد كان الإقبال على التصويت بنسبة ١٠٠% بما في ذلك جميع المرضى في المستشفى، غير أن الدكتور ماكي الميجوز كان يتميز غيظاً لأنه كان قد طلب طائرة الإسعاف التي قطعت طول المسافة إلى هنا من أجل نقل اثنتين من الحالات الحرجة، وعندما وصلت الطائرة لم يجد المريضين بالمستشفى لأنهما قد ذهبا إلى التصويت، ولذلك عادت الطائرة خالية الوفاض.

كذلك ألقت الشرطة القبض على شخصين وجدتهم متلبسين بشراء

البطاقات، وهما الآن يواجهان تهمة التزوير وعقوبتها ستة اشهر سجنًا. أما البطاقات التي عثر عليها معهما فمدها يقارب الألف، وسوف تمرض في المحكمة كمعروضات. تقوم لجنة الانتخابات العامة حاليا باتخاذ الإجراءات اللازمة لإرسال ما يسمى بـ " لجنة التحقيق الخاصة " لإجراء التحريات اللازمة حول الموضوع. كما تريد اللجنة أن تحقق في أسباب تجاهل تعليماتها القاضية بضرورة الاعتماد عن مكان الاقتراع. إنى أسألك: كيف كنت أستطيع مفادرة مكان الاجتماع مع هذا التزوير والاحتيال اللذين كانا يجريان في الساحة.

يقولون أنه سيوجه سؤال في مجلس العموم بشأن " تدخل في سير انتخابات ديمقراطية". إننى أحيانا أكاد أحسبك وعريك الرجل بإبلهم كريمة الرائحة، فقد سمعت أن كل شيء سار على ما يرام في قرية أم بطيخ، وتم انتخاب القائد بأغلبية ساحقة، ولكنى لا زلت استغرب كيف استطعت إقناع بنى حنظل بالحضور للإدلاء بأصواتهم؟

بالمناسبة، لقد تسلمنا للتو طلباً من الأمباشى روكوسا للحصول على قطعة أرض بمساحة كبيرة بالمنطقة الصناعية لدينا. إننى استغرب من أين يحصل مثل هؤلاء الأشخاص على المال؟ يبدو لى أن روكوسا ، لكونه من بنى حنظل، لا بد أنه يملك أعداداً ضخمة من الإبل، ولكن ربما التحق بالشرطة كوسيلة للتهرب من زوجة كثيرة الشكوى أو شيء من هذا القبيل.

دنكان وير (Duncan Weir)





التحقت بخدمة مصلحة الزراعة والغابات بالسودان الإنجليزي المصري خلال العقد السابق لاستقلال السودان.

إن الحكاوى هي زاد للمسافرين، ولذلك فإن حكايتي مستكون عن السفر أكثر منها عن الزراعة ، خاصة وأنا كموظفين بريطانيين كنا نساfer كثيراً طوال أيام الحكم الثنائي. لقد كان إلزاما علينا أن نقضى الإجازة السنوية في الوطن، وكان القليلون منا يعملون في أماكن يسهل الوصول إليها مثل الخرطوم، لذلك كان التقل مرة في كل عام، بين المملكة المتحدة وبعض الأصقاع النائية في السودان، يعتبر في حد ذاته سفراً كافياً. بالإضافة إلى ذلك كان أغلبنا بحاجة إلى التحرك كثيراً من خلال عملنا اليومي، وكان القليلون منا ممن يعتبرون بناء للإمبراطورية المزعومة . مع أن الإمبراطورية قد بدأت تضمحل بسرعة . يتحركون بأكثر مما يفضل مفتش زراعة ناشئ عازب في مناطق نائية كجبال النوبة والاستوائية. بالمناسبة، هذا المسمى الوظيفي بمدلوله الإضافي الأنجلو/ هندي يصف فقط ما كان يصطلح عليه في نظام الخدمة الاستعماري بالضابط أو المسئول الزراعي، ولكن أياً كان المسمى تظل الحقيقة باقية؛ أنك لن تستطيع أن تفعل الكثير في مجال التفتيش الزراعي دون أن تكون متحركاً باستمرار أكثر من جلوسك وراء الطاولة في المكتب، وفي كل الحالات كنا نعتبر أنفسنا الأفضل في نظام الخدمة الاستعماري.

بالنسبة لي كانت البداية في شهر سبتمبر من عام ١٩٤٦ على ظهر السفينة أنديز ( Andes ) التابعة لشركة بي أند أو ( P & O ) الملاحية والتي أدخل

سبيلها للتو من العمل كناقلة جنود أيام الحرب، ومع أنها كانت لا تزال معدة للقيام بهذا الدور، إلا أنهم رحمة بنا قد شغلوا فقط نصف الأسرة الاثني والستين المزدوجة رأسياً والتي كانت مكدسة في كابينة عادية . لقد أبحرت (الأنديز) في هذه الرحلة من ميناء ليغريول بعد تحويلها قبل أيام من ميناء تيلبرى. ما كنا نعرف لماذا تم هذا التحويل، ولكن علمنا بالخبر عن طريق التفكراف بعد أن شحن عفشى عليها الذى كان يتكون من قطعة واحدة عبارة عن صندوق خشبى يحتوى على سرير خلوي، وطاولة قابلة للطي، وكرسى متقل، وحقيبة سفرية، وحمام من الشمع، وغيرها من الأمتعة الماثلة التي تم شراؤها مؤخراً من محلات لون آند ألدر (Lawn & Alder) في شرق لندن. وكما جرت العادة في ذلك الوقت، فقد تم شحن المفش بالسكة الحديد إلى تيلبرى بعد أن ألصقت عليه ديباجة كتب عليها " لا حاجة إليه أثناء الرحلة " ليسبقني مقدماً إلى السفينة كمفش صعبة راكب. كانت هناك دائماً قاعدة ذهبية ألا يفارق الإنسان عفشه قط، وهي حكمة اكتشفتها فيما بعد من خلال العديد من التجارب المريعة الأخرى، ولكن في هذه المناسبة بالذات فقد اتسم هذا النظام بعدم المرونة، ولكن لم تكن هناك في الواقع أية وسيلة أخرى يمكن استخدامها. ومع ذلك كان مدهشاً أن جاءت النهاية سعيدة بعد ثلاثة أشهر، وكانت معجزة أن وصل صندوق المفش إلى الأبيض سليماً تماماً، وفي الوقت المناسب مع أعياد الكريسماس.

لقد استغرقت الرحلة من ليغريول إلى الإسكندرية حوالى ثمانية أيام، أعقبتها رحلة أخرى مثيرة بالسكة حديد المصرية إلى مدينة الشلال على النيل، وهي ميناء نهري في أقصى حدود مصر الجنوبية تقوم بخدمتها باخرة نهريّة تابعة للسكك الحديد السودانية إلى وادى حلفا على حدود السودان في الجنوب. تعرضت الرحلة عبر مصر إلى بعض التأخير لعدة أيام في القاهرة

فى انتظار تأكيد الحجز قطار/باخرة/ قطار إلى الخرطوم، مع أنه فيما بعد أصبح بإمكان السواح القيام بمثل هذه الرحلة بقليل من التكلفة. أما بالنسبة لنا كموظفين مرتبطين بالعمل فى السودان التقينا على ظهر السفينة أنديز، وكان أكثرهم قادمين مثلى كموظفين تحت التجربة لأول مرة. إضافة إلى عدد آخر من الموظفين القدامى الذين كانت تمتير هذه الرحلة بالنسبة لهم مجرد روتين. فكان الأمر برمته يبدو شاقاً غير محبب للنفس .

فى الواقع أننى استمتعت بقضاء يوم أو يومين فى مصر، ولكن بعد ذلك قصرت نقودى، مما كان له آثار محبطة على التجربة. كانت المشكلة فى أنه بالرغم من أن مصروفات السفر للإجازة ذهاباً وإياباً، أو عند التعمين لأول مرة، كانت تسترد لاحقاً، إلا أنه فى العادة ما كان يمكن المطالبة بها إلا بعد وصول الموظف إلى موقع العمل. وبما أننى كنت بحاجة إلى بعض المال فى الطريق، فقد حُلت المشكلة جزئياً بزيارة إلى مكتب وكيل السودان بالقاهرة الذى تكرم وأقرضنى مبلغاً متواضعاً، ولكن مع أنه كان لدى تذاكر السفر بالقطار والباخرة إلى الخرطوم، إلا أننى كنت مواجهاً بسداد فواتير الميز للأيام المقبلة طوال الرحلتين بالقطار والباخرة، ولذلك كان لابد من الاقتصاد فى الممشة. هذه التجربة بالنسبة لشخص قادم مباشرة من الجامعة (ومعتاد كذلك على أغذية أيام الحرب) لربما لم تكن قاسية كثيراً، ولكنى تأسفت أنه فى السنوات اللاحقة ، وفى الأوقات التى كانت أكثر رخاءاً ويحبوحة، لم تتح لى الفرصة مرة أخرى (لأسباب سياسية أساساً) للسفر مرة أخرى بالطريق البرى عبر مصر عند الذهاب والعودة من الإجازة.

لم تنته رحلة عام ١٩٤٦ بعد ، فلم يزل هناك ما كان يسمى "الانتقال" من السكة حديد إلى النهر فى مدينة الشمال. لقد سمعنا أن مستوى النيل هناك كان منخفضاً جداً، وكان على أن أنهم أن نهر النيل العظيم، بالرغم من كونه

أحد عجائب الدنيا الطبيعية، نادراً ما يكون في المستوى الحقيقي، إذ كان دائماً يبدو إما عالياً جداً، أو منخفضاً جداً في نقطة ما على طول مجراه العظيم. وبما أنه كان منخفضاً جداً عند مدينة الشلال في ذلك الوقت ، فكان معنى ذلك أن باخرة سكك حديد السودان التي ستلاقي القطار الذي كان يقلنا من القاهرة سوف ترسو على بعد ميل تقريباً من محطة السكة الحديد المصرية، ولو أنه بعد بناء السد العالي في السنوات الأخيرة ، وإنشاء بحيرة ناصر قد طرأ تغيير جذري على الطبوغرافيا والحدود الدولية في هذا الجزء من وادي النيل ، ولكن في عام ١٩٤٦ كانت مدينة الشلال مجرد قرية نهرية غير جذابة داخل الحدود المصرية. كان النزول من محطة الشلال إلى الباخرة السودانية، بأفراد طاقمها المضيفين الأكفاء، يشكل في واقع الممارسة الفعلية النقطة التي يفارق فيها الشخص الأراضي المصرية ويدخل منها إلى السودان، حيث كنا أثناء الساعات القلائل الماضية، والقطار المصري المنهك بالسفر يشق طريقه عبر الصحراء الشرقية في جو حار أغبر، نتجاذب أطراف الحديث حول متعة تلك اللحظات القادمة.

بدءً، وبسبب انخفاض مستوى مياه النيل كان يتعين أن يكون الانتقال إلى الباخرة سيراً على الأقدام، أو باستخدام أية وسيلة مواصلات محلية تكون معروضة بالأجرة . وكان ذلك من بين أشياء أخرى يعني بالضرورة حدوث معركة مع جماعة الحماليين المصريين، ولذلك عندما وصل بنا القطار إلى نهاية الخط، وبينما كانت الباخرة السودانية لا تزال تبدو بقعة صغيرة في الأفق، ثم تتوقف بعيداً، إذا بالحماليين ينزلون علينا كسرب من الجراد...

والآن، وبالرغم من ذلك الصندوق الكبير الذي أشرت إليه آنفاً والذي كنت أمل أن يكون حينئذ في أعالي البحار، مع أنني كنت أخشى أن يكون لا يزال قابلاً على جانب الرصيف في ميناء تيلبري ، فقد سافرت بكمية من الأمتعة

الأخرى التى كانت تفوق ما يستطيع أن يحمله شخص بمفرده، وتشمل صندوقاً أسود للملابس من الصفيح اليبانى الصلب، وصندوقاً كبيراً آخر من عهد ما قبل الحرب، وكان كلاهما يحمل اسمى مكتوباً بأحرف كبيرة بالطريقة التقليدية القديمة، وكلاهما كانا يرافقاننى دائماً طوال مدة خدمتى فى السودان، ومازال كلاهما يستريحان فى شيسستر (Chichester) بعد أن أحيلنا إلى التقاعد. وفى تلك اللحظة التى أكتب عنها الآن، كان هذان الصندوقان وأمتعنى الأخرى يتم تحميلها بسرعة على عربة كارو معطوية يعرجها حمار دون أدنى اعتبار لرغبتى، لينطلق بها بعد ذلك إلى قرية الشلال التى كانت فى الاتجاه المضاد تماماً للباخرة النهرية، لذلك وفى ذهنى تلك القاعدة الذهبية بعدم مفارقة الشخص لمتاعه، ما كان أمامى إلا أن أهرول مسرعاً فى أعقابها.

لقد كان الحل الوحيد لهذه المشكلة والذى لم يكن منه مفر، هو دفع مبلغ من المال أدى إلى استنزافه، بل كاد أن يقضى على مالى الإحتياطى الضئيل. الآن، وقد أنزل متاعى من عربة الكارو فى وسط بلدة الشلال، فى الوقت الذى كانت الباخرة تطلق صافرتها الأخيرة معلنة موعد المغادرة الوشيك، ونظراً لضائلة معرفتى باللغة العربية، فقد استسلمت للابتزاز ووافقت على دفع مبلغ طائل حتى استكمل نقل متاعى مرة أخرى من وسط البلدة إلى الباخرة المنتظرة فى عرض النهر. ورغم أن القوة هى جوهر المساومة، إلا أننى لم أكن أملك منها إلا القليل، ومع ذلك أرانى قد حققت بعض الانتصار بدفعى نصف المبلغ مقدماً لأقوم بسداد ما تبقى عند الوصول إلى الباخرة. وهناك استقبلتنى عند ممشى الباخرة كبير المضيفين، وكان رجلاً ضخماً الجسم ذا بشرة سوداء فاحمة، وهو أول سودانى أقابله فى حياتى، حيث أجرى تفاوضاً سريعاً مع صاحب العربة الكارو لصالحى.

برغم ما جرى، فإننى فى تلك اللحظة كنت قد دخلت السودان فعلاً وفى جيبي خمسة وعشرون قرشاً فقط، وهى راسمال لا يعتبر سالباً تماماً ولو أنه

يقترّب من ذلك، ولكن بمساعدة المبلغ الذى اقترضته من أحد زملائى الجدد (سيمور جراى Seymour Gray ، ذلك الرجل الحزين المؤثر الذى كان يعمل أيضاً فى مصلحة الزراعة والغابات) تمكنت من الوصول إلى الخرطوم دون أن أجوع فى الطريق.

كانت محطتى الأولى هى مدينة تلودى فى جبال النوبة، التى كانت فى يوم ما مقراً لرئاسة المديرية ولها مديرها الخاص، أما الآن فقد أصبحت مجرد بلدة نائية ضمن مديرية كردفان. عند وصولى، كان جون فيلبس (John Phil-lips) مساعد مفتش المركز موجوداً، ولكن لم يلبث أن غادر تاركاً لى منزل مدير المديرية السابق بأكمله وأصبحت الأجنبي الوحيد لمسافة عدة أميال. كان العمل المناط به هو تشجيع إنتاج القطن كمحصول نقدي من خلال دورة زراعية مكروسة أيضاً لزراعة بعض المحاصيل الغذائية، ولكن ليس بمستوى مشاريع القطن المروية الكبرى فى أماكن أخرى من البلاد، وذلك عن طريق حواشات صغيرة يقوم بزراعتها الأهالي البسطاء الذين كانوا يفتقدون كل شيء ولا يملكون حتى قطعة من القماش.

كان السفر أثناء موسم الجفاف، الذى يمتد إلى حوالى تسعة أشهر، يتم باستخدام العربات التى تسير على الطرق التى تشق أراضي القطن السوداء الصلبة، والتى لم تكن تلقى سوى معالجة سطحية بسيطة، ولذلك أصبحت وعرة ومتعرجة بمرور الزمن، مما كان يسبب ارتجاج العظام للمسافرين. وكان العلاج الوحيد لذلك، وفقاً لحكمة مأثورة، هو قيادة السيارة بأقصى سرعة ممكنة! كانت العربة المخصصة لمفتش الزراعة بتلودى عبارة عن شاحنة من نوع فورد العتيق ماركة ما قبل الحرب حمولة ثلاثة أرباع طن ومحرك قوة ١٢ حصان، وهى نموذج للعربات التى كانت مستخدمة فى الأسطول الحكومى آنذاك. ويتم استيرادها بالخاصة والمحرك فقط، إضافة إلى غطاء المحرك

والزجاج الأمامى الحاجب للريح ليتم تصنيع بقية أجزاء الجسم محلياً من الحديد المَزَوَّى والألواح الفولاذية. وفي المادة يتسع الجزء الأمامى لهذا النوع من المريات لثلاثة أشخاص، وهو مسقوف بالمشمع أو المعدن ويدون أبواب. أما الجزء الخلفى فمبارة عن مسطح بجانبين منخفضين وغير مسقوف مما يسمح بدخول كمية وافرة من الهواء الطلق الذى يعتبر شيئاً هاماً بالنسبة للأحوال المحلية. كان هذا النوع من المريات مناسباً جداً للمستقرات الطويلة (فى السودان لا يطلق عليها لفظ "سفارى"، راجع الملاحظات التى كتبت مبكراً حول الخدمة الاستعمارية)، برفقة خادم أو خادمين، ومعدات سفرية كاملة لاستخدامها فى الاستراحات غير المجهزة. وبالرغم من خشونة ارتداد يايات هذا النوع من المريات، ومع أن تتجيد المقعد كان مجرد وسادة محشوة قطناً، إلا أننى كنت استمتع بقيادة العربة المخصصة لى، خاصة بعد أن اتقنت استعمال (الكلتش) مع (ناقل الحركة) الثلاثى السرعة. وكان ذلك يشبه الركوب على قاطرة الملاهى التى يقودها الشخص بنفسه مستنداً على عجلة القيادة بدلاً عن الجلوس بجانب السائق ممرضاً جسمه للشد والجذب من أثر الصدمات والمنعطفات المفاجئة.

بالرغم من مرور خمسين عاماً الآن، إلا أنه لا زال يتراعى لى منظر ذلك الطريق (كان مجزئ أكثر منه طريقاً) الذى يبدأ من مدينة الأبيض وينعطف جنوباً عكس حركة عقارب الساعة لمسافة ٢٠٠ ميل شاقاً أشجار المسكيت وغيرها من الشجيرات، وماراً بالدلتج، ثم كادوقلى، إلى تلوى ليلتقى بطريق بديل ويستكمل مسافة ٢٠٠ ميل أخرى، ثم يعود إلى الأبيض ماراً برشاد، وأم روبة، والرهد. وكانت حركة المرور فى هذا الطريق تقتصر على الشاحنات التى تاتى إلى السوق محملة بالمؤن أو بالات القطن، ولا زلت أذكر ندرة استخدام الطريق من قبل الآخرين خاصة فى تلك الليلة التى شعرت فيها

بمتعة قيادة العربة تحت ضوء القمر لمسافة لا تقل عن خمسين ميلاً دون أن أشعر بحاجة بتأناً إلى استخدام أنوار السيارة، وكان ذلك مدعاة لتقوية البصر ليلاً بما يكفى تماماً لمتابعة الطريق.

غير أنه بالرغم من ذلك لم يكن الطريق يخلو من الخطر أحياناً ، خاصة فى الأجزاء الشمالية من المركز ، وذلك بسبب الأعطال التى كانت تحدث من جراء طبيعة تربة القطن حيث الرمال الناعمة، وأحياناً كثبان الرمل المتحركة فى بعض الأماكن الأخرى. وعندما يحدث ذلك، فمصرعان ما يصاب السائق بالعجز، بل فى بعض الأماكن يصبح أمهر السائقين عاجزاً تماماً . المهارة فى هذا السياق تعنى القدرة على الاحتفاظ بالتوازن الصحيح بين سرعة دوران المحرك وسرعة السيارة على الأرض لأجل تقادى دوران المجلات فى فراغ. وكالعادة لا تلبث العربة أن تمتدل فى طريقها وتواصل سيرها مرة أخرى . وتحضرنى الآن، وأنا أحس بالخجل، إحدى المناسبات التى اتخذت فيها الأحداث منى آخر خطيراً.

كان لدينا عدد من محالج القطن فى منطقتى كادوقلى و تلودى، وكانت هذه المحالج تتوقف عن العمل بعد لقيط القطن وييمه إلى المصانع فى نهاية الموسم، حيث يتم بعد ذلك ضغط القطن المحلوج بالمكابس فى بالات زنة ٨٠ رطلا للبالاة الواحدة باستخدام الهواء المضغوط، ثم يتم إرساله شمالاً إلى سوق المزاد بالخرطوم. كانت هذه المحالج مملوكة للحكومة وتحت إشراف مهندس ميكانيكى داهية يدعى بيل باس (Bill Bass) الذى كان يأتى إلينا مع بداية الموسم، ويظل منتقلاً باستمرار بين المحالج المختلفة.

ونظراً إلى سنه ووضعه . كان فى مقام والدى . ودون التطرق إلى مستلزمات عمله ، فقد حصل بيل على سيارة بيك آب من نوع فورد (V-8) تتميز عن سيارتى والسيارات الأخرى بأنها أحدث صنفاً وأكثر راحة ، وكان دائماً يخشى

أن تصاب بضرر بسبب إهمال السائقين، أو أن تضيق منه باستيلاء الآخرين عليها. وفي إحدى السنوات ، وقبل أن يسافر بيل في إجازته السنوية ، استطاع أن يوصدها في أحد محالجه وجعل موظفيه يقسمون على أن يكتموا سر المكان الذى أخفى فيه المفتاح. غير أنه في هذه السنة رأى أنه لربما يكون من الأسلم أن يترك السيارة تحت رعايتي خوفاً من حدوث أى مكروه لها. واستمر الحال على ما يرام لعدة أسابيع إلى أن استدعى الأمر قيامي بمأمورية عاجلة إلى رئاسة المديرية بالأبيض، وقادنى تطلعى إلى المزيد من الترف والراحة في الطريق إلى أخذ سيارة بيل في هذه الرحلة. ولدى إبتعادنا عن الطرق المعتادة بالقرب من تلودي، ودخولنا في أحوال شبه صحراوية في الشمال، قابلتنا بعض الكثبان الرملية بمد نهاية يوم طويل من السير. ومد قليل، ونتيجة لدوران عجلات السيارة بسرعة شديدة (خطأ تشغيلي بلغة اليوم) ازدادت حرارة ناقل السرعة ليتدفق منه فجأة سيل من الزيت الحار على أرضية السيارة. ولحسن الحظ مرت بنا شاحنة تجارية قطرتا إلى الأبيض في خزي ومذلة، حيث أمكن تركيب ناقل سرعة جديد لمربة الفورد (V-8) لدى ورشة الحكومة هناك ، وحسب علمي لم يبلغ بيل بأس بهذه الحقيقة المرة أبداً.

كما ذكرت آنفاً، كانت الطرق في منطقة جبال النوبة تصلح للاستخدام أثناء موسم الجفاف فقط، أما في موسم الأمطار اعتباراً من حوالى شهر أبريل إلى شهر يونيو فتكون مغلقة ليس بموجب قانون حكومي، وإنما لأسباب عملية تتمثل في عدم وجود جصور، ولذلك وبمجرد هطول الأمطار تمتلئ مجارى المياه وتقطع جميع طرق المواصلات بالمريات. كان الموظفون البريطانيون أثناء هذه الفترة يحاولون إيجاد وسيلة لمفادرة المنطقة، إما بقضاء الإجازة في بلادهم، أو بالسفر في مأموريات خاصة إلى مكان آخر وإذا تعذر ذلك، فغالباً ما يخلدون إلى الاستقرار في أماكن عملهم. أما بالنسبة لى ، فلم أكن مستحقاً

لإجازة فى سنتى الأولى من الخدمة ، ولذلك قضيت موسم أمطار عام ١٩٤٧ فى جبال النوبة، مما أتاح لى الفرصة كزراعى لمشاهدة ومتابعة نمو المحاصيل، ولأكون "فى موقع الحدث" كما كانت تقول لنا السيدة ثاتشر عندما عملت فيها بعد ضمن موظفيها فى ١٠ داوتنج ستريت مقر الحكومة البريطانية. كان ذلك بالنسبة لى عملاً بالقطرة، ولكنه كان يعنى التجوال فى المنطقة ركوباً على الدواب وليس على المركبات.

كان السفر بالخيول أو الجمال فى المناطق الشمالية من المركز هو الدعامة الأساسية للعمل فى مطلع سنوات الحكم الثنائى، ولكن بحلول عام ١٩٤٧ بدأ يتناقص تدريجياً إلى أن انتهى تماماً فيما بعد ذلك بقليل، ولا أذكر فى الواقع أننى قد قابلت أى شخص قام بجولة بالخيول أو الجمال فى أى وقت بعد ذلك. كانت اللوائح الرسمية فى تلك السنوات تسمح بصرف "بدل سايس وعلف" لغاية ثمانية خيول حسب مقتضيات العمل، بالإضافة إلى امكانية اتخاذ تدابير أخرى لأجل الحصول على قروض بدون فوائد لتغطية المشتريات الأولية، ورغم ذلك لم أستطع الخروج أبداً بحملة كاملة من ثمانية خيول، غير أنه مع بداية الأمطار فى شهر أبريل تمكنت بعد مجهود من تجميع ستة أو سبعة خيول، وكان واحداً منها يصلح للركوب، أما الأخرى، ومن بينها بفلتان، فقد كانت للتحميل فقط. جاء يوم السفر. أنا وخادمان وسائسان. فى جولة طويلة تستغرق عدة أسابيع نزر خلالها منطقة خصبة تقع إلى الجنوب من تلودى، وإذا سمعت قوانا نواصل المسيرة حتى تونجا على النيل الأبيض فوق ملكال. هنا أود أن أقدم للقارئ محمد خليل عبده، وهو شاب ملتزم من المديرية الشمالية ربما نصف نوبى ونصف دنقلاوى، ويفضل المقابلة الموقفة التى أجراها للمتقدمين إى. آر. جون (E.R.John)، الذى أصبح نائباً لمدير الزراعة فيما بعد، تم تعيين محمد معى فى وظيفة "سفرجى" أثناء حضوري للخرطوم

لأول مرة، ثم رقى إلى طبياخ وظل في خدمتى طيلة سنوات عملى بالسودان، حيث امتد إخلاصه وتقانيه ليشمل كذلك زوجتى وأولادى. غير أنه فى الحقيقة كان يحن إلى العمل بالمديرية الشمالية، ولم يكن أبداً فى يوم من الأيام يفكر فى الميش جنوب مدينة شندى (فى نظره تعادل وانفور) مما جعل قبوله للسير معنا فى حملة جبال النوبة أمراً مستقرياً، خاصة وقد حدث ما هو أسوأ من ذلك فى السنوات اللاحقة.

إن السفر لمسافات طويلة له سحره الخاص، ولكن لا أستطيع أن أقول إجمالاً إننى قد استمتعت بهذه التجربة أكثر من محمد، بالرغم من أن حياة المعسكرات الخلوية كانت بالنسبة لى متعة العمر. كنا فى الغالب نعانى من شدة الحرارة والتعب والتقرح الذى ينجم عادة من الركوب على سروج الخيل، وكثيراً ما كنا نتمرض للبلل بمياه الأمطار، ولا زلت أذكر تلك الليلة الممطرة بالذات التى قضيتها فى خيمة يتسرب منها الماء حينما أطاحت البفلة بفراشى المتقل فى إحدى البحيرات، ولن أنسى كذلك الطفيليات التى كانت تهاجمنا أثناء سيرنا وسط الحشائش الطويلة المبتلة وتتسلل داخل ملابسنا لتلتصق حول خصورنا. ومن الذكريات اللطيفة أيضاً تلك الليلة التى وصلنا فيها إلى قرية بالقرب من بحيرة (أبيض) حيث أكرم وفادتنا شيخ القرية بذبح عجل سمين. ولا زلت أذكر ببعض الدهشة على الأقل فى مناسبة واحدة عندما يتحتم على الدواب سباحة أحد الأنهار الممتلئة (الخيول والبغال تسبح جيداً، وكنا نمسك بذيلوها ونوجهها برش وجوهها بالماء من جانب إلى جانب). غير أن تلك الجولة انتهت على كل حال بصورة مفاجئة، ذلك أننا عندما وصلنا إلى كادوقلى من تلك المنطقة الممطرة فى الجنوب، وجدنا أن الأمطار قد انتهت، وأن فتح الطريق إلى تلودى أصبح وشيكاً مما كان يعنى أننا سنمود بالمعريات، ولم يبد أى منا أسفه على ذلك.

الآن، وكفصل إضافي في حكاوى الأسفار، سأروى قصة امتحاني في اللغة العربية. كان الموظفون الجدد يتم تعيينهم لفترة تجريبية إلى أن يعين الوقت لنجاحهم في الامتحان التحريري للغة العربية العامية، وكان يعرف ذلك حسب اللوائح بـ "حاجز الكفاءة"، وبعد اجتياز هذا الحاجز فقط يبدأ رسمياً احتساب الخدمة المعاشية، والنظر في أحقية الموظف للمعاشات الدورية وزيادة الراتب. وكانت أول زيادة في الراتب تستحق عند نهاية عامين من الخدمة، ولكن للأسف، مع اقتراب نهاية عامي الثاني في الخدمة رسبت في الامتحان المذكور. لا يمكن إنكار أنه كانت هناك ظروف مخففة، حيث أنني عندما كنت في كيمبريدج لم التحق بدورة عاجلة في اللغة العربية كما كان يفعل الكثيرون، وذلك بسبب تعييني في ذلك الوقت في إحدى الوظائف ضمن خدمة المستعمرات في منطقة أخرى، وعندما وصلت إلى السودان لم أعمل في منطقة يتحدث أهلها اللغة العربية، الأمر الذي كان سيتيح لي فرصة الاتصال بلغة التخاطب اليومية وربما تلقى دروس خصوصية.

هكذا كان الوضع، والأسوأ من ذلك أن النجاح في امتحان اللغة العربية كان شرطاً مسبقاً للحصول على الإذن بالزواج لأي موظف وافد يرغب في ذلك. كما كانت اللوائح الرسمية تنص على ألا يقل عمر الموظف الراغب في الزواج عن سبعة وعشرين عاماً، ولا أذكر الآن ما إذا كان ذلك يعتبر إضافة أو بديلاً لشرط تعلم اللغة، وفي كلا الحالتين، ولكوني لم أتجاوز الخامسة والعشرين من العمر، ولم أحصل كذلك على درجة النجاح المطلوبة في اللغة، فقد بدا لي أن فرص إتمام زواجي خلال عام ١٩٤٨، وهو ما كنت أرغب فيه وخططت له تماماً، قد تضاعلت كثيراً.

لذلك اقترح على البعض أن أرفع التماساً «عرضحال» إلى الحاكم العام. وكانت كتابة العرضحالات إلى المسؤولين حقاً ديموقراطياً يثمنه السودانيون

كثيراً، وبالتالي أصبحت نوعاً من الحرف المحلية، فإن لم تكن تستطيع الكتابة بنفسك، فقد كان يوجد في كل مدينة أو قرية، مهما كان حجمها، كتاباً للمرضعات يقومون بهذا العمل تحت ظلال الأشجار أمام مباني المركز أو نقطة البوليس، وكانوا لقاء مبلغ بسيط يستمعون إلى شكواك، ويسطرون لك خطاباً بلغة قانونية متكلفة لتقوم بتقديمه إلى السلطات المختصة. وفي الغالب كان الخطاب يكتب بقلم الرصاص على ورقة مسطرة تشرح من كرامة مدرسية، ثم يلمص عليه طابع دمغة من فئة القرش، وحسب علمي كانت هذه هي الرسوم المقررة بموجب قانون سابق، ولكنها مهما كانت، فقد كان يعتقد أنها تضيف على الوثيقة مزيداً من الفعالية والأهمية، وتكفل للراسل الحق في تلقي الرد عليها، ويفضل أن يكون ذلك بالاستماع الشخصي. كان مفتشو المراكز يتلقون هذه المرضعات بالحوالات لكرتها، وكنت شخصياً أخصص وقتاً للاطلاع على الكثير منها. إذن لماذا لا أفكر في رفع عرضي عن نفسي؟ لقد فعلت ذلك دون اللجوء إلى عرضي، ولكن لا أذكر أنني قد وضعت عليه طابع الدمغة، مع أن دافني (Daphne) زوجتي كانت مقتنعة بأنني قد فعلت ذلك. ثم قمت بإرسال عرضي إلى سعادة الحاكم العام بالخرطوم، السير/ روبرت هاو- (Sir Robert Howe)، الذي كان قد وصل لتوه إلى السودان، والذي قضى فيما بعد ليلة تحت سقفنا أثناء قيامه بجولة رسمية. وظللت في انتظار النتيجة.

كانت عجيبة المجائب أنني تلقيت رداً إيجابياً يتضمن السماح لي بالزواج، شريطة أن أنجح في امتحان اللغة العربية في المحاولة التالية. ودون استشارة قانونية رأيت أن هذا نظام جيد، مما جعلني أتساءل هل يمكن أن يكون هناك جدل. في حالة أنني تزوجت. بأنهم سيكونون ملزمين تعاقدياً بمنحى درجة النجاح في الامتحان. لذلك أسرعرت بالموودة إلى المملكة المتحدة في إجازتي السنوية، وتزوجت دافني دون تردد.

لقد تذكرت هذه السفسطة بعد عشرين عاماً، وكنت وقتها أقوم بدور مختلف في بروكسل عندما كنت أشارك في المفاوضات السابقة واللاحقة لانضمام المملكة المتحدة إلى المجموعة الاقتصادية الأوروبية. كان عندما يحتدم الخلاف بين الأطراف المتفاوضة ربما في ساعة متأخرة من الليل ويصل إلى طريق مسدود، تقوم اللجنة الاقتصادية بصياغة بعض الكلمات في الموضوع تقول إن ما اختلف عليه الآن يجب أن يتم التوصل إلى اتفاق بشأنه في غضون اثني عشرة شهراً، وبالرغم من أنه يتساوى لدى (أ) و(ب) الاتفاق على ما يجب أن يفعله (ج) ، فقد كانت هذه الصيغة مقبولة دائماً دون أن يحدث ذلك مزيداً من الضجة، مما يؤدي في النهاية إلى استئناف المفاوضات. هكذا العقلية الرسمية تتسم بالمرونة إلى ما لا نهاية .. ولكن تلك قصة أخرى.

والآن، ماذا عن محاولتي الثانية لامتحان اللغة المربية ؟ لقد جاءت النهاية سعيدة أيضاً ، فلم يكن هناك ما يدعو لإثارة موضوع سريان عقد خدمتي مع الحاكم العام أمام المحاكم. وجلست لورقة الامتحان المرسلة من الخرطوم تحت مراقبة بول دانييل (Paul Daniell)، مفتش مركز بامبيو الذي كان هو نفسه مستمرياً جهداً، وأذكر أثناء نصالي مع الورقة معظم الوقت المحدد أن بول كان في هدوء يقرأ لنفسه ورقة الأسئلة، ثم يشرئب فوق كتفي صامتاً ليطلع على إجاباتي، وفجأة وبمعلية تنازع غريبة أصبحت كل الأشياء الغامضة واضحة أمام عيني، وانتهى الأمر على أحسن ما يرام.

عندما عدت ودافتي إلى السودان بعد زواجنا كانت رحلات الطيران المستاجرة قد بدأت لتوها بموجب تعاقد جديد مع شركة إيروورك (Airwork) المحدودة، وكانت الرحلات تبدأ من بلاك بوش (Blackbushe) بالقرب من إيجم (Egham) على طائرات (الفيكينج) سعة الأربعة والعشرين مقعداً. نزلنا في الأمسية السابقة للمسفر في فندق (جريت فوسترز Great Fosters)

استعداداً للمغادرة مبكراً في صباح اليوم التالي. كانت الرحلة إلى وادي حلفا تستغرق حوالي ١٦ ساعة مع توقف لأربع مرات، ففي اليوم الأول توقفت بنا الطائرة للتزود بالوقود في جنوب فرنسا (عادة في نيس) ثم توقفنا في مالطة ليلة واحدة حيث كان فندق (هونييسيا Phoenicia) قد افتتح لتوه. كان اليوم التالي شاقاً بالنسبة لمطائرة غير مكيفة الضغط، فقد توقفت للتزود بالوقود في شمال أفريقيا (عادة بتغازي وأحياناً طبرق) ، ومن هناك لتقطع مسافة طويلة عبر الصحراء الليبية إلى حلفا على الحدود السودانية. غير أن رحلات الفيكينج في السنوات التالية، والتي كانت مرتين في الأسبوع ذهاباً وإياباً من المملكة المتحدة ، أصبحت تمتد إلى الخرطوم قبل أن تمود ، وأحياناً تصل إلى جوبا في أقصى الجنوب. غير أننا في عام ١٩٤٨ ارتضينا قانمين أن نقضى ليلة في فندق سكك حديد السودان بوادي حلفا برفقة طاقم طائرة الأيروبك الذين طاروا بنا من إنجلترا، وذلك قبل أن نبدأ في صباح اليوم التالي رحلة الأربع وعشرين ساعة بالقطار عبر الصحراء النوبية إلى النيل عند أبو حمد، ثم مروراً بمطبرة إلى الخرطوم.

لم نزل تنتظرنا رحلة أطول، إذ كان قد تم نقل في ذلك الوقت من جبال النوبة إلى مريدي بالمديرية الاستوائية. ويمد أن قضينا بضعة أيام في الخرطوم في جمع المخزونات والقيام ببعض الأعمال الأخرى، بدأنا رحلة أخرى بالقطار استغرقت ليلة واحدة حيث مررنا بسنار على النيل الأزرق، ثم إلى كوستي على النيل الأبيض لتواصل من هناك إلى جوبا على ظهر باخرة "البوستة" التي تسافر كل أسبوعين. وهي باخرة نهريّة مجدفة ثلاثية السطح تعمل بحطب الحريق كوقود، وكانت تدفع بجانبها وأمامها زوارق مزدوجة السطح وأطواف محملة بالبضائع، وتستغرق رحلتها حوالي أسبوعين حسب حالة النيل وتوافر حطب الحريق. وبالرغم من أن المسافة لم تكن تزيد على ٥٠٠ ميل إذا سارت الباخرة

فى خط مستقيم، إلا أنه نظراً لتمرجات الخط الملاحى وتقلبات جزر نبات  
البردى المتحركة فقد تمتد المسافة إلى ٧٠٠ ميل عبر منطقة السدود، التى  
تبدو كأن لا نهاية لها، وكانت محاولة التغلب على عقبة المنحنيات المتغيرة تؤدى  
إلى تأخير سير الباخرة، كما كان تجنب تلك العقبات يؤدى أحياناً إلى تجاوز  
محطات التزود بالوقود مما يؤدى إلى المزيد من التأخير، بينما كان الحمالون  
يقومون بنقل أكوام الحطب على رؤوسهم لتزويد الباخرة فى المحطات الأخرى  
البديلة. غير أنه فى السنوات اللاحقة تمّ استبدال الحطب بزيوت الديزل كوقود  
لبواخر النقل النهري، كما طرأ بعض التحسن فى ضبط الوقت ولكن كان ينذر  
استكمال الرحلة فى أقل من عشرة أيام.

لقد قمت بهذه الرحلة ثلاث مرات خلال السنوات القليلة التالية، وأخشى  
أن أنقل شيئاً من ضجر الرحلة إذا ذكرت أنه بصرف النظر عن توقف الباخرة  
فى أربع أو خمس محطات مثل ملكال وبور، إلا أن الإثارة الحقيقية فى الرحلة  
بأكملها كانت تكمن فى تلك اللحظات التى تتم فيها ملاقات الباخرة الأخرى  
أثناء رحلة عودتها نصف الشهرية من الاتجاه المضاد. كذلك كان يمكن قضاء  
بعض الوقت فى إطلاق النار على التماسيح التى تخرج للاستدفاء على  
الشاطئ، ولكن سرعان ما يصبح ذلك مملاً، ولو أن الكثير بالطبع كان يتوقف  
على المسافرين الآخرين، إن وجدوا. كان فى الباخرة ست أو ثمانى قمرات،  
وفى صحبة عروستى الشابة لم يكن لدى أى سبب للشكوى، وبصرف النظر  
عن الأشياء الممتعة الأخرى، فقد أتاحت لنا الرحلة الاستمتاع بشورية الفول  
السودانى، واكتشاف مائة طريقة وطريقة لطبخ الأسماك النيلية التى كانت  
متوافرة فى كل مكان..

كانت الرحلة بالعربات من جوبا إلى مريدى قصيرة نسبياً لا تتجاوز ٢٢٠  
ميلاً، وكان الطريق صالحاً فى كل المواسم ولكن ليس فى كل طقس، وتنطيه

تربة صخرية حمراء، ويمكن في الحالات الاضطرارية قطع هذه المسافة في يوم واحد، وبالرغم من أنه قد أصبح لدينا مؤخراً عربة فوردد حديثة حمولة ثلاثة أرباع طن، إلا أننا كنا نفضل قضاء الليل في استراحة أمادي على الطريق، وهكذا كان إجمالي الرحلة من المملكة المتحدة حوالى ثلاثة أسابيع مع القليل من الخطر على الحياة وأطراف الجسم. كم يحزنتنى أن ذلك لم يعد ممكناً اليوم.

تقع منطقة مريدى إلى الشمال من خط الاستواء بأربع درجات، وهى لذلك تقع ضمن الحزام الإفريقى لذبابة التمسى ومرض النوم، مما يعنى . من بين أشياء أخرى . عدم إمكانية وجود خيول فى المنطقة. كما كانت الماشية تواجه مخاطر كثيرة بالرغم من أننا من خلال العلاج الوقائى قد تمكنا من الاحتفاظ فى مريدى بقطيع صغير من الأبقار لتوفير مورد غير منتظم لألبان الحليب. أما بالنسبة لسبل المواصلات الأخرى بخلاف العربات، فكانت الدراجة تعتبر من المعتاد المفيد لفتح الزراعة، ولذلك لم يمض وقت طويل حتى حصلت على واحدة.

فى تلك الفترة كانت منطقة مريدى بأسرها، التى كان جزء منها يقع تحت إشرافى المباشر، تعيش فى ميممة إعادة توطين كبرى بقيادة تايجر وايلد (Tiger Wyld) تلك شخصية الأسطورية التى عرفتها المديرية الاستوائية، بل وأكثر من ذلك كانت قبيلة الزاندى التى عاش بينها كمفتش مركز لسنوات طويلة، تعتبره من الصالحين. كانت المشكلة التى تولى معالجتها هذا الرجل تتمثل فى أن جزءاً كبيراً من السكان كان قد أثر الاستقرار فى مساحات صغيرة من الأرض لم تلبث أن استنزفت وأصبحت غير صالحة للزراعة لفترة طويلة، بينما كانت هناك أراضٍ خصبة واسعة غير مستغلة تحتاج إلى من يحفزها على الإنتاج.

كان لب الخطة التي وضعها تايجر لإعادة توطين السكان يتمثل في شق طرق مستقيمة ضمن نطاق يمتد إلى ثلاثة أميال داخل الغابة تمّ اختياره نظراً لموقعه وقدرته على التكيف لاحتضان أفضل الأراضي، وبعد ذلك تمّ تخصيص قطع زراعية على جوانب هذه الطرق للأسر والأفراد دون إيجار. وكان يطلق على كل من هذه الطرق اسم "خط قباليا" باللهجة المحلية، وهي تبدأ من الشارع الرئيسي المستديم، وتطل من على جانبيه واجهات المزارع الخاصة بالأفراد لمسافة قدرها ١٥٠ ياردة تقريباً على خط قباليا. وكانت هذه الخطوط تقام بمبادرة عن بعضها البعض بقدر الإمكان بما يسمح بتخفيف المزرعة من الأشجار وزراعتها لمسافة نصف ميل خلف القباليا، مما أدى إلى توافر أراضٍ كافية لإنتاج المحاصيل من خلال دورة زراعية مناسبة. وكانت مهمة المختصين الزراعيين بعد ذلك هي تشجيع الممارسات الزراعية السليمة وتخصيص مساحات صغيرة لزراعة القطن كمصدر دخل نقدي، مع التركيز أيضاً على الإنتاج الغذائي لأجل الحفاظ على قوة الحافز للتغيير، ومقاومة رغبة الأسر للمودة إلى المواقع السهلة قليلة الإنتاج.

كان يمين لكل خط قباليا مراقب يسمى "التريال" وهو أيضاً يملك أرضاً زراعية وتدفع له إعانة مالية بسيطة، وكان استعراض هيئة الحكومة من بين الأنشطة التي يقوم بها موظفو المركز ومصلحة الزراعة خلال قيامهم بأكبر عدد ممكن من الزيارات إلى المزارعين، ولكن نظراً إلى أنه كان يوجد ما يقرب من مائة مزرعة في المنطقة التابعة لي، وتنتشر في مساحة تقرب من مائة ميل مربع، فلم يكن بالإمكان القيام بهذه الزيارات بصورة متكررة. لذلك كانت الدراجة هي وسيلة النقل المثالية لهذا الغرض لأنها تقطع المسافات بسرعة وتمكنني من "الصباح" للمزارعين بالتحية والتشجيع من على البعد دون التوقف عن السير، كما أنها سهلة الحمل عندما تكون هناك عوائق في الطريق مثل

سقوط إحدى الأشجار، أو وجود ترعة ليس عليها كبرى، الأمر الذى كان يحد  
ث كثيراً .

أذكر مناسبة خاصة استخدمت فيها الدراجة بصورة جيدة، قضى عام ١٩٤٩  
كما نتوقع طفلنا الأول . وبما أن الأطفال الأوروبيين أقل من عمر ثلاثة أشهر لم  
يكن يسمح لهم بدخول المديرية الاستوائية، فقد اضطرت دافن للبقاء فى  
بريطانيا، بينما عدت أنا إلى الحياة الانفرادية مؤقتاً فى السودان . وحيث أنه  
لم تكن لدينا وسائل عصرية للاتصال مع العالم الخارجى، بل ولم يكن لدينا  
حتى خط للتغراف مثل ما كان الحال فى تلوى، لذلك لم يزل استخدام  
الرسائل المحمولة داخل العصا المجدوفة رائجاً حيث كانت الخطابات المأجلة  
ترسل بهذه الطريقة بواسطة أحد العدائين . وبما أن البريد كان يأتى كل  
أسبوعين بواسطة باخرة البوستة، ولم يكن متوقفاً وصوله قبل أسبوع آخر ،  
فقد شعرت أننى سأكون أقل قلقاً وتوتراً إذا خرجت فى جولة تفقدية لأشغل  
نفسى بالعمل . فى ذلك اليوم بالذات، كان الجو حاراً بعد الظهيرة، وبينما كنت  
أخذ إلى القهولة المعتادة بعد الغداء فى استراحة (إبنا)، إذا بى أهاجا بثعبان  
يتدلى إلى نصفه فوق رأسى مباشرة من أعلى الفرقة المستوفة بالقش، وكان  
يمسك بين فكيه ضاراً مرعوباً يحاول ابتلاعه، ولكنه لم يفلح فى ذلك حيث  
استطاع الفأر أن يفلت ويسقط على الأرض ويولى هارباً، بينما بقى الثعبان  
جامداً فى مكانه يتميز غيظاً ثم انسحب بعد دقائق عائداً إلى مخبئه فى  
القش، وتركى أتأمل هل تكون هذه الحادثة نذير شؤم، وإذا كانت كذلك  
فالرسالة لم تكن واضحة تماماً .

وفى آخر النهار، توقف سائق لورى كان فى طريقه إلى يامبيو ليذيع أنه  
سمع خبراً بأن المفتش قد أصبح أباً، ولكنه لم يوضح ما إذا كان المولود ذكراً أم  
أنثى . كان محمد . طباحى الوفى . ولكونه مسلماً، أكثر اهتماماً منى بجنس

المولود متمنياً بالطبع أن يكون ولداً ، ولأنه كان مثلى يتشوق لمعرفة تفاصيل الخبر، فقد قفز فوراً على دراجتى متجهاً بها إلى الجهة التى أتى منها اللورى ليعرف المزيد من الأخبار التى حملها فعلياً تلفراف القابة.

عاد محمد بالدراجة بعد ساعتين ليؤكد لى أن جون، طفلنا الأول، قد ولد بالسلامة، واستدعى الأمر بعد ذلك سفرأ بالطائرة وانتظاراً لعدة أسابيع قبل أن أراه. كان نقاؤنا الأول عندما أقلتنا الطائرة الفيكيكج إلى جوبا مصطحباً دافنى زائداً جون محمولاً حسب اللوائح فى 'سلة موسى'، وفى هذه المرة لم تستغرق رحلتهم من الوطن سوى ثلاثة أيام . لقد كانت لحظة سعيدة بحق.

بعد ثلاث سنوات تم نقلى إلى الشمال مرة أخرى مترقياً إلى وظيفة باشمفتش الزراعة بالدويم على الضفة الغربية للنيل الأبيض، والتى تبعد مسافة مائة ميل إلى الجنوب من الخرطوم، لأتولى هناك مسئولية الإشراف على عدد كبير من المشاريع الزراعية الممتدة إلى مسافة ستين أو سبعين ميلاً على وادى النيل الأبيض، وتروى من النهر بالطملمبات، ومن ثم أصبحت تسمى "مشاريع الطلممبات" ويتولى الإشراف على عملية الرى مدير سودانى، وهى موزعة على الأفراد بالإيجار. كان القطن أيضاً هو المحصول النقدى الرئيسى، ويزرع فى مساحات واسعة إلى جانب محاصيل غذائية مختلفة، مما يؤمن للمزارعين عيشاً مريحاً بالمقارنة مع فترة ما قبل الرى بالطملمبات حيث كانت تمارس الزراعة على ضفتى النهر وتروى بمياه الفيضان منذ عهد الفراعنة.

كان من ميزات زراعة القطن فى مساحات كبيرة بمستوى مشاريع الطلممبات أنه يمكن رش المحصول بالمبيدات الحشرية، ويتم التعاقد مع شركات متخصصة من خارج السودان للقيام بهذا العمل باستخدام الرش الأرضى أو الجوى ، ويفضل الأخير لتفادى قطع دورات الرى، والأضرار التى قد تتجم من سير عربات الرش فى الحقول المروية.

الآن، وكمدخل آخر للتسلسل الزمني لأحداث السفر في السودان، لابد من ذكر تلك الرحلة التي قمت بها من الدويم عبر الجزيرة إلى ود مدني على النيل الأزرق على متن إحدى طائرات الرش ذات المقعد الواحد عادة، حيث جلست في المكان المخصص لخزانات المبيدات الكيميائية. كانت صلاحية تلك الطائرات للملاحة الجوية مثار تساؤل عند النظر إليها عن قرب، وأذكر أنني وجدت صموية في الإبقاء على بابي مغلقة، ولكنهم أكدوا لي أن الهبوط الاضطراري سهل جداً ولن تكون هناك مشكلة إذا سقطت إلى الخارج. كذلك كنا نقضي أغلب الوقت يومياً في التجول بالسهارة (أصبحت الآن فورد ٨ بايلوت) إلى مسافات بعيدة لزيارة مشاريع الطلمبات، والتحدث إلى المزارعين، ومتابعة نمو المحاصيل. لقد درسنا عندما كنا متدربين زراعيين في بريطانيا أن أفضل سماد للأرض هو قديم المزارع، وذلك لتأكيد أهمية الإكثار من المشي على الأرض الزراعية بقدر الإمكان، ولكن لم يذكر لنا شيء عن قيادة العربات طلوفاً ونزولاً في حقول القطن والذرة والسمسم، وكنت أتساءل دائماً هل هي مفيدة للأرض بالمثل.

كانت الدويم هي المحطة الوحيدة التي عشنا فيها كجالية مع وافدين آخرين بلغوا في مجموعهم حوالي ست أسر، أما المحطات الأخرى فكان يطلق عليها اسم 'محطات الرجل الواحد'. كان هذا الوضع يعني بالنسبة إلى دافن وجود صديقة ترافقها في النزعة على شاطئ النهر في العصريات وهما يدفعان عربتي طفليهما (كانت ابنتنا لوسي قد ولدت آنذاك). أما بالنسبة لي فيعني وجود زميل يشاركني في العمل والترفيه، وكان من بين وسائل الترفيه التي نستمتع بها في الدويم حوض السباحة الصغير الذي كان يملأ انسيابياً من النهر، ثم يتم تصريفه بعد أسبوع بإعادة الماء إلى النهر باستخدام مضخة صغيرة، متقلّة تدار بالبتروول. كانت حرارة الشمس شديدة للدرجة أنه إذا ترك الماء في

حوض السباحة لأكثر من أسبوع يصبح ساخناً جداً بحيث تصعب السباحة فيه .  
من ناحية أخرى كانت الشمس عاملاً مهيماً على حياتنا، ولعل من أحداث تلك  
السنوات التي لا تسمى تلك الفرصة النادرة التي شاهدنا فيها كسوفاً كلياً  
للشمس. كانت قرية ود نمر التي تبعد ثلاثين ميلاً شمال الدويم، تقع ضمن  
منطقة الكسوف الكلي، وأذكر أننا في صباح ذلك اليوم خرجنا مبكرين بالسيارة  
في نزهة جميلة اختتمناها بتناول طعام الإفطار، ولن أنس تلك الدقيقتين أو  
الثلاث التي تحول فيها الكسوف الجزئي فجأة إلى ظلام دامس.

كان أحب نشاط لي في وقت الفراغ هو رياضة التجديف على النهر  
مستخدماً مركباً شراعياً طوله أربعة عشر قدماً كنا قد نفضنا عنه الفبار  
وتمكنا من إعادته إلى الماء، وهو قد صنع من ألواح الحديد بتصميم كلاسيكي  
(أعتقد في عطفة) لجبل من الموظفين قد سبقنا إلى الدويم. كان عرض النيل  
الأبيض في هذا المكان حوالى ثلاثة أميال، ويستمر كذلك لبضعة أشهر في  
فصل الشتاء متناظراً في محاولة تراجعه من خزان جبل أولياء الذي يبعد إلى  
مسافة خمسة وسبعين ميلاً شمالاً ، وقد شيد بفرض تخزين المياه التي يتم  
إطلاقها ببطء ابتداء من شهر أبريل فصاعداً لمقابلة الحاجة إلى المياه في  
المناطق السفلى للنهر. لذلك كانت رياضة التجديف فيه ممتعة ، خاصة إذا  
كانت الرياح الشمالية مواتية حيث يرتفع معها الموج كما كان يحدث دائماً في  
عصريات فصل الشتاء. كنا نقوم بهذه النزهة بانتظام عبر النهر إلى الضفة  
الغربية حيث ينتهى الطريق البرى من الخرطوم لتقابل هناك أى أصدقاء  
يكونون قد حجروا في عبارة (بنطون) الساعة الخامسة إلى الدويم وهى  
الرحلة الأخيرة في اليوم، خاصة من يفضل منهم المخاطرة بعبور النهر في  
زورق صغير، فقد يكون ذلك أكثر متعة بدلاً من العبور بالبنتون مع العربات  
المتراصة، والعدد الكبير من الجمال والحمير والماعز والضأن مع رعاتها

الحسّانيين. قبل أن تقادر الدويم أصبح جون كبيراً بحيث يستطيع الخروج معى إلى تلك النزهة النهرية فى بعض المناسبات، ولكن بعد أن يربط جيداً مع القارب أو يكون ملتصقاً بى حتى لا أتركه لوحده فيما لو سقطت من فوق القارب، الأمر الذى لم يحدث أبداً. غير أنه من الأمور العجيبة أننا لم نصادف فى رحلاتنا تلك أية تماسيح مع أنها كانت توجد بكثرة خاصة عند انخفاض مستوى النيل، ترى هل كانت تهاجر فى فصل الشتاء، أم أنها ببساطة كانت تخف مع ضخامة كميات المياه المخزنة.

عندما يبدأ تفريغ خزان جبل أولياء فى أبريل ، يهبط مستوى النهر فى الدويم بصورة واضحة يومياً، ثم يعود إلى عرضه العادى ويتخذ شكل النهر الطبيعى. كان الطريق البرى المتجه شمالاً إلى الخرطوم على ضفة النيل الشرقية (لم يكن على الضفة الغربية طريق سالك) يعبر مساحات واسعة من الرمال تتخللها أحياناً خيران عميقة تتحدر منها السيول أثناء هطول الأمطار فى أشهر الصيف مما يؤدى إلى تعطيل المواصلات البرية لعدة أيام ، لذلك يصبح النهر طريقاً مائياً تعبّره مختلف أنواع المراكب والقوارب والبواخر، وكان من بينها باخرة نهرية صغيرة تحمل اسم "ليدى بيكر" (Lady Baker) وتديرها سكك حديد السودان لخدمة موظفى الحكومة، وكانت مزودة بأثاث محدود ومعدات خفيفة لإعداد الطعام بالخدمة الذاتية، ومساحتها تكفى لأسرة صغيرة مثل أسرتى مع خدم المنزل. لذلك كانت الرحلة على ظهر الباخرة ليدى بيكر بالنسبة لنا تشبه الميش فى استراحة متحركة كأننا نقوم بجولة عائمة. وأذكر فى مناسبة واحدة على الأقل فى شهر يونيو، حيث يكون الجو حاراً رطباً فى الدويم بصورة لا تطاق، أننا حجّزنا الباخرة ليدى بيكر لتقلنا إلى الخرطوم فى طريقنا لقضاء الإجازة فى الوطن، وكذلك فى مناسبة أخرى أثناء قيامى بزيارة قصيرة إلى الرئاسة بالخرطوم، حيث ترسو ليدى بيكر قبالة غابة

السنط جنوب الخرطوم لنستخدمها كمسكن خارج المدينة لبضعة أيام. وعندما أعود بالذاكرة إلى الوراء لأستعرض متعة الأسفار ورفقتها من وإلى وداخل السودان خلال عشر سنوات، أجد أن هذه تشكل ذروتها ولو أنها لم تكن تتكرر كثيراً.

ثم جاء موعد رحلتنا الأخيرة في أوائل عام ١٩٥٥ عندما اقترب موعد استقلال السودان، وحين وصلت تلك البرقية المحتومة معلنة أنه قد تم الحجز لنا للعودة إلى بلادنا على ظهر السفينة (ستراثمور Strathmore) التابعة لشركة (بى أند أو) والتي تعمل على خط أستراليا، وكانت وقتها هي زيارة خاصة إلى بورتسودان على ساحل البحر الأحمر لتحمل مجموعة صغيرة منا نحن الموظفين المتقاعدين.

ركبنا القطار من محطة الخرطوم وكان الجو عاصفاً «بالهبوب»، تلك الريح الملهثة بالغبار الذي يعمى العيون التي يمكن أن تهب دون سابق إنذار، ولن يستطيع تقدير ما تحمله من أوساخ إلا أولئك الذين جربوها من قبل. ونسبة لمحدودية إمكانات الحمامات بالقطار، ولأننا قد بقينا في الانتظار لعدد من الساعات الإضافية على جانب الرصيف في بورتسودان نظراً إلى أن السفينة قد تأخرت، فقد بقينا بقذارتنا ليوم ونصف يوم لحين صمودنا إلى السفينة في ساعة متأخرة من الليل، لنستمتع هناك بترف الحمامات. وفي صبيحة اليوم التالي ذعر حلاق السفينة بما رأى في أحواض غسيل الأيدي حيث كانت نساؤنا يصطفن هناك مثل الممتلة (ميتزى جانيور) لفصيل ما علق على شعورهن من غبار الخرطوم .. لكن لا شيء أبداً يمكن أن يفصل ما علق في قلوبنا من حب للسودان وأهل السودان.

كان هذا جزءاً من حياتي كخبير زراعي في مناطق أفريقيا الحارة ، وما رويته هنا هو مجرد ومضة استمرت لمدة تسع سنوات حسوماً، ولو أنني

فيما بعد عندما قمت بتطبيق معادلة (الوقت والثالث) على الفترة التي قضيتها في مريدي جنوب خط العرض أربعة، وجدت أن مدة خدمتي تصل إلى عشر سنوات، ومع عبور الخط العالى لتغيير تاريخ اليوم لا أدري هل أعتبر ذلك إطالة أم تقصيراً لعمري، ولكن من المؤكد أنه كان يبدو وقتاً طويلاً أثناء حدوثه. والآن تبدو لي الأشياء كأنها حادث عارض قصير في جزء من عمري قد مضى. من المحزن أن ذلك البلد الذي عرفناه لم يمد بالكاد موجوداً، والمجيب أنه منذ ذلك اليوم من شهر فبراير عام ١٩٥٥ ونحن على ظهر السفينة "سترايمور" في رحلة عودتنا النهائية إلى أرض الوطن، قادتني الأحداث في دروب أخرى وما عدت أكتب عيشي من العمل كزراعي. لربما لم أكن أبداً زراعياً جيداً.

روين كاتفورد (Robin Catford)



3

---

حكاية

الطفل

---

*Sudan Canterbury Tales*

كان والدى، جاك هيويسون (Jack Hewison) موظفاً بالخدمة المدنية لدى مصلحة الزراعة بالسودان خلال الفترة من أوائل الثلاثينات حتى عام ١٩٥٢، وكان مقر عمله فى الخرطوم، ولكنه كان يسافر كثيراً إلى مختلف أنحاء البلاد. ولى شقيقان، ريتشارد وديفيد، ولدا أثناء الحرب (عام ١٩٤٢ و١٩٤٤) فى مدينة نيروبي بكينيا، حيث لم يكن يسمح للزوجات بالعودة إلى إنجلترا فى الإجازات. وعندما اقترب موعد ولادتي كانت الحرب قد انتهت، وتسنى للوالدة والزوجات البريطانيات الأخريات العودة إلى إنجلترا لبضعة أشهر فى الصيف حيث يكون الطقس فى السودان حاراً جداً وعاصفاً بالهبوب ٢ فى معظم الأيام. وفى عام ١٩٤٦ عادت أمى إلى الوطن مبكرة قبل الوقت المتتاد بقليل لتنتظر هناك موعد ولادتي، حيث تمت ولادتي فى أحد دور الرضاعة باكسفورد فى يوم ١٦ مارس ١٩٤٦.

كنا فى أغلب السنوات نمود إلى الخرطوم فى نهاية الصيف فيفوتنا الشتاء الإنجليزى، ولكن فى إحدى السنوات لم نمد إلا فى نوفمبر، ولن أنسى ذلك المنظر المشهر عندما رأيت الجليد لأول مرة. كنا نساغر جواً إلى الخرطوم من بلاكبوش (Blackbushe) فى هامبشاير (Hampshire) التى كانت فى ذلك الوقت مطاراً عالمياً مزدحماً. ولم يكن السفر بالجو فى تلك الأيام مريحاً وسريعاً كما هو الآن، حيث كانت رحلة الثلاثة ألف ميل بين بلاكبوش والخرطوم تستغرق يومين. كانت أولى محطات التوقف مدينة نيس (Nice)

على الريفيرا الفرنسية، وأذكر أنني رأيت هناك أشجار النخيل وحوصاً  
للسلاحف النهرية، ومن هناك عبرت بنا الطائرة البحر الأبيض المتوسط إلى  
مالطا لتقضى الليل في فندق فينيشيا (Phoenicia) الفاخر بمدينة فاليتا  
(Valetta).

بدأ اليوم الثانى للرحلة مبكراً جداً، وذلك كما اعتقد من أجل تضاى  
المطبات الهوائية فوق الصحراء الليبية فى وقت الظهيرة، أو ربما يكون السبب  
ضمنان الهبوط فى الخرطوم أثناء ضوء النهار. لقد اقلعنا فى تمام الرابعة  
والنصف صباحاً، وهبطنا فى المديم بالقرب من طبرق فى ليبيا، وأثناء عبورنا  
الصحراء كنا نتصعب عرقاً ويرتطم بعضنا ببعض من جراء علو وهبوط  
الطائرة المفاجئ مما اضطرنا لاستعمال أكياس النوى التى أصبحت تسمى الآن  
تلطيفاً "أكياس الفضلات المبطنة".

كانت محطة التوقف التالية هى مدينة وادى حلفا التى تقع على النيل على  
بعد ٤٥٠ ميلاً شمال الخرطوم. وتحكى والدتى قصة أخى الأكبر ريتشارد الذى  
قال بفخر عندما اقتربنا من وادى حلفا: "لم أشعر بالفتيان، أليس كذلك؟"  
ولكن بعد مضى عشر دقائق عندما نزلنا إلى طبقات الجو السفلى، واشتدت  
المطبات لم يعد يتبجح بذلك مرة أخرى. ثم بدأنا الجزء الأخير من الرحلة  
وكان عبارة عن ساعتين من المرق والفتيان ونحن نطير فوق رمال الصحراء  
إلى أن وصلنا الخرطوم بعد الظهر.

وبالرغم من أنني كنت أسافر كثيراً كما افعل الآن، إلا أنني لا أستطيع أن  
اتصور ما كانت تلاقيه أمى من جحيم مع أطفال ثلاثة يمانون من شدة الحرارة  
والفتيان والملل (فرق العمر بين أكبرهم وأصغرهم لا يتجاوز الثلاث سنوات  
كثيراً)، وكان عليها أن تقوم بتسليةهم وإطعامهم وتنظيفهم وإلباسهم  
واسترضائهم ورعايتهم طوال الرحلة من أولها إلى آخرها، فى وقت لم تكن فيه

مريبات على الطائرات، وكان من الصعب الحصول على مقاعد إضافية ناهيك عن محدودية الطعام.

عدنا إلى الخرطوم بعد مولدى بأشهر، وكان قد حجز لنا مقعدان على الطائرة نحن الأربعة حيث كان عمر كل منا، أنا وديفيد، أقل من سنتين. وبينما كانت الوالدة تحاول جاهدة أن تجلسنا جميعاً فى ذلك الحيز المحدود، أشفق عليها قبطان الطائرة وعرض عليها أن يأخذنى إلى غرفة القيادة حيث قضيت هناك معظم وقت الرحلة فى صندوق تحت طاولة ملاح الطائرة. ولأننى كنت ولا زلت أعلم خصوصية تلك الغرفة وكيف تكون محروسة بحرص وحذر، فإننى أدرك الآن كم كانت تلك اللقطة كريمة منه.

كنا فى العادة نساfer بطائرة فيكرز فيكينج (Vickers Viking) وهى طائرة معدلة من قاذفة قتال من نوع ويلينجتون (Wellington) بصورة غير متقنة، وتسع ثلاثين راكباً يجلسون فى صفين كل مقعدين على جانب من المشى ومقعد واحد على الجانب الآخر، وهى تابعة لشركة إيرويرك (Airwork) التى كانت متخصصة فى تأجير الطائرات للحكومة ونقل الجنود، وأذكر كم كنت أشعر بالارتياح عندما عدنا من الخرطوم آخر مرة، وتمنيت ألا أسافر بالطائرة مرة أخرى، وما كنت أعلم أنه سيقدر لى فى المستقبل أن أصبح طياراً لدى الخطوط الجوية البريطانية.

بالرغم من أننا كنا، كما أذكر، نساكن معظم الوقت فى العاصمة الخرطوم، إلا أننى لا زلت أحتزن فى ذاكرتى ولو بصورة غير واضحة شكل منزلنا فى مدينة الأبيض التى تبعد مسافة ٢٥٠ ميلاً جنوب غرب الخرطوم، حيث عشنا هناك لبعض الوقت، وكان عمري آنذاك أربعة أو خمسة سنوات، وكنت مولعاً هناك ببعض شجيرات حديقة المنزل التى كانت تطوى أوراقها عند ملامستها باليد.

كما أذكر منزلنا الأخير الذى كان عبارة عن فيلا جميلة فى ضواحي الخرطوم خاصة غرفة الحمام، ولا زلت أتخيل منظر والدى وهو فى الحمام، وكذلك لا أنسى تلك الثلاجة التى تعمل بالغاز، وكانت أرجلها تقف على علب الجاز الصغيرة متماً لدخول النمل فيها، ولم أكن أفهم كيف تستطيع شملة من اللهب أن تجعل الأشياء باردة! وكان الماء يوضع فيها بعد حفظه فى زجاجات الجن المريضة الفارغة، إلى أن جاء ذلك اليوم الذى رشف فيه ديفيد جرعة كبيرة من الجن عن طريق الخطأ.

كان المنزل محاطاً بفرنجة كبيرة، وله سطوح مسورة بجدار كنا ننتقل إليها بأسرتنا فى الليالى التى تشتد فيها الحرارة حيث يكون الجو فى منتهى الصفاء، والنجوم تبدو لامعة متألثة فى صورة بديمة، مع أصوات صراخير الليل المتواصلة دون انقطاع، وقد اشتكى ديفيد مرة أنه لم يستطع أن ينام لأن النجوم كانت تحدث ضوضاء عالية!

ولا زلت أتخيل الوالد والوالدة وهما يستضيفان أصدقاءهما فى الفرندا، بينما كنا نحن الأولاد نعاول أن ننام فى السطوح وأغنيات جليبرت وسولفان (Gilbert & Sullivan) تهبث من جهاز الحاكى (الفونوغراف) الذى لم تكن به أداة للتحكم فى الصوت ما عدا بايين موجودين فوق فتحة المايكروفون، وغالباً ما كنا ننتظر طويلاً ريثما تصل إير الاسطوانات من إنجلترا، أما الكبار فكانوا يلعبون البريدج ويحتمسون الجن بلونه الوردى.

كانت للمنزل حديقة كبيرة مثلثة الشكل يتوسطها ميدان تكسو جنباته مختلف أنواع الأشجار، ويجانبه ملعب التنس. وكنا نحن الأولاد نتفرج على أبائنا وأصدقائهم وهم يلعبون التنس وأحياناً تقدم لهم المرطبات. كنت وقتها صغيراً لا أستطيع أن ألعب التنس، ولكنى تعلمت ركوب الدراجة التى كنت أتجول بها فى ملعب التنس بينما كان والدى يتبعنى من الخلف وهو ممسك

بسرّج الدراجة. وكانت خلف هذا الملعب مساحة كبيرة مغطاة بالشجيرات، ويوجد بها عدد كبير من الأوكار المثيرة، كما كان هناك قسم للخدامين خلف المنزل بما في ذلك المطبخ الذي كان يربط في هتائه الديك الرومى لبضعة أسابيع ريثما يتم تسمينه قبل حلول عيد الكريسماس.

كان الشارع خلف سكن الخدامين يضاء بمصابيح متفرقة، وعند الأصيل يأتي أحد العمال حاملا عصاة طويلة مثبت في أعلاها كلابة يدبر بها مفتاح المصباح. وفي هذا الشارع كانت تتم خدمة مرحاض المنزل حيث يتم في الصباح الباكر استبدال جردل المرحاض بآخر من خلال باب صغير يوجد خلف المرحاض. وحيث أنه لم تكن هناك أوراق تواليت آنذاك، فكان أحد الخدم يقوم ببساطة بتقطيع ورق الجرائد إلى قصاصات مربعة صغيرة تعلق داخل غرفة المرحاض، وكان يوضع إلى جانب المقعد صندوق ملئ بالرمل مع مجرفة صغيرة ليقوم الشخص بتغطية محتويات الجردل بقليل من الرمل بعد قضاء الحاجة.

كان يتولى رعاية حديقة المنزل الجنابى محمد، وأكثر ما كان يثير استغرابى كطفل صغير قدمه اليسرى التي لم يكن بها سوى ثلاثة أصابع فقط، حيث أنه قد فقد الأخريات إثر حادث بالطورية (المول). وكنت أقضى لحظات سميذة في مساعدته أثناء رى المزروعات بما في ذلك حفر جداول الماء وفتحها وسدها. ومن الأنشطة الأخرى التي كانت محببة إلى نفسى في الحديقة عمل الطوب الأخضر بواسطة طاقم قوالب كان أهدها لنا أحد الأصدقاء، حيث كنا نصنع نفس الطوب الذى يستخدم في بناء بيوت الطين.

كنت أذهب إلى روضة أطفال معز فليفيل (Flavell)، بينما كان شقيقاى الأكبران يذهبان إلى مدرسة معز بيتى باونل (Beatty-Pownall). وفيما بعد انتقل شقيقى الأكبر ريتشارد إلى مدرسة اليونيتى الثانوية (Unity High)

(School)، ولكن فى سنتنا الأخيرة بالخرطوم تخلف فى إنجلترا حيث التحق كطالب داخلى بمدرسة وايت تشيرش هاوس (Whitchurch House) بالقرب من مدينة ريدنج (Reading).

كنا فى معظم الأحيان نقضى فترة ما بعد الظهيرة فى حوض السباحة حيث كان اليوم الدراسى يبدأ وينتهى مبكراً. كان الحوض محاطاً بجدار تربطه أعمدة، وكان من تتوفر لديهم الشجاعة من الكبار يستخدمون هذه الأعمدة للقفز إلى الماء من عل، وكنت أعجب بهم كثيراً. ونظراً إلى أننا كنا نقضى وقتاً طويلاً حول حوض السباحة فقد تعلمت السباحة فى وقت مبكر جداً لربما قبل أن أتعلم المشى.

لا زالت تعلق بذهنى ذكريات حفلين لميد ميلادى، وأعتقد أنه فى عيد ميلادى الرابع وجدونى متكئاً على حافة سور السطوح أحاول التقاط بعض العنب من الكرمة التى كانت تنمو فوق الجدار الأسفل، وكان صديقى تومى كارمايكل (Tommy Carmichael)، المعروف دائماً بإثارة المشاكل، يحشى على التقاط المزيد من العنب، ولا أدرى لم كانت أمى منزعة جداً لذلك.

أما عيد الميلاد الآخر فقد استمتنا فيه بزيارة جبل أولياء التى يوجد بها خزان ضخم، ومع أننى لا أذكر الآن شيئاً عن الخزان، إلا أن ما أثار اهتمامى كثيراً ذلك الكهف الذى كانت تتناثر أمام مدخله كمية كبيرة من العظام، ترى هل كان عريناً لأحد الضباع؟ كنا كأطفال نتعدى بعضنا البعض فى من يفامر بالولوج بضعة أقدام فى ظلمة ذلك الكهف. كما كانت حديقة الحيوانات من الأماكن الأخرى المحببة التى كنا نخرج إليها من وقت لآخر، وأذكر فيها فرس النهر الذى كنا نسميه "موسى" والذى كنا نتاوله أرغفة الخبز فيلتهمها بأكملها، وكذلك قطع الزراف الصغير الذى وجد داخل حظيرته فى يوم من الأيام إصبع بشرى ملقى على الأرض، والأعجب من ذلك أنه لم يبلغ أبداً عن إصبع مفقود!

حدث كسوف كلى للشمس فى عام ١٩٥٢م كما أظن. وأذكر أننا قضينا صباح ذلك اليوم خارج فصول الدراسة، واستخدمنا دخان الشمع لنظلل به قطع الزجاج التى كنا نتظر من خلالها إلى الكسوف، حيث أظلمت الأرض كلية، وتوقفت الطيور عن التغريد، بل وبدأنا نسمع أصوات الصراصير كما يحدث عند الغروب فى كل ليلة.

وأذكر أيضاً تمثال الجنرال غردون ممتطياً الجمل، والذي كان منتصباً بالقرب من قصر الحاكم العام، وكان الجنرال قد قتله أنصار المهدي فى القصر عام ١٨٨٥م. وينتصب التمثال الآن فى فناء مدرسة غردون للبنين بمدينة لايت ووتر (Lightwater)، التى كنت قد أخذت إليها والدى فى عام ١٩٨٤م قبل وفاته بعام أو عامين لرؤية التمثال، وكم يحزننى أنه لفرط شيخوخته لم يكن التمثال يعنى بالنسبة له شيئاً.

روين هيوسون (Rob Hewison)





وصلت إلى بورتسودان في سبتمبر عام ١٩٣٢، وكالعادة كانت بدايتي غير موفقة، فقد أصبت في حوض السباحة بالسفينة بالتهاب في أذني سبب لي المأ حاداً. وبينما كان الدكتور إيليز (Ellis) يقودني إلى المستشفى، التقانا في الطريق بيتر أكلاند Peter Acland مساعد مفتش المركز الذي جاء لاستقبالي وزميل آخر كموظفين جديدين تحت التجربة. وبعد أن رحب بنا سأل: ماذا بكم؟ فأجابه الدكتور إيليز قائلاً: قد يكون التهاباً في عظمة الأذن. وما أن سمع أكلاند ذلك حتى صاح قائلاً: لم يسلم منه أحد في هذه البلاد، ألهم كذلك؟ وفي صباح اليوم التالي أرسلت إلى الخرطوم، وكلف زميلي الآخر ووب لندساي (Wob Lindsay) بأن يصب زيتاً ساخناً في أذني كل أربع ساعات. وأذكر ضمن محاولات لإثارة اهتمامي - بورك فيه - أن قال لي: انهض قليلاً، وانظر ماذا هناك خارج النافذة؟ أعتقد أن هذا ما يسمونه الكلب الآسيوي Pi dog.

عند وصولنا الخرطوم، نقلت إلى المستشفى حيث أدخلوني الجناح الجنوبي في غرفة بسرير واحد. وكان يرقد في الغرفة المجاورة رجل يسمى فورايكرز (Fouracres) يتماثل للشفاء من نوبة حمى حيث وصل إلى مرحلة ترك الفراش والجلوس على الكرسي. كانت الممرضة المسؤولة عن الجناح الجنوبي من القادماات الجدد إلى البلاد، ولذلك كانت تخطئ بين الأرقام العربية، مما نجم عنه أن اشتين من مساعدات التمريض هجمتا على (فورايكرز) المسكين لتربطاً رأسه بكمادة ساخنة!

لقد استعدت صحتي بسرعة، ولكنى أصبت بالطرش مع بداية استلامى للعمل، والشئ الوحيد الذى أتذكره عن تلك الفترة هو أننى بينما كنت جالساً مع (ووب ليندساي) داخل عربة نستمع إلى محاضرة من كبير الضباط البيطريين حول المميزات الجسدية لأحد الجمال، إذا بالجمال موضوع المحاضرة يقرر فجأة أنه قد جلس بما فيه الكفاية ليتجه فجأة نحو (ليندساي) يريد أن يبرك عليه، ولكن لحسن الحظ استطاع (ليندساي) الفرار بجلده دون أن يلحقه أذى، وقد أصبح فيما بعد هذه الحادثة رئيساً للقضاء!

اتضح لى أننى كنت فائضاً عن العدد المطلوب، ولم يعرفوا ماذا يفعلون بى فأبقونى فى الخرطوم. وأخيراً أرسلونى إلى مكتب نائب مدير الخرطوم لأقف على كيفية سير العمل، وفيما عدا حقيقة أن المرء لا يستطيع أن يرى ما يدور داخل مكتب الحاكم، إلا أن مدير الخرطوم آنذاك كان شخصاً يسمى ستفى آرمسترونج (Stuffy Armstrong)، وكان يطلق عليه لقب (المتجهم "Stuffy") وقد شارك فى الحرب العالمية الأولى فى مرحلة مبكرة، ونظراً لقدراته التنظيمية فقد تمت ترقيته إلى رتبة "جنرال" قبل نهاية الحرب. وكانت مشكلته تكمن فى أنه يختلف عنا كثيراً نحن الأفراد العاديين للدرجة التى لم نألف معها معاشته. أذكر مرة عندما كان مديراً للخرطوم أن استعدت نظاماً ضوئياً يتعامل به مع الزائرين، فكان الضوء الأخضر يمنى أنه يرحب بالجميع، والأصفر أنه مشغول ولكنه يرحب بقدامى الأصدقاء أو من لديهم عمل عاجل، أما الأحمر فيمنى بالطبع أن "ابتعد". غير أنه لسوء الحظ أن الموظفين لديه لم يستطيعوا استيعاب هذا النظام أبداً، فكانوا إما لا يدخلون عليه أحداً بالمرّة بينما يكون هو مستعداً لاستقبال الزائرين، أو يمثلون مكتبه بالزائرين بينما لا يكون هو راغباً فى زيارتهم. كان عندما يريد أن ينتقد أحداً بقسوة يصفه بأن عقله كمقل ضابط الصف، لذلك أخشى بعد مغادرتى الخرطوم فيما بعد أن يكون قد صنفنى فى رتبة وكيل عريف!

لقد أنقذنى برامبل بيه (Bramble Bey) من هذا الفراغ المحيط الذى عايشته ثلاثة أشهر، حيث تقلنى عبر النهر إلى أم درمان ليعلمنى هناك كيف يجب أن يحكم السودان. كان (برامبل بيه) فى السابق يعمل فى البحرية الملكية التى وصل فيها إلى رتبة "رائد"، ولكنه قضى أغلب سنوات حياته العملية بعيداً عن الروتين العادى. وكما حدث للجنرال غردون فقد لمح اسمه عندما كان يعمل فى الصين، ولكن لا أدري ماذا كان يعمل هناك، لربما كان شيئاً يتعلق بالمخابرات كما علمت. كذلك لا أدري كيف جاء إلى السودان، ولكنى أعتقد أنه جاء عن طريق الجيش المصرى حيث بدأ خدمته فى السودان بين قبيلة النوير. وعندما عرفته كان يعتبر ملكاً غير متوج لمدينة أم درمان؛ تلك المدينة الوطنية العظيمة المترامية الأطراف التى ترقد عبر النيل الأبيض من جهة الخرطوم. لقد حكم برامبل بيه المدينة بيد من حديد، ولأجل ذلك كان سكانها يحبونه ويقدرونه لأنهم كانوا يعلمون أنه بالرغم من ذلك القناع المتشدد الذى كان يبدو قاسياً أحياناً، إلا أنه وزوجته قد نذرا نفسيهما دون حدود لتحسين أحوال الرعية. كان المستر برامبل يهتم حقيقة بالحرف المحلية، ونجح فعلاً فى تطوير أعمال الفضة والجلود إلى مستوى ما كان يمكن تحقيقه إذا ترك الأمر للجهد المحلى.

كانت المدينة تنقسم إلى أربعة أحياء بالإضافة إلى السوق، وفى تمام السادسة من صباح كل يوم كانت تحتشد أمام منزل برامبل مجموعة من رجال الشرطة بزيمهم الأبيض الناصع، وبعض الموظفين السودانيين الذين يمتطون الخيول كالمأمور وضابط الشرطة، بالإضافة إلى عدد من شيوخ الحارات يركبون على الحمير. وعندما تعلن الساعة السادسة تماماً يخرج برامبل ممتطياً سهوة جواده ومرتدياً خوذة (ولزلى) التى وُضع عليها شعار المديرية (رأس فيل من الفضة على أرضية حمراء لامعة)، وجاكتة من الجبردين مع

أشرطة الرتبة على الكمين، والحذاء الميداني والمهماز. كان هذا هو الزى الرسمي المخصص لجولة المدينة، وكان يفترض أن أكون دائماً مرتدياً نفس هذا الزى ومنتظراً خروج برامبل مع الآخرين، ولكن في يوم من الأيام وصلت متأخراً، وبينما كنت أحاول شد لجام الحصان بقوة لأوقفه، بادرنى برامبل قائلاً: "أنت يا خنزير الجحيم، لديك زرار فاتح"، ومنذ تلك اللحظة لم أصل متأخراً.

كنا في العادة نتقعد حياً واحداً كل صباح، أما السوق فكان مخصصاً له يوم على حده. كان الفرض من هذه الجولات هو التأكد من نظافة المدينة، وعدم وجود قمامة أو بضائع مفروشة على الطرقات، وكذلك التقيد التام بلوائح المباني. كما كان المواطنون يفتشون هذه الفرصة لتقديم عرائضهم إلى المسؤولين، وكان يتم البت فيها في نفس اللحظة، أو يوجه مقدم العريضة للحضور إلى المركز فيما بعد. كان الله في عون شيخ الحى الذى يكون حبه غير منظم، أو التاجر الذى يمرض بضاعته على قارعة الطريق حيث يتعرضان إلى بهدلة شديدة. أما تفتيش السوق فكان له يوم خاص كما ذكرت، وكان الهدف الرئيسى من ذلك هو القبض على الجزائريين المخالفين، فقد كانت الأوامر تقضى بأن يقوم كل جزار بوضع اللحم على الترييزة (الطاولة) وتغطيته بفوطه بيضاء حتى لا يكون مكشوشاً للتلوث بالذباب. لم يكن الجزائريون بالطبع يفعلون ذلك، وبالطبع كان برامبل مصراً أن يفعلوا ذلك، فكان أحياناً أشاء جولتنا في إحدى ضواحي المدينة يعلن فجأة "إننا سنذهب إلى السوق الآن"، فتسرع بنا الخيول إلى هناك لتدخل السوق من اتجاه غير متوقع، وكان دائماً ما يقع في قبضتنا بعض الجزائريين المخالفين.

أشاء جولتنا بالقرب من السوق في أحد الأيام، مررنا بمجموعة من النسوة اللائى بمجرد مشاهدتهن لنا أطلقن زغاريد متواصلة، وتكرر ذلك لثلاثة

أسابيع متتالية؛ وفي المرة الرابعة أوقف برامبل الحصان ونادى: "يا عوض الكريم"، فأسرع إليه الباشاويش عوض الكريم بزيه الرسمي الكامل، وسيفه يحدث صوتاً على خاضرة الفرس، فقال برامبل: "ألق القبض على هؤلاء النسوة وخذهن إلى المركز". بدا لي كموظف جديد في الخدمة أن هذا التصرف جائر وليس فيه مراعاة لمشاعر الآخرين. وبعد الإفطار، على أي حال، كنت في مكتب برامبل عندما أحضرت النسوة أمامه، فسالهن لماذا أحدثن تلك الضجة؟ فجاءت الإجابة: "يا سماعة البهية، انت عارف عادات البلد، نحن زغرقتا عشان نرحب ببك ونوريك نحن مبسوطين من حكمكم العادل الكريم"، فقال لهن: "إذا لم تقلن الحقيقة، سأرمى بكن في السجن إلى أن تعترفن". قلت ذلك ضحكات مرتبكة، ثم قالت إحداهن: "في الحقيقة معاذلك الجزارين أعطوا كل واحدة مننا خمسة قروش، وقالوا لنا أول ما نشوفكم جايين نزرغت عشان هم يمرفو من بدرى ويغطو اللحم بالفضول قبل وصولكم". لربما يحط الذباب على اللحم، ولكن ليس على (برامبل) أبداً!

كانت ترسل لي بعض المعاملات لإنجازها، ولكن في معظم الوقت كنت أجلس في مكتب برامبل لأعرف كيف يجب أن تكون إدارة البلاد، وبالنسبة لي لم يكن ذلك عدلاً، ذلك أنه لا أحد يستطيع أن يؤدي أداء برامبل بيه، الذي كان بالتأكيد نوعاً من التربية بالنسبة لنا. كان يميل إلى أن لغته العربية، رغم طلاقته فيها، محدودة وكثيرة الأخطاء، ولكن لم يفقده ذلك كبريائه عند التحدث مع الآخرين، وكانت لديه ثلاث عبارات مفضلة يستعملها دائماً: "دا ممنوع"، "مش ممكن"، و"أنت محبوبس هسح". أما إذا استدعى الأمر الاستمرار في المحادثة، فينادي هاشم مترجمه الذي تلقى تدريباً جيداً ويقول له: "كلمه يا هاشم كلمه" (أيأ كان ما يريد أن يقال)، فيتولى هاشم المهمة بمسيل من الكلمات العربية، فيقول برامبل: "تمام، فهمت الآن إذهب بسلام".

أذكر مرة أنه حدث هلع من انتشار مرض الجدري في أمدرمان، وكان الناس يتهربون من التطعيم، وفي نفس الوقت كان تايلوره (Taylor) مساعد مفتش المركز يتولى إجراء تحقيق قضائي حول تورط عدد من أعيان البلد في فضيحة أخلاقية، لذلك اكتظف فناء المركز بالمتفرجين، فما كان من برامبل إلا أن أمر فجأة بإغلاق أبواب المركز، ثم نودي على ممرضين من المستشفى ومعهما مصل وابر التطعيم، وأعلن أنه لن يسمح لأى شخص بالخروج ما لم يثبت أنه قد تم تطعيمه. إذا جاء هذا التصرف من أى شخص آخر، لربما كان يؤدي إلى حدوث شغب، ولكن طالما أن الأمر قد صدر من (برامبل)، فقد استقبله جمهور الحاضرين بضحك يشويه نوع من الكآبة ومدوا أذرعهم جميعاً للفحص والتطعيم، وكانت ردة الفعل الجماعية: لقد انتصر البيه مرة أخرى، ياله من رجل!

أثناء وجودي في أمدرمان، أحييت إلى أول قضية ميدانية، وكانت أول تجربة لي. وبما أن لفتى المربية كانت لا تزال ضعيفة، فقد سمح بأن يكون معي شرطى له بعض الإلمام باللغة الإنجليزية. بعد الاستماع إلى عدد من الشهود بكل ما كان في إفاداتهم من لف ودوران، حكمت ببراءة المتهم المدعى عليه بسرقة سجادة. لربما كان لفيروى رأى مخالف، أما بالنسبة لى فعلى الأقل أصبح لدى شك معقول بأن الرجل غير مذنب، ولذلك ويكل جراءة قلت له: "إنت مش مذنب" فقال: "ما بتكلم انجليزى". هنا التفتُ إلى الشرطى قائلاً: "أخبره أنه غير مذنب" فنقل له ما قلته بالضبط. ثم قال الرجل شيئاً جعل الشرطى يبتسم ابتسامة عريضة، فسألته ماذا قال؟ فأجاب الشرطى: "يقول لك هل معنى ذلك أن احتفظ بالسجادة؟"

أسفت لوداع أم درمان بعد أن قضيت فيها ثلاثة أشهر، ولكننى سررت بنقلى إلى وظيفة أخرى مستديمة فى المديریات. بعدها لم أقابل برامبل إلا

مرة واحدة فقط، عندما جئت إلى الخرطوم بعد اثني عشر شهراً لأداء الامتحان الأعلى في اللغة العربية والقانون، حيث تقابلنا في واجهة النهر فسألني: 'ماذا تفعل هنا يا بالفورة' أجبت: 'لقد جئت لأداء امتحان اللغة العربية، سيدي، فقال: 'امتحان اللغة العربية؟ أنت تحتاج إلى كلمتين فقط لتحكم هذا البلد'. توقعت أن أسمع منه العبارتين إياهما: 'دا ممنوع'، و'مش ممكن'، ولكن لم يقل هذه ولا تلك وإنما قال: 'الشدة مع المدل'. وبعد ذلك لم نلتق مرة أخرى، غير أن ذكره لا زالت حاضرة في ذهني، واعتقد أنها ستظل حاضرة أيضاً فيما يروى من أساطير عن أم درمان.

نقلت من أم درمان إلى سنجة، وأذكر أنني قضيت أغلب إقامتي في جولات بالجمال، وأحياناً بالخيول أو البغال. والمعجب أنني بعد أن غادرت سنجة لم أركب الجمل إلا مرتين فقط ولمسافة قصيرة، مما يدل على سرعة انتشار الماكينة ذات الاشتغال الداخلي. في تلك الأيام كان مفتش المركز لا يزال مشغولاً بتحصيل الإيرادات خاصة من العرب الرحل المتخلفين عن السداد، أو الذين عليهم متأخرا، أو الذين كانوا يأملون من خلال تحركهم المستمر أن يهربوا من الدفع. وأذكر أنني قمت بأكثر من جولة إلى جبل (دالي) في سهول غرب سنجة للعاق بالفرقان أثناء تحركهم إلى الجنوب. ولن أنسى على وجه الخصوص تلك الآفات التي كان يتعرض لها المرء في الطريق، وكان أولها وأهمها ذبابة (السيروت)، وهي حشرة في حجم النحلة لها خرطوم طويل كالإبرة، وحدث ذات مرة أن اخترق هذا الخرطوم مشمع الكرسي السفري الذي كنت جالماً عليه، ثم الرداء الكاكي الذي كنت أرتديه ليصل إلى إمدادات الدم الوافرة داخل جسمي. أما الآفة الأخرى فقد كانت المقرب. كنت أجلس في خيمتي بجبل دالي، وكان المطر ينهمر على الخيمة بينما كانت المقارب تتراكم إلى أعلى السقف بحثاً عن مكان جاف، ويؤسفني أن أقول إنني

جلست إلى الطاولة ممسكاً بمطواة جيب، وأمامى حوض من الصفيح لأجعل المقارب تتعرف إليه، فأقتلها وأرمى بأجسادها إلى الخارج، ولكن بالرغم من ذلك كنا نجد دائماً أعداداً كبيرة منها في أعلى السقف عندما ننزل الخيمة في الصباح، ولا زلت اختزن في ذاكرتى الواهنة عقرباً ضخمة سوداء لها مخالب مثل مخالب سرطان البحر الصغير. وبالرغم من كل ذلك أكملت سنوات خدمتى في السودان دون أن أصاب بلدغة عقرب.

كانت هناك إحدى قبائل العرب الرحل تسمى كنانة سراجية، وكانت بطون من هذه القبيلة تسكن في المنطقة المجاورة للتضاريف بصفة شبه مستديمة، ولم تدفع الضرائب لمدة أربع سنوات تقريباً. وكان تريفرز بلاكلى (Travers Blackley)، مفتش مركز سنجة مصمماً على تحصيلها منهم أو معرفة مبرراتهم لعدم الدفع. لذلك اتفق مع رصيفه في التضاريف للقيام بعمل مشترك، حيال هذه القبيلة، وأخذنى معه لأغراض تعليمية. أرسلنا جمالنا مع فرقة من الشرطة لتسبقنا إلى هناك، ثم لحقنا بهم باللورى بعد يوم أو يومين حيث عسكرنا ليلة في الطريق، وقبل طلوع الفجر رحلنا على ظهور الجمال بفرقة الشرطة وبعض زعماء القبائل، ودليل الطريق. وبعد أن قطعنا مسافة قصيرة على المجرى الجاف لنهر الدندر، إذا بالدليل ينمطف بجمله فجأة إلى قمة ضفة النهر في صعود شبه عمودى، ثم تبمه (تريفرز)، ولحقت أنا بـ (تريفرز) طوعاً أو كرهاً. وفي لحظة وجدته فجأة أميل إلى الأمام على السرج إلى أقصى حد ممكن، وكان الجمل يهدر، وأنا ادعو أن يظل حزام السرج مربوطاً ومتناسكاً، إذ كانت خلفى هوة بعمق أريعين قدماً تقريباً. كان تريفرز أمامى مباشرة وكنا على وشك ملامسة ذيل جملة، فأخذ يصرخ قائلًا: " هذا أخطر شيء فعلته في حياتى ". وحيث أنه كان من الرماة في الحرب العالمية الأولى، ثم ساعد والده فيما بعد للدفاع عن منزلهم ضد هجوم مسلح من (الشين فين Simm Fein) فأخذت ادعو

له أن يظل حزام مرجه متماسكاً أيضاً. وبعد قليل انتهى كل شيء بسلام، ووصلنا القمة دون أن نصاب بأي أذى.

لا أذكر ما حدث بعد ذلك فيما عدا أننا نزلنا في المخيم المتقل، وتمكنّا بمساعدة شيوخ القبيلة أن نمسك بمدد من رؤوس البهائم التى تخص الأشخاص المتهمين بعدم دفع الضرائب لمدة سنوات، ثم واصلنا السير إلى دار المحكمة فى مكان يسمى (طنىضبة) حيث التقينا هناك بالميجور إيفانز (Major Evans) مفتش مركز القضاة، وقضينا بقية اليوم نقابل رجالاً تلو الآخر فى جلسات طويلة مضية أمكن خلالها لشيوخ القبيلة تحديد الأشخاص الذين لم يدفعوا الضريبة، وتم توقيع غرامة قدرها خمسة جنيهات مصرية على المتخلفين عن دفع الضريبة والمتأخرات السابقة، بالإضافة إلى عدد كاف من البهائم التى أرسلت إلى سوق ود مدنى تحت حراسة الشرطة لتباع هناك لتغطية إجمالى المبلغ المطلوب.

كان هناك عمل آخر تقوم به مع تحصيل الضرائب، وهو مراجعة تقديرات لجان العشور. كانت العشور تعادل اسمياً عشر المحصول الزراعى، وبما أنها ضريبة منصوص عليها فى القرآن، فقد كان المزارعون على استعداد لدفعها وهم كارهون. وكان بمجرد أن يوشك المحصول على الحصاد، يتم إرسال لجان من الأعيان إلى كافة الأراضى المزروعة بمد أن يؤدوا القسم على القرآن بأن تكون تقديراتهم للمحاصيل عادلة ومنصفة. ثم يتم إدراج تقديراتهم فى كشوفات الضريبة مع توضيح مساحة الأراضى المزروعة كل على حدة، وتقدير إنتاجية الفدان الواحد. بعد ذلك يقوم موظفو المركز بمراجعة تلك الكشوفات بأسرع ما يمكن والاستماع إلى الشكاوى المتعلقة بتقديرات المحصول، وكانوا يقومون بهذا العمل وهم على ظهور الجمال، وذلك باتباع الخطوات التالية:

كانت تخصص قطعة أرض لتزرع بالقرب من المركز، وهى تكون عموماً مستطيلة الشكل، على أن تكون مساحتها فدان بقدر الإمكان. عندما ينضج

المحصول كان عليك أن تتركب الجمل ليخب بك إلى نهاية طول المستطيل، وتحسب عدد الخطوات التى مشاها الجمل من البداية إلى النهاية، ثم تكرر ذلك لتقيس العرض أيضاً مع تدوين عدد الخطوات فى كل مسار حتى لا تتساهى، ثم تلقى نظرة على المحصول للملاحظة مدى قرب سيقان النبات من بعضها البعض، وحجم القناديل. بعد ذلك يحصد المحصول، ثم يبدق ويفريل، ويتم إبلاغك بعدد الأراب التى أنتجتها هذه الأرض.

وهكذا تخرج إلى الجولة وأنت مسلح بهذه الموجهات التى تعينك على مراجعة تقديرات عشور الأراضى الزراعية التابعة لك بعد أن تنصب معسكرك على ضفة النهر لتفادر بالجمال مع طلوع الفجر يراففك أهالى المنطقة المعنية. لن تستطيع مراجعة كل مساحة مزروعة على حدة، ولكن يمكن من خلال المرور بالمنطقة أن تتم المراجعة بصورة تقديرية، خاصة إذا اشتكى شخص من التقديرات التى وضعت له. يراففك فى الجولة أربعة رجال يحمل كل منهم عموداً طويلاً عليه راية، وعند الوصول إلى أرض مزروعة، يتوزعون على الزوايا الأربعة، وبالطبع لن تكون الأرض مستطيلة دائماً، ولكنك تحاول أن تجعلها مستطيلة بقدر الإمكان. ثم تتركب الجمل ليسير بك بين الرايتين بطول القطعة، ثم مرة أخرى بين الرايتين الأخرين بعرض القطعة. بعد ذلك تقوم حسب الموجهات الموجودة لديك بحساب المساحة المحصورة بين الرايات الأربعة، ثم تتركب الجمل مرة أخرى داخل الأرض المزروعة لتقدير إنتاجية الفدان. وأثناء ذلك مسموح لجمالك حسب التقاليد المرعية الاتهام ما يشاء من قناديل الذرة أثناء تحركه، ولكن لم يكن من اللائق أن تسمح له بالتوقف فى منتصف الأرض المزروعة. لذلك يمكنك بالنسبة للمساحات الكبيرة أن تقسمها إلى مستطيلين، أو حتى إلى مستطيل ومثلث. إن محاولة إيجاد القاعدة والارتفاع وأنت جالس على ظهر جمل تحت أشعة الشمس المحرقة ليست عملاً

سهلاً. وأحياناً وأنت تقترب من معرفة النتيجة، إذا بالجمال فجأة يلتقط فجأة رائحة عشب حلو المذاق. أما حقيقة كون أن هذا العشب يقع في الجانب الآخر من أجمة شوكية فلا يعنى ذلك شيئاً بالنسبة للجمال، ولكن بالنسبة لك قد يعنى الكثير، لأنك قد تجد نفسك واقعاً على الأرض وسط هذا الشوك! ويمد الفراغ من وضع التقديرات الخاصة بقطعة الأرض المعنية، تقوم بمقارنتها بالمساحة والإنتاجية الموضحة في كشوفات الضريبة التي يحملها معه شيخ القبيلة، ومن المدهش أن مجموعتي الأرقام في الغالب تتطابقان تقريباً! وأخيراً ينتهى اليوم، فقد كنت تعمل دون توقف منذ الخامسة صباحاً، والآن هاهى الساعة قد أعلنت الرابعة والنصف مساءً، والشمس تميل إلى الغروب، وبينما أنت في طريق العودة إلى المنزل منهكاً، تلمح ضوءاً يشع على ضفة النهر، فتدرك أن الخدامين قد أضاءوا الرتينة (المصباح) البتروماكس. وبينما أنت تفكر مسروراً في أنك ستأخذ حماماً، ثم تتناول شيئاً من الويسكى والصودا مع طعام العشاء، إذا برجل مسن يخرج فجأة من بين الأشجار ملوحاً لك بورقة ويقول: "أنا مظلوم، لقد وضعوا لى تقديرات عالية"، وأنت تعلم أنك حسب الجدول، مطالب بحزم أمتعتك، والتحرك إلى مجموعة قرى أخرى قبل فجر اليوم التالي. غير أنك تسأل الرجل: "آين أرضك؟" فيقول: "اممم، مشيراً بذقنه إلى اتجاه معين. (كان السودانيون هم الشعب الوحيد حسب علمى الذين يستطيعون الإشارة بذقونهم). وبما أنه لا فائدة من استفسار الرجل عما إذا كانت أرضه قريبة أم بعيدة، فإنه لامناص من توجيهه الجميل، وأنت في غاية الضجر والسأم ليتهاذى بك خلف الرجل شاقاً طريقه وسط عتمة الليل البهيم. إنها في النهاية تسمى (خدمة).

في أشهرى الأخيرة بسنجة أصبحت غير قادر على الحركة بسبب إصابتي بمرض (عرق النساء)، وآلام في أسفل الظهر، ولذلك قضيت بعض الوقت

نزيراً فى مستشفى الخرطوم قبل أن أنقل إلى ود مدنى، وقد تم فى تلك الفترة دمج مديرتى الفونج والنيل الأزرق، وظلت ود مدنى عاصمة للمديرية. وافق مدير المديرية، كلايف يونج (Clive Young) على سفرى إلى الوطن فى إجازة مرضية، حيث أخضعت فى لندن لعلاج مكثف استغرق خمسة أشهر، عدت بعدها وأنا أبدو معافى ظاهرياً، إذ عاودنى الألم مرة أخرى بعد مباراة فى (الاسكواش). وعندما اشتد الألم واستبد بي اليأس، قال لى السفرجى الذى يعمل لدى أن باستطاعته علاجى، وبالفعل استطاع خلال ثلاثة أسابيع أن يشفىنى من المرض تماماً بواسطة شمعة من النار كان يضمها على مكان الألم ويقلب فوقها علبه مربة زجاجية (برطمان) ليحدث فراغاً يمتص الجزء المصاب من جسمى داخل البرطمان. كان ذلك نوعاً بدائياً من الحجامة الجافة ولكنها كانت علاجاً ناجحاً لما كنت أعانيه من الألم.

وفى ود مدنى، علاوة على الرحلات التى كنت أقوم بها إلى المناطق المجاورة، فقد كانت المدينة أيضاً تحت مسئوليتى المباشرة، وكان سكانها آنذاك حوالى ٤٠٠٠٠٠ نسمة مما جعل حجم عملى كبيراً. وبالرغم من أن فترة عملى مع (برامبل) قد أفادتني كثيراً، غير أنني يمكن أن أصف ود مدنى آنذاك بأنها كانت مدينة (لاهيبة)، فقد كان أكبر تجار المدينة الذى يفترض أن يكون من أعمدة المجتمع متهماً بالخلاعة. كما أذكر قضيتى اغتصاب أطفال ولكن لم تثبت التهمة فى أى منهما. وكذلك قضية غريبة أخرى اتهم فيها ريع سكان المدينة امرأة بنوابة وإفساد بناتهم، ولكن لم يتوافر أى دليل مادى لإدانة المرأة. غير أنني اكتشفت مؤخراً أن المرأة لها زوج استطاعت أن تأتى به ليكون ضامناً لها بحسن السير والسلوك، ولكنى أخبرت أنها امرأة مزعجة، وأنها إن لم تقلع عن أساليبها الدنيئة فستجد نفسها طافية فى مياه النيل الأزرق مما يسبب مشاكل كثيرة. يبدو أن ذلك كان له أثره إذ أنني لم أسمع عنها شيئاً بعد

ذلك. كان كل ذلك نوعاً من التربية الجادة بالنسبة للشباب مثلى نشأ نشأة سليمة.

فى إحدى زياراتى خارج المدينة دخلت فى ورطة بسيطة، فقد عدت من الإجازة لأجد مفتش المركز قد غادر فى إجازته أيضاً، وأن مساعد المفتش الذى كان مسئولاً عن المنطقة الريفية هو الآخر فى إجازة، وهكذا أصبحت أتولى إدارة المركز منفرداً. غير أن مساعد المفتش قبل مغادرته، أخبرنى بأن أحد شيوخ الخط فى منطقة المناقل قد توفى، وأنه سيتم تعيين خلف له بعد عودة مفتش المركز من الإجازة. كذلك كان يتمين على إبلاغ رجال قبيلة المركبين الذين كانوا يطالبون بأن يكون لهم "خط" لوحدهم بأنه لم تتم الموافقة لهم بذلك. وقررت بقليل من الرهبة والتردد، ولكن مع التصميم أيضاً على إطاعة الأوامر، أن أقوم بزيارة إلى المناقل. بعد وصولى إلى هناك، جاء عمدة المركبين لمقابلتى وخلفه جمهور من أنصاره يهتفون مطالبين بخط منفصل لقبيلتهم، وأخبرت المدة، كلما سنحت فرصة للهدوء من الهتاف فى الخارج، أن مفتش المركز قد قرر أنه ليس بالإمكان أن يكون لقبيلته خط، وأنتى جئت من أجل التأكد من فهم هذا القرار والعمل بموجبه، وإذا كان يعتبر هذا القرار غير عادل، فالفرصة دائماً متاحة للاستئناف أمام مدير المديرية، أو إلى من هو أعلى منه إذا رأى ذلك مناسباً.

بعد ساعتين من الجدل المقيم أعلنتُ رفع الاجتماع، وغادرت المكان إلى منزل الشيخ عبد الباقي، ملك المناقل غير المتوج، لأتناول معه طعام الغداء فى غياب الاستراحة الحكومية التى كانت تحت الترميم. ولسوء الحظ كان المنزل يبعد قليلاً عن نقطة الشرطة. وبالرغم من أن العمدة قد ذهب ساعطاً، إلا أنه قد ترك أفراد القبيلة وراءه، مما جعل عبد الباقي يأتى مسرعاً ليقول لى أننا سنقتل جميعاً. لذلك كان يجب على أن أخرج لهم لأقول: "لا تكونوا أغبياء".

ولأشرح لهم أنتى أحمل أوامر من رئيسى المباشر، ولن أغير هذه الأوامر لمجرد هتافهم، ولكن يمكنهم رفع الأمر إلى مدير المديرية، فإذا رأى أن قضيتهم عادلة فلا شك أنه سوف يصدر تعليماته إلى المسؤولين بالمركز لإجراء اللازم وفقاً لذلك. وعندما هداوا قليلاً، طلبت منهم أن يعودوا إلى منازلهم ويفكروا فى الأمر. فى ذلك الأثناء كان قد تم إبلاغ الشرطة الذين وصلوا من الرئاسة، ولذلك عاد المتظاهرون إلى بيوتهم بهدوء. بعد تفرقهم مباشرة أرسلت اثنين من رجال الشرطة لإحضار العمدة الذى قمت بتوبيخه بكل قسوة وصراحة على طريقة "المم الهولندي".

جلس الرجل المجوز أمامى والدموع تنحدر على خديه، بينما كنت ألقى عليه محاضرة فى حسن السلوك ولم أندھش لانزعاجه. كنت أبدو أمامه فى تلك اللحظات كما لو أن عمرى خمسة عشر عاماً، علاوة على أننى مسيحي. عندما شعرت أن الأحوال قد هدأت، عدت إلى ود مدنى، وفى الطريق قابلت فرقة من شرطة السوارى تتكون من ثلاثين رجلاً فى طريقهم إلى المناقل، ويبدو أن تقريراً مبالغاً فيه قد وصل إلى الرئاسة، وعلى كل حال اقتنع المركبون فيما بعد بما قلته لهم واستأنفوا لدى مدير المديرية الذى رأى أن الحق بجانبهم، وأرسلت أنا لتلمس رغبات الرأى العام، حيث قمت بزيارة سبع وعشرين قرية خلال يوم واحد، وشريت ثلاثة فناجين من القهوة، وثلاثة أكواب من الشاي فى كل قرية. كان الجميع فى غاية الود، واعتنوا لى عما بدر منهم، وكانوا جميعاً يطالبون بأن يكون لهم "خط" مستقل. أما العمدة فلا أذكر أنتى قابلته فى تلك الجولة، وأخشى أن يكون قد توفى وهو ساخط على. المهم أن المركبين قد حصلوا على مشيخة الخط بينما بقيت أنا فى المستشفى لبضعة أيام، وعندما أخبرت الممرضة بما فعلت، انفجرت ضاحكة وقالت لربما يكون قد حدث لى سمم من الكافيين!

ذهبت مبكراً إلى الصلاة في كنيسة ود مدني، وعندما خرجت وجدت في انتظاري أمياشي من الشرطة يبدو عليه الانزعاج، فأخبرني أن أحد الخفراء قد هجر فرقته بسبب مشاكل عائلية، وهو يقف الآن على سطح أحد المباني ممسكاً بسلاحه الناري المحشو بالذخيرة الحية، ويهدد بأنه سيطلق النار على زوجته أولاً، ثم ضابط الشرطة الذي حالت مشغوليته دون النظر في مشكلته. عندها قلت لنفسى: "حسناً، على الأقل لم أكن أنا المدان". نجحنا في إقناع الرجل بالنزول، بعد أن كلفنا ذلك بعض المجهود، حيث قال له الضابط المرافق لى في النهاية: "إنك تعطل مساعد المفتش عن تناول إفطاره"، ونجحت هذه الحيلة وإذا بالرجل يستجيب ويأتى نازلاً كالحمل الوديع.

كنت مرة ذاهباً لتناول طعام العشاء مع مدير المديرية، وعندما نزلت إلى البرندة بهندامى التنظيف المرتب وجدت امرأتين بدينيتين في انتظاري، وفجأة جلسنا على الأرض وأمسكت كل منهما بإحدى قدمي قبل أن أتمكن من اتخاذ أى إجراء وقائي، وهكذا أصبحت مقيداً لا أستطيع مبارحة البرندة بينما كانت الدقائق تمر بسرعة. ناديت على السفرجى ولكن دون فائدة، فقد اكتفى بمجرد الوقوف مردداً كلمة "اتفضلوا". لذلك قلت لهما يائسا منتحلاً صوتا مشابهاً لصوت (برامبل) أنهما إذا لم تقفا فوراً فمساضطر إلى إرسالهما للسجن لألف سنة، وعندما نهضتا أخبرتهما بأن تحضرا إلى المركز في الساعة التاسعة صباحاً، ووعدتهم بأن أنظر في قضيتهما قبل أى عمل آخر، وبذلك تمكنت بصموية من اللحاق بموعد العشاء.

إتضح فيما بعد أن الشرطة أثناء التفتيش عن بعض البضائع المسروقة، قد عثروا على شئ يشبه (قضيبي الرجل) فصدموا بذلك، وقاموا فوراً بإلقاء القبض على صاحب المنزل وهو ابن إحدى المراتين وابن أخت الأخرى. وحيث أننى لم أجد في القانون الجنائي أو اللوائح ما يمنع حيازة الشخص في منزله

لشىء يشبه قضيب الرجل، فقد أمرت بإطلاق سراح المتهم، وقام بيز بيه (Pease Bey) قمندان الشرطة بالاستيلاء على المعروض والاحتفاظ به فى ما كان يسميه "متحف الشرطة"، ولم أره بعد ذلك أبداً.

كان هيربرت بيز Herbert Pease قمنداناً ممتازاً يحظى بحب واحترام رجاله وكل أصدقائه خارج قوات الشرطة، وكان قد أتى إلى السودان عبر الجيش المصرى، وفى الطريق استطاع أن يتعلم نوعاً هريداً وغير عادى من اللغة العربية يخصه هو لوحده ولخدمة أغراض العمل فقط، ولكنه لم يكن يصمد طويلاً فى مواجهة الأمور المستعصية. فى أثناء السنوات المبكرة الصعبة للحرب العالمية الثانية، كان يتم إمدادنا وغرب السودان بملخص أسبوعى للأحداث المحلية، وشعرنا جميعاً بالامتنان عندما قرأنا أن قمندان شرطة مديرية النيل الأزرق قد فتح الباب للمتطوعين الذين يرغبون فى مساندة جبهة الحدود السودانية الحبشية الضعيفة، فاستجاب للنداء جميع رجال الشرطة، وتم اختيار عدد محدود من شباب الشرطة خفيفى الحركة، وأرسلوا جنوباً للالتحاق بفرقة اختراق الأدغال التى كانت تقوم بمهامها على الحدود بقيادة مفتش مركز محلى تم تعيينه لهذا الغرض. ثم سمعت مؤخراً أنهم بعد أن قضوا شهرين أو ثلاثة فى الخدمة الممتازة قالوا جميعاً إنهم يريدون العودة إلى بلادهم، فقال لهم القائد: "ولكنكم قد تطوعتم للخدمة حتى انتهاء حالة الطوارئ"، فأجابوا: "ليس كذلك"، فقال القائد: "نعم كذلك، لقد أخبركم بيز بيه بذلك، وطلب من الذين يريدون التطوع منكم أن يخطوا إلى الأمام، وكنتم أنتم من تقدمتم إلى الأمام"، فقالوا: "هل هذا ما كان يتحدث عنه؟ كنا نستمع إليه ولكن لم نفهم منه كلمة واحدة، ثم قال لنا: ثلاث خطوات للأمام مارش، ففهمنا هذه وأطعنا الأوامر".

كان (بيز بيه) فخوراً بفرقته الموسيقية التابعة للشرطة، ولم يحدث أن سافرت للإجازة دون أن أحمل معى طلبات لشراء آلات أو دفاتر موسيقية من

بوسى آند هوكنس (Boosey & Hawkes). كانت الفرقة فى العادة تخرج عند الخامسة صباحاً من يوم الكريسماس وتطوف بالمدينة وهى تعزف مقطوعة (انهضوا أيها المسيحيون: حيوا الصباح السعيد) (Christians awake: Salute the happy morn.) أمام كل بيت من بيوت البريطانيين، ومع أن أعضاء الفرقة كانوا جميعاً مسلمين، اسماً على الأقل، إلا أن ذلك لم يكن يمنعهم من عزف هذه المقطوعة، ولربما شجعهم على ذلك حقيقة أن الساكن كان عليه أن ينهض بسرعة ليقيم للفرقة هدية سخية.

بعد ود مدنى نقلت لأعمل معلماً بكلية غردون، وذلك لأن الترفيات كانت متوقفة وأرادوا أن يستمروا أحد الإداريين لمدة عامين للمساعدة فى حل المشكلة، أما لماذا تم اختيارى أنا بالذات فلا أعلم. غير أن فاركهارسون لانج (Farquharson Lang)، وهو أحد زملاء الدراسة القدامى، ذكر لى أنه هو الذى طلبنى، ولكنى أشك فى ذلك، وأعتقد أن الأمر كانت وراءه ثمة مؤامرة خبيثة من جانب الأطباء الذين كانوا يشرفون على علاجى والذين لم يرضهم أن ألعب ستة أشواط من البولو أسبوعياً، ناهيك عن الاسكواش والتنس، مستمداً هذه القوة من (برطمانات) المربة وهكذا ذهبت إلى كلية غردون، واستمتمت بالعمل بها رغم أننى كنت أجد صموية فى أن أكون دائماً سابقاً لتلاميذى فى الحصص التالية. كان من حسن حظى أن قامت لجنة (دى لا وار للتربية والتعليم فى أفريقيا De La War Commission on African Education) بتسجيل زيارة للكلية حيث تقرر بعدها توسيع النظام التربوى بأكمله، وتوفير تربويين أكفاء للقيام بهذه المهمة، ولذلك عدت إلى حفل الإدارة بعد قضاء سنة واحدة فقط فى الكلية، حيث تم نقلى إلى مركز نيالا بمديرية دارفور.

استغرقت الرحلة بين الأبيض والفاشر، عاصمة مديرية دارفور، أربعة أيام، وكان السفر بلواري الأجرة. وبعد مسافة قصيرة من مدينة النهود تبدأ الرحلة

فى ( القوز) وهو عبارة عن سلسلة من الكتلان الرملية تمتد على طول الطريق إلى الفاشر، حيث تتفرس عجالات اللورى بعمق فى الطريق الرملى وتتعلق ببطء إلى أعلى هذه الكتلان، وعندما يقترب اللورى من القمة يمجز عن الحركة فينزل الصبية ليضعوا صاجات حديدية على المجرى أمام العجلات الخلفية لمساعدة اللورى على الوصول إلى قمة الكتلان الرملية لينزل إلى الجانب الآخر بسرعة أفضل بكثير، ولكن ليواجه المزيد من الرمال، وهكذا تتكرر العملية، ويستمر الحال كذلك إلى مسافة ٤٠٠ ميل. فى فصل الصيف يكون هذا السهل الرملى مقطئاً مدى البصر وفى كل الاتجاهات نباتات (الحسكيت)، وهو نبات أخضر يانع يعمل ثماراً سامة جداً، وله شوك حاد كالإبر يلتصق بالملابس ويتجه تدريجياً من نقطة الملامسة إلى أعلى الملابس. خلال الأمطار الأخيرة عندما نضجت هذه الثمار أخذت تتطاير إلى أن وصلت إلى مقعد اللورى الأمامى من خلال الزجاج الحاجب للريح الذى كان يترك مفتوحاً تقادياً للموت بأثر الحرارة والاختناق. ويقال إن عروساً وصلت لتوها إلى البلاد، عندما شاهدت هذا النبات أخذت تصرخ مبهتجة قائلة: 'ياله من عشب أخضر جميل' وجلست عليه!! فى آخر أيام الرحلة يتوقف بك اللورى فى بلدة أم كدادة، وهى قرية بنيت على الرمال، تحيط بها سلسلة من الصخور السوداء. وتقضى الليل هنا فى استراحة شيدت بطريقة (ظهر التور) المعروفة، وهو عبارة عن سقف من العشب يتدلى إلى أسفل فوق البرندة ليجمع المكان مظلاً وكثيباً، وفى نهاية جزئه الأعلى المثلث الزوايا يوجد هناك حجر يدل على حدوث كارثة مكتوب عليه أنه مطلوب منك أن ترحم على روح شاب مسكين يدعى ميدلتون (Middleton) انتحر قبل سنوات فى هذا المكان. وبالرغم من أن بعض الناس يحبون أم كدادة، إلا أننى كنت أشعر دائماً أنه فيما لو تقرر إبقائى فى أم كدادة لكنت قد حذوت حذو ميدلتون المسكين. فى اليوم

التالى على أى حال، يواصل اللورى سيره عبر ممر صخرى، وعند الخروج من الممر تلوح لك عبر السهل إلى الأسفل قبة مسجد على دينار وهى تلمع فى ضوء ما بعد الظهيرة، فتدرك أنك قد شارفت الوصول إلى تزلك.

كان ضم دارفور فكرة خطرت على البال مؤخراً فقد ظلت مستقلة عن بقية السودان حتى عام ١٩١٦ عندما بدأ سلطان القور يدخل فى مغازلات مع تركيا. لذلك تقرر تجريد حملة عسكرية إلى دارفور، حيث دارت تلك المعركة التى قتل فيها السلطان على دينار، وتم ضم المديرية إلى بقية أجزاء السودان. وعليه كان الأشخاص الذين تم اختيارهم لإدارتها يفخرون دائماً بأن دارفور تختلف عن غيرها، وقد نشأت هذه الفكرة لدى شخصيات غريبة الأطوار تولت المسئولية لعدة سنوات، وكان من بين هؤلاء الكولونيل سافيل (Colonel Savile) الذى يحكى عنه أنه عندما كان عائداً إلى بلاده فى إجازته السنوية دخل فى نقاش مع أحد الأشخاص على ظهر السفينة التى كانت تقلهما عبر البحر الأبيض المتوسط، وبعد نصف ساعة من الأتس البريئ انكشف المستور عندما قال بالحرف: "بعق جوييتير لا بد أن تكون أذى، وبعق جوييتير كان هو كذلك".

ثم خلف سافيل الثلاثى دوبيس (Dupuis) مدير المديرية، وأودس (Audas) المفتش البيطرى، وطبيب لا أذكر اسمه. ويبدو أن هؤلاء الثلاثة قد استحدثوا لائحة سلوكية مقتبسة من لوائح ونظم المدارس والداخليات، فمثلاً كان ممنوعاً ارتداء قميص أزرق ما لم يكن الشخص قد أقام فى المديرية لمدة ثلاث سنوات، وكان يجب على كل شخص أن يلعب البولو، وعلى القادمين الجدد أن يتسلقوا العمود بعد عشاء الكريسماس. كانت هذه طريقتهم دون أن يؤذوا بها أحداً، ولا شك أنهم بذلك كانوا يقصدون رفع روحهم المعنوية. غير أن ذلك أصبح موضوع تساؤل بالنسبة لمفتش المركز الجديد الذى لم يكن يؤمن بتلك التقاليد، وكان قد وصل إلى تلك المنطقة النائية فى نفس الوقت الذى وصلت فيه. أما

مدير المديرية، فيل إنجلسون (Phil Ingleson)، فقد كان على استعداد لمسايرة الأفكار الحديثة، وأدرك أنه من خلال تحسين سبل المواصلات، وتزايد الإقبال على التعليم، لن يكون بالإمكان الاحتفاظ بالنمط القبلي القديم باتباع الطريقة الأبوية المعطوبة التي كان ينتهجها الوافدون.

كانت الإبل لا تزال هي القوة المحركة في منطقة مركز شمال دارفور، ولكن في المناطق الأخرى ظل الحصان هو المهيمن، خاصة في المنطقة الجنوبية من المديرية التي كانت حاضرتها مدينة نيالا، والتي كان البقارة يشكلون فيها غالبية السكان، وهم عرب رحل يعملون أمتعتهم على ظهور الثيران التي تتركب عليها النساء، بمرافقة الرجال الذين يمتطون صهوات الجياد ويحمل أغلبهم (الشكاكية) التي هي عبارة عن رمح بشفرة عريضة في نهايته. كان من المحبط لشخص مثلي لا علاقة له بالخيول أن يشاهد كيف يقوم هؤلاء الرجال بوضع قعر الرمح على الأرض والارتكاز على القصبية للقفز بها على سرج الحصان بكل سهولة ويسر، وكم تحسرت كثيراً أنني لم أستطع أن أكون فارساً مثلهم، فانا أولاً جسمي طويل وساقاي قصيرتان مما يجعل مركز توازني مرتفعاً جداً، ولكن بالرغم من ذلك حاولت أن أكيف نفسي بالاستمتاع بلعبة البولو حيث كنا في نيالا نلعب نوعاً غريباً من البولو فقد كان الفريقان يتكونان من كل الأشخاص ابتداء من مفتش المركز وانتهاء بضباط الصف في فرقة العرب الغربية. وبما أننا كنا في بلد مسلم، فقد كانت كل الخيول المشاركة من الفحول، ولذلك كنا عندما نهدأ المباراة في لحظة من اللحظات ونحن ننهمك في اللعب ونحاول أن ندفع بالكرة إلى داخل الملعب، نلاحظ أن الخيول قد تصاب بنوع من الجنون خاص بها فيرتفع صهيلها وهي تقف على أرجلها الخلفية وتضرب بعضها البعض بأرجلها الأمامية، وكان أفضل الفرسان هو من يستطيع أن يأخذ الكرة بعيداً بعد ذلك.

كان مفتش مركز نبالا في ذلك الوقت هو بلبل نايتيجيل (Nighting-Bulbul) ومع أنه كان صغيراً في حجمه، إلا أنه لم يكن يعرف الخوف بتاتاً. وعندما وصل إلى المركز وجد أن هناك مجموعة من الأسود تشكل مصدر إزعاج للعرب وقطعانهم من الماشية، فاستطاع خلال عام أو عامين التعامل معها بطريقة مختصرة جداً، واعتقد أن مجموع ما اصطاده منها قد بلغ ثلاثة وتسعين. كانت طريقته هي الانتظار حتى يقتل الأسد فريسته، وفي صباح اليوم التالي يأمر مجموعة من العرب الخيالة المسلحين بشكائياتهم بمحاصرة مكان الفريسة، ثم يختار هو موقعاً يكون في مدى إطلاق النار من بندقيته، ويجلس على مقعد قابل للملأ واضعاً بندقيته على ركبتيه، ثم يطلق صافرته. هنا يهجم العرب بغبولهم فتنهض الأسود التي تكون نائمة بالقرب من فريستها، وتحاول الابتعاد عن المكان تصادياً للمواجهة، وبمجرد أن تكون مكشوفة لديه، يقوم بلبل بإطلاق النار عليها فلا تكون أمامها فرصة غير محاولة الهروب بعيداً، أو التوجه نحوه مباشرة وهي تهدر بوحشية، ولكن دون جدوى إذ سرعان ما تغر صريمة.

وأذكر مرة أنه كان يمسك في مكان يبعد عن الطريق يسمى (شبلوك)، وعند منتصف الليل استيقظ على صوت عراك خارج المسكر، فنهض ونصب مقعده وجلس عليه وبندقيته جاهزة في انتظار ما يحدث، وفجأة لاحظ له دهمه وسط الظلام متجهة نحوه مباشرة، فما كان منه إلا أن أطلق النار نحوها، وفيما بعد رأيت صورة فوتوغرافية لها، فقد كانت عبارة عن ثور جاموس ضخم راقد على الأرض وأنفه على بعد ياردين فقط من سرير بلبل، واتضح أنه كان قد دخل في عراك مع بعض الأسود، وليته كان أكثر حكمة وبقي معهم إذ أن فرصته مع بلبل كانت معدومة تماماً.

كان بلبل يمتلك عربية (حنطور) مزودة ببيابات عالية يجرها جوادان، أحدهما أنثى أصيلة تربط بين المحورين ويقودها في الأمام حصان ذو مزاج

متقلب. وكان بلبل يصبر أن أركب معه بعد الانتهاء من لعب البولو أو عند العودة من العمل رغم أنى كنت بصراحة أخشى الركوب معه. وأذكر مرة أننا بينما كنا عائدین إلى المنزل أن قال لى: "عجيب هذا الفرس المقدم، رأس البهاش، إنه لا يطبق جرس الدراجة المربوط على العربة، أنظر الآن"، ثم قرع الجرس وإذا بالعربة تندفع بقوة بين شجرتين على الطريق أمسكتا بمحورى العربة فانقطع حبلا الجر، وانتهى بنا الأمر، أنا وبلبل، بالانكباب بوجهينا على الأرض أمام مجموعة من السجناء كانت تتفرج مذهولة بما حدث.

لقد حرصت على تأكيد أن بلبل كان لا يعرف الخوف، لأن ذلك فى إحدى المرات قد قاد إلى عدم كفايتى. كان هناك سباقان للخيول يقامان فى دارفور أحدهما فى الفاشر والآخر فى نبالا، وكان بعضها يخصص للمرب فقط، بينما كان البعض الآخر مفتوحاً للجميع عرباً وأوروبيين على السواء. وعلمت أنه كان يتمين على أن ألعب دوراً فى هذه السباقات. وبالرغم من عدم رغبتى فى المشاركة، إلا أننى وافقت استجابة لنداء الواجب وإرضاء (للعاهكم)، وكنت البريطانى الوحيد المشاركة فى السباق. حصلت على سرج حصان من النوع الجيد الذى يمكن الجلوس عليه بأمان، وبينما كنت أستمع للركوب عليه، كان بلبل يراقب ذلك، فصاح بى قائلاً: "عزيزى؛ إنك لن تستطيع أن تسابق بهذا السرج، دعنا نمتبدله لك بآخر". وقبل أن انتبه، وجدتنى جائئاً على قطعة رفيقة من الجلد موصولة بركابيين وركبتائى تقتربان من ذقنى، فالتفت نظرة على زملائى المشاركين ممتى فى السباق، واستودعت روحى عند رب العالمين، فقد بدوا لى كأنهم مجموعة من الوحوش الشرسة الملتحبة بصورة لم أشاهدها من قبل، ولم يكونوا يركبون على سروج السباق الخفيفة، وإنما ابتدعوا أشياء غريبة الشكل تغطى ظهر الحصان من مقدمته إلى مؤخرته، وكان كل منهم يركب فرسه بإدخال إصبع واحد من كل قدم فى كل من جانبي الركاب. لم يكن

الهدف من سباق الخيل عند العرب هو فوز الحصان الأفضل، وإنما كان المتسابق ييذل كل ما فى وسعه لكى لا يفوز الحصان الأفضل. وبما أن حصانى كان هو الوحيد الذى يتغذى على الذرة، فقد أصبحت بذلك هدفاً واضحاً للمتسابقين. وعندما أشار العلم معلناً بداية السباق، إذا بالفرسان يندفعون نحوى من الجانبين إلى أن اسقطوا قدامى من الركابين، ولكنى نجوت من ذلك بطريقة أو أخرى، وانطلقت بحصانى خلفهم، ولكنهم كانوا جميعاً يخرجون عن السيطرة كالمادة ويجتفون عند المنعطف قبل الدخول فى الخط المستقيم. وهنا تذكرت حكاوى فريد آرشر (Fred Archer) التى كان يرويها لى عندما كان يقف واضعاً قدمه اليسرى على السياج، وحاولت أن أعمل بها ولكنى لم أوفق. وفجأة عند الانعطاف إلى الطريق المستقيم اندفع نحوى أحد أولئك الشرسين والغبار يتطاير من لحيته فرماني على السياج، ولم أعد أذكر ما حدث بعد ذلك، غير أنى أتصور أن الجمهور لا بد أن يكون قد تصايح ببارة النصرانى وقع. لقد عانيت فقط من ارتجاج فى الرأس، وأثناء الأسبوع الذى لزمته فيه الفراش تمكنت من قراءة ملحمة فورسايت (Forsyte) بأكملها ابتداء من قصة (الرجل صاحب الأملاك) إلى قصة (فوق النهر). وفى العام التالى شاركت فى نفس السباق ونفسي الحصان ولكن على سرجى الخاص. ورغم أننى فى هذه المرة قد كسبت السباق، إلا أننى ما كنت أريد ذلك ولكن عيون (الحاكم) كانت مسلطة علىّ.

كان العمل اليومى بالمركز يسير كالمادة، وكان أروع ما فى ذلك تلك الجولات التى كنا نقوم بها بالخيول والبغال إلى بحر العرب الذى كان العرب يأتون إليه فى فصل الشتاء بحثاً عن المرعى أسفل النهر، وهناك كانوا يلتقون بالدينكا القادمين من الجنوب بماشيتهم. وأثناء فترة عملى هناك كانت علاقات العرب والدينكا طيبة عموماً، وكانت أهم قبيلتين للبقارة هما الرزيقات بقيادة ناظرها

المميز إبراهيم موسى بمساندة أخيه محمود الذى كان الدينكا يطلقون عليه لقب (محمود الصالح) والأخرى قبيلة الهبانية بقيادة ذلك الرجل المعجوز المغضوب عليه ذى اللحية البيضاء الذى كان يسمى الغالى تاج الدين، والذى كان دائماً على خلاف مع قومه لحدة طبيعه وميله إلى قبول الرشوة، ولكنه بالرغم من ذلك كان على وجه العموم دافئ القلب ومخلصاً للحكومة، كما كان ممجباً ببلبل نايتجيل الذى كان مساعداً لمفتش مركز البقارة قبل أن يتولى مسئولية إدارة المركز. واعتقد أنه لم يكن راضياً بأن أحل مكانه لأنه كان يرى أننى صغير على المنصب، ومن ناحية أخرى، كان موقف إبراهيم موسى تجاهى هو بمثابة العم ولم يفهر هذه النظرة أبداً، وكانت دائماً له ملاحظات لازمة عن الغالى تاج الدين كأن يقول لى: "هو لا يريدك أن تعمل كذا وكذا"، وعندما يحدث ذلك يقول لى: "هاى! الولد داك الليبسمو بيلى فور".

وبعد عدة سنوات فيما بعد أصبح إبراهيم موسى عضواً فى الجمعية التشريعية بالخرطوم عندما كنت أعمل هناك بمكتب الحكومات المحلية. واعتقد أنه كان يشعر بنوع من المزلة فى تلك المدينة الكبيرة، وكان يسره أن يرى وجهاً مألوفاً لديه، فقد كنت أجده جالساً على كرسي مستغرقاً فى نوم عميق بجانب طاولتى بالمكتب، واضماً إحدى قدميه على الأخرى، وخالماً عمامته، ورانياً بلعيته إلى السقف. كم كان ذلك المنظر مهيباً! كانت آخر مرة قابلته فيها فى لندن كيلينك حيث وجده جالساً متريماً على السرير، وعندما أطلت عليه من الباب صاح قائلاً: "هاى! الولد داك الليبسمو بيلى فور". يا لطية قلبه، فقد توفى بعد ذلك بشهر أو شهرين بعد عودته إلى السودان. كان إبراهيم موسى هو من أطلق أفضل تعليق عند مفارقة البريطانيين للسودان، فقد قال: "ركبونا فى لورى لا نور ولا بورى".

تسارعت الحرب فجأة بخسارات فادحة فكانت أولاً دنكيرك، فسقوط فرنسا، ثم دخول إيطاليا فى الحرب. وأثناء هذه الحرب الزائفة سمح لمدير

المديرية ومفتش مركز الفاشر بالسفر للإجازة السنوية بالوطن. وفي ذلك الوقت وهما في مكان ما بعيداً عن مدينة الرأس في طريق العودة، أصبحت الفاشر تعاني من نقص في عدد المسئولين، ولذلك أرسل في طلبى لاسد هذه الثفرة. ونظراً لوجود الإيطاليين في العوينات شمالاً، والفرنسيين المترددين في الغرب، فقد طلب منى أيضاً العمل على تأسيس وتدريب حرس محلى.

وقبل أن أغادر نيالا صدر النداء للتجنيد، واستجابت له أربع فئات من الشعب أولها التجار الإغريق وهم مجموعة من رجال ذوى شدة وصلابة، وثانيها التجار السوريين واللبنانيين وهم مجموعة ضعيفة، وفي الواقع لم يبق منهم في النهاية سوى اثنان فقط بعد أن علموا ما هو مطلوب منهم، وثالثها مجموعة الأفندية أو الكتبة والمحاسبين العاملين بالحكومة، وهم سودانيون وكانوا جميعهم ممتازين ومتحمسين، وأخيراً فئة من التجار السودانيين وبعض الطبقات الدنيا في السوق؛ كانت الأولى جيدة، بينما كانت الأخرى لا بأس بها إذا بقيت واعية.

تم تسليعنا ببنادق من نوع لى انفيلد ٢٠٢ (Lee Enfield) ، ولحسن الحظ كانت بدون سناكى، وسبق أن تم اعتماد مبلغ لى للمساعدة في تزويد المتطوعين بالزى العسكري الذي كان يتكون من قميص كاكى، وسروال قصير(ردا) ، وقلنسوة (كاب)، وكنا جميعاً نضع على أكتافنا شرائط «شوكولاتية» اللون عليها الأحرف (S.A.F) باللون الأصفر، ولهذا السبب لم يكن مستغرباً أن يطلق علينا (عساكر الشوكولاتة). بالمناسبة فقد صدرت براءة من الحاكم العام بمنحى رتبة «بمباشى مؤقت»، وأصبح إعجابى ينمو ويزداد بفرقة المتطوعين بالفاشر (أو فرقة مشاة بالفور) التى لا زالت ذكرى الكثيرين من أفرادها محفورة في ذهنى. كان هناك العم حجازى، بإشكاتب المركز، ورغم تقدمه في العمر كان أنيقاً في التدريبات العسكرية ومليئاً بحيوية المقاتلين.

وعندما جئت إلى الفاشر لأول مرة كان العم حجازى يفخر بأنه أب لثلاثة عشر طفلاً كلهم أحياء. وفى ذات يوم من الأيام أطلّ على العم حجازى بوجهه المشرق من باب خلف طاولتى يؤدى إلى غرفة حفظ الملفات وقال لى: "سيدى، يسرنى إبلاغك أن عائلة حجازى لم تعد رقماً مشنوماً" !

وكان هناك أيضاً آدم مرجان المعروف بآدم "تُمْتَم" لأنه كان يتأتىه فى الكلام، ومع أنه كان أيضاً رجلاً مهنأ صغير الحجم ونحيفاً، إلا أنه كان متحمساً دائماً ولا يلقى بالاً لتلك التلميحات بأنه لربما يكون قد أصبح عاجزاً بسبب الشيخوخة. وأذكر عندما جاء تمرين الرماية أطلق آدم تسعاً وأربعين طلقة دون إصابة الهدف ولو لمرة واحدة، بل سقط بعضها على مسافة ٢٥ ياردة من فوهة بندقيته، بينما اختفت الأخرى فى اتجاه الإسكندرية! أما الرصاصة الخمسين فقد اخترقت التخته مباشرة فصرخ قائلاً: "هذه الرصاصة قد انطلقت وأنا غير جاهز". وقلت مطمئناً نفسى: "إذا كان مدى إطلاق النار مثل ذلك، فربما يشكل آدم خطراً لعدونا المحتمل".

كان أغلب الكتبة والمحاسبين من النوع الذى يكره الروتين ويصلح الكثيرون منهم للجندية، خاصة المحاسب عبد الله ذى اللحية الخفيفة. أما الإغريق فكانوا أشداء كما ذكرت، وعلى استعداد للاستمتاع بلعبة الجندية ابتداءً من جريجورى مامكوس السمين (Gregory Mamakos) إلى بانثوتى النحيل (Pan-yoti) الذى شارك فى الحرب العالمية الأولى، وكان يعمل خطاباً من ضابطه البريطانى يؤكد ذلك. أما اللبنانيان فقد كان أحدهما - لا أدري كيف أصفه - غير أن أقول إنه كان نوعاً ما أنثوياً فى تصرفاته، وسوف أذكر عنه المزيد فيما بعد.

عندما ساءت الأمور إلى الحد الأقصى شرعنا فى العمل وكنا نتدرب بحماس شديد، ولا زالت تتراعى أمامى صورة جون هايج (John Haig) مساعد

مفتش المركز وهو يقود فرقته المكونة من عشرين فرداً من شرطة المديرية يحمل كل منهم سلاحه مركباً عليه السنك، وينحدر بهم إلى أسفل (القوز) ذلك المنحدر الرملي المؤدى إلى المطار، وكان يجلس خلفهم أمباشيان من فرقة المرب الغربية يضع كل منهما بندقيته (الفيكرز) بين ركبتيه، ويقف إلى جانبيهما قائد الفرقة القائد بيل رانكين (Bill Rankin) ، ومدير المديرية فيل إنجلسون (Phil Ingleson) . كان جون هيج يسير بكل فخر واعتزاز، ويحق له أن يفعل ذلك، فقد كاد جنوده السبعة وعشرون يقضون سداً بين بقية أفريقيها ولفتيان قيصر العصر الحصين المتمرس بعيداً في العوينات شمالاً، بينما كان الفرنسيون إلى الغرب يضعون رجلاً على المركب والأخرى على الطوف، بعدم ارتياح واضح. كان الهدف من تلك التمارين أن تظهر في ظرف معين خاصة عندما يستدعى الموقف الزحف السريع إلى أسفل التلال حتى تتمكن من عمل التغطية النارية اللازمة، وكنت أعلم ما يدور بالضبط في ذهن جون هيج، وسره أن يعلم أن بيل رانكين وفيل إنجلسون يدركان ما هو مطلوب منهما، وكان يريد أن يتأكد ما إذا كان الأمباشيان يعلمان أيضاً ما يفعلان. كنت أعلم أن جون كان يفكر في ذلك، وإذا سارت الأمور على ما يرام كان المطلوب مني أن أقوم بتكرار التمرين مع فرقة المتطوعين الذين كانوا يسيرون خلفي على قمة القوز. كانت النتيجة بالطبع أننا نجونا جميعاً، ولم يصب أي منا بضرر أو أذى.

مع استمرار الحرب تحسنت الأحوال، فقد تم أولاً وقف زحف الطليان وصددهم، ثم انضم الفرنسيون في أفريقيا الوسطى إلى جانبنا، وأصبح من الصعب بعد ذلك المحافظة على تلك الروح الحماسية. ثم أجبرنا الألمان على التراجع إلى الصحراء الغربية وتمّ لهم غزو اليونان. وجاء في تقارير، لربما تكون غير مؤكدة، أن المظليين الألمان قد أنزلوا في زى قساوسة وراهبات، ولذلك ومن أجل التوزيع في الإجراءات قمت ذات صباح بتقسيم المتطوعين إلى

قسمين أمرت أحدهما، بعد أن تكرر أفرادها، بمحاولة التملل إلى ميدان المسجد حيث كان القسم الآخر يقوم باحتلاله ليمنع دخول أى قادم إليه، ووقفت أنا فى منتصف الميدان لمشاهدة ما يجرى من أحداث، حيث تم تدريجياً التعرف على كل المتسللين وحجزهم. كان جريجورى ماكوس مبتكراً فى زى تاجر سودانى ويفطى وجهه بمنديل كبير كأنما يعانى من ألم فى الأسنان، بينما كان صديقى الملتحى عبيد الله مبتكراً فى زى العرب الرجل، ولكن ذات عليه أن بندقيته المتدلية من كتفه سوف تكون بارزة على ظهره. كان منظره مخيفاً بحق لدرجة أن امرأة فى الشارع أخذت تصرخ: "الحرامى .. الحرامى" مما تسبب فى إلقاء القبض عليه. وفى الواقع ألقى القبض عليهم جميعاً ماعدا سامى (دلالة) الذى لم يظهر فى مسرح الأحداث بتاتا. وعندما فكرت فى الانصراف والعودة إلى المنزل لتناول طعام الإفطار، إذا به أشاهد امرأة يبدو أنها من بائعات الهوى، وترتدى ثوباً من الحرير الفاخر وتفطى وجهها بالكامل، وتتبادل أطراف الحديث مع اثنين من الخفراء، ثم أخذت فجأة تترنح إلى داخل الميدان، وما لبثت أن أخرجت من داخل ثيابها بندقية ٢٠٢.٠، وبدأت فى تحريك الزناد وإطلاق النار. من يكون هذا غير سامى دلالة الذى استطاع أن يهزمنا جميعاً!

بعد ذلك بفترة قصيرة تم نقلى إلى مدينة الجنينة الحدودية ليتمكن (المعتمد) من أخذ إجازته التى كان ينتظرها طويلاً. لقد كان يطلق عليه لقب (المعتمد) وليس مفتش المركز، لأن السلطان المحلى كان قد أبرم معاهدة مع حكومة السودان فى السنوات الماضية تحت ضغط الفرنسيين وظل مستقلاً اسماً.

كانت توجد بالجنينة زرافة مستأنسة نالت إعجاب السواح طوال سنوات ما قبل الحرب، ولو أنتى لم أكن أعرف شيئاً عن تاريخها. وكانت أول مرة أراها

فيها عندما أطل رأس من خلال النافذة أثناء تناولى طعام الإفطار، ويتدلى منه لسان أسود طويل يلتهم قطعة من الخبز المحمص ( كنت أسكن في الاستراحة التى لم يكن بها شبكا واقياً من البعوض). ثم رأيتها مرة أخرى بعد يومين بالقرب من مكاتب المركز وهي تتجول بهدوء في الطريق ولكن يبرز من فخذها نصل رمح. قلت لنفسى: "يا إلهى، ماذا أفعل الآن؟"، فإذا أطلقت عليها النار فسوف يذكرنى الجميع بأننى (الرجل الذى قتل زرافة الجنيّة)، وإذا تركتها تموت فسوف أكون عرضة لوصفى بالخذى والمار لأننى لم أفعل شيئاً لإنقاذ الحيوان من معاناته. ومن ناحية أخرى كنت أعلم أن رفسة الزرافة تقصم ظهر الأسد، لذلك لم أتحمس لاقتلاع الرمح والزرافة لا زالت تتمتع بكامل قدراتها. وعليه ناقشت الأمر مع الدكتور عتيانى المفتش الطبى وقلت له: "أعلم انك لن تستطيع تخديرها دون مساعدة سلم متقل، ولا اعتقد أنه لديك شيء يمكنك أن تطعمها به فيجعلها تقام لفترة طويلة ريثما يتم استخراج الرمح، فأجابنى موافقا. وبكل مشاعر الحزن بدأت عملى اليومى بإرسال برقية إلى المفتش البيطرى بالفاشر استفسر ما إذا كان بإمكانه اقتراح أى شيء. وقبل أن أتلقي الرد جابنى جامنى دكتور عتيانى فى المكتب وقال لى: "كله تمام، لقد أخرجت الحرية". فقلت له وأنا اشمع بالارتياح: "كيف أمكنك ذلك؟" فقال: "أمرت أحد المساجين فقام بإخراجها" هكذا بكل بساطة.

بالرغم من معوقات الحرب، إلا أنه كان لا بد من إدارة شئون البلد بصورة عادية. ولم تمض فترة طويلة حتى قام الحاكم العام السير/ هيوبرت هدلستون (Sir Hubert Huddleston) بزيارة إلى المديرية، وكان الرجل أحد المتفذين فى إعادة فتح دارفور عام ١٩١٦، ويتمتع بحب واحترام جميع المحيطين به. ونظراً لخبرائى السابقة عن المنطقة، فقد طلب منى العودة إلى نيالا للمساعدة فى الإعداد للاستقبال الرسمى هناك. ولعل أهم شيء لا زال

عالقاً بذاكرتى عن فعاليات ذلك الاستقبال هو دخولنا إلى (أبو جابرة) حاضرة قبيلة الرزيقات آنذاك دخول الأبطال الفاتحين، فقد جعلنا الناظر/ إبراهيم موسى نشعر بالفخر والاعتزاز حيث اصطف فرسان البقارة على الطريق الترابى المؤدى إلى القرية وهم يمتطون صهوات جيادهم، وكان كل منهم مسلحاً بشلكاية طولها عشرة أقدام. وحتى نتمكن من استقبال الحاكم العام قبل وصوله إلى هذا الممر البشرى، فقد وقفنا، مدير المديرية، ومفتشا المركزين، وشخصى، بزينا الرسمى مع حرس الشرف بقيادة أحد أشقاء الناظر الذى كان يرتدى درعاً صليبيًا مزروداً، ويتسلح بالشلكاية أيضاً. وبعد أن مرت من أمامنا السيارة المكشوفة التى كانت تقل الحاكم العام، سرنا خلفها بخيولنا فى خيب راثع جميل، وكنت أنا فى مؤخرة الموكب، فالتقيت بنظرة بلهاء عجلت إلى الخلف، فإذا بى أجد الحرس فى أعقابى مباشرة، وكانت أقرب شلكاية لا تبعد عن عظمة كتفى سوى بضعة أقدام، فقلت لنفسى: "ماذا لو كبا حصانى أو توقف فجأة، لكنت إذن هالكا لا محالة". بعد ذلك ركزت نظرى إلى الأمام وقد تملكنى شعور ذلك الرجل فى قصة "البحار المجوز" الذى لم يجزؤ على الالتفات برأسه خوفاً من أن يطأه العفريت من الخلف!

أعلن فى وقت ما عن وجود مجاعة، رغم أننى لم لاحظ أى مؤشر يدل على ذلك، فلم يظهر على الناس أى نوع من الضمور، ولم يرد ما يفيد بوجود نقص فى المريسة (نوع من الخمر المحلية) ولم يزل المتطوعون من عناصر السوق يأتون إلى العرض المسمى وهم سكارى، ولكن بالرغم من ذلك أبلغنا بوجود مجاعة فعلية. لذلك قامت الحكومة بتوفير كميات من الذرة لبيعها بالتموين إلى المحتاجين من سكان الفاشر بواقع رطلين فى اليوم للشخص الواحد. وفى أول يوم للتوزيع كادت أن تحدث مجزرة، لذلك طلب منى فى اليوم الثانى أن أتولى هذه المسئولية، فكان العمل يبدأ فى السادسة صباحاً

ويستمر حتى الظهر ومعنى ذلك أنه لم تكن هناك قسمة للفظور، وهكذا كانت الخدمة بالنسبة لنا هي "كلمة السر". كانت أى محاولة لإقناع ٤٠٠ امرأة سودانية للانتظام فى صف من أجل استلام تموينتهن، مع مراقبة عدم عودتهن للوقوف فى آخر الصف من جديد، تحتاج إلى بذل مجهود كبير، ولكن بالرغم من ذلك كما تنجز عملنا يومياً دون أن نفقد أعصابنا، بل والأعجب من ذلك دون أن نمزقنى النسوة المسترجلات الحائقات!

تم نقلى فى فبراير ١٩٤٢ إلى راجا . أحد الأماكن النائية فى البلاد . التى كانت فى السابق مقراً لرقاسة مركز غرب مديرية بحر الفزال، وبعد دمج المديرية مع الاستوائية أغلقت مكاتب المركز ونقلت إلى مدينة واو، ولكن أعيد فتحها مرة أخرى وأصبحت أنا المسئول عن المنطقة التى قيل إنها تماثل إنجلترا فى مساحتها باستثناء مقاطعة يوركشير (لن يصدق أهالى يوركشير أن إنجلترا يمكن أن تكون بدون يوركشير)، ولكن كان تعداد سكانها يبلغ ٦٠.٠٠٠ نسمة فقط، وهم بقايا قبائل قديمة كانت كثيفة المدد فى يوم ما، ولكنها أوشكت على الفناء من جراء السلب والنهب اللذين كان يمارسهما التجار الشماليون فى القرن التاسع عشر، وهى قبائل زنجية تمشى فى الغابة ويعتمد أفرادها على الزراعة والصيد وجمع عسل النحل، ولم يعرفوا تربية الحيوانات بسبب انتشار ذبابة التسي تسي فى الغابة. غير أنى بالرغم من ذلك استطعت الاحتفاظ ببعض الخيول فى راجا بالذات بعد أن تم تقليص الغابة، ولكن كنت أستخدمها فى جولاتى أثناء موسم الجفاف فقط، حيث يتقل ذباب التسي تسي ذهاباً وإياباً مع الأمطار. ولنفس هذا السبب كنت عندما أحتاج إلى شئ من اللحوم، أستجلب بعض الأبقار من منطقة البقارة فى موسم الجفاف لتلبية حاجة المجتمع المحلى فى راجا أثناء فصل الأمطار، والذي لحسن الحظ لم يكن عدد أفراد كبيراً، فقد كان يتكون من ثلاثة تجار أغاريق، ورجال الشرطة، وموظف

حكومى، ومحاسب، وأمين مخزن، ومساعد طبي، وثلاثة ممرضين عموميين، بالإضافة إلى شخصى والخدامين. كما كانت توجد عبر النهر بعثة تبشير من الكاثوليك الرومان تتكون من اثنين من القساوسة وواعظ دينى. كانت هناك أوامر حكومية مشددة بعدم السماح لأى شخص آخر بالسكن فى حدود ميلين من المركز، وذلك منعاً لعمو أى نوع من السكن العشوائى الذى لربما يجمع بمطبات المنبتين قبلياً التى كانت تحيط بأى مركز حكومى فى أفريقيا متى ما وجدت فرصة لذلك. قد تعتبر مثل هذه الأوامر متعسفة، ولربما لا يطبقها الناس فى الوقت الحاضر، ولكنها أدت إلى وقاية المجتمع من الفساد، ومهما قال الناس عنها، فقد كانت عملاً جيداً، ويكفى أنه لم يكن فى راجا من ينام داخل صناديق الكرتون على قارعة الطريق.

كان الجزء المأهول بالسكان فى منطقة المركز يشمل طريقاً يمتد إلى مسافة ٢٥٠ ميلاً داخل الغابة، ويمش السكان على جانبيه فى قرى صغيرة متناثرة، أو بالنسبة لقبيلة الباندى، فى مجموعة من الأكواخ المنتشرة على مساحة ميل أو نحو ذلك. وكان قد تم فى السابق ترحيل السكان إلى جانبي الطريق كإجراء وقائى ضد مرض النوم، وأصبح من مصلحة كل شخص الآن الإقامة هناك لتسهيل المواصلات، مع أن ذلك لم يمنع أعداداً كبيرة من السكان من اللجوء إلى داخل الغابة فور الفراغ من حصاد محصول الذرة، وذلك لأجل الصيد وجمع المعمل، وكان يحدث ذلك فى الغالب كلما احتجنا إلى مساعدة لترميم بعض الطرق. كان الطريق يمتد إلى مسافة ٨٠ ميلاً تقريباً إلى الغرب من راجا وينتهى فى قرية أطلق عليها البريطانيون اسم "نهاية العالم"، حيث يمكنك أن تقف هناك مثلما فعل الشاعر كيتس (Keats) "على أطراف أصابع قدميك فوق تل صغير" لتشاهد بحراً متلاطماً من رؤوس الأشجار، مع أنك تعلم فى ذات الوقت أنك سوف تستغرق أحد عشر يوماً لتصل إلى أول منطقة

مأهولة بالسكان في الاستوائية الفرنسية. كانت الاجتماعات تعقد مع رجال الإدارة الفرنسيين في أرض فضاء تقع في منتصف المسافة بين الجانبين، ولكنها كانت قد توقفت حينئذ، ومع أنه قد جرت محاولة قبل عام أو عامين من وصولي لاستئنافها مرة أخرى، إلا أنها قد باءت بالفشل، فقد أطلمت على مذكرة في الملفات تقول إنه "يمتد أن الأشخاص الذين أرسلوا إلى هناك قد أكلتهم السباع".

كذلك كان هناك شارع يمتد إلى الشمال من راجا ليصل إلى منطقة أويل المجاورة موطن قبائل الدينكا النيلية التي يتميز أفرادها بطول القامة. ويصل هذا الطريق إلى نهاية حدود المركز بالقرب من بحيرة أكانا (Acana) الجميلة التي هي أحد منعطفات بحر العرب. وكان مفتش مركز أويل يحتفظ بقارب له في تلك البحيرة، وكنا نلتقي هناك من وقت لآخر لإنهاء أية معاملات رسمية قد تطرأ بين الجانبين. وأثناء عملنا كانت زوجته تخرج بالقارب لصيد السمك في البحيرة التي تمج بنوع من الأسماك النيلية الضخمة لذينة المذاق، مع نوع آخر مقاتل شرس لا يؤكل.

أذكر في إحدى المرات بينما كنا نجلس في ظل الأشجار، ونقوم بإجراء التحريات في جريمة قتل كان المتهم فيها أحد رعايا مركزنا، إذا برجل يقبل علينا مسرعاً من ضفة البحيرة ليقول لنا: "تمالوا بسرعة! الست تصارع شيئاً كبيراً وغير قادرة عليه". لذلك أوقفنا التحقيق فوراً ونزلنا جميعاً إلى الشاطئ، فوجدنا هناك سيملى ستبس (Cicely Stubbs) تجلس في مؤخرة القارب وتشبث بقضيب معدني محني في شكل U، بينما كان الرجل الذي يتولى التجديف يقوم بعمله في همة ونشاط ويحاول توجيه القارب إلى اتجاه معين، ولكني أقسم أن القارب كان يسير في الاتجاه المضاد. لذلك ما كان من جيم ستبس (Jim Stubbs) إلا أن قفز إلى أحد الزوارق الراسية على الشاطئ،

يلحق به رجل آخر تولى مهمة التجديف ليسعفا القارب الآخر. وعندما بلغنا منتصف المسافة إذا بى اكتشف أن الرجل الذى يقوم بالتجديف هو نفسه المتهم بارتكاب جريمة القتل!

على أية حال، أياً كان ذلك الشيء الذى كان موجوداً فى نهاية الصنارة، فإنه لم يعد له أثر هناك، ولذلك عدنا لمواصلة التحقيق فى الجريمة. وبعد عامين أو ثلاثة، وعندما أصبحت مسئولاً عن مدينة واو بالإضافة إلى مركز راجا، قابلت المتهم فى سجن المديرية يقضى فترة العقوبة بعد أن اتخذت العدالة مجراها، وقد بدا لى أنه كان مقتنعاً بالعقوبة تماماً، ولكنه عبر عن اعتقاده بأن الحكم عليه بمشتر سنوات ثقيل عليه لأنه كما قال: " لم يكن خطأى أن تفقد الست سمكتها."

كان الجزء الرئيسى من شبكة الطرق فى راجا يقع فى اتجاه الجنوب الشرقى ليقطع مسافة ٢١٠ ميلاً حتى يصل مدينة واو التى كانت بها رئاسة المديرية، ثم أعيد ضمها إلى مركز راجا بعد عام من استلامى المسئولية. كما كان هناك طريق آخر طوله حوالى خمسون أو ستون ميلاً يتجه من واو شمالاً إلى حدود مركز يامبهبو. غير أن طريق راجا . واو كان يسبب لنا صداماً مستديماً، ذلك أنه كان يمتد عبر مستجمع لمياه الأمطار مما يعنى وجود خمسة أنهار رئيسية يجب أن يعبرها الطريق. ولكن لحسن الحظ قبل فترة قصيرة من اندلاع الحرب العالمية الثانية، تولى أحد الأشخاص إجراء بعض الاتصالات فائير سؤال فى المجلس حول هذا الطريق، وأحدث ذلك ضجة كبرى، وكانت النتيجة أن قامت مصلحة الأشغال العامة ببناء خمسة جسور دائمة مع الالتزام بصيانتها. وأثناء فترة رئاستى للمركز كانت مصلحة الأشغال العامة تتولى الإشراف على صيانة هذه الجسور، أما الطرق الفرعية فكانت تقع ضمن اختصاصى. لقد أدرك أهالى القرى الواقعة على امتداد الطريق أنه لى

يستمر تصدير منتوجاتهم واستيراد احتياجاتهم من الملابس وغيرها، فلا بد أن يظل الطريق مفتوحاً على الأقل أثناء فصل الجفاف، ولذلك كانوا على استعداد لتوفير عمال بالأجر اليومي للقيام بأعمال الترميمات الخفيفة وإزالة الحشائش عن الطريق، وكانوا يستقلون ما يحصلون عليه من أجر في سداد ضرائبهم وشراء احتياجاتهم، ولكن بمجرد أن يجمعوا ما يكفى سداد قيمة هذه الاحتياجات، كانوا يدخلون القابة ولا يظهر مرة أخرى إلى أن يحل موسم الزراعة التالى. عندما يشتد هطول الأمطار كنا نبقي محتجزين في راجا لما يقرب من ثلاثة أشهر، ومع أنه كان بالإمكان استخدام الطريق باحتراس، إلا أن ذلك كان عملاً محفوفاً بالمخاطر قد يمرض المرء للوحد في الطين لساعات طويلة، علاوة على هطول الأمطار ولسمات ذبابة التسي تسي. وحدث ذات مرة أن حاولت الذهاب من واو إلى راجا بينما كان موسم الأمطار على أشده، فقطعت مسافة الطريق وقدرها ٢١٠ ميلاً في ثمانية أيام. وفي مرة أخرى بينما كان اللورى يشق طريقه وسط الحشائش التى كان طولها يتجاوز رأس اللورى، ولم يكن مدى الرؤية يتعدى ثلاث ياردات، إذا بعدد من المخلوقات الصغيرة تظهر فجأة تحت عجلات العربة وهى تقفز من مكان إلى آخر فى كل الاتجاهات. "قف"، قلت للسائق، "إنك بهذه الطريقة تقتل المواطنين"، ولكن اتضح فى نهاية الأمر أنها مجموعة من القروء استطاعت أن تتجو من الهلاك بسلام.

كان على أن استلم المركز من ديفيد إيفانز (David Evans) الذى أشعر دائماً أنه كان أحد ضحايا القدر إن لم أقل حكومة السودان. لقد كان هو رجل الاستمرارية فى المركز من خلال عمله كمساعد لخمسة مفتشين توالوا سريعاً على المركز، وكان مفرماً بالمكان، وبالرغم مما كان يشعر به من إحساس بالإحباط والتبيط تجاه أى شخص يعتقد أنه من الأغبياء، إلا أنه قد أنجز

الكثير من أجل هذا المكان الذى أحبه. لقد حول مدينة واو من وكر قذر للطفيليات إلى مدينة صغيرة جيدة التخطيط والبناء، ووفر لسكانها أعمالاً مناسبة داخل حدود مدينتهم. كما قام بتصميم وتشبيد العديد من الاستراحات على طول الطريق من واو إلى راجا. وكان ذلك الصرح الضخم الذى صممه وتم بناؤه بالطوب على شاطئ نهر السوياط بمساعدة الإرسالية المحلية مصدر فخره وسروره، ثم اتجه بعد ذلك إلى راجا ليجدد شبابها، ولتصبح رئاسة للمركز من جديد.

عندما وصلت وجدت ديفيد مشغولاً بإعادة تنظيم مباني المركز، وتخطيط نوع جديد من السجن الريفي يتكون من أكواخ متينة البناء ومحاطة بالأسلاك الشائكة. وبعد أن تبادلنا التحية، وتجاذبنا بعض أطراف الحديث قلت له: "أريد الآن إنزال أمتعتي القليلة"، وسألته عن مكان سكني، فقال: "أوه! لقد قمت لتوى بهدمه، وسنسكن في مبانٍ من القش إلى أن أتفرغ لبناء مسكن جديد لك". ولمعرفتي بصديقي ديفيد إيفانز، لم أبد أى نوع من الاعتراض أو الاحتجاج، وعلى كل حال لم يكن يهمنى كثيراً أين أسكن طالما أننا لم نزل في فصل الجفاف.

بعد ذلك خرجنا معاً في جولة حول مدينة راجا المظيمة؛ أربعة متاجر وجزارة جميعها تحت سقف واحد من القش، وكان أصحاب تلك المتاجر ثلاثة أغاريق، وسوداني شمالي، ثم مكاتب الشرطة، والمستشفى، والمساكن الخاصة بالمساعد الطبي وموظفي الحكومة، تليها مكاتب المركز، ومبنى السجن الذى كان تحت التشبيد، وكان ذلك كل ما هنالك. أما على الشاطئ الآخر لنهر راجا الذى يستحيل عبوره خلال فصل الأمطار إلا بواسطة عيارة، فكانت توجد مباني إرسالية الكاثوليك الرومان. وأخيراً وصلنا إلى المكان الذى سيكون في النهاية مسكناً لى، وهو عبارة عن (ظهر تور) كانت تشغله مكاتب المركز حتى ذلك الوقت.

دخلنا الغرفة الأولى التي كان لا يزال يوجد بها طاولة مكتب عليها حاملان للمكاتبات الواردة والصادرة، وبجانبيها كرسي. وبعد برهة قال ديفيد: "توجد رائحة غريبة هنا. وقبل أن أحاول منعه تناول عوداً طويلاً من القنا وربط في رأسه سكيناً شق بها قماش السقف من أعلى إلى أسفل، فسقط النصفان على الأرض ليخرج من بينهما طنان من براز الطلويط، وأربعة فئران ميتة، وبومة على قيد الحياة حطت أولاً على طبق الرسائل الصادرة ورمقتى بنظرة باردة، ثم اختفت في فضاء المالم الخارجي. ومما يجدر ذكره هنا أن ديفيد قد استفاد من هيكل هذا المبنى فصمم وشهد عليه منزلاً أبعد فيه بصورة لا مثيل لها من حيث مكافحة مصدري الإزعاج المتمثلين في الطلويط والباعوض. لقد سكنت في هذا المنزل في راحة تامة طوال فترة السنوات الثلاث التالية.

لقد فضلت، أثناء انشغال ديفيد في أعمال إعادة التشييد، أن أخرج في جولة بمفردي، خاصة وأن تلك الأيام كانت هي أيام "السياسة الجنوبية"، وكان من الأهمية معرفة إلى أي مدى يمكن أن يكون التسلل إلى منطقة العرب البقارة مشروطاً بجفاف آبار النهر، أو بفصل الجفاف الذي يتجه إلى الشمال الغربي من بحيرة أكانا. لم يسبق لموظف بريطاني أن قام بزيارة تلك المنطقة، ولذلك رأيت أن أقوم بعمل خرائط تخطيطية أثناء الجولة، فأرسلت خيولي لتسبقني إلى البحيرة، وطلبت من بعض أفراد قبيلة (فيروجي) مقابلتي هناك حيث وصلت إليهم فيما بعد باللوري. ولحسن الحظ كان جيم ستبس (Jim Stubbs) في زيارة إلى المنطقة أيضاً، فأخذني إلى قمة أحد التلال المجاورة حيث أمكننا من هناك أن نشاهد مجرى الخور، ودخلت بعد ذلك في التعميدات الخاصة برسم الخرائط (الوقت والبوصلة).

استغرق السير إلى أعالي الخور أربعة أيام، وكان للفيروجي طريقتهم الخاصة في حمل المتاع، إذ كانوا يأخذون الفرع الأوسط من أشجار الرافيا التي لا أعرف

الاسم الذى يطلق عليها فى علم النبات، فيستخرجون منه عموداً يتراوح طوله بين ١٢ - ١٥ قدماً، ثم يريطون الجزء الأثقل من الحمل إلى الطرف الغليظ من العمود، والجزء الأخف إلى الطرف الآخر الرقيق على بعد بضعة أقدام لحفظ التوازن، ثم يضعون العمود بثقله على أكتافهم مع جعل الجانب الأخف فى الأمام ليكون كالمرية أمام الحمار، وكانوا يستطيعون السير بهذا الحمل لمدة أميال. أما أنا فكنت أمتطى حصاناً لكوننا فى منطقة التسمى تسمى. وبما أننى كنت أحاول رسم بعض الخرائط، فكان يتعين على أن أتوقف كثيراً لأخذ قراءات البوصلة. وكان هذا عملاً شاقاً بسبب نحل الميون (معروف لدى البقارة باسم أم بزبوز) وهى كلمة يوحى لفظها بمفناها. والبزبوز نحل أسود صغير لا يلسع ولكنه يتجمع حول المينين بحثاً عن الرطوبة، وعلمت أنه يمكن أن يستخرج منه عسلاً حلو المذاق، غير أنى كنت أتضايق منه لدرجة الجنون.

توقفنا فى الليلة الأولى عند إحدى آبار المياه التى كان ينزل بها فريق من البقارة فوجدنا الأمن مستتباً، وكانت هذه البئر هى أقصى حد فى الجنوب لا يسمع للبقارة بتجاوزه عند سقيهم لحيواناتهم. وبينما كنت أسير عبر الخيمة إلى سريرى، إذا بى اسمع زئير ثلاثة أسود على الأقل يأتى من المكان الذى كنت أستطيع أن أرى فيه ناموسيتى تلمع فى ضوء الفسق، فتملكنتى رغبة عارمة أن التفت إلى الخلف وأطلق النار، ولكنى أحسست أن نظرات البقارة والحمالين تتجه نحو ظهرى، لذلك كان يتوجب على، من أجل الحكم البريطانى ومجده، أن أواصل السير إلى السرير وأخذ إلى النوم. وأعتقد أن الأمور قد سارت بسلام بعد ذلك، مع أننى لا زلت أذكر ذلك الرجل المسمن فى نبالا الذى كان يأتى إلينا دائماً بشكواه المطولة التى لا يقبلها العقل، فقد اعتاد أن يحضر إلى المكتب يقوده صبي صغير، وذلك لأن وجهه بالكامل من جفنيه إلى شفته العليا، كان قد التهمه أحد الضياع أثناء النوم.

بعد عودتي من تلك الجولة بفترة قصيرة سار العمل في راجا على أحسن ما يرام، ولذلك أصبح في إمكاننا - ديفيد إيفانز وأنا - أن نبدأ جولة طويلة أخرى إلى واو بعد اكتمال جولتنا السابقة غرباً إلى "نهاية العالم"، وبعد أن تمقدا القبائل والمحاكم الأهلية بالمنطقة. كما لا نزال نتمكن في مبانى القش، وكانت توجد بمسكن ديفيد فرندة مفتوحة من جانب واحد كما نتناول فيها طعامنا. ولحسن الحظ كان هذا النوع من المساكن متين البناء خاصة وقد بدأ هطول الأمطار مبكراً. خرجنا في عربة بوكس ولوري حتى نتمكن من التغلب على طبيعة طريق راجا القاسية، ووصلنا إلى استراحة (سويو) عند غسق اليوم الأول للرحلة وسط عاصفة رعدية عنيفة. وبعد أن أخذت حماماً استبدلت ملابسى بملابس بيضاء مع الكمر لتناول طعام العشاء، وسرت إلى الفرندة حيث وجدت ديفيد قد سبقنى إلى هناك، فجلست قبالة إلى الطاولة، فقال لى: "هل يمكن أن تتحرك قليلاً حتى أستطيع مشاهدة المناظرة" لا شك أنه كان في ذلك الحين في حالة غير طبيعية، ولكن من يلومه على ذلك، فقد ظل يعمل في ذلك الجو غير الصالح دون أن يأخذ أى إجازة، كما فرض عليه أن يرافق مفتش مركز كان يحتضر وفي حالة هذيان من واو إلى راجا عن طريق البر، ثم عمل تحت رئاسة ثلاثة مفتشين آخرين لم يمكنوا إلا فترات قصيرة، والآن أصبح مفروضاً عليه أن يسلم منطقته الغربية المحبوبة لديه إلى قادم جديد نسبياً. لقد تزوج الرجل فيما بعد، الشيء الذى أنقذ الكثيرين منا الذين اتخذوا نفس هذه الخطوة، من ذلك الوضع الشاذ.

عندما وصلنا إلى واو وجدنا مدير المديرية في زيارة إلى المدينة، وهو رجل واسع المعرفة وكلاسيكى متمكن، وكان أثر ذلك ينعكس على مكاتباته الرسمية حيث كان ينثر فيها بعض المقتبسات اليونانية واللاتينية. لقد أخذنى معه في جولة حول مدينة واو سيراً على الأقدام، وذلك لمشاهدة التحسينات التى أدخلها

عليها ديفيد إيفانز. وأثناء الجولة كان يطنب على القادمين الجدد من الشبان البريطانيين الذين التحقوا بخدمة الحكومة خلال الخمس أو الست سنوات الماضية. ورغم أنه قد أتى عليهم كثيراً، إلا أنه استدرك قائلاً إنهم لن يكونوا مثل أسلافهم، مع أن بعضهم يحمل درجات جامعية في الهندسة، وذكر من هؤلاء شاباً ممتازاً قال إنه يؤدي عملاً رائعاً في المديرية بجوياً ولكنه لا يعرف كلمة لاتينية واحدة، بل ولا حتى عبارة (ما معناه) مما يجعل حياته صعبة. أما بالنسبة لي فلم أعرف معنى هذه الكلمة إلا بعد أن عدت إلى منزل مضيفي وبحثت في قاموسه اللاتيني على أكثر على معناها. وتبين لي أن الشاب المذكور كان يريد فعلاً استغلال سعادة المدير، غير أنه انتابني شعور مخيف ممزوج بالسرور، ذلك أنني كنت أنتمي إلى جيل ينظر إلى مدير المديرية كأنه خليفة للحاكم العام، ولكن بمرور السنين وجدت أن ذلك ربما كان نوعاً من الرياضة يمارسه الكثيرون من أولئك الشبان الجدد من وقت لآخر.

بعد زيارة قصيرة إلى الناحية الجنوبية من مدينة واو، عدنا أدراجنا عن طريق راجا فوجدت أن منزلي لم يكتمل بعد، وأن الأمطار لا زالت تتهمر بغزارة وبدون هوادة. وأذكر في إحدى الليالي، أننا بعد تناول طعام العشاء، جلسنا أنا وديفيد حول الطاولة داخل فرنجة مضادة برتقالية البتروماكس، وكانت الأمطار في الخارج تتهمر بشدة، وفجأة ظهرت من وسط الظلام في الطرف المضيئ من الفرنجة ستة عناكب كثيفة الشعر لم أشاهد مثيلاً لها من قبل، وكانت تختلف في أحجامها حيث كان أكبرها في حجم الطبق الصغير، ومحيط أصفرها حوالى بوصة أو نحو ذلك، ثم وقفت جميعها في صف داخل الفرنجة تنظر إلينا. كان ديفيد في ذلك الوقت مستغرقاً في تفكير عميق كما يحدث غالباً بعد تناوله وجبة العشاء، ولم ينطق بكلمة لمدة عشر دقائق. نظرت إليه، ثم إلى العناكب وبعد ذلك رحت أنصت إلى صوت زخات المطر. وفي هذا

الأثناء تذكرت أن أقرب جار لنا يبعد ٢٠٠ ميل عن مدينة واو، وشعرت وقتها كأننى أحد شخصيات سومرست موم. وبعد يوم أو يومين غادر ديفيد إلى الخرطوم، ثم إلى فلسطين ليقضى أجازته هناك ولينال قسطاً من الراحة والاستجمام. لقد كان كريماً وصبوراً معي، ولذلك عندما كان اللورى الذى يقله يتوارى بين الأشجار تملكتى شعور بالوحشة لم أشعر بمثله من قبل أو من بعد.

كما ذكرت آنفاً كان هناك عدد كبير من القبائل، وأكثرها كان بقايا مبعثرة لمجتمعات كانت قوية فى الماضى قبل ظهور تجارة الرقيق، غير أنها جميعاً كانت تتكلم لغات مختلفة تماماً، ولذلك كان من المستحيل اتباع "السياسة الجنوبية" التى تقضى بضرورة "تعلم لغة المنطقة"، وكان الاتصال بين الناس يتم بلغة عربية تسمى "عربى الجنوب" تشبه اللغة الدارجة. بالإضافة إلى ذلك كانت العديد من اللغات المحلية نغمية، أى أن المعنى يتوقف على صوت الكلمة عند النطق بها. وكان لا بد أن يحدث لى نوع من التشويش من جراء ذلك مثل الذى حدث لأحد القساوسة فى غرب أفريقيا عندما ترجم الترتيلة (مقدس، مقدس، مقدس) إلى اللهجة المحلية، وبعد أن ظل رعاياه يترنمون بها لبضعة أشهر، جاءه أحدهم متسائلاً: "لماذا نغنى مقدس، تمساح، شعر المرأة؟".

كان تفويض السلطات لبعض المحاكم الأهلية أمراً عادياً، وكان يوجد عدد من المحاكم الأهلية تتولى تطبيق العدالة والقانون المحلى وفقاً للمعادات والأعراف العائدة، ولم يكن ذلك سهلاً مع ذلك التنوع البشرى، ولكن كانت المحاكم بقدر الإمكان تغطى تلك المسائل التى يكون فيها الناس من خلفية قبلية واحدة.

تذكرنى محكمة "الكورو" بذلك الوقت الذى فقدت فيه أعصابى وتجاوزت فيه حدود القانون، وفى الحقيقة فقدت أعصابى بصورة بشعة. كانت "الشط" قبيلة منقسمة، يسكن نصفها فى المنطقة الغربية، والنصف الآخر فى شمال

منطقة أويل تحت زعامة رجل يدعى "أوتيوك جوك" وكان يلقب باسم "تشاك تشاك". وكان بين طرفي القبيلة حركة دائبة جيئة وذهاباً، مما نجم عنه وجود عدد كبير من القضايا التي لم تتم تسويتها، وكان معظمها حول دفع المهور وما شابه ذلك. وذات مرة تقدم الزعيم تشاك تشاك بشكوى إلى جيم ستيس ذكر فيها أن جماعته يشكون من عدم توفر العدالة لدى محكمة الكورو، ولذلك اتفقنا أن يأتي إلينا في موعد معين بقائمة توضح القضايا المعلقة، وسوف أكون أنا هناك للتأكد من سير العدالة.

كان الزعيم تشاك تشاك بديناً جداً ولونه أسود جداً، ويخلو وجهه تماماً من أى تعبير، وطوال إجراءات المحاكمة التي بدأت في السابعة والنصف صباحاً واستمرت دون توقف حتى الرابعة والنصف مساءً، كان هو جالساً لم ينطق بكلمة واحدة، أو يسجل أى موافقة أو اعتراض، بل ولم يتحرك حتى عندما شوهد ثعبان أخضر يتدلى من شجرة سقف دار المحكمة على رأسى مباشرة. لم يكن من عادات القبائل النيلية أن يشارك الزعيم في نظر القضايا، وإنما كان يتولى هذه المهمة مندوب الزعيم. غير أن المتحدث بلسان الزعيم تشاك تشاك كان رجلاً مهذاراً وكذوباً، وينبئ وجهه عن أكنوبة كبيرة. واصلنا النظر في القضايا الواحدة تلو الأخرى، وكان النطق بالحكم يتم بعد التداول. وأخيراً عند الرابعة والنصف مساءً كانت هناك فترة صمت فسألت: "هل انتهت كل القضايا؟"، قالوا: "نعم"، فتحدثت بارتياح، وجمعت أوراقى وسرت إلى الاستراحة في أعلى التل على أمل أن أجد فيها حماماً وشيئاً يؤكل، لا سيما وأننى لم أتناول شيء منذ وجبة الفطار. وفي منتصف المسافة إلى التل لاحظت أن الزعيم تشاك تشاك كان يتبعنى، فتوقفت عن السير لأعرف ماذا يريد، خاصة وأنه كان من حقه أن يتحدث معى مباشرة بعيداً عن دار المحكمة، فقال لى: "نحن لسنا راضين عن القضية التي دفعت فيها البندقية كمهر ولم تسترد

البندقية بمد الطلاق، قلت له: "ولكننا قد قمنا بتسوية هذه القضية ولدى  
مذكرة بها، فقال: لا، ليست تلك القضية، هذه قضية أخرى. فقلت: "وأنت لم  
تذكر ذلك عندما سألت أنا هل انتهت كل القضايا؟ قال: لا، وهنا أخشى أن  
أكون قد فقدت السيطرة على نفسي إذ صرخت فيه باللغة الإنجليزية قائلاً:  
"إذن أنت أكبر غبي أسود"، ولأول مرة بدأت قسماً وجهه تتحرك لتفرج عن  
ابتسامة عريضة، ثم قال: نعم "Yais" هكذا نطقها باللغة الإنجليزية. قمنا بمد  
ذلك بتسوية القضية بطريقة ما، لا أذكر التفاصيل الآن، ولكن عندما أرسلت  
إلى جيم ستبس تقريراً عن تفاصيل القضية أضفت ملاحظة هنا: فيها  
زعماء القبائل لديه على المفاهيم بمصطلحات اللغة الإنجليزية.

أثناء إقامتي في المنطقة الغربية حاولت تطوير تفويض السلطات، وذلك  
باستحداث محكمتين جماعيتين، إحداهما ابتدائية والأخرى للاستئناف  
تعتقدان جلسائهما أربعة مرات في العام، ويحضرها جميع زعماء القبائل في  
المنطقة الذين كانوا أداة قيمة لنشر سياسة الدولة ومناقشتها، وأصبحوا فيما  
بعد يمثلون الأساس الذي تقوم عليه مجالس الحكم المحلي.

وأذكر بالذات إحدى هذه القضايا. كان الزواج المسيحي يسبب بعض  
المشاكل للإدارة، وذلك لأن الطلاق محرم وفقاً لمذهب الكاثوليك الرومان، ومن  
جهة أخرى إذا انهار الزواج دون إنجاب أطفال، فكان ذلك يسبب مشكلة كبيرة  
للزوجين لأنهما عندما يتوفيان لن يكون هناك من يقوم بتوفيرهما كإسلاف له،  
ولذلك كانوا يحثون بشدة على إعادة الزواج. لقد التفت الحكومة على هذه  
الناحية بإيجاد حل وسط، ربما يكون غير قانوني، فعندما كانت تمرض قضية  
طلاق على المحكمة، ويتضح أن الزوجين قد تزوجا وفقاً للديانة المسيحية، تقوم  
المحكمة بإحالة القضية إلى مفتش المركز، الذي يقوم بدوره بالاتصال بأقرب  
قسيس ويمنحه مهلة شهر للتوفيق بين الطرفين، وإذا لم تسفر جهود القسيس

عن أى صلح، فعندئذ يسمح بالسير فى إجراءات الطلاق المدنى، ويترك للزوجين كيفية التصرف حسب ما يمليه ضميرهما. ونظراً لنقص الموظفين أثناء فترة الحرب، ولتزايد ضغط العمل، فلم أتمكن من مراجعة أعمال المحكمة بصفة متواصلة كما كان يجب. غير أنى فى إحدى المرات وجدت أن إحدى المحاكم قد أخذت الأمور بيديها كما اتضح لى من القيد التالى: شكت هذه المرأة من أن زوجها رجل مهم (important) وكان تعنى بالطبع (impotent) أى عاجزاً جنسياً، فأرسل زوجها إلى الفحص الطبى بواو حيث اتضح أن (قضيبي) ميت. قامت المحكمة بإحالة الموضوع إلى إرسالية الكاثوليك الرومان ببسرى التى ردت بأنها سوف ترفع الأمر إلى البابا. المحكمة فى انتظار تقرير البابا.

كانت هناك دورة سنوية محددة فى حياة الناس بالمنطقة القريبة، إذ أنه اعتباراً من شهر مارس، إذا كان الرجال مشغولين بمعمل آخر، فإنهم يأمرون النساء للقيام بتنظيف مساحات كبيرة من الأراضي استعداداً للزراعة. ثم يبدأ هطول الأمطار فى أبريل، فيقوم الرجال بزراعة الذرة بأنفسهم أو يتركون ذلك للنساء. أما إذا بدأت الأمطار مبكراً، فيتمين على الجميع العمل معاً بهمة واجتهاد لإزالة الحشائش الضارة، ومطاردة الطيور وحيوانات الغابة خشية أن تتلف الزراعة. وفى أكتوبر يبدأ حصاد الذرة، ومع بداية ديسمبر يكون قد تم جمع المحصول، وعندئذ لا يكاد يكون فى القرية رجل، أو امرأة، أو طفل إلا ويكون ثملاً، ومن يلومهم على ذلك؟ أما فى أثناء بقية فصل الجفاف، وحتى بداية هطول الأمطار من جديد، فيذهب معظم الرجال إلى الغابة للصيد أو جمع العسل وشمع النحل.

لقد أمضيت أكثر من ثلاث سنوات فى المنطقة القريبة، ولا يزال هناك شيان عالقين بذاكرتى بوضوح، هما السحر وحى الماريا. كان السكان المحليون، مثل كل المجموعات البدائية التى تعيش فى الغابة، يؤمنون بالسحر، ولربما كان لذلك

علاقة بالأشجار. كان الواحد منهم يمكن أن يعرض نفسه للموت لجرد اعتقاده بأن عدواً له قد وضع له سحراً. وكانت القضايا المتعلقة بأعمال السحر تعرض على المحاكم، وهناك طقوس معروفة لإزالة السحر يقوم بها في المادة من اتهم بعمل السحر، وكل من يرفض القيام بالعمل المطلوب يواجه عقوبة السجن، وكانت هذه من الممارسات المحلية المسموح بها، ذلك أن المتهم يكون أكثر أماناً داخل السجن مما لو كان خارج السجن. وحدث قبل عام أو عامين من وصولي أن قام رجل بإلقاء امرأة في بئر لاعتقاده بأنها ساحرة، وبالرغم من صرخاتها التي كانت تسمع في القرية طوال يومين، إلا أنه لم يتحرك أحد لإنقاذها، وقد أدى ذلك في النهاية إلى فصل زعيم القبيلة من الخدمة.

كنت مرة أجلس للنظر في قضية بيلاد (كبالا ناك) وكان الشاكي رجلاً له بطن ضخمة منتفخة، بينما كانت زوجته هي المتهمة التي حكم عليها بأن تبصق بالماء على الزوج لتؤكد بذلك أنها لم تعد تحقد عليه أو تعاديه، وأنه إذا حدث له أي مكروه بعد ذلك فهو من الإله. وبعد أن انتهت المحاكمة انتابني شعور بأنني لم أفهم ما جرى في المحكمة، ولكن بعد أن قمت بتوجيه بعض الأسئلة إلى المحكمة وجدت أنني معق في شعوري. لقد بصقت المرأة على زوجها بالماء فجعلته حاملاً، واعترفت بأنها مدنية، وقالت إنها لم تكن تتوقع أن سحرها سوف يأتي بهذه النتيجة المخالفة للمادة. ثم سألت أعضاء المحكمة إذا كانوا يصدقون تلك الحكاية فأجابوا: "نعم طبعاً، لقد اعترفت المرأة نفسها بأنها قد سحرت الزوج، وما عليك إلا أن تنظر إلى الرجل لترى صدق ما قالت". اعتقد أن الرجل المسكين كان مصاباً بمرض الاستسقاء، ولكن نظراً إلى أنه قد رفض بإصرار الذهاب إلى المستشفى فلم يتسنى لي التأكد من حقيقة المرض.

إن السحر دائماً أداة للأعمال الشريرة فقط، فقد كانت هناك قبيلة تسمى "الباندا"، أو على وجه الدقة كانت فرعاً من أمة الباندا التي كان يسكن

أغلبها في الكونغو. وكان من الخصائص البارزة لهؤلاء الناس أن كل الرجال يكرهون النساء وكل النساء يشتمزن من الرجال. وفي مرة أثرت هذه الملاحظة مع أحد علماء الفسيولوجيا فقال لي: "لا بد أن تكون الاستشارة البيولوجية لديهم قوية جداً بحيث أنها تمكنهم من الاستمرار في البقاء". ومهما كان الأمر فمما لا شك فيه أن الرجال كانوا يعاملون النساء بيفض وكراهية، ولورد على ذلك، اخترعت النساء سحراً يسمى (يليدا Yilida) وكان أثره نافذاً بدرجة كبيرة، ويكفى أن تستدعي الزوجة هذا الـ (يليدا) لهجمل زوجها يقف في مكانه كالميت، ويمتنع من استعمال أى شكل من أشكال القوة ضدها. ربما يرغب أنصار المساواة بين الجنسين متابعة هذا الأمر، غير أن شعائر هذه الطبقة كانت من القذاذة بدرجة لا توصف، كما رواها لي الأب بالكنيسة الكاثوليكية، وأخشى أن فكرة "الهمجي النبيل" The Noble Savage كانت مجرد اختلاق في مخيلة "روسو". لم أسمع في حياتي دقائق طبول الباندا، ولكنى كنت أتطلع إلى معرفة شيء عنهم. وكنت لقد أحببت الباندا كثيراً، فقد كان رجالها يميلون إلى المرح والعمل بروح الفريق. ومع أن نساءهم كن يملن إلى الفسوق والفجور، إلا أن الرجال كانوا يمهرون كيف يتعاملون معهن، ولا زلت أذكر اسمي اثنين من زعمائهم هما "ميالي" و "مبو".

أما بالنسبة إلى الملاريا فقد كانت شيئاً مختلفاً جداً، حيث كان ينتشر في المنطقة القريبة نوع خبيث من الملاريا اعتقد أنه كان يسمى "الملاريا الثلاثية المميتة". لقد كانت مميتة بالتأكيد لأنها ترفع حرارة الشخص المصاب إلى درجة عالية جداً قد تصل إلى ١٠٥، وغالباً ما كانت تؤدي إلى فقدان الوعي. أما فيما يتعلق بي فقد كان يمتد تأثيرها إلى تقيؤ متواصل، ويستمر حتى لا يبقى في المعدة ما يمكن تقيؤه. إنها كانت عملية مؤلة بحق.

كنت أصاب بهذا المرض الكريه مرة كل ثلاثة أشهر تقريباً، وكانت نوبة المرض تستمر يومين أو ثلاثة فقط، يستطيع المرء أن ينهض بعدها مرة أخرى لمواصلة عمله. وكان تناول حبوب "الكينين" للوقاية أمراً مشكوكاً فيه، ذلك أنه إذا نفذت الحبوب أو نسيت تناولها بانتظام، فقد تعرض نفسك إلى خطر الإصابة بحمى (البول الأسود) المميتة. غير أنه مع نهاية فترة عملى فى الجنوب بدأت تظهر حبوب أخرى أكثر فعالية، فقد ظهرت أولاً حبوب (بلاسماكوين plasmaquin) ثم (أتابرين atabrin) بالرغم من أنه قد سرت إشاعة بأن الأخيرة قد تؤدي إلى الجنون مؤقتاً ولكن كنت فى النهاية أتناولها بانتظام، وبالرغم من أنها كانت تحيل لون جسمى إلى الصفار إلا أنها كانت تبقى الحمى تحت السيطرة.

لا زلت أذكر احتفالنا بميد الكريسماس بعد انضمام المنطقة إلى واو. كان دونالد كلارك (Donald Clarke) مفتشاً للمركز حينذاك، ورأى أن يسجل لى زيارة فى راجا بمناسبة الكريسماس، ولضيق الوقت قرر أن يأتى فى عربة بوكس ليقتضى مئى ليلة واحدة فقط ثم يواصل طريقه. وبما أنه قصد أن يسافر خفيفاً، فقد أمر بأن يحضر معه طبائخه وديك رومى، غير أن الطباخ رفض التحرك دون صبيه المساعد، وعندما سئل لماذا، أجاب قائلاً: كما تعلمون أن هناك أزمة لحوم فى راجا، وأعتقد أنه كان يقصد بذلك أن المساعد يمكنه أن يخرج ليصطاد ما يمكن اصطاده، غير أن الملاحظة كان لها وقعاً مخيفاً أيضاً عندما يتذكر المرء أن أفراد الباندا وآخرون كانوا معروفين فى السابق بميلهم إلى أكل لحوم البشر. وفى ليلة الكريسماس أصيب دونالد بالحمى حاد فى أسفل الظهر، بينما علوئقتى أنا نوبة شديدة من الحمى. وفى صباح يوم الكريسماس جاء دونالد إلى غرفتى وظهره محنى إلى النصف ( كان طوله ٦ أقدام و٢ بوصات) فوجئنى أحاول التقيؤ فى جردل دون جدوى. ولكن

بالرغم من كل ذلك استطعنا أن نحتفظ بروح الكريسماس بترديد أغنية " ليربحكم الرب أيها السادة المرحون، لا تدعوا شيئاً يثبط هممكم " وذلك بإيقاع زوجى. كان على دونالد أن يغادر فى اليوم التالى، وبقيت أنا طريح الفراش متوهماً أنتى الجنرال غردون فى انتظار وصول "حملة الإنقاذ" لتأتى إلى بطريق راجا. أما الديك الرومى فيعلم ربنا ماذا حدث له (وكذلك الصبى مساعد الطباخ).

فى مناسبة أخرى كنت وإثنان من المساعدين نشارك فى جلسة استماع عقدت بالاستراحة على بعد أريعين ميلاً للنظر فى قضية تتعلق بجريمة قتل، ولم يكن هناك أدنى شك من الناحية الفنية فى ثبوت الجريمة بالرغم من توافر الظروف المخففة، وقررنا إصدار الحكم بالإعدام مع التوصية بالاسترحام. وفى هذه المرحلة بدأت أشعر برجفة، وأصبحت الفرفة تدور من حولى، ولكنى احتفظت بقدر من الوعي يكفى للنطق بحكم الإعدام، ويأنه من حق المتهم استئناف الحكم، وبعد ذلك انهرت على الطاولة السفرية فى شبه إغماءة، فهرع إلى حارسى المرافق وحملنى وأرقدنى على ظهر لورى ليعود بنا جميعاً إلى واو. وأثناء ذلك لاحظت أن الرجل الذى كان يجلس بجانبى والذي كان يهش النشاب عن وجهى بنصن شجرة مورق هو نفس الرجل الذى حكمت عليه لتوى بالإعدام! طبعاً لم يعدم، وإنما خفف الحكم إلى المؤبد، وكنت أقوم برعايته فى سجن واو.

فى سبتمبر ١٩٤٥ أخطرنا فجأة بأن نأخذ إجازة إلى الوطن بعد غياب دام خمس سنوات. كانت الرحلة طويلة بالنسبة لى؛ ثمانمائة ميل باللورى إلى رئاسة المديرية بجويا، ويضعة أيام بالباخرة إلى كومستى، ثم بالقطار إلى الخرطوم، ومنها بالقطار أيضاً إلى وادى حلفا، ثم بالباخرة إلى أسوان، ثم بالقطار إلى القاهرة، وبالقطار أيضاً إلى الإسكندرية، وأخيراً إلى الوطن عن طريق البحر بالسفن المحمية بقوات عسكرية. وعندما وصلت إلى أرض الوطن

أمسك بي الأطباء، وأمروا لى بإجازة مرضية لمدة شهر بسبب ما أصابنى من ضعف من جراء الملاريا. ومع أنتى لم أكن أشعر بهذا الضعف، ولم أكن راضياً بذلك، إلا أنه كان لا بد من الامتنثال للأوامر. وفى نهاية المطاف بدأت رحلة العودة إلى السودان قبل ثلاثة أيام من حلول أعياد الكريسماس. وبينما كنا نتناول عشاء الكريسماس، جاء كبير المضيفين الاسكتلندى بوجهه العابس إلى غرفة الطعام وقال لنا: "يجب أن تماموا الليلة بملايسكم فهناك غواصة ألمانية فى الخارج" ولم نسمع أكثر من ذلك.

كانت المنطقة القريبة كما هى عندما وصلت إليها، ولكنى أصبت سريماً بنوبة أخرى من الحمى وأنا فى طريق راجا. وفى غضون ذلك أعلن عن انتهاء الحرب مع ألمانيا، وحيث أن حجار البطارية خاصتى قد نفذت، فقد نقل لى الخبر المستر/ لاجوتاريس التاجر الإغريقى. لم يكن هناك الكثير الذى يمكن أن نفعله فى راجا بهذه المناسبة، ولكننا بالرغم ذلك ذبحنا ثوراً، واستطعنا أن نجمع كمية كبيرة من البيرة، وأقمنا لقاء رياضياً شمل الجرى، والقفز، والرمية بالسهم والرمح. قمت أولاً بقيادة موكب النصر حول المركز وقد اشترك فيه جميع أفراد الشرطة (حوالى ٢٨ فرداً) وكنت أتقدم الموكب على صهوة جواد بعد أن جمعنا كل الأعلام التى حصلنا عليها، وطلبت من الجنود أن يرفعوا سواعدهم عالية وينشدوا بكل ما لديهم، وقد فعلوا ذلك. وعندما دلفنا إلى ميدان المرض، تبين لى أنهم كانوا يرددون أغنية بمرى الجنوب، فأرهفت السمع لألتقط ما يقولون، فإذا بكلمات الأغنية عبارة عن نداءات لإحدى فتيات الباندا دون تحديد لى تلاحظ الدليل على رجولة المغنى المميزة. أعتقد أن هناك طوقاً أسوأ من هذه للاحتفال بنهاية الحرب العالمية.

فى وقت ما من ذلك الصيف، علمت بأن أحداً قد أوصى بنقلى إلى الشمال نظراً لكثرة إصابتى بالحمى. كان هذا الخير محزناً لى لأننى كنت مستمتعاً

بالحياة، وقد أحببت المكان والناس، وما كان يهمنى أن أكون وحيداً لفترات طويلة. غير أن الاعتقاد الذى كان سائداً فى ذلك الوقت أن العمل فى الجنوب يدفع بالمرء إلى أن يكون غريب الأطوار وشاذاً فى تصرفاته (باستثناء بارونات الجنوب شديدى المراس مثل جيم ستبس، وحتى هؤلاء كانوا معرضين كذلك). ومن المؤكد أن هذا الاعتقاد كان يستند قدر كبير من الواقع، والأمثلة على ذلك كثيرة منها تلك الحالة، التى سجلت فى مكان آخر، لرجل كان من عادته أن يصيح بهذه العبارة: "هاى تيدلى هاى تى" (Hi tidly hi ti) وكان يتوقع أن يرد عليه الحاضرون سواء كانوا عساكر فى طابور العرض، أو أشخاصاً فى المحكمة القروية، أو حتى موظفين فى الخدمة بقولهم: "بوم بوم" (Pom pom). وكان هناك أيضاً ذلك الرجل الذى كان يصبر أن يحضر له إفطاره فى تمام الساعة التاسعة والنصف مساءً "لتوفير الزمن فى الصباح"، أو ذلك الرجل الذى تنبأ بأن نهاية العالم ستكون فى تمام الساعة الثانية عشرة ظهراً فى يوم معين، وقبل الوقت المحدد بخمس دقائق أخذ كرسيه إلى خارج المكتب وجلس هناك حتى يتمكن من مشاهدة هذا الحدث الفريد. وعند الساعة الثانية عشرة بالضبط حدث أن انهار خلفه سقف المكتب، وكان داخل المبنى فى ذلك الوقت الرجل الذى أصبح مديراً للمديرية فيما بعد، والذى وجد مختبئاً بألممثنان تحت طاولته بالمكتب يدخل غليونه. لا أدري إلى أى مدى استطعت من جانبى أن استسلم لهذا الخطر المهنى، غير أن التصرف الشاذ الذى لا زلت أعيه حتى الآن هو أنني بعد ما حكمت على أحد الأشخاص بالسجن لمدة ١٨ شهراً، قمت نيابة عنه بكتابة عريضة استئناف ضد الحكم لأنه لم يكن هناك من يقوم بهذه المهمة بكفاءة. وكاد الاستئناف أن ينجح حيث جاء الرد من سلطة الاستئناف ليقرأ كما يلى: "تأكيد التحقيق القضائى والحكم، بالرغم من عريضة الاستئناف البارعة التى من الواضح أنه قد كتبها شخص له إلمام بالقانون".

وهكذا عدت إلى الشمال مرة أخرى في شهر سبتمبر ١٩٤٥ .. إلى مدينة القضايف بمديرية كسلا بشرق السودان، ووجدت أنه قد حدثت تغييرات كثيرة في المواقف أثناء غيابي في تلك الأدغال النائية. كانت الحرب بأهدافها المعلنة في الحرية والتحرير، كما نصرَ عليها ميثاق الأطلنطي، قد أيقظت في أذهان المثقفين والمفكرين السودانيين شعوراً بالرغبة في نيل الاستقلال، مما كان يعنى بالطبع الرغبة في التخلص من الحكم البريطاني. أما كيفية تحقيق ذلك فقد كانت تمسّطهم بالقول الطائفي، أي الصراع بين المعتدلين الذين كانوا يوالون السير السيد/ على الميرغني، والمهدويين المواليين للسيد/ عبد الرحمن المهدي.

لست في حاجة إلى أن أتطرق إلى هذا الموضوع بأكثر من ذلك، فقد عالجت من قبل أقلام أكفا من قلمي بكثير، ولكنني أكتفي بالقول إنه كانت هناك دائماً مشاعر مكبوتة، بل وأحياناً عنيفة، كان يمكن أن تتفجر في أي لحظة فتخلق مشكلة لمفتش مركز يكفيه ما كان عليه من ضغوط أخرى كثيرة.

كان مركز القضايف يقع على نفس خط العرض لمدينة الخرطوم، ويمتد إلى الحدود الأثيوبية. وفي أقصى الشمال تقع أبو دليق، وهي مدينة ريفية صغيرة ومركز لرئاسة قبيلة البطاحين المشهورين ببراعتهم في سرقة الإبل، حيث كان هناك مثل يقول: (إذا سلمت على البطحاني فاحسب أصابع يديك). وإلى الجنوب من أبو دليق تمتد البطانة، وهي عبارة عن سهل واسع منبسّط تنطيه المراعي في موسم الأمطار، ثم يصبح جافاً مقفراً في فصل الجفاف، وتتبمثر هنا وهناك تلال تتكون من صخور عارية، ولكنها قليلة ومتباعدة. لقد وصف سلف لي العمل في البطانة كمن يقف متجهاً إلى الشمال، ثم يلتف حول نفسه ٣٦٠ درجة كاملة إلى أن يتجه إلى الشمال مرة أخرى، وأثناء هذه العملية لا يرى شيئاً بالمرّة. يمكنك تفعلية مساحات شاسعة في البطانة في جولة يوم واحد.

كانت الصورة تختلف تماماً في جنوب القضايف حيث تتحول المنطقة من سهل منبسّط إلى سافنا ذات شجيرات شوكية، ثم إلى أشجار أكبر حجماً كلما

اقتربت من الحدود الأثيوبية، ولم يكن سكان هذه المنطقة عرباً رحلاً، وإنما كانوا خليطاً من السود المسلمين الذين ترجع أصولهم إلى غرب السودان، وهم من بقايا جيش أحمد فضيل الذين تخلفوا في المنطقة في نهاية المهديّة، وكانوا يعملون بالزراعة ويسكنون في قرى مستقرة. كانت هذه المنطقة تسمى "دار بكر"، ويحكمها الناظر/ عبد الله بكر الذي كان في وقت ما ضابطاً بقوة دفاع السودان، وكان معظم العمدة والمشايخ الفرعيين من أقرباء الناظر، ويبدو أن السكان المحليين كانوا يريدونها على هذا النحو لما يكونونه من ولاء لـ (المائلة).

وكما كان للشكرية مشاكلهم مع البطاحين، فقد كان لدار بكر أيضاً مشاكلهم مع مجموعة صغيرة مستقلة تسمى "الخط الجنوبي" تحت قيادة زعيمهم المعجوز الشيخ/ موسى وابنه البدين يعقوب، وكان العداء مستحكماً بين الشكرية ودار بكر، وكانوا يستغلون البطاحين والخط الجنوبي في تأجيج النيران بينهما مما كان يسبب للحكام متاعب لا حد لها.

قبل ظهوري على مسرح الأحداث بوقت قليل، تم إنشاء مجلس ريفي، وكان ذلك يمثل خطوة متقدمة، وكان المجلس عند وصولي يعمل بصورة جيدة ويترأسه مفتش المركز، ومساعد المفتش كضابط تنفيذي، ولكن بذرة الخلاف كانت تطل برأسها، ولم يكن المستقبل يبشر بتقليص هيبة الحكومة، ذلك أنه لم تكن هناك فرصة حقيقية للوفاق بين العرب والسود، إذ كان كل جانب يتوجس من الجانب الآخر، وكان كل منهما يعتقد أن الآخر يحصل على أكثر من نصيبه العادل، وبالطبع كان يكمن في أعماق قلب كل عربي أن الرجل الأسود ما هو إلا عبد من العبيد. أما فيما يخصني شخصياً، فقد وجدت من الصعب إحداث تغيير سريع من نظام في غالبه يُعد حكم مباشر - إلى التصويت كتعديل التعديل - وبلغت العربية الدارجة.

ربما يكون من الأنسب هنا أن نتوقف قليلاً لنلقى نظرة على ما كان عليه الوضع بصورة عامة:

١. كان هناك التفاضل الراسخ بين العرب والسود مع بعض الآثار الجانبية من قبل البطاحين وأقليات الخط الجنوبي.
٢. كان المكوّن السياسي الديني يعنى أن المنطقة الواقعة شمال المركز تميل إلى مناصرة حزب الأشقاء (أو المراغنة)، بينما كان جنوب المنطقة يؤيد حزب الأمة (أو المهدي).
٣. تم تدريجياً استبدال الحكم القبلي بحكومة محلية منتخبة، وكان لذلك نتائج غير مباشرة حيث أن بعض الأطراف غير الموالية لأي جهة قد طالبت بإنشاء مجلس بلدي لمدينة القضارف مما أدى إلى سخط عائلة أبوسن (رغم أن التسمية الحقيقية كانت تعنى حصولهم على الأغلبية في أي انتخابات تجرى).
٤. تم إعلان القضارف منطقة للتنمية، ولم تلبث أن أصبحت المصدر الرئيسي للذرة في السودان، ونتج عن ذلك تدفق المال إلى المدينة، وبالطبع أينما يكون المال تكون المشاكل.
٥. كان إنتاج الذرة يعتمد بدرجة كبيرة على ما كان يسمى بزراعة "الحريق" التي تتكون من تحديد مساحات ضخمة متناثرة من الحشائش الكثيفة، ويتم حمايتها من النيران عن طريق تقطيع خطوط النار ليتم إشعالها مع بداية هطول الأمطار، وبهذه الطريقة كانت تتوافر مساحات واسعة من الأراضي البكر الخالية من الأعشاب التي تنتج محصولاً وفيراً بالحد الأدنى من العمال.
٦. بما أن الجميع كانوا يحاولون التفاضل في هذا العمل المريح، فقد كان هناك طلباً متزايداً على العمالة. كما أنه بالنظر إلى ارتفاع الأجور، فقد نزحت إلى المنطقة أعداد كبيرة من السود أغلبهم من قبيلة "المساليت" القادمين من غرب الجنية بغرب السودان من أجل العمل في "الماريق". وكانت الفترة بين نهاية موسم الحصاد وإعداد الأرض للعام التالي تمتد إلى بضعة أشهر يكون

فيها المساليت دون عمل، ولم يكن باستطاعتهم العودة إلى بلادهم لبعد المسافة، ولذلك كانوا يجنحون إلى أعمال اللصوصية وقطع الطرق.

٧. كان لا بد من إيجاد شبكة واسعة من الأسواق من أجل بيع المحصول، وكان ذلك بمثابة "آكل عيش" بالنسبة للمساليت الذين كانوا يكمنون للمزارع أثناء عودته من السوق وجيوه ملأى بالمال. لذلك أصبح من الضروري إنشاء وصيانة طرق كافية بحيث يستطيع المزارع السفر إلى أهله بصحبة زملائه وليس وحيداً على ظهر حمار.

٨. ساهمت الحكومة المركزية في العمل باستخدام آليات مصلحة الزراعة لتجهيز حفير ضخمة على مساحة حوالي عشرين ميلاً جنوب القضارف، وذلك لتخزين المياه طوال العام، وكان في أيام لا يزال في مرحلة التجربة ويشرف عليه اثنان أو ثلاثة من مفتشي الزراعة المقيمين الذين كانوا يتصلون بالعالم الخارجي عن طريق محطة السكة الحديد بود الحوري، التي أقيمت فيها ورش لصيانة الآلات والمعدات. لقد نمت هذه المحطة بسرعة وأصبحت مدينة صغيرة، ولم تلبث أن تحولت بعد فترة وجيزة إلى بؤرة للشر والفساد.

٩. بما أن زراعة "الحريق" تتطلب توفير كميات كبيرة من المياه، فقد تم وضع برنامج للمحافظة على المياه، وحفر آبار عميقة في بعض المواقع المختارة.

١٠. يجب ألا يفيب عن الذاكرة أنه قبل عام أو عامين كانت قد اندلعت حرب على الحدود الأثيوبية، واستطاع العديد من المواطنين الملتزمين بالقانون في ذلك الوقت الحصول على واحدة أو اثنتين من البنادق الإيطالية التي استخدمت في أيام الحرب، وبدأوا يستعملونها عندما ينهبون لمسرقة الصيد في حظيرة الدندر، أو في أعالي نهر سيتيت، وبالطبع كانوا يستعملونها كذلك في بعض الجرائم البشعة، ولو أنه كانت هناك كتيبة من قوة دفاع السودان تسمى فرقة العرب الشرقية مستعدة لمعالجة الأمور التي تخرج عن اليد.

يمكننى أن أستمر فى السرد على هذا المتوال، ولكننى أكتفى بهذا القدر عسى أن أكون قد أوردت ما فيه الكفاية لتأكيد القول المأثور القديم: "لا تتوافر لحظة هدوء فى القضايف".

وصلت إلى القضايف فى سبتمبر ١٩٤٥، وبقيت فيها حتى فبراير ١٩٤٦ أعمل تحت رئاسة سلقى المستر/ سى. إيه لى C.A Lea الذى كان يلقب بـ (الشيخ لى) لا أدري لماذا، ولكنه كان دائماً يذكرنى بتلك السلحفاة الطيبة التى تختزن فى أعماقها قدراً كبيراً من القسوة. كان (شيخ لى) صغير الحجم نحيلاً، ويستخدم نظارة سميقة تشع من خلفها عنبان زرقاوان متوقدتان. لقد كان دائماً كريماً معى ويقدم لى كل مساعدة، رغم أن "رعاياه" كانوا ينظرون إليه بهيبة واحترام شديدين.

مكنت فى القضايف أكثر من خمس سنوات، ولكن لم أكن مثل برامبل أو الشيخ (لى). وبعد مضي بضعة سنوات كان بيل مونتيث Bill Monteith الرجل الثانى فى المركز آنذاك، يتبادل أطراف الحديث مع عمدة الحوامة، ذلك الشاب الذى ترك وظيفته كصحفى ليهتوى هذا المنصب فى الإدارة الأهلية. كان للعمدة إلمام جيد باللغة الإنجليزية، وحتى نحافظ على لفته من الصدا، كنا فى الغالب نتحدث معه بالإنجليزية. وفى هذه المناسبة كان يناقش معنا القانون الخاص بالكيفية التى تدار بها الأمور فقال: "إن ما تحتاجه هذه المنطقة هو مفتش مركز جاد وفضولى (curious) (أعتقد أنه كان يقصد (inquisitive) أى محباً للبحث والاطلاع) ولكن المستر بالفور مثير للشفقة".

لقد منحنى ذلك المكان شيئاً واحداً، وهو ذلك اللقب الذى أطلق على لأول مرة فى حياتى. كنت فى إجازة، وكان نائبى الثانى ماندى ميتشل (Mandy Mitchell Innes) قد أصدر تعليماته لقائد فرقة العرب الشرقية لإزالة المعجور الذى كان قد زرعه القائد فى القناء الأمامى لمنزله، وذلك بناء على نفس الأسس

السليمة التي بنى عليها إصدار أوامره لإمرأة عجوز كانت تسكن أسفل الشارع بإزالة المعجور الذي كانت قد زرعت في الحوش الأمامي لمنزلها، ذلك أنه بموجب قانون الصحة العامة لعام ١٩١٨ فإن "ما يصلح لطهي مرققة الوز، يصلح أيضاً لطهي مرققة ذكر الوز". ورغم أن قائد الحامية كان عسكرياً شرساً، إلا أنه كفيهر من الضباط البريطانيين كان يلتزم بالقانون، ولذلك قام بإزالة المعجور رغم أنه لم يكن مقتنعاً بذلك. أما مائدى الذى كان بارعاً في المناورة فقد سعى ونجح في الترقى والنقل إلى موقع آخر، ولكن طوال الفترة المنهجية من إقامتى ظلت أتحمل العبء الذى تركه لى، وأصبحت معروفاً لدى القاصى والدانى بلقب "المدنى اللثيم" The bloody civil.

في الواقع، استمرت علاقتى بالجيش طيبة طوال فترة إقامتى. وذات مرة قمت بزيارة نفس القائد في يوم الجمعة الذى كان عطلة رسمية لأناقش معه موضوعاً مشتركاً بيننا. وتكرم الرجل ودعانى للفداء فقبلت الدعوة، ثم تناولنا بعض المشروبات وشرعنا في استكمال قصصنا. وفي الساعة الرابعة والنصف قلت له يجب أن أغادر، وعندما تحركت المربة قلت له: "شكراً على الفداء"، فقال: "أوه يا الهى! نحن لم نتفدى؟".

كما ذكرت آنفاً لم تكن هناك لحظة تمر في الفضارف دون عمل، ولا زلت أذكر يوماً بمينه في شهر رمضان، حيث يهجع كل الناس، أننى ذهبت إلى مكتبى مبكراً لأحاول تكملة بعض الأعمال قبل مجيئ الموظفين في الساعة التاسعة صباحاً، ولم أجد هناك غير الصبية المراسلات ولا أحد غيرهم. وما كدت أجلس وأتناول الملف الأول حتى سمعت صرخات عالية: "حرامى! حرامى!" ثم رأيت المراسلات يتراكمون في كل اتجاه. وعندما وصلت باب المكتب، مرّ من أمامى مسرعاً الشرطى قصاص الأثر متعقبا الحرامى، وعلى بعد خمس خطوات منه تقريباً كان يركض خلفه أحد الأعراب الذى كانت تبدو عليه سمات الإجرام

ويمسك بيده اليمنى مكيناً طولها قدم، وكان واضحاً أنه مصر على إلحاق الأذى بالشرطى قصاص الأثر. ونسبة لخلو المكان من الناس، فقد صرخت فيهما بأعلى صوت ليتوقفوا، ثم بدأت فى مطاردهما. ركضنا حول مبنى مجلس المنطقة، وداخل غرفة الحرس، ولحسن الحظ كان لهذه الغرفة باب يفتح على الشارع، فدخلنا من خلاله قبل أن يتمكن العريف الذى كان يمانى من غيبوبة رمضان من الصراخ قائلاً: "ما هذا الذى يحدث؟". جرى الشرطى إلى ميدان السجن، يتبعه الأعرابى وأنا من الخلف. نادى الخفير بالحرس فاعتقد العريف المسئول عن الحرس أن شخصاً مهماً قادم إلى السجن، فأمر أفراد الحرس بأن يصطفوا لأداء التحية، وفى هذا الأثناء أدركت الأعرابى فى نفس الوقت الذى كان قد سمر فيه فخذ الشرطى على جدار السجن بالسكين، فقامت بفصل الرجلين عن بعضهما، بينما تجمع حولنا جمهور غاضب من الشرطة والحراس وبعض المارة، وكانوا جميعاً يصرون على قتل الرجل دون محاكمة. كان على أن أقوم بتهدئتهم قبل الاعتناء بالشرطى المصاب الذى كان يمسك بفخذه وهى تنزف دماً فى كل الاتجاهات. أخذته إلى اللورى الوحيد الذى كان متوفراً، ولكن وجدت (الاستارتر) متعطلاً فصرخت: "آين المنطة؟" فأجاب أحدهم: "آوه، لقد أخذها السائق معه إلى منزله، و هو فى رمضان لا يأتى إلى العمل إلا فى الساعة العاشرة" فقلت: "إذن توقفوا الآن عن محاولة قتل المتهم، وادفعوا بهذا اللورى إلى المستشفى". وهكذا قاموا بدفع اللورى، وتوليت أنا الإمساك بمجلة القيادة، بينما كان الشرطى لا يزال ينزف، ولحسن الحظ كنا نتجه إلى أسفل التل فأوصلناه إلى المستشفى فى الوقت المناسب. غير أننى فى طريق العودة إلى المكتب، اضطررت للمسير مشياً على الأقدام إلى أعلى التل تحت أشعة الشمس المحرقة.

وما أن ارتيمت على الكرسي مرهقاً حتى رن جرس التلفون، وكان المتكلم على الجانب الآخر هو كاتب المحكمة الأهلية بخشم القرية الذى قال لى:

تعرف مدرسة البنين التي جعلتنا نقوم ببنائها هنا ؟ حسناً، لقد استخدم  
المقاول حطباً أخضر نخر فيه السوس، وهاهو المبنى قد انهار الآن. فقلت:  
”وماذا عن أولاد المدرسة؟“ فقال متحسراً: كم يكونوا في المدرسة في ذلك  
الوقت. وعدته بالحضور لمعاينة المدرسة عندما يتوفر لى الوقت، ثم تناولت  
ملفاً آخر ولكن قاطعتنى أيضاً أصوات فى الخارج، فتظرت من النافذة لأجد  
فناء المركز بزواياه الأربع ممتلئاً بالجمال المحملة، ومعها أصحابها من الهدندوة  
الشرسين برؤوسهم كثيفة الشعر (التي تشبه حامله التبى). وسبق أن صدرت  
لى الأوامر قبل فترة لإرسال دورية من الشرطة لمكافحة تهريب السمسم من  
السودان إلى أثيوبيا وكانت هذه هى النتيجة. كان الأمباشى قائد الدورية، كما  
هو مفهوم، مسروراً مع نفسه ولكنى كنت أريد له أكثر من ذلك. بلغ عدد  
الجمال المحجوزة ١٥٠، وبما أنه لم يقر أحد من الهدندوة بمعرفته للغة  
العربية، فقد فشلنا فى التفاهم معهم من خلال الكلام كوسيط للاتصال بين  
الجانبين.

كان هذا النوع من الأشياء يحدث دائماً بعد نقل الرجل الثانى وقبل وصول  
البديل. وأثناء إقامتى بالمنطقة التى امتدت إلى خمس سنوات عمل بالمنطقة  
خمس ميساعدي مفتش مركز واثنين من السودانيين، وكانوا جميعهم ممتازين،  
ولكن إقامتهم بالقضارف كانت قصيرة مثل دورية الليل التى تنتهى قبل نهاية  
الليل وطلوع الفجر.

سبق أن ذكرت مدرسة للبنين. كنت فى غاية المشغولية عندما أخطرني  
مدير المديرية بأنه قد تم اعتماد مبالغ لبناء ثلاث مدارس للبنات ومدرستين  
للبنين ضمن برنامج مصلحة المعارف، ولكن نسبة إلى أن الأشغال العامة قد  
شيدت هذه المدارس بمستوى عال وكلفة عالية، فلم يكف المبلغ المعتمد إلا لبناء  
مدرسة بنات واحدة فى مدينة القضارف، ثم قال لى: ”ولكنك يا (اليوت)

تستطيع أن تبني هذه المدارس بتكلفة أقل بكثير إذا أوليت الأمر مزيداً من اهتمامك الشخصي، وأضاف قائلاً: "سأعطيك مبلغ ٢٠٠٠ جنيه سودانى لكل واحدة من المدارس الثلاث، وما عليك إلا أن تبدأ العمل فوراً". لم يسبق لى فى حياته أن قمت بتشديد أى مبنى، ولكنى تمكنت من بناء مدرسة للبنين فى (ديم بكر) وهى ضاحية تقع مباشرة بعد الخور الواسع الذى يفصل بينها وبقية مدينة القضايف. ثم حاولت بناء الأخرى فى خشم القرية وأشرفت على بنائها من بعد، ولكنها انهارت وتم ترميمها فيما بعد. أما المشكلة الحقيقية فكانت تكمن فى كيفية بناء مدرستى البنات اللتين كان موقعهما فى تربة طينية تتحول إلى شقوق كبيرة فى فصل الجفاف مما يؤدى إلى تدمير أساسات المباني. لذلك أصبت بنوع من اليأس والإحباط، ولكنى اعتقد، كما جاء فى حكايات ألف ليلة وليلة، أننى ربما أكون قد لامست مصباحاً أو خاتماً سحرياً، إذ ظهر فجأة رجل لا أدري من أين أتى، ولا أستطيع حتى أن أتذكر اسمه الآن، غير أنه من المؤكد كان طويل القامة ونحيفاً، ولونه أصفر، وله لحية قصيرة سوداء، وبدا لى تماماً كأنه قد خرج من جوف زجاجة! لقد قام هذا الرجل ببناء مدرستى البنات بأن وضع أولاً طوقاً خرسانياً مصلحاً، ثم استخدم الواحاً خشبية مغطاة بالقطران (لأدري من أين حصل عليها؟) وذلك حتى لا تتشقق الجدران، ثم سقف المباني بالقش بطريقة جيدة، وقام بتشديد سكن المعلمات داخل المبنى الرئيسى. وبالرغم من أننى قد سمعت له باستخدام عدد غير محدد من المساجين (المضامين)، إلا أنه كان دائماً يتجاوز قيمة العطاء لأنه كان يشتري لهم الثيران ويوفر لهم المرسى (مشروب مسكر) حتى يقبلوا على العمل بسرور. ويصرف النظر عن أن هذا التصرف كان يعتبر خرقاً صريحاً للوائح السجون، فما كنت أدري أيضاً كيف أستطيع إقناع مصلحة المراجعة بهذا التجاوز فى المصروفات.

كان يمكن فى الواقع استغلال مصلحة المراجعة بكل سهولة، فقد حدث لمفتش مركز فى الجنوب، أراد أن ينقل رئاسة المركز إلى مكان آخر قبل أيام اللورى، أن تسلم برقية من مكتب المراجعة تقول: "وضعوا لماذا استخدمتم ٣٠ رجلاً لنقل خزانة من كاجو كاجى إلى يى؟" فأبرقهم قائلاً: "لأن ٢٩ رجلاً كانوا غير كافين". ولم يسمع بعد ذلك شيئاً عن هذا الموضوع. وفى مناسبة أخرى طلب مفتش المراجعة من زوجتى (مستقبلاً) وكانت جديدة على البلد، إبراز صور أوامر الصرف التى قامت بتوقيعها، فاجابت برقة: "أوه، تلك الأوراق! إننا نستخدمها فى لف قشرة السمكة للنساء اللاتى يتوقعن مولوداً جديداً". وبالرغم من أننا فى النهاية قد تجاوزنا المبالغ المعتمدة لنا، إلا أننا قد أكملنا بناء المدارس بأقل من تقديرات مصلحة الأشغال ولم نعرض إلى أية مساءلة من أية جهة. وفيما عدا مدرسة خشم القرية، فقد ظلت الأخريات على أحسن حال. أما المقاول فقد اختفى نهائياً، حتى أنى لا أذكر أننى قد ودعته. ترى هل يكون قد عاد إلى جوف زجاجة؟

كذلك قمت بإجراء التسميات اللازمة للأراضى، وتمت مصادرة بعض منها ولم يتبق غير دفع التعميمات لمن كانوا يستغلونها لأغراض الرعى أو جمع إنتاج الغابات. لم يكن من سياسة الحكومة صرف مبالغ نقدية للأفراد خوفاً من تبديدها فور استلامها، وبدلاً عن ذلك كانت الحكومة تقدم بعض الخدمات التى يستفيد منها المجتمع ككل. وفى حالة معاناة طالب السكان المحليون بأن تحضر لهم بئر للمياه، وأزعجنى أن المسئولين فى مصلحة توفير المياه بالخرطوم لم يتجاوبوا وبدعوا يضمنون بعض المراقيل، فلم يكونوا مثلاً يسمحون بالحفر بعد عمق معين، أو الاستمرار فى الحفر إذا كان ماء البئر قد تجاوز مستوى (ppm) ولم تكن لدى أى فكرة عما يعنيه هذا المصطلح، ولذلك قمت باستشارة أهالى البلدة.

قال لى الأهالى: لدينا بئر فى قرية (بان) مأوها مالح ولكنه صعى جداً، ويكفى أن أعمار الناس فى هذه القرية تتجاوز الثمانين". وكان واضحاً بالفعل أن الناس يأتون من أقاصى البلاد وأدناها ليشرىوا من مياه بئر (بان) مثلما حدث فى باث (Bath) وشيلتنهام (Cheltenham). لذلك عبات زجاجة من ماء البئر وأرسلتها للتحليل فى الخرطوم. وقد ورد فى تقرير التحليل على ما أذكر أن "هذه البئر مليئة بمادة النترات ولا شك أن المياه قد تمسرت إليها عبر مدافن موتى قديمة، أما محتوياتها الأخرى فهى مياه أكالة لا يجوز استخدامها فى غلايات الماكينات البخارية. وبالرغم من ذلك، وإذا لم تكن الذاكرة، فقد حصلنا على البئر.

كان يأتى إلينا فى القضايف زائرون من مختلف الأنواع، وأذكر منهم ذلك الثلاثى الممتاز: بوفاروف (Uvarov) وبويوف (Popov) وستاور (Stour) الذين جاءوا إلينا بصحبة أخصائى الحشرات الحكومى. كان بوفاروف يتمتع بسمعة عالمية طيبة فى مجال مكافحة الجراد بكل أنواعه، وكان أخصائى الحشرات عندما يذكر اسمه تتباهى رهبة وينخفض صوتهم احتراماً وتقديراً له.

لم تتعرض منطقة القضايف فى ذلك الوقت إلى أى غزو من الجراد، ولكن بعض المحاصيل قد أصيبت بأضرار بليغة من نوع من الجنادب يسمى (Aeolopus Cantantops)، واتضح أن جميع أساليب مكافحة الحشرات لم تجد شيئاً مع هذه الآفة الضارة، ولذلك لم يكن فى وسعنا غير المماناة فى صمت، والانتظار ريثما نسمع ما يقوله هذا الخبير العالمى. وأخطرت بأن أتوقع حضور أعضاء الفريق لتناول طعام الغداء فى يوم معين، ولكنهم تأخروا عن الموعد بحوالى ٧٢ ساعة. كان بوفاروف فى غاية الدهشة لرؤية هذا النوع من الجنادب فقلت له: "إنه غزو كبير. لقد التهم كل حبة من المحصول بشكل لم أر له مثيلاً من قبل" ثم أضفت قائلاً: "إن القضايف ظلت دائماً تشتهر بالفرائب،

لذلك نريد منك يا سيدي أن تخبرنا ماذا نستطيع أن نفعل للتخلص من جميع هذه الجنادب؟ فقال: "أوه، لا شيء! كم كنت مسروراً أن أجد مناصراً لرأى من قبل هذه الجهة العلمية المرموقة.

ثم كانت هناك أيضاً مفتشة الدايات (القبالات) التي كانت صديقة لي، ولكنها كانت تمناني من الطرش وتسي دائماً أن تضع سماعة الأذن. واذكر في إحدى زياراتها التفتيشية أنني كنت أواجه بعض المشاكل الداخلية، حيث أن الطبيب، الذي كان يعمل لدى سفرجياً وسبق أن عالجنى من عرق النساء، قد أخذ إجازة دون إذن، وبعد أن تغيب من العمل لما يريو عن عام، إذا به يظهر فجأة طالباً إعادته إلى العمل. لم أكن أريد أن أفعل ذلك، ولكن بالنظر إلى ما أسداه لي من دين سابق فقد قبلت إعادته إلى العمل على مضض. غير أنني سرعان ما اكتشفت أنها كانت غلطة إذ وجدت أنه قد أخذ يدمن على السكر، وأصبح من الصعب التنبؤ بتصرفاته. وفي ذلك المساء الذي كنت أتوقع فيه حضور المفتشة لتناول طعام العشاء معي لم يحضر الطبيب إلى عمله، فسالت الطباخ هل بإمكانه القيام بالطبخ وخدمة السفرة معاً حيث أن السفرجى رقم (٢) كان مصاباً بالحمى. ومثل جميع الخدم السودانيين في وقت الأزمات لم يتردد أبداً، وإنما وافق فوراً على القيام بالمعملين معاً. وبعد قليل قدم لنا الشورية، وأثناء ذلك همس في أذني قائلاً: "الطبيب موجود في الخارج ويحمل سكيناً، وأقسم أنه سيقتلني إذا قمت بتقديم الطعام، فقلت له سأخرج له بعد دقيقة. ثم اتجهت إلى المفتشة وقلت لها: "عفواً، لقد استل السفرجى سكيناً يريد أن يقتل بها الطباخ"، فأجابت: "اليمين كذلك، إننا في أمدردمان نقضل أن نحصل عليهم جميعاً بسرعة" فقلت لها صارخاً: "لا، إن السفرجى يريد أن يقتل الطباخ"، فقالت: "تمام، إذا كنت تفضلها بهذه الطريقة، أما نحن فتفضلها بالطريقة الأخرى". هنا استسلمت وذهبت إلى خارج المنزل حيث أمكنني تجريد السفرجى

من سلاحه، ودفعت به بعيداً (لم يكن متمالكاً لقواه)، ثم طلبت من الطباخ تقديم الطبق التالى. وبعد برهة اتصلت بالشرطة وطلبت منهم إبعاد السفيرجى عن المكان، ثم عدت لأجد المفتشة قد فرغت لتوها من الشورية، وواصلنا بقية الوجبة حسب ما كان مخططاً لها. اكتشفت صدفة فيما بعد أن الشرطة قد ارتكبت خطأ بمحاولة إلقاء القبض على طباخ مساعد مفتش المركز الذى كان رجلاً متديناً، وكان فى تلك اللحظة يؤدى صلاة الجماعة. أما الطبيب المسكين، فقد تمت تسوية حقوقه فى اليوم التالى، وبالنظر إلى خدمات الحجابة التى خصنى بها، فقد أعطيته مكافأة مجزية. وفى نهاية المطاف أليس "مستر بالفور" مثيراً للشفقة.

كما يحدث فى معظم الأماكن الأخرى كنا من وقت لآخر نتلقى زيارات تقديرية من الحاكم العام، وكنت أكره مثل هذه الزيارات لأننى أخشى الحكام، ووصفة خاصة كنت أخاف جداً ممن يسمون بـ "الحاكم العام". وأذكر مرة أننى اعتقدت بأن الحاكم العام، الذى كان جديداً على البلاد، يجب أن يشاهد الحياة البرية، ولذلك أخذته فى زيارة إلى أعالي نهر الرهد على الحدود الأثيوبية. استمرت الرحلة على ما يرام إلى أن توقفنا فى اليوم الأخير فى قرية تسمى (شاشينا) لتناول طعام الغداء. ولدى وصولنا وجدنا العمدة قد حشد لنا جميع المشايخ والأعيان الذين وقفوا فى صف واحد، وبدأ سعادة الحاكم يسلم عليهم. نظرت إلى آخر الصف، ويا لهول ما رأيت! كان يقف هناك أسوأ مقدم للمراض بالمنطقة واكتسب بسبب ذلك سمعة سيئة. كان الرجل متقدماً فى العمر، وسبق قبل خمسة عشر عاماً أن قام حصان جامع يملكه العمدة بقتل معزة لهذا الرجل. وبإصرار من محكمة الناظر عوضه العمدة بمعزة أخرى، ولكنها ماتت بعد أيام. وقال مقدم المراض أن العمدة قد خدعه بأن أعطاه معزة مريضة، ولكن العمدة رد بأن المعزة قد قتلها النمر لأن

الرجل أهمل فى العناية بها . وهكذا أصبح من المستحيل معرفة حقيقة الأمر، وصار الرجل المعجوز يأتى إلينا بانتظام كل ثلاثة أشهر ليقص علينا دراما الحصان والمعزة المسكينة التى اغتيلت فى ريعان شبابها . وأصبحت القضية باكملها أكثر صعوبة على الفهم بسبب أن الرجل المعجوز لم تكن له أسنان . وكان أحد المفتشين السابقين قد حاول إسكاته بإعطائه ممزتين، ولكنه لم يرض بذلك محتجاً بأن المعزة الأنثى المعافاة تلد سخلين فى العام، ولذلك فقد ارتفعت مطالبته بمرور الزمن إلى ما يزيد عن ثلاثين معزة . هذا هو الرجل الذى كان يقف فى نهاية الصف، واحترت مم أخاف أكثر: من أن يقوم الرجل بسرد قصته الطويلة، أم من قيامى بمحاولة شرح الموضوع بأكمله لسعادة الحاكم العام .. غير أنى بطريقة أو أخرى أفلحت فى إبعاده دون أن يلحظ الحاكم العام ذلك . يا لذلك المعجوز المسكين، لقد ظل بعد عام أو عامين من مفادرتى يتردد على المركز من حين لآخر، وعلمت بالصدفة فيما بعد أن العمدة الذى كان معنياً بالقضية قد توفى قبل وصولى إلى المنطقة، وكان العمدة الحالى هو شقيق الناظر الذى سبق أن حكمت عليه بثمانية عشر شهراً سجنًا، ولا زلت أتساءل ما إذا كان هو الشخص الذى قام عن قصد بوضع المعجوز فى آخر الصف .

كان العمل اليومى فيما بين هذه الرحلات القصيرة، بكل ما فيه من شد وجذب، يسهر بصورة عادية، فكان يتم تحميل الضرائب والرسوم، وإعداد الميزانيات، وزيارة المحاكم الأهلية فى جميع أنحاء المنطقة ومراجعة دفاترها، وكان أعضاء المجلس الرئفى يجتمعون ويتشاجرون ثم يتخذون قرارات محرجة، وكان رجال الشرطة والسجون يؤدون عملهم بكفاءة قدر الإمكان . أما الأمن العام فقد انخفض مستواه بعد الحرب ولم يتحسن، خاصة بعد تدفق العمال من الغرب . لقد أخبرنى أحد قمندانات الشرطة أن نسبة الجريمة فى

القضارف أعلى مما هي عليه في بورما. لقد حاول أسلافى من المسؤولين تصحيح هذا الوضع، ولكن بالرغم من ذلك لم يزل هناك الكثير من الأسلحة غير المرخصة، وحتى بدون هذه الأسلحة فقد كان تدفق المال على المنطقة سبباً آخر في حفز المجرمين، مما أدى إلى ازدياد حوادث العنف.

بفض النظر عن ذلك الشخص الذى سدد طلعة للشرطى قصاص الأثر، فلا زلت أذكر ثلاث حالات محددة ظلت اثنتان منها دون حل، وأولاهما تتعلق برجل اتهم بقتل عشيق زوجته في قرية تبعد ستة أو سبعة أميال من القضارف، وقد ثبت لنا من ضابط السجن واثنين من السجناء أنه كان في حراسة مأمونة بسجن القضارف، ولم يتوفر لدينا أى دليل على وجود رشوة أو فساد. غير أنه لكون المتهم من المساجين (المضامين)، فربما استطاع أن يتسلل إلى خارج السجن بعد أخذ التماس دون أن يلاحظه أحد، وثبت بما لا يدعو مجالاً للشك أنه قد شوهد وهو يطارد ضبعيته إلى الغابة المحيطة بالقرية التى وجدت فيها جثة القتيل في صباح اليوم التالي. غير أنه لسوء الحظ، أن نفس الشخص الذى شهد بذلك ذكر أيضاً أنه قد شاهد معه رجلاً آخر، ولكن هذا الشخص الآخر قد اختفى تاركاً وراءه قطعة ملابس ملطخة بالدماء. وعليه لم يحكم قاضى المديرية على المتهم بالإعدام على أساس أنه لم يتبين للمحكمة أى الرجلين قد سدد للقتيل الضربة القاتلة.

نجم عن ذلك حوادث شغب وإخلال بالأمن ومشاجرات بين النساء من أهل المتوفى. وفي صباح أحد الأيام عندما كنت أنظر من خلال النافذة إلى المكان الذى كان قد تجمع فيه من قبل أولئك الهندو بجمالهم، إذا بى أرى حوالى خمسة وستين امرأة من المعتدى عليهن، فأرسلتهن إلى المحكمة الأهلية لتتظر فى قضيتهن، ولكن بعد أن أخبرتتهن أولاً بما سيحدث لهن وقريتهن إن لم يتحلين بحسن السلوك فى المستقبل. وبالرغم من أننى لم أكن شخصياً أصدق

أى كلمة مما قلت، إلا أن ذلك كان له أثره، ولم نعد نواجه مزيداً من المشاكل فى هذا الخصوص.

أما القضية الثانية فقد كانت تتوقف على ما إذا كان فى مقدور شخص الرجوع إلى مسافة ١٠٠ ياردة إلى المكان الذى كان يجلس فيه الرجلان اللذان كان يحتسى معهما الخمر، ويقول لهما بغضوة: "هل انتهى الشراب؟"، ثم يخر صريماً من أثر طعنة بالسكين فى البطن الأيمن من القلب. وجاء التقرير بأنه يستطيع أن يفعل ذلك مما دحض البيئة ضد الرجلين اللذين كانت تصرفاتهما اللاحقة تدعو إلى الكثير من الشك.

وتتلخص القضية الثالثة فى أن تسعة وأربعين من رجال الفلانة قد اتهموا بقتل أحد أبناء المساليت كانوا قد قبضوا عليه متلبساً بسرقة أغنام من قريتهم ليلاً، وحاول التخلص منهم بأن ضرب أحد الفلانة على رأسه، ثم لاذ بالفرار. تلت ذلك صيحات المطاردين، وقام أول من استطاع اللحاق باللص بتسديد ضربة له فى مؤخرة رأسه، ولكنها بالتأكيد لم تكن قاتلة. وإذا كانوا قد توقفوا عند هذا الحد وأمنوا حياة اللص، فإن تصرفهم كان سيحتمل فى حدود حقوقهم المشروعة، ولكن بدلاً من ذلك أصبحت كل دفعة منهم تنهال بالضرب على اللص الذى كان راقداً على الأرض يتلوى من الألم إلى أن توفى نتيجة لذلك. واتضح أن الدفعة الأخيرة المكونة من اثني عشر رجلاً، كانت فى الواقع تنهال بالضرب على جثة هامدة، وحيث أنه لم يرد نص فى القانون الجنائى يمنع ضرب الجثث، فقد أصدرت الحكم ببراءة هؤلاء. أما الآخرون فقد شكلت لهم محكمة كبرى برئاسة وعضوين مساعدين حيث حكم عليهم بالسجن لمدة طويلة مع التوصية بالنظر فى استرحامهم، وبالفعل صدر الحكم بالسجن لمدة سنة لكل واحد منهم. أما بالنسبة لى شخصياً، فنظراً لما اشتهر به المساليت من ميل نحو العنف والسرقه، فكنت أتمنى أن تمنح ميدالية لكل واحد من المتهمين.

مع مرور الزمن أصبحت السياسة هي الشغل الشاغل، فكانت هناك المظاهرات والتهافتات والصراخ، ثم جاءت أولاً انتخابات الحكومات المحلية، وبمدها انتخابات الجمعية التشريعية المختلف عليها. كان أغلب الناخبين أميين، ولكننا تغلبنا على ذلك بأن خصصنا صندوقاً لكل مرشح. وكنا نوضع للناخب أى صندوق يخص أياً من المرشحين، ثم ننير ظهورنا أثناء قيامه بوضع بطاقة الاقتراع، وسارت العملية مع المراقبة الدقيقة بصورة جيدة. أما انتخابات الحكومة المحلية فكانت قد أقيمت ولا تزال بقايا نظام التمويل سارية، وكان الناخبون يأتون بأعداد كبيرة، وغالباً ما كانوا يقفون فى صفوف طويلة أمام مراكز الاقتراع. وتروى فى ذلك قصة الرجل المعجوز الذى لم يستطع أن يستوعب ما كان يفترض عليه القيام به. وأخيراً بعد أن يئس ضابط الانتخابات من إفهامه، طرح مبدأ سرية الاقتراع جانباً، وسأل الرجل مباشرة: 'لمن تريد أن تصوت؟'، فأجاب الرجل: 'لنفسى، وزوجتى ووالدتى'، فماله الضابط: 'ماذا تعنى بنفسك وزوجتك ووالدتك هؤلاء ليسوا مرشحين، ولذلك لا تستطيع أن تصوت لهم'، فأجاب الرجل: 'لا أعرف شيئاً عن ذلك، ولكنى وقفت فى الصف لبعض الوقت، والآن أريد من كل شيء أتت به الحكومة أن تعطونى ثلاثة! واحد لشخصى، وواحد لزوجتى، وواحد لوالدتى'.

كان التصويت للجمعية التشريعية أكثر جدية، فقد اقتصر على كلية انتخابية أغلبها من الأعيان المحليين. وكانت المواطف ملتفة، ذلك أن حزب الأشقاء كان يمارض الانتخابات بشدة. قمنا باتخاذ التدابير اللازمة لإجراء عملية الاقتراع بمكاتب السوق الكاثنة فى وسط ميدان فسيح بحيث نستطيع مراقبة ما يحدث. فى ذلك اليوم خرجت مبكراً فرأيت العامة يتجمعون فى طرف السوق، ولذلك استدعيت قوة من الشرطة بقيادة الباقر أفتدى كبير الضباط الذى تمكن من السيطرة على الوضع بصورة جيدة دون أن تحدث أية

مشاكل. وفور انتهاء التصويت، تحركت جموع الفوغاء التي كانت تتجمع في أطراف السوق إلى محطة السكة الحديد لمقابلة القطار القادم من الخرطوم، وكانت هذه حيلة عامة حيث كان يقف الناس على رصيف المحطة يهتفون لأي شخص مؤيد لهم يكون مسافراً. وأذكر في تلك المرة أننا كنا نتوقع عودة بيل مونتيث من إجازته على هذا القطار، وكنت أخشى أن يأتي أولئك الفوغاء بأفعال معادية ضده، خاصة وأنهم كانوا محيطين من فشل الانتخابات. غير أن عثمان مناع، مساعد المفتش السوداني، طمأننى قائلاً: "لا تنزعج، أبو عيين باردة زرقاء له تأثير رهيب على أشرس المتظاهرين".

علمت من بيل فيما بعد أنه عندما نزل من القطار وجد نفسه وسط المتظاهرين الذين كانوا يصرخون بهتافات معادية، فتوقف أقرب الواقفين منه عن الهتاف، وسلم عليه بحرارة شاداً على يده ومتمنياً أن يكون قد قضى إجازة ممتعة، ثم قال له: "سنزورك في المكتب للونسة، ولكن كما ترى الآن نحن مشغولون". ثم ساروا جميعاً على الرصيف وهم يهتفون: "تسقط الجمعية التشريعية، يسقط الإنجليز، يسقط أى شيء يمكن بله"، وغير ذلك من الهتافات المماثلة. كم تمنيت أن تكون عيني زرقاء باردة!

لم تكن السياسة هي وحدها التي كانت تشوش على مفتش المركز المجتهد الذي يريد إنجاز أعماله، وإنما كان الدين أيضاً يلعب دوره. لقد سمحت الحكومة المركزية الرشيدة لإرسالييتين أمريكيتين بفتح مدرسة للجالية المسيحية بالقضارف، ول سوء الحظ كان مستوى التعليم في هذه المدرسة جيداً جداً بحيث أن بعض الآباء المسلمين بدعوا يلحقون أبناءهم بها أيضاً. وقد علمت بذلك لأول مرة عندما جاعنى وقد يتكون من بعض خلفاء الطرق الصوفية المختلفة يحتجون بأن هناك محاولة لتتصير أبناء المسلمين، غير أن موقف الإرسالييتين كان مفهوماً جداً حيث أوضحوا أن رسالتهم هي التبشير

والوعظ بالدين المسيحى، وأنهم يقومون بذلك داخل مدرستهم، ولا يهمهم من الناس يحضر إليهم.

كان ذلك يشكل الأساس لنوع من الشجار غير المحبب، ولكن تمت تسوية الموضوع بالإيعاز للإرسالييتين بعدم قبول أطفال المسلمين بعد ذلك.

غير أن الخلفاء عادوا للظهور مرة أخرى بأعداد كبيرة عندما وصل إلى المدينة أحد الوهابيين قادماً من السمودية، ووقف في المسجد بمد صلاة الجمعة يعظ المسلمين بقوله إن الله روح، ومن يريد أن يعبد الله فليعبد روح الله، ولكن ليس بواسطة الطرق والرايات والطبول والمدائح، ولذلك طالب الخلفاء بدمه. غير أن الوهابى كان رجلاً معتدلاً، فشرحت له أنه مهما كان اعتقاده (أنا شخصياً كنت أتفق مع كل كلمة قالها) فإنه إذا تكرر منه ذلك فقد يدان بتهديد أمن وسلام المواطنين، ولهذا السبب فقط قد اضطر لحبسه فى السجن. وبما أن الرجل لم يكن متشدداً، فقد وافق على أن يلتزم بالصمت طيلة فترة إقامته بالقضارف، وقد أنجز وعده بالفعل.

شعرت إزاء هاتين الحالتين أننى مثل (جالليو) ولكن كان عذرى الوحيد أننى خلافاً لسلفى الرومانى لم أستطع أخذ (سوثينز Sosthenes) رئيس المعبد اليهودى لجلده فى ساحة المحكمة. كنت أرفض بشدة أن أفعل ذلك لبعض أولئك الخلفاء.

أما آخر انفجار لذلك الهوس الدينى، فقد حدث قبل مفادرتى للقضارف مباشرة عندما تقرر نقلى إلى الخرطوم فى أول يناير عام ١٩٥١. كان الاحتفال بمولد النبى لعام ١٩٥٠ قد أقيم قبل عيد الكريسماس بفترة قصيرة، وكان من عادة أنصار المهدي أن ينصبوا خيمتهم فى ديم بكر، وليس مع الطوائف الأخرى فى المنطقة الرئيسية بالقضارف التى كانت، نظراً لهيمنة عائلة أبو من عليها، تسود فيها الطريقة الختمية. ويبدو أن هذا التدبير قد تم إرساؤه قبل حوالى

عشر سنوات عقب أحد النزاعات الطائفية بين الجانبين. وتقرر آنذاك . ولم أعلم بذلك إلا مؤخراً . أن هذا الإجراء مؤقت، وأنه يجب إعادة النظر فيه بعد خمس سنوات. لذلك رأى الأنصار أنه قد أصبح من المناسب إثارة الموضوع، وطالبوا قبل عشرة أيام من موعد الاحتفال بالمولد بالسماح لهم بنصب خيمتهم في القضارف. كان ذلك بمثابة صب الزيت على النيران، فقد أدى إلى ظهور خلفاء الختمية مرة أخرى معطين معارضتهم بضراوة. وبما أن الأوامر كانت قد صدرت أصلاً من مدير المديرية، فقد لجأت إلى رئاسة المديرية للتشاور، ولكن للأسف جاءت التعليمات متناقضة حيث كان مدير المديرية في جولة تفقدية، وأفاد نائبه بأن يسمح للأنصار بالانضمام للاحتفال بالمولد مع الآخرين. وبعد يومين اتصل بي مدير المديرية هاتفياً ليخبرني أنه ما كان يعق لنا أن نفعل ذلك. وهكذا انتهت المشاعر ووصلت إلى درجة عالية من الغليان، وكانت كل الدلائل تشير إلى إمكانية حدوث أعمال شغب قبيحة. أنقذني من ذلك المازق عثمان مناع، مساعد مفتش المركز السوداني، الذي استطاع من منطلق كونه مسلماً أن يتفاهم مع الأطراف المعنية ويصل معهم إلى حل وسط يسمح بموجبه للأنصار بنصب خيمتهم في القضارف، ولكن في منطقة أخرى غير تلك التي توجد فيها خيام الطوائف الأخرى. رفض مدير المديرية في بادئ الأمر الموافقة على ذلك، ولكنني تمكنت في النهاية من إقناعه بالموافقة على الحكم الذي توصل إليه الرجل الذي كان موجوداً في موقع الحدث.

لا أذكر كم يوماً كانت تستمر احتفالات المولد، ولكنها كانت تمتد لمدة ليالٍ، وكنت في تلك الليالي أستلقي على سريري أستمع إلى ذلك الصراخ والضجيج، آملاً ألا يتحول إلى أنغام شريرة. وهكذا كان عثمان مناع محقاً، ولم تحدث أية مشاكل، ولكن إذا حدثت فلا شك أنني كنت ساكون في موقف حرج للغاية وبدون عذر يشفع لي.

كان كل ذلك نوعاً من التوتر والإجهاد المتواصلين، وعندما انتهى أصيب بالمرض، وقضيت أيام الكريسماس بمستشفى كسلا، ثم نقلت إلى "السلطة الأمرة" إلى الخرطوم دون أن تدعى أعود إلى القضارف مرة أخرى، ولكن مشاكل القضارف ظلت تلازمى فى المستقبل.

وقبل ذلك بقليل جاعنى آباء المدينة يشكون من وجود منزل للدعارة مزدهر قبالة البوابة الأمامية لمدرسة البنات الجديدة، وطلبوا منى أن أفعل شيئاً حياله، فأخبرتهم أنه يجب عليهم فتح بلاغ لدى الشرطة ضد صاحب المنزل لأنه يدبر عملاً مخالفاً للقانون، ولكنهم رفضوا ذلك بتاتاً، وأشك أن السبب فى ذلك هو أنهم كانوا جميعاً من زبائن المكان ويزورونه من وقت لآخر. لم أستطع إلقاء القبض على صاحب المنزل تحت طائلة "قانون المشردين"، لأنه قد غطى نفسه بفتح كشك فى السوق برخصة تجارية. غير أنى أرسلت فى طلبه وأخبرته بصراحة أنه من الغباء أن يكون فى الجانب المضاد للرأى العام، وأوضحت له أنه إذا انتقل إلى موقع آخر فى ضواحي المدينة فلن أ تدخل فى شئونه. وبالرغم من أنه كان رجلاً حقيراً، إلا أنه تفهم وجهة نظرى، ووفقاً لذلك ارتحل من ذلك المنزل إلى موقع آخر. لم أسمع عنه شيئاً بعد ذلك إلى أن جاء يوم كنت فى طريقى إلى الخرطوم، وعندما خرجت من القطار لأستمتع بهواء الليل العليل على رصيف محطة ود مدنى، كان هناك عدد كبير من الناس، وهجأة ظهر من بين الزحام ذلك الشخص المفضز للنفس، فأمسك بى بكلى يديه وقال لى بأعلى صوته: "أوه، ممتر بالفور، ماذا نفعل بدونك فى القضارف؟".

تم نقلى إلى مكتب الحكومة المحلية بالخرطوم الذى أنشئ حديثاً من أجل تلبية الرغبة الجديدة فى استبدال ، أو ربما لتكملة الإدارات الأهلية بالمجالس الريفية والبلدية الحديثة التى كان يتم انتخابها من قبل الشعب بقدر الإمكان.

وجدت الخرطوم كما هي عليه في العادة، ولكن حدث نوع من الاسترخاء في الحياة الاجتماعية التي كانت كلها ضجراً، فأصبح الصبية يركبون الدراجات ويهتفون: "يسقط الإنجليز"، ثم يهتفون بسرعة، وكان هناك عدد من الوجهاء يلبسون جاكيتات (الشاركسكين) ومعظمهم من المحامين أو الأطباء، الذين رغم عدم كراهيتهم لك، تشعرون أنهم مستاعون من وقوفك في طريقهم، ويسرهم أن يشهدوا نهاية وجودك في بلادهم.

غير أن الكثير من معالم المدينة لا زالت كما هي، ومن بينها مراحيض الجرادل. في عام ١٩٠٨ أعلن والدي في تقريره السنوي، بوصفه مدير صحة الخرطوم، بداية العمل بنظام (الجرادل المزدوج)، وتوقع أن يستمر العمل به لمدة عشر سنوات، "ويعد ذلك يتم التحول إلى نظام صحي أكثر تطوراً". إنني أتساءل ماذا كان سيقول والدي إذا علم أن النظام الذي أدخله سوف يستمر يعمل بصورة مرضية لمدة ستة وأربعين عاماً إلى أن غادر ابنه الأصغر البلاد. لم يحدث أبداً أن شاهدت تلك العربات التي تجرها الجمال وهي تتحرك في الطرقات بهدوء عند الغروب، ولكن كانت تملأني دائماً "الرغبة في البكاء" كما وصفها قدماء الرومان.

كانت هناك جمعية تشريعية تجلس في الخرطوم، بينما كنا نحن مشغولين بإنشاء مجالس الحكومة المحلية في جميع أنحاء البلاد. كان كل مجلس ملزماً بإعداد ميزانيته، وأوكل تصميم استثمارات الميزانية إلى فيليب بوسون (Philip Pawson)، وقد عكست تلك الاستثمارات براعة فنية عالية، ومن المؤكد أن أي شخص يحصل الآن على أصل "استثمار بوسون" سيكون بإمكانه تسويقها في (صاله نيت لبيع الآثار القديمة) ويحصل منها على مبلغ وفير من المال. كانت هذه الاستثمار - لسوء الحظ - تتكون من ست أو سبع صفحات مليئة بالحواشي مثل: (أنظر صفحة ٢ عمود ٥) وما شابه ذلك. أقول "لسوء الحظ"

لأننى كنت مكلفاً بكتابة التعليمات المصاحبة للاستثمارات التى يجب أن تفهم بسهولة من قبل كاتب فى (اسكيل كيه Scale K). كانت الطريقة الوحيدة التى أستطيع بها فهم تلك الاستثمارات هى نزع الدبوس عنها، ثم نشر الصفحات بالترتيب الصحيح على طاولة المكتب، وبهذه الطريقة يمكن للعين أن تتنقل بسرعة من الحاشية إلى الصفحة والعمود المتصلين بالموضوع، ولذلك ضمنت تعليماتى هذه النصيحة الغالية. وفيما بعد خرجت فى جولة لتفقد سير العمل فى هذه الاستثمارات، وقابلت فى (التونج) مفتش المركز الذى قال لى: "المشكلة مع الخرطوم أنكم جميعاً تكتبون هذه الخطابات المسخيفة النافهة"، فقلت له: "يؤسفنى ذلك، لكن هل يمكنك إعطائى مثلاً أو مثالين لتساعدنا فى إصلاح طرائقنا؟" فقال: "حسناً، أنظر إلى تعليمات الميزانية هذه، إنها تبدأ بعبارة (خذ طاولة كبيرة) فسألته: "وما الخطأ فى ذلك؟" فأجاب قائلاً: "حسناً، ليس لدينا طاولة كبيرة؛ فما كان منى إلا أن أحنى رأسى تواضعاً، وامتتعت حتى عن الإشارة إلى أن "البونقو" الذين ربما يكونون أمهر النجارين فى السودان يمكنون على بعد مسافة قصيرة أسفل الطريق ا

فى إحدى تلك الجولات، استطلعت مرة أخرى أن أقطع ذلك الطريق (٢١٠ ميلاً) لزيارة مدينة راجا منتجمى القديم المفضل، ولا زالت هذه الزيارة ترتبط فى ذهنى بإحدى التذكيرات المهمة، وفى طريق العودة من راجا توقفت لبعض الوقت فى بلاد "الباندا"، وتجاذبت أطراف الحديث مع صديقى القديم (مبالى) الزعيم الفرعى الذى توصل إلى والدموع تتهمر على خديه أن أخبرهم فى الخرطوم أننا لا نريد الاستقلال". إنتى نادراً ما شعرت بأننى حزين أو عاجز تماماً مثل ما كنت أشعر فى تلك اللحظة.

عندما ذهبت إلى الخرطوم سكنت فى البداية بمنازل العزابة، وكنت أتجول فى المدينة بالدراجة. غير أن أحد أصدقائى الأعزاء، جاك سيمر (Jake

(Seamer)، كان يشكو من العزلة لأنه كان يتعين على زوجته أن تبقى في المملكة المتحدة لأسباب قاهرة. لذلك أقمتني بالسكن معه في الخرطوم بحرى حيث كان يعمل مفتشاً للمركز، وخصص لى منزل الضيافة الذى كان مجهزاً بكل شئ بما فى ذلك الحمام الذى يقع عبر المعر المؤدى إلى باب منزله الأمامى. كانت تلك الفترة تجمّع بنشاط سياسى كثيف، حيث كانت مصر تخطط لاستلام السودان، كما كانت هناك العديد من الجهات الأخرى التى تصطاد فى الماء العكر. كان لى صديق آخر يدعى جوك دنكان (Jock Duncan) ويعمل فى جهاز المخابرات بالخرطوم، وكنت دائماً أتصور أنه كلما فكر المصريون، أو الأخوان المسلمون، أو الشيوعيون، فى إرسال عميل محرض إلى الجنوب، فلا بد أن يأخذوه جانباً ويقولوا له: "خذ حذرك من الرجل دنكان! لقد غطى رصيف محطة الخرطوم برجائه ذوى الجلابيب البيضاء، فإذا كنت عاقلاً فيجب عليك أن تنزل من القطار فى محطة الخرطوم بحرى، وتذهب مباشرة إلى معدية شمبات، ومنها إلى زحام أم درمان حيث لن يفلح البريطانيون المرفهون فى العثور عليك".

غير أن ذلك كله لم يكن مجدياً، فقد كان (جاك) يقوم برصدهم مباشرة بمجرد أن تطأ أقدامهم أرض الخرطوم بحرى. وتبعاً لذلك، كان بين جاك وجوك اتصال وتسميق وثيقان. كان الأمر يبدو كبرنامج الأطفال المعروف (جوك وجاك والسحرة) ولكن فى الواقع كان يمكن أن يكون أى شئ آخر إلا لعبة للأطفال! كان الهاتف يرن فى وقت الغداء، فيرد عليه جاك قائلاً: "هلو، أوه، إنه أنت يا جوك .. نعم.. جيد .. هل بالإمكان أن تربط الخيول إلى الغد؟ فاكرك، نعم قد .. نعم هذا جيد، مع السلامة، سوف نلتقى". وبعد ذلك يعود جاك إلى حلو الكراميل لىبدو كأنه مستر بنش (Punch) بعد مقابلته الشهيرة مع الجلاد ١

بعد أن عملت لمدة خمسة عشر شهراً بالخرطوم، علمت فجأة أنه قد تقرر نقلى إلى المديرية الشمالية نائباً لمدير المديرية، وكان ذلك بمثابة الترقية إلى رتبة قائد فى البحرية، ويجب أن أعترف أنها كانت بالنسبة لى مفاجأة سارة غير متوقعة. استلمت العمل فى فبراير ١٩٥١، ثم عدت إلى الخرطوم بعد فترة قصيرة لأتزوج، وبعد ذلك بقيت فى المديرية الشمالية حتى نهاية خدمتى فى نوفمبر ١٩٥٤ .

كان عمل نائب مدير المديرية مشابها لعمل مساعد مفتش المركز، ولكن بمستوى أعلى. أضف إلى ذلك أن المديرية الشمالية كانت مكاناً هادئاً ولم يكن هناك ما يزعج كثيراً. كانت سلك حديد السودان تشكل فى عطبرة نوعاً من "حكومة داخل حكومة" تحت قيادة مديرها العام. حدثت اضطرابات عمالية قبل بضعة سنوات أوشكت أن تنتهى بحوادث شغب، وتوفى فيها مع الأسف أحد الأشخاص، ولكن فى الوقت الذى وصلت فيه عاد كل شيء إلى هدوئه.

كان سكان المديرية يعتمدون فى معيشتهم على الزراعة التى تروى من النيل بواسطة السواقي أو مشاريع الطلمبات الأكثر تطوراً. وكان يمكن تحقيق أرباح طائلة من زراعة القطن أثناء الحرب الكورية، واستطاع المزارع الماكر أن يطور طريقة بارعة يستجلب بها المال من الحكومة، فما عليك أولاً إلا أن تتقدم بطلب للحصول على سلفية لإقامة مشروع زراعى، ثم تتأخر فى سداد دفعيات الفوائد، ولذلك تتقدم بطلب للحصول على سلفية أخرى لممل امتداد لمشروعك، وتستخدم هذا المبلغ لتسوية الفوائد المتبقية عليك. ولمسبب أو آخر كان أساطنة مصلحة المالية فى الخرطوم، والمشهورون بأنهم قابضون مثل المحارة التى يضرب بها المثل عندما يتعلق الأمر بالموافقة على صرف المال، ودائماً ما كانوا يقومون فريسة لهذه الحيل.

كانت تلك الفترة تنسم بالتوتر السياسى، والاستقلال يلوح فى الأفق، وكان من يتقدمون بطلبات الحصول على المشاريع الزراعية هم من الرجال الذين لهم وزنهم. ربما أكون قد أسأت إلى موظفى مصلحة المالية، ولكن رغبة منهم فى قضاء بقية أيامهم دون إزعاج، فقد أصبحوا يتساهلون فى التصديقات المالية.

فى ربيع عام ١٩٥٤ بلغ مدير المديرية سن التقاعد الاختيارى فقرر أن يذهب. كان الرجل كريماً، واعتقد أن دافعه فى ذلك أنه رأى أن يتيح لى الفرصة لأبلغ مرادى. لقد ذهب على أى حال، وقررت حكومة السودان ترقبى إلى الوظيفة، ولعل سبب ذلك فى الأساس أن النهاية كانت تقترب، ولم يكن هناك ما يستدعى نقل شخص من مكان آخر.

اعتقد أنه قد سرنى أن أكون مديراً للمديرية، ولكن لا أدري إن كانت هى سعادة كاملة، خاصة أننى كنت أخاف دائماً من مديرى المديرية. غير أن الأمر كله قد استغرق سبعة أشهر قضيت جزءاً منها فى إجازة. قبل أن نغادر البلاد قمت وزوجتى برحلة من مروي إلى دنقلا بباخرة المديرية، ومن هناك باللورى عبر منطقة بطن الحجر إلى وادى حلفا. كانت الرحلة فى الظاهر لأجل الوداع، ولكن فى حقيقة الأمر كانت هى فرصتى الوحيدة لعمل شيء طالما تمنيت دائماً القيام به. قضينا ليلة فى الاستراحة بإحدى القرى الصغيرة التى تبيض بين الصحراء والنيل بين دنقلا ووادى حلفا، وهناك قابلنا رجلاً مسناً كان يعمل فراشاً فى باخرة كشمشتر عند إعادة غزو دنقلا فى عام ١٨٩٦، وبالنسبة له دارت العجلة دورة كاملة.

وفجأة انتهى كل شيء. كان هناك حزم الأمتعة التى نرغب فى حملها معنا إلى أرض الوطن، وحرقت الوثائق السرية التى إذا انتقلت إلى السياسيين ربما تسببت فى تسويد وجه الإدارة السابقة، ثم وداع الجميع فى محطة عطبرة، فالرحلة إلى الخرطوم للاجتماع الأخير بالجالية، ومن ثم أقلنا القطار إلى

بورتسودان بصحبة أريمة من مديري المديریات الآخرين، وعدد من مفتشی المراكز.

أذكر أن إبحار السفينة قد تأخر، فخرجت مع زوجتی إلى ظهر السفينة لأننی كما قلت كنت أود أن ألقى نظرة أخيرة على المكان. كانت صفحة الماء تتسع بین السفينة ورصيف الميناء، وهو نفس الرصيف الذی استقبلنی فيه بیتر آكلاند. قبل اثنين وعشرين عاماً، ونطق فيه بمصیری. وعادت بی الذاكرة إلى أبعد من ذلك عندما كنت، كطفل صغير، أنظر من مدخل قطار يتحرك ببطء عبر الصحراء إلى السفينة التي كانت ستقلنا إلى الوطن. كان ذلك فی عام ١٩١٣.

اتسمت الشقة بیننا واليابسة، وبدأنا نتجه إلى ثمر الميناء. كان الجو بارداً، ولم یکن هناك أحد غیرنا على ظهر السفينة، ولذلك عدنا إلى الداخل. وسألت نفسی: ماذا كان یفعل زملائی مديرو المديریات الآخرون؟ هكذا كانت النهاية لفصل عظیم من التاريخ الإمبریالی. لم یطل تساؤلی كثيراً، فعندما مررت بنافذة غرفة المدخنين، سمعت أصواتاً: "واحد شیریا .. لا واحد قلب .. لا اثنين قلب ..".

وهكذا تعبر الحضارات .. والمجد لبریطانیا.

(إليوت بالفور) (Elliot Balfour)



5

---

حكاية

الطبيب

---

*Sudan Canterbury Tales*

## الأيام الأولى

لك أن تتصور شعور طبيب شاب يجد نفسه بعد عام واحد فقط من تخرجه في كلية الطب مسئولاً عن مستشفى كامل! كانت هذه هي تجربتي المرعبة عندما بدأت مستقبلي المهني لدى مصلحة الخدمات الطبية السودانية. في أكتوبر ١٩٤٢، بعد وصولي إلى السودان لأعمل في وظيفة مفتش طبي، أرسلت إلى مدينة (أبو عشر) لأحل مكان الدكتور/ روبرت ستيفنسون (Robert Stevenson) إلى حين عودته من الإجازة. كان ذلك بعد أن قضيت أسبوعين فقط في ود مدني ريثما يتم تحديد وجهتي الجديدة. وجدت نفسي ليس الرئيس الإداري بالمستشفى فحسب، وإنما كبير الجراحين وأخصائي الباطنية أيضاً. أنا الذي لم تتجاوز خبرتي السابقة في عالم الجراحة وظيفة طبيب مقهم في أحد المستشفيات الإنجليزية، بل وأصغر عضو في فريق الجراحة كان مسموحاً له فقط بإجراء العمليات البسيطة تحت إشراف الآخرين. وأعتقد أن مجمل خبراتي في ذلك الوقت لم تتمد إجراء عمليتين لاستئصال الزائدة الدودية، وبعض عمليات رقق الفتاق وتوسيع الأوردة.

اضف إلى هذا الارتباك أنني لم أكن أتكلم اللغة العربية، وكان اتصالي بالآخرين ينحصر في شخص واحد فقط هو مدير المستشفى السوداني الجنسية، وربما الأسوأ من ذلك أنني كنت أعاني أيضاً من عدم النوم بسبب سمعات الذبابة الرملية التي كانت تقلق منامي ليلاً في (نعلية) السطوح بمنزل

طبيب المستشفى، ولذلك لم يكن مستغرباً أن أنظر إلى المستقبل القريب بحذر يصل إلى درجة الذعر والرعب. كان خوفي في محله، إذ أتني لم البث أن أخضعت للاختبار بعد بضعة أيام من وصولي حيث واجهتي أول حالة خطيرة. لقد سقط أحد الصبية على قضيب السكة حديد بينما كان يلعب مع أقرانه، ونقل إلى المستشفى وهو يتلوى من الألم، مع وجود بقع من الدم في البول. وتبين من موقع الجرح أن مصدر النزيف هو الكلية اليسرى، وأنه مع استمرار النزيف أصبح واضحاً أن أمه الوحيد هو في إجراء عملية جراحية. ولذلك، وبمساعدة بعض المراجع الطبية التي كنت قد أحضرتها معي من الوطن مثل "علم التشريح لجراي" (Gray's Anatomy) و"العمليات الجراحية" لمؤلفيه رونالد وثيرنر The Operations of Surgery by Ronald & Turner وكان الأخير في الواقع يقبع دائماً تحت ضوء المصباح (الرتينة البتروماكس) في إحدى زوايا غرفة العمليات. قمت بحرص وبطء شديد بإزالة الكلية الممزقة، ثم ربطت الشرايين لإيقاف النزيف، ولكن للأسف الشديد جاء ذلك متأخراً، فقد نزف الصبي كمية كبيرة من الدم، ولم يكن بالمستشفى بنك للدم، وكان والداه من البساطة بمكان بحيث أنهما لم يكونا يفهمان أو يرغبان التبرع بالدم، ولذلك توفي الصبي بهدوء، وقد أزعجني ذلك كثيراً.

ثلاث ذلك بعد فترة قصيرة حالة التعدي الثانية، ولكن جاءت نهايتها سعيدة. كان مفتش المباني البريطاني يأتي إلى أبو عشر كل أسبوع لصرف المرتبات للعمال بالمكتب المحلي، وقد أثار سخطه منظر حمار كان يربط إلى عامود خارج الباب الأمامي للمكتب مباشرة، وهو المكان الذي كرر كثيراً أنه ممنوع. وعندما رأى صاحب الحمار يسير على بعد مسافة منه بجانب التربة ( قناة الري)، التقط حجراً وقذف به في اتجاه الرجل ليسترعي انتباهه، ولكن يا للهول: فقد أصاب الحجر مؤخرة رأس الرجل فسقط على الأرض مثل ثور ضرب بفأس

الجزار. نقل الرجل إلى المستشفى فاقد الوعي متأثراً بجرح عميق فى فروة الرأس. ومن خلال الجرح، بعد تنظيفه من الدماء، تبين بوضوح أن بعض عظام الجمجمة قد دُفعت إلى الداخل، فضغطت على الدماغ مما استدعى اتخاذ إجراء سريع لم يسبق لى القيام به من قبل. غير أنه بمساعدة كتاب (رونالد و تيرنر) لم يكن الأمر يبدو صعباً. قمت بعمل ثقب بجانب اللوحة العظمية المضغوطة وفصلتها عن الجمجمة، ثم قطعت بين الثقوب مستخدماً منشار (جيجلى Gigli) السلكى، وتم رفع اللوحة العظمية، وبذلك أمكن إزالة الضغط من على الدماغ، وإصلاح التلف الذى أصيب به العظم الفخائى، وبعد ذلك أعيدت اللوحة العظمية إلى مكانها، وتمت خياطة فروة الرأس.

لقد قمت بهذا العمل دون أى عائق، وأصبح كل شيء يسير نحو التحسن بأكثر مما كنت أؤمل، حيث استعاد المريض وعيه، وتم نقله إلى الجناح. غير أن ذلك لم يكن بأى حال نهاية لفترة القلق التى كان يعيشها مفتش المبانى الفبى، ذلك أن الأيام التالية كانت تعتبر حرجة ليس للمريض فحسب، وإنما بالنسبة له أيضاً، فهل ستؤدى الإصابة إلى الالتهاب السحائى؟ ونحن لم تكن لدينا فى تلك الأيام مضادات حيوية، وإذا حدث ذلك فمن المؤكد أنه كان سيؤدى إلى الوفاة، مما يوقع صاحبنا فى تهمة القتل غير الممد بكل ما يترتب عليها من المواقب المتوقعة، ولذلك كان يهرع إلى منزلى فى كل مساء بعد انتهائه من العمل لأطلعه على آخر التطورات، وليستهلك العديد من جرعات الويسكى وهو يزرع الفرندة جيئة وذهاباً مستمسكاً بأى بصيص من الأمل أستطيع إعطاء له. ولحسن حظه كانت التوقعات تتحسن ويقل انزعاجه يوماً بعد يوم. وأخيراً شفى المريض تماماً، وانتهى الموضوع بتسوية سخية.

كانت تلك الأسابيع الأولى مليئة بالقلق، وكنت أشعر خلالها بعدم الكفاءة والمجز مما أصابنى بإحباط شديد. وبدأت أتساءل: ترى هل أخطأت فى قبولى

للمعمل بهذه البلاد الفريية النائية؟ ولكن عندما اعترفت بعجزى للدكتور فرانسيس كولز (Francis Coles) أخصائى الباطنية، ذلك الرجل الحكيم، استطعت أن أتمالك نفسى من جديد، وقررت البقاء فى السودان إلى نهاية المدة.

كانت محطتى التالية هى مدينة الأبيض التى كان يوجد بها آنذاك الدكتور برنج فارمر (Pring Farmer) مفتش طبى المديرية، وفى هذه البيئة الاجتماعية المؤاتية استطعت أن أسترد توازنى، وأطرد عنى الاكتئاب، وبدأت الاستمتاع بالحياة من جديد، والتعود على ما كنت أعتبره مسئوليات جسيمة وأصبحت نظرتى إلى الأمور أكثر واقعية. وطالما أنه لم يكن هناك غيرى ممن يتعامل مع هذه الحالات الطبية والجراحية الخطيرة، مع كل ما ينقصنى من خبرة، فقد أصبح لا مفر لى من التعامل معها، وإذا استطعت أن أفعل كل ما فى وسعى، فإننى ببساطة ما كنت أستطيع أن أفعل أكثر من ذلك. كان يجب على أن أكون مثل أهل البلد بأن أعزو النتائج مهما كانت إلى الله! وكان ذلك بالتأكيد يسبب لى نوعاً من الارتياح، خاصة وأنه لم يكن هناك من أقارب المرضى وأصدقائهم من ينتقدك فى شىء مهما كانت نتائج العمل الذى قممت به، وهناك الكثير الذى يمكن أن يقال فيما يتعلق بهذا الإيمان العميق بالقضاء والقدر.

لقد مكثت بالأبيض بضمة أشهر قبل أن أنقل إلى الفاشر التى أصبحت فيها شخصاً مختلفاً، فقد تعلمت المزيد من اللغة العربية بحيث أصبحت قادراً على مخاطبة المرضى، وازدادت ثقته بنفسى. وأنا أقطع "طريق الفاشر" المشهور الذى يبلغ طوله ٢٧٠ ميلاً، والذى هو عبارة عن كابوس من الأخاديد والكثبان الرملية، كنت أشعر بالسعادة، وتقمرنى توقعات متلهفة للعيش فى هذه المديرية التى كان يعتقد الكثيرون أنها أكثر مديريات السودان جاذبية.



تقع مدينة الفاشر، عاصمة دارفور، في وسط المديرية، وفي عام ١٩٤٢ كان يبلغ تعداد سكانها ٢٤٠٠٠ نسمة، وهي تحيط ببحيرة (فولة) تحتل منخفضاً طبيعياً معاملاً بأرض مرتفعة، وكانت قرى الأهالي تقع على أحد جانبي الفولة، وعلى الجانب الآخر يقع قصر السلطان على دينار آخر سلاطين دارفور الذي أصبح سكناً لمدير المديرية، وبالقرب منه كانت توجد مساكن المسؤولين البريطانيين، ومكاتب الحكومة والمستشفى.

كانت الفاشر أثناء الحرب محطة هامة للمبور الجوي على خط الطيران عبر أفريقيا إلى مواقع الجيوش في شمال أفريقيا، والذي كان يبدأ من (تاكورادي) في ساحل الذهب ماراً بقورت لامي والخرطوم إلى القاهرة، وكانت تستخدمه جميع أنواع الطائرات المحملة بالموثون والإمدادات لقوات الحلفاء. وكان يتولى خدمة هذه الطائرات موظفون يتبعون للقوات الجوية الأمريكية والقوات الملكية البريطانية، ويتمركزون في معسكرين منفصلين على خط الطيران. كان جزء من عملي هو الإشراف على الرعاية الصحية لهاتين المجموعتين، مع أن الأمريكيان قد استجلبوا فيما بعد طبييهم الخاص.

كان كبار المسؤولين في مستشفى الفاشر هم الدكتور جون إليوت (John Elli) Ot مفتش طبي المديرية، وشخصي، والمفتش الطبي، والدكتور زكي مصطفى، مدير المستشفى. كانت سياسة مصلحة الخدمات الطبية السودانية واضحة ومعقولة، فهي تتمثل في توفير الإمدادات الطبية والجراحية البسيطة لأكثر عدد من السكان يمكن الوصول إليهم، وكان يعتقد بحق أن هذه السياسة سوف تحقق فوائد لأهل السودان أكثر مما تحققه الخدمات الطبية المتطورة ذات المهارات المتخصصة. وبالاختصار، فإن القليل من حبوب (الكينين) في المكان والزمان المناسبين يمكن أن يؤدي إلى إنقاذ حياة عدد من الناس أكبر بكثير مما

يمكن أن يوفره العلاج المتخصص والعمليات الجراحية في المستشفيات باهظة التكاليف. وبناء على ذلك كان الأساس الذي تقوم عليه الخدمات الطبية في السودان هو إنشاء شبكة الشفخانات الريفية في المناطق المأهولة بأكثر عدد من السكان، وتزويدها بمساعدين طبيين سودانيين تم تدريبهم على أساليب العلاج البسيطة، وكيفية استعمال العقاقير الأساسية، وإجراء الفحوصات، بمدرسة المساعدين الطبيين بأم درمان تحت إشراف أمثالي من المفتشين الطبيين.

كانت هذه الشفخانات تبنى بالطين وتسقف بالقش، وتتكون من غرفة انتظار للمرضى الخارجيين وتحتوى على بعض المقاعد الخشبية، وغرفة للعلاج، وأخرى لتخزين الأدوية، ومخزن، ويلحق بها في العادة جناح صغير به أربعة إلى ستة أسرة. وكان المستشفى الرئيسى بالمديرية هو الذى يتولى خدمة وإمداد ومراقبة الشفخانات، ويقوم المفتش الطبى بزيارتها ثلاث أو أربع مرات سنوياً. أما الشفخانات التى كانت لا تبعد كثيراً عن المستشفى، فكانت ترسل الحالات المستعصية إلى المستشفى حيث تتوفر وسائل العلاج اللازمة، ولكن الكثير منها كانت توجد فى مناطق نائية ويصعب عليها القيام بذلك، خاصة أثناء فصل الأمطار. ولذلك أصبح العديد من المساعدين الطبيين ماهرين فى الجراحة، وكانوا يواجهون بعض الحالات الصعبة بأنفسهم، ومرة أخرى نقول إن تلك الحالات كانت من نوع: "إذا أنا لم أقم بذلك فلا يوجد غيرى من يستطيع، وعليه فلاأتوكل.

كان المستشفى مزدحماً بالعمل، والعيادة الخارجية وأجنحة المرضى مزدحمة دائماً، وتستقبل شتى ألوان الأمراض بأنواعها المختلفة التى تشمل الالتهاب الرئوى، والدمستاريا، واليرقان، وأمراض الكبد الأخرى، والأمراض التناسلية.

كانت تجرى فى المستشفى العديد من العمليات الجراحية المتعلقة بالجروح والكسور الناجمة من الصدمات ، ولذلك كان يتعين أن يكون واحد منا موجوداً فى غرفة العمليات بصفة مستديمة لمواجهة الإصابات الناجمة عن الحوادث وهجمات الحيوانات المتوحشة، والصدمات القبلية، أو المشاجرات المنزلية التى كانت ترد إلى المستشفى بكثرة. كما كانت تجرى العديد من عمليات الولادة بسبب انتشار ممارسات الختان الفرعونى الضارة.

كانت جميع البنات قبل من البلوغ يخضعن للختان الفرعونى، حيث تقوم الداية (القابلة المحلية) بقطع البظر والشفرة، ويتم ذلك دون استخدام أى نوع من التخدير، ثم تربط الساقان معاً، وتوضع (قشة) فى فتحة الإحليل وتظل هناك إلى أن يلتئم ما حولها من جرح، وتكون النتيجة النهائية عبارة عن عصب يحتوى على أنسجة صلبة متندبة مع ثقب صغير يسمح بمرور البول، وتدفق الدم الطمثى.

وعند الزواج لن يكون هناك بالطبع أى سبيل للاتصال الجنىسى، إذ لا بد من فتح القناة المهبلىة حتى تكتمل العلاقة الزوجية على الوجه الأكمل. وكانت الداية المحلية (القابلة) هى التى تتولى القيام بهذا العمل دون استخدام أى مخدر أيضاً، مع أنه قد أصبح معلوما لدينا بعد حين أنه باستطاعتنا أن نقوم بهذا العمل بصورة أفضل وبواسطة التخدير، ولذلك أصبحت طلبات (فتح) القناة المهبلىة لمذارى القبائل ترد إلينا بكثرة.

من ناحية أخرى كانت الولادة تشكل هاجساً مخيفاً بسبب تدب الأنسجة المحيطة بالقناة المهبلىة التى لا مجال لتمديدتها بالقدر الكافى الذى يسمح لرأس المولود بالخروج، ولذلك كان لا بد من شقها لتوسيعها فى كل حالة ولادة. إن استمرار هذه الممارسة البشعة لآلاف السنين أمر لافت للنظر، رغم أن حكومة السودان قد حاولت منعها ولكنها لم تفلح فى ذلك، ولعلها فى مجتمع

يهيمن عليه الرجال تستمد قيمتها من الحقيقة التي لا يختلف عليها اثنان بأن الفتاة ستكون بالتأكيد عذراء عند الزواج بها، وأن حرمانها من المتعة الجنسية سوف يشجعها على أن تبقى مغلصة لزوجها، ولربما تزداد استشارة الرجل طالما أن المهبل يخاط بعد كل ولادة. غير أنه مهما كان السبب فهي ممارسة بربرية إلى أقصى حد، والبلاد التي تنتشر فيها هذه العادة تعتبر بلداً غير متحضرة.

لا زالت تعلق في ذاكرتي بعض حالات الجراحة الدرامية. أذكر مثلاً ذلك الشاب الرزقي الذي جرحت ذراعه اليسرى أثناء صيد الأسود مع أفراد قبيلته، وبعد الحادث ببضعة أشهر جاء إلى المستشفى بذراع قصيرة لا فائدة منها حيث التأم الجرح على عظمين تداخلا في بعضهما بأربع بوصات. كان الشاب مشهوراً بشجاعته الفائقة، خاصة وأنه من العار لدى القبيلة أن تبدي أي نوع من الخوف في أي وقت من الأوقات. وكان صيد الأسد يتم بأن تقوم مجموعة من أبناء القبيلة بإحاطة الأسد المطارد تدريجياً وكل منهم يحمل رمحه ويكون في حالة استعداد كامل. وفي النهاية، عندما يحاول الأسد الهروب من هذه الدائرة، لا يجوز لأي من أفراد المجموعة أن يحجم أو يجفل، ويتوقع من الشخص الذي يكون واقفاً في الطريق الذي سينفذ منه الأسد أن يوجه له طعنة برمحه عند اقترابه منه. ولكن صاحبنا أخطأ الهدف، فرفع ذراعه ليحمي بها وجهه، فمضها الأسد قبل أن يتمكن زميله المجاور من تخليصه منه. فمت مع مدير المستشفى بأخذ الرزقي إلى غرفة العمليات، ونجحنا في شد العضلات، وإنعاش أطراف العظام مع إعادة تنظيمها، ثم وضعنا الذراع في الجبس لتلتئم على الوضع الجديد، ورغم أن النتيجة النهائية لم تكن على الوجه المطلوب إلا أنه قد طرأ على الذراع تحسن مفيد.

كانت هناك أيضاً حالة الشاب السوداني من القوات الجوية الملكية الذي كان راكباً على ظهر شاحنة بجوار صهريج كبير للمياه، عندما اصطدمت

الشاحنة بجزع شجرة فانقلبت عليه بكامل حمولتها، وأحضر إلى المستشفى بكسر فى الحوض، وتمزق فى المثانة، وكانت حالته خطيرة. وحسب مراجع الجراحة التى لجأت إليها بسرعة، فإن جميع الأشخاص الذين يتعرضون إلى مثل هذه الإصابات الشديدة يموتون بأثر الصدمة قبل محاولة إجراء أى عملية جراحية لهم، ولذلك لا بد من إحاطتهم بعناية مركزة للسيطرة على آثار الصدمة. غير أنه لدهشتنا الكبرى لم يكن مريضنا يعانى بالمرّة من أية حالة صدمة سريرية، مما ساعد على نقله إلى غرفة العمليات مباشرة، حيث أجريت له عملية جراحية استغرقت وقتاً طويلاً، ولكنه تحملها بجلد وثبات عظيمين دون أن يبدو عليه أى نوع من الضيق أو الألم، وكتب له فى النهاية الشفاء التام.

سرعان ما يدرك المرء أن السودانيين هم أصلب عوداً من الأوروبيين، ولهم القدرة على تحمل المعاناة الناجمة عن الإصابات المرحبة دون أن يصابوا بأى صدمة. وفى هذا الصدد أذكر على سبيل المثال ذلك السودانى الذى جاء إلى المستشفى فى ود مدنى، وكان فى الواقع يعمل ذراعاً اليسرى التى ضغطت عليها إحدى البكرات فى محالج القطن، فأدى ذلك إلى التواء فى مفصل الكتف، ولحسن الحظ أنه فى مثل هذه الحالات يقل النزيف لأن الأوعية الدموية تتكمش وتقلق بسرعة. لم أستطع استرداد الذراع إلى مكانها ( رغم أنه فى المملكة المتحدة اليوم يمكن ويتم إجراء هذا النوع من العمليات) ولكنى استخدمت جزءاً من جلد الطرف المصاب لتغطية الفجوة التى نجمت عن الجرح.

لم يكن السودانيون يبدون هذا النوع من الثبات والجلد فى مواجهة الإصابات البالغة فحسب، ولكنهم أيضاً لا يشكون أبداً مهما كان الألم شديداً ومعضاً، ذلك أن الشكوى فى نظرهم تعتبر عاراً كبيراً. كان من الممكن أن

يسبب ذلك بعض المتاعب، خاصة إذا أجريت العملية الجراحية تحت تأثير التخدير الموضعي، لأن الخدر الموضعي يتناقص تدريجياً، لذلك لأجل ضمان أن تستمر الأنسجة في حالة عدم إحساس بحيث لا يشعر المريض بأى ألم أثناء إجراء العملية التي تستغرق وقتاً طويلاً، فقد جرت العادة أن يُسأل المريض بين كل وقت وآخر ما إذا كان يشعر بالألم. وكنت في كثير من الحالات التي تكون فيها الإجابة بـ "لا"، استمر في التقطيع، لأفاجأ بعد قليل أن المريض قد أغمى عليه. لم أشاهد مثل هذا الجلد في أى عنصر بشري آخر، ولا يملك المرء إلا أن يعجب به، ولكن في مثل هذه الظروف فإنه قطعاً يعتبر نوعاً من النبء!

لم يكن في السودان أخصائيو تخدير في ذلك الوقت، وكان إذا اقتضت الحالة إجراء عملية جراحية، فعلى الجراح أن يتولى بنفسه مسئولية التخدير، وكان ذلك في الغالب يسبب نوعاً من القلق. أما بالنسبة إلى العمليات الجراحية الصغيرة، فكان يكفى حقن المخدر الموضعي في الجزء المصاب فقط، ولكن فيما يتعلق بالعمليات الكبرى تحت حتمتى الشدين فكان لا بد من التخدير النخاعي. وبالنسبة للعمود الفقري فكانت توجد أمبولات بمحلول مخدر أخف قليلاً من سائل النخاع الدماغي، وعندما تحقن بين فقرات القناة النخاعية، يشترط أن يكون المريض جالساً، فإن الفقرات ترتفع تدريجياً من خلال المسائل النخاعية الأكثر كثافة فتؤدي ارتفاعها إلى تخدير الجذور العصبية في كل مستوى. وعندما يتم بالحساب والتوقيت المتأنى التأكد من أنها قد وصلت إلى المستوى المناسب، يُرقد المريض فيتوقف ارتفاع مستوى التخدير، وهكذا يمكن بدء العملية الجراحية في المريض الذي يكون واعياً ولكنه فاقد الإحساس بالألم. غير أن المشكلة كانت تكمن دائماً في التوقيت، فإذا لم يترك المريض جالساً لفترة كافية، فقد يكون مستوى التخدير منخفضاً جداً، كما أنه إذا ترك جالساً لفترة أطول، فقد يتعرض إلى خطر وصول المخدر إلى المراكز

الحيوية في الجسم مما قد يؤدي إلى وفاته، خاصة وأنه لم يكن هناك  
أوكسجين لمواجهة حالات الانهيار، بل ولم تكن لدينا كذلك إمكانيات نقل الدم  
لمواجهة حالات النزيف الحاد، ولذلك كانت العمليات الجراحية تتمبر عملاً  
خطيراً.

غير أنه بالرغم من كل هذه المخاطر، كنت غالباً ما أكون في غرفة العمليات،  
وكانت ناتئتي الكثير من الحالات المثيرة للاهتمام والتحدى، ولكن كانت هناك  
أيضاً لحظة درامية مرعبة لن أنساها أبداً. كان على في إحدى الليالي أن أجرى  
عملية جراحية طارئة لاستئصال الزائدة الدودية في مركز للتجهيز تابع للقوات  
الجوية الملكية البريطانية، وكما في العادة نتجنب إجراء العمليات الجراحية أثناء  
الليل نظراً لعدم وجود الإنارة الكافية. غير أنه بالنسبة لهذه الحالة لم يكن هناك  
خياراً آخر. كانت هناك ثلاث رتلين بتروماكنس تضيئه غرفة العمليات التي كان  
يفترض أن تكون محمية من الحشرات عندما بدأت العمل. فتحت بطن المريض،  
وعزلت الزائدة الدودية الملتصقة، ولكن عندما شرعت في التقاطها بالمقاط، إذا  
بصوت طنين عال ينبعث في الغرفة ملنا وصول أحد خفافس الروث الذي أخذ  
يدندن بهبطه ويصوت مرتفع حول المكان ويرتطم بالمصابيح، ثم يرتفع إلى أعلى  
بعد إقلاع متعثر ليواصل طيرانه المزعج. وقبل أن نتمكن من التخلص منه حدث  
ما هو أسوأ من ذلك، فقد هبط الخنفس بعنف في وسط البطن المفتوحة،  
ومضى يشق طريقه داخل الأنسجة، ولكن لحسن الحظ نزل على ثنية البريتون  
الحشوي (بين المعدة والأعضاء المجاورة) التي تغطي الأمعاء كاللحاف، وهي  
ليست من الأنسجة الحيوية بل يمكن الاستغناء عنها. وبسرعة البرق أمسكت  
بالمقاط الجزء المصاب من ثنية البريتون الحشوي كاملاً بما في ذلك الخنفس،  
وقمت بربط الجزء وقطعه بعناية، ورميت به في جردل المخلفات. إن التفكير في  
المكان الذي حطت فيه تلك الحشرة، وفي ما يمكن أن تكون قد حملته معها من

بكتيريا مؤذية، قد منعتني من النوم لمدة ليالٍ لاحقة. كم كنت أتمنى أن أكون سريعاً بما فيه الكفاية حتى أتمكن من إزالة جميع آثار عدوان تلك الحشرة، ولكن على أية حال انتهى الأمر بسلام، وبدأ جندي سلاح الجو الملكي يسترد عافيته باطراد.

لا زالت هناك تكملة لهذه الحكاية. كان ذلك الشاب هو المريض البريطاني الوحيد بالمستشفى، واقترح زملائي المازيون أن أحاول إقناع مدير الخدمات الطبية بالخرطوم، أو ربما سلاح الجو الملكي للموافقة على إرسال ممرضة بريطانية لتتولى الاعتناء به. كان يوجد بمستشفى الفاشر في ذلك الوقت ثلاث من النساء الأوريبات وهن: زوجة مدير المديرية، وزوجة مفتش طبي المديرية، وزوجة مفتش المركز، ولذلك كانت فكرة وجود ممرضة عازية، وربما صالحة للزواج، تعتبر إضافة لمجتمعنا ومدعاة للبهجة والسرور، ولكن يا للحسرة فقد رفض طلبى.

كان يوجد خلف المستشفى مجمع صغير يحتوى على شجرة وتُكَل (كوخ محلى بينى من القش)، وكان يسكن فى هذا التُكَل، وظل يسكن فيه لسنوات طويلة، أحد المختلين عقلياً واسمه الطاهر. يبدو أن الطاهر فى زمانه قد قتل عدداً من الأبرياء، ولكن بالنظر إلى كونه فاقداً لعقله، فلم يحكم عليه بالإعدام، وبدلاً عن ذلك حكم عليه بالحجز الانفرادى مدى الحياة.

وعملأ بالمبدأ العام القاضى بعدم إنفاق أموال الحكومة على الخدمات التخصصية طالما أن هناك قيمة أكبر تمود على المجتمع من تنمية وتطوير سلسلة الشفخانات، فلم تكن بالسودان فى ذلك الوقت معشفيات أو مصحات للأمراض العقلية، وكانت تحل مثل هذه المشاكل محلياً. ولذلك كان هذا المكان الخاص هو الحل لمشكلة الطاهر، وظل يعيش فيه وكاحله قد أوثق بسلسل حديدى منذ إدانته قبل عدة سنوات مضت.

كان الطاهر لا يزال عدوانياً فقد يندفع فجأة ويمتد نحو أى شخص يقترب منه، ولكنه بالرغم من ذلك كان شخصاً يتسم بعبادات مرتبة ولو أنها تبدو شاذة وغريبة. كان يكتس بدقة وعناية ذلك الجزء من المجمع الذى يستطيع الوصول إليه فى حدود طول السلسل الحديدى، ويحفر فى كل يوم جزءاً صغيراً فى محيط دائرته ليستخدمه كمراحض، ويقوم فى كل مساء بدفن تلك الحفرة ليحفر أخرى على بعد قدم أو قدمين منها حول محيط دائرته. وكان جسمه عارياً دائماً، ويفضل أن يظل كذلك، ولكن كان يلف خصره عدة مرات بحبل أسود مصنوع من شعره شخصياً، حيث كان بين الفينة والأخرى يقوم بتمشيط جميع الشعر الذى ينبت على رأسه وعانته، ثم يفتله ليصنع منه ذلك الحبل الذى لا بد أن يكون طوله . عندما كنت هناك . قد بلغ إثني عشر قدماً.

وبالرغم من ما كان يتهددنى من خطر عندما كنت اقترب من الطاهر كثيراً، فقد كنت أشفق عليه، ودون تفكير أمرت بتطويل سلسله الحديدى، ولكن كان أثر ذلك مروعاً، فبدلاً أن يكون مسروراً بهذه الزيادة فى حرية حركته، إذا به ينتفض غاضباً، وأخذ يقذف بأى شئ يصل إليه يداه نحو كل من يقترب منه، واعتقد أن ما أثار سخطه هو زيادة المساحة التى ظل يقوم بتنظيفها، ولم يهدأ له بال إلا بعد أن تم تقصير السلسل وإعادته إلى طوله الأصلي.



## الأوبئة

كان الخروج فى جولة يريح النفس من زحمة العمل فى المستشفى، وحيث أن مفتش طبي المديرية لم يكن يهتم كثيراً بهذه الجولات التقديرية، فكنت أخرج كل أربعة أو خمسة أسابيع فى زيارة إلى الشفخانات لأجل التعامل مع انتشار أحد الأمراض المعدية.

وفى أثناء إقامتى فى دارفور أسهمت فى السيطرة على نوعين من الأوبئة، كان أولهما انتشار الحمى الراجعة بين قبيلة المساليت الذين كانوا يسكنون فى أقصى الحدود الغربية مع أفريقيا الاستوائية الفرنسية، وكان ثانيهما هو انتشار الالتهاب السحائى فى تلال المينوب فى الشمال.

كانت قبيلة المساليت فى عام ١٩٤٢ شبه مستقلة ذاتياً، وبخلاف المناطق الأخرى فى السودان كان لناظر هذه القبيلة قوة شرطة خاصة تحت إدارته شخصياً. ولذلك عندما كنت أذهب إلى منطقته لمواجهة انتشار مرض ما يكون قد تسبب فى عدد من الوفيات، لم تكن ترافقنى أى فرقة من قوات شرطة السودان، وكان الناظر ينتدب ابنه لرعاية الحملة على رأس مجموعة من شرطته الخاصة. كان الابن شاباً فارع الطول ومتجرفاً، وكان واضحاً أنه قد تمود على إصدار الأوامر أكثر من إطاعتها، ولذلك كنت أستغرب كيف سيكون تعاملنا معاً. غير أنه لم يكن هناك داعياً للقلق، فقد حدث شيء أدى بسرعة إلى توليد العلاقة بيننا، ذلك أن الشاب قد أصيب بنوبة حادة من مرض السيلان.

قبل ظهور مجموعة عقاقير (السلفوناميد) كأول مضاد حيوى، كانت معالجة هذه الحالات تتم بواسطة إرواء القضيبي بمعلول مطهر، وهى عملية كريمة ومؤلة إلى أبعد حد، علاوة على أن نتائجها غير مؤكدة، وربما كان صاحبنا يتوقع أن أصف له ذلك العلاج. وتصادف فى ذلك الوقت أن كنت احتفظ فى حقيبتى بمجموعة من أول دفعة وصلت إلى السودان من العقار الجديد، ولذلك استطعت أن أعالجه من المرض خلال بضعة أيام دون أن يشعر بأى نوع من الانزعاج أو القلق، وبالنسبة له كان هذا العلاج نوعاً من السحر، وبالطبع كنت أنا الساحر الذى استحق كل فروض الاحترام والتقدير كإى شخصية هامة مرموقة.

تسبب الحمى الراجعة بواسطة فصيلة من الجراثيم اللولبية، وهى عبارة عن كائن خيطى دقيق لولبى الشكل يظهر فى الدم عند اشتداد الحمى التى تنتشر فى الغالب أثناء أشهر الشتاء عندما يميل الناس إلى ارتداء عدد كبير من الملابس، وهى المكان المفضل لتوالد القمل الناقل للمكروب. وهى العادة تكون نسبة الوفاة من هذا المرض أدنى من ٦% ، ولكن فى الحالات الوبائية يمكن أن ترتفع النسبة إلى ما يقارب ٥٠%. ويقال أن هذا الوباء قد انتشر فى دارفور عام ١٩٢٦ ، وأدى إلى وفاة أكثر من ١٠٠٠٠٠ شخص، ولذلك فهو مرض خطير مخيف.

كانت مجموعتى تتكون من شخصى، ومساعد طبى، وتمرجيين (ممرضين) وطباخ، وسفرجى. سافرنا باللوورى تجاه الحدود الغربية إلى ما بعد مدينة الجنبنة حيث انضمت إلينا مجموعة الناظر التى كانت تنتظرنا هناك، وتضم عشرين فردا من شرطته المحلية بقيادة ابنه، مع العدد الكافى من الخيول لنا جميعا، وقامت المجموعتان معاً بتفقد المنطقة الموبوءة فى جولة على ظهور الخيل استغرقت عشرة أيام.

كان الوباء الحالى، حسب علمنا، قد انتقل عبر الحدود من أفريقيا الاستوائية الفرنسية التى كانت نسبة الوفيات فيها مرتفعة جداً. وقد سبق أن أرسلت فرقة من الشرطة بقيادة رقيب أول من مدينة (أبشى) فى محاولة للسيطرة على الوباء، وكانت طريقتهم هى إشعال النار فى قطاطى (أكواخ) المصابين للقضاء على القمل، مما يجعل الدخان عالقا فى سماء القرى المنكوبة لفترة طويلة.

كان أملنا أن يكون فى مقدورنا مواجهة الوضع باستخدام طريقة أقل قسوة من إشعال النيران، ولذلك كانت خطتنا التى قمنا بتنفيذها تتلخص فيما يلى: عندما نصل إلى قرية موبوءة، يدعو قائدنا إلى اجتماع عام يعقد أمام مسكن

شيخ القرية، وكان يقف في وسط الساحة بشخصيته المهابة يحيط به أهالي القرية، ويظهر تحت جلبابه القضاة حذاء عسكري من الجلد، ويتدلى سيفه بجانبه، ويزين صدره حزام حفظ الرصاص المخوف. وكان، بصفته ممثلاً للنظار، يعامل بكل احترام وتطاع أوامره فوراً. كانت تعليماته تقضى أولاً بإنزال جميع جدران القش الجانبية لكل قطية على الأرض لتعرض إلى أشعة الشمس، وبذلك يتم طرد أي كمية من القمل تكون مختبئة بفرض إبادتها بحرارة الشمس. بعد ذلك يوضع على النار في جانبيين من القرية، عدد من القدور النحاسية كبيرة الحجم تملأ بالماء الذي لا يلبث بعد قليل أن يصل إلى درجة الغليان، ثم يتجمع الرجال حول أحد الأشخاص، وكذلك النساء حول شخص آخر، ويبدأ الجميع في خلع ملابسهم وإلقائها في تلك القدور لتمكث في الماء لمدة عشر دقائق، ثم يتم إخراجها ونشرها على الحبال إلى أن تجف. في غضون ذلك يقوم أصحاب الملابس بفصل بعضهم البعض مستعملين الصابون الطبي الذي توفره لهم مصلحة الخدمات الطبية، وتستمر هذه العملية طوال اليوم إلى أن يتم إزالة القمل من كل رجل وامرأة وطفل.

أثناء استمرار هذه العملية، أقوم أنا بالبحث عن الحالات، وفحص عينات الدم، وصرف جرعة واحدة من عقار (نوفارسينوبيلون Novarsenobillon NAB) لكل مصاب بالمرض، وهي في المادة تكفي لشفاء المريض. ولن أنسى أول مرة رأيت فيها تحت المجهر تلك الجراثيم اللولبية التي تسبب الحمى الراجعة، وهي تتلوى وتتقلب بين كرويات الدم الحمراء، كما لن أنسى عبارات الشكر والعرفان التي عبر عنها أفراد القبيلة البسطاء لوصول هذا العلاج الفعال إليهم، وكم كان سرورنا عظيماً بأن الطريقة المرحقة التي اتبعناها من أجل السيطرة على المرض قد أثمرت وبرهنت على نجاحها، وتم القضاء على الوباء بالسرعة المطلوبة.

فى العام التالى أصبحت مشكلة القمل الناقل للوباء محلولة بدرجة كبيرة، وذلك بفضل ظهور مادة الـ (دى دى تى DDT) ، وهى مبيد حشرى يقضى على القمل إلى حد بعيد، وتكفى نفثة واحدة منه فى كمى ملابس أى شخص لإبادة القمل فى ثوان معدودة، ويمكن به معالجة قرية كاملة خلال ساعة واحدة. ياله من تقدم مذهل فى عالم المبيدات الحشرية.

كانت جولتى الثانية التى لا تسمى فى دارفور تختلف كثيراً، وكانت فى هذه المرة بسبب انتشار الالتهاب السحائى أو مرض (أبو فرار) كما يسمونه فى السودان، الذى يضرب الإنسان كالصاعقة، ولا يختار إلا صغار السن والأصحاء من الناس، ويؤدى إلى وفاة ٨٠% من ضحاياه. لقد أشارت التقارير إلى أن هذا المرض قد انتشر فى تلال المهيدوب، وهى منطقة فاحلة تقع فى شمال المديرية على أطراف الصحراء الكبرى. لذلك تحركت برفقة بيتر لمسدين Peter Lumsden مساعد مفتش المركز، وفريق طبي لمواجهة الموقف، والقيام بعمل اللازم بسرعة.

كان وباء السحائى يظهر سنوياً فى منطقة أو أخرى بالسودان، وقد عرف الميكروب الذى يسبب هذا المرض قبل أكثر من خمسين سنة، ولكن الكثير من أحوال المرض لم تكن قد اتضحت بعد، فقد يوجد الميكروب فى -لحوم شخص يتمتع بصحة جيدة تماماً، غير أنه فى بعض الحالات قد تزداد حدته عندما يغترق الأنسجة الدقيقة، ويفرز مجرى الدم الذى يحمله إلى بقية أعضاء الجسم المستهدفة مثل الدماغ والنخاع الشوكى، ولا توجد أى طريقة فعالة أخرى لوقف انتشاره سوى منع الازدحام، ولكن فى بعض الحالات الفردية يصبح العلاج الطبى فعالاً. فى الفترة ١٩٣٢ - ١٩٤١ سجلت فى السودان (٨٠٢.٣٠) حالة سحائى، وبلغت نسبة الوفاة فيها ٥.٧٨%. أما فى الفترة من ١٩٤٢ - ١٩٥٢ فقد بلغ مجموع الحالات ٦٢٢.٨٨، غير أن نسبة الوفاة قد انخفضت إلى ٦.١٢% فقط.

سافرت مجموعتنا باللواري إلى (المالحة) حيث كان في استقبائنا هناك ملك قبيلة الميذوب الذي دعانا إلى وليمة قبلية كبرى يتوسطها خروف بكامل ملحقاته المحببة شاملة مقل الميون، ثم وفر لنا العدد الكافي من الإبل للركوب والتحميل لتقلنا جميعاً بكامل معدتنا.

تقع قرية (المالحة) بجانب أحد المعالم الجيولوجية النادرة، وهو عبارة عن حفرة ضخمة مستديرة الشكل يبلغ طول قطرها ميلاً وعمقها حوالي ١٥٠ قدماً أو أكثر، ويبدو أنها كانت قهوة بركانية. وما يجعلها تبدو غير عادية أنها ليست فوق قمة جبل أو حتى تل، وإنما هي عبارة عن أرض منبسطة تمتد إلى عدة أميال. ويمكنك أن تعدو فيها بالجمال بهدوء دون أن يقع نظرك على شيء ذي بال، ثم تجد نفسك فجأة إزاء حافة جرف يطل على حفرة هائلة تتوسطها بحيرة صغيرة مالحة، تغذيها ينابيع تسيل من أطرافها شبه الصخرية. وتحيط بالبحيرة آلاف الإبل من شتى الأشكال والأحجام، مما يعني بوضوح أن هذا المكان هو مركز قبيلة الميذوب الرئيسى لتوالد الإبل. سرنا أنا وبيتر لمسيدين في المعر الصخري المؤدى إلى أسفل القهوة وشاهدنا من هناك ذلك المنظر الساحر الذي كان يحيط بنا، وتسنى لنا أيضاً رؤية منظر آخر نادراً ما نراه، ألا وهو (تسافد الإبل). يقوم ذكر الإبل بمطاردة الأنثى مصدراً هديرًا ينبعث من بلمومه، وأثناء ذلك تظهر وتختفى من فمه بالونة وردية اللون في حجم رأس الإنسان. وعندما تبطئ النافقة بسبب الإنهاك، يتناول بفكيه أحد ساقبيها الخلفيتين ملقيا بها على الأرض ليركب عليها وهو لا يزال يهدير، ويستمر هذا المنظر إلى أن يشبع الطرفان رغبتهما. وتؤكد لنا بما لا يدع مجالاً للشك أن قضيب الجمل يتجه إلى الأمام وليس إلى الخلف كما يبدو للعيان.

على بعد مسافة قصيرة من (المالحة) عبرنا ذلك المعلم الشهير، أو على الأصح سيئ السمعة المسمى "درب الأربعين"، وهو طريق يتميز بأنه تتناثر فيه

عظام الجمال ، وأحياناً العظام البشرية، ويمتد من الفاشر إلى الصعراء الكبرى. وكان هذا الطريق، في وقت سابق مععن في القدم، يستخدم في نقل المبيد من الجنوب إلى أسواق الرقيق في مصر. عندما يشاهد المرء ذلك المنظر الرهيب، لا يملك إلا أن يعمن النظر في ما كان يكتنف تلك الرحلات من معاناة مرعبة ووحشية مشينة.

كما نتحرك من قرية إلى قرية ونعني نعالج الحالات الموجودة بذلك المقار الجديد (إم أند بي ٦٩٢). كانت الجرعة الماعية من ذلك الدواء حبتين ثلاث مرات يومياً تؤخذ بواسطة الفم لمدة سبعة أيام أو أكثر، ولكن بما أنه كانت تتوفر لدينا كمية محدودة، وحتى نحتفظ بها بقدر الإمكان، فقد اتبعنا طريقة مبسطة اكتشف فعاليتها الدكتور براينت (Bryant) من مصلحة الخدمات الطبية أثناء انتشار المرض في الجنوب. كما نقوم بمسح حبتين في خمسة مليمترات من الماء المعقم ونحقنها في جلد بطن المريض مرة واحدة يومياً لمدة أربعة أيام، ورغم أنها كانت مؤلمة، إلا أنها أثبتت فعاليتها، وبذلك استهلكنا فقط ربع المدد المطلوب لكل حالة من تلك الحبوب النفيسة.

أثناء تجوالنا من قرية إلى قرية، ونعني نعالج المرضى بتلك الحقن، انتشرت الأخبار بأن هذا العلاج منقذ للحياة، وأخذ المرضى يتوافدون علينا من كل حذب وصوب. وكنا نمامل كالمملوك في كل قرية نصل إليها، وتوفر لنا جميع احتياجاتنا، بل إنه في بعض القرى كانت تذبج لنا الذبائح، وتقام على شرفنا الولائم.

في أربعينات القرن الماضي وصلت إلى السوق العديد من العقاقير الجديدة المثيرة التي كان لها تأثير فعال في علاج أمراض المناطق الحارة، فأصبحت الأمراض مثل الطليق، والسيلان، والحمى الراجعة، والمالريا، وغيرها من الأمراض الأخرى، يمكن علاجها بسرعة وفعالية، ولا شك أن شعبية الحكومة

قد ازدادت وقويت، نتيجة لقيام مصلحة الخدمات الطبية بإدخال هذه التحسينات العظيمة في حياة الشعب السوداني، وكانت بالنسبة لي تجربة مفيدة أن أكون جزءاً من أسباب هذه الشعبية.

بعد أن قضيت سنة في الفاشر حان وقت جلوسى لامتحان اللغة العربية، ومرة أخرى سافرت بذلك الطريق الشهير إلى الأبيض، ومن هناك بالقطار إلى الخرطوم. لحسن الحظ لم تواجهني صعوبة في اجتياز الامتحان، وقد ساعدني على ذلك أنني كنت أقضى معظم الوقت في الجولات الميدانية دون رفقة من أتحدث إليه بالإنجليزية، علاوة على توفر الزمن الكافي لدراسة اللغة.

لقد استطعت مواصلة هذا الغياب عن مكان عملي بالسفر لمدة أسبوعين إلى مصيف أركويت البهيج بمنطقة البحر الأحمر لأنوب هناك عن طبيب آخر، كما قضيت بضعة أيام بود مدني في طريق العودة حيث أقمت هناك مع ديفيد لويس (David Lewis) خبير علم الحشرات الطبية الذي أدين له بالكثير، وذلك بسبب اهتمامي بالحشرات التي كانت في الواقع جزءاً من تخصصي الدراسي بجامعة كيمبردج، ولكن ديفيد أثار في نفسي حماساً خاصاً تجاه هذا المجال الذي أصبح فيما بعد إحدى هواياتي الرئيسية. ومنذ ذلك الوقت أصبحت أقضى معظم وقت الفراغ أينما كنت في جمع وتعريف الحشرات، وقد أدى ذلك في النهاية إلى نشر ورقتي العلمية الأولى من السودان بعنوان "فصيلة البموض ذى الجناحين في مديرية دارفور بالسودان الإنجليزي المصري مع ملاحظات حول الجغرافيا والعلاقات الحيوانية الجغرافية بالمنطقة" Anglo Egyptian Sudan The Culicidae Diptera of Darfur Province, with Observations on the Geography & Zoogeographical Relations of the Region والتي نشرت ضمن إصدارات الجمعية الملكية للحشرات في عام ١٩٤٨.

منحت أول إجازة في نهاية عام ١٩٤٤ ، وبما أنه لم يكن بالإمكان الذهاب إلى المملكة المتحدة، فقد سافرت إلى لبنان لتنتهي رحلتى إلى هناك بنتائج خطيرة، حيث التقيت بمن أصبحت زوجتى في المستقبل، وكانت قد جاءت في إجازة من المستشفى الذى كانت تعمل فيه بمنطقة القنال. بعد فترة التعارف القصيرة، واستمرار المكاتبات فيما بيننا لفترة طويلة، أعلننا خطوبتنا.

ونظراً إلى أنه لم يكن يتوفر لدى المال الكافى لقضاء بقية استحقاقى من الإجازة، فقد عدت إلى السودان مبكراً، وقضيت ثلاثة أسابيع أتجول في الجزء الرئيسى من جبل مرة ، حيث خيمت لمدة أسبوع في قمة الجبل أجمع الحشرات من تلك البيئة الفريدة على ارتفاع ١٠٠٠٠ قدم التى تتميز ببرودة طقسها وسهول السافانا الحارة المحيطة بها. كانت الكثير من الحشرات جديدة على المنطقة الأثيوبية، وتناسب إلى حشرات منطقة البحر الأبيض المتوسط، وكنت أطمع في العثور على نوع من البعوض يكون جديداً على العلم، ولكنى قنعت في النهاية بالعثور على نوع يعتبر جديداً على المنطقة الأثيوبية، وكان في السابق معروفاً بوجوده في منطقة جبل سيناء، وقد سررت بذلك كثيراً.

بعد قضاء عامين ونصف في دارفور مليئة بالبهجة والإثارة، نقلت إلى مديرية بحر الغزال في الجنوب، وكنت وقتها مستحقاً لإجازة أخرى، فمضت فيها إلى قبرص، وهناك تم استكمال زواجى من مارى رانكين (Mary Rankin) في مدينة تروودوس على جبل أوليمبس، ورافقتنى بعد ذلك إلى موقع عملى الجديد في مدينة رمبيك.



## رمبيك

كان كل شئ في رمبيك جديداً ومثيراً من الناحية الطبية، فقد كانت أنواع المرض تختلف تماماً عن تلك المعروفة في مناطق العرب الرحل بالشمال

الغري، ولعل السبب في ذلك كان يعود إلى كثرة الأمطار والرطوبة من ناحية ، وإلى اختلاف التركيبة الجينية من ناحية أخرى. لقد لاحظت مراراً وتكراراً من خلال ممارستي لعملى بين قبائل السودان المختلفة أن هناك العديد من أنماط القابلية للأمراض حتى بالنسبة للكائنات المعدية المعتادة.

كان الدينكا معرضين دائماً للإصابة بمرض العليق اللولبى "Yaws" وهو مرض جلدى لم يكن معروفاً في الشمال، ويسبب طفحاً جلدياً ليناً، مع تقرحات في سائر الجسم ذات رائحة كريهة، مما يؤدي إلى الكثير من المعاناة والألم. غير أن المرضى - لحسن الحظ - كانوا يستجيبون بسرعة درامية إلى حقن من محلول زرنينخي يسمى نوفرسينوبيلون (Novarsenobillon) أو ما كان يعرف في جميع أنحاء البلاد بحقن (٦٠٦) التي كانت تعتبر "قذيفة سحرية" قام بتطويرها إيهريش (Ehrlich) في ألمانيا، وكانت بالفعل سحرية بحق وحقيقة، وليس من المبالغ فيه أن التقدير الذي لقيته مصلحة الخدمات الطبية، بل والحكومة إنما كان يعود إلى نجاحها في معالجة مرض العليق. كان السكان يصطفون لأخذ هذه الحقن وهم مطمئنون إلى أن تقرحاتهم المؤلمة سوف تزول خلال بضعة أيام. كان عملاً سحرياً بحق، ومرة أخرى كان موظفو الحكومة هم السحرة!

كان الدينكا يمانون أيضاً من مرض فقر الدم الذي تسببه ديدان (الانسيلوستوما)، تلك الكائنات الصغيرة التي تعيش بالآلاف ملتصقة على جدران بطانة الأمعاء الدقيقة للمريض، وتمتص دمه بصورة مستمرة، وهي تقوم بتمرير بيضها من خلال تجويفة الأمعاء لتتسلل وتخرج من هناك مع البراز. وبمجرد خروجه من جسم الإنسان يفقس البيض، وتتسلق اليرقات إلى أقرب ساق عشبية، ثم إلى الغشاء المائي الذي يتكون من قطرات المطر أو الندى، وتمكث هناك في انتظار أحد المارة لتتغذى إلى جلد ساقيه، ومن ثم إلى

مجرى الدم ، فتشق طريقاً متعرجاً إلى أن تلتصق على جدار المصران حيث تقضى بقية عمرها فى امتصاص دم الإنسان وإنتاج بيضها. غير أن أفراد بعض القبائل، خاصة الزاندى، يمكن أن يكونوا حاملين لكميات ضخمة من هذه الديدان دون أن يبدو عليهم أى نوع من التعب، ولكن لم يكن الحال كذلك مع الدينكا الذين كانوا سرعان ما يصابون بفقر الدم مما يؤدي إلى موت أعداد كبيرة منهم. وكان مما يساعد على انتشار طفيليات هذه الديدان التبرز العشوائى فى العراء، بالإضافة إلى التربة الرملية الطينية، والأقدام والسيقان المارية، وهى حالات تكاد أن تكون موجودة فى جميع أنحاء المناطق الحارة. غير أن العلاج الطبى - لحسن الحظ - أصبح سريعاً وفعالاً فى تخليص ضحايا المرض من هذه الديدان، وكان كل الذين يأتون إلى الشفخانات يتم إنقاذهم من المعاناة التى يسببها اعتلال الصحة.

كانت "الدودة الفينية" سبباً آخر لإثارة الفضول الطبى المتعب، وهى إحدى المخلوقات التى يتراوح سمكها بين ١ . ٥ ملمترات، ولكن يتراوح طولها بين نصف متر إلى متر ونصف، وهى تلتوى وتلتف فى الأنسجة الجلدية وتكون مؤخرتها التى تحتوى على الرحم تحت الجلد مباشرة، وعندما يتساقط الماء على الجلد يبرز الرحم إلى الخارج، ويفرغ عشرات الألوف من البهرقات التى تدخل بدورها إلى جسم مضيف ثانوى - برغوث الماء، وهناك تنمو وتتطور. وإذا حدث أن ابتلع الإنسان هذه البراغيث مع ماء الشرب، فإنه سرعان ما يهضمها، فتتحرر هذه الطفيليات وتشق طريقها إلى داخل أنسجة المضيف الجديد، وتميش وتنمو فى الأنسجة المتصلة بالبدن والمفاقيـن. وعندما تبلغ سن النضج، يصبح طولها غير عادى، فتتجه إلى المفاقيـن والقدمين، وتكمن تحت الجلد فى انتظار الأحوال الرطبة المناسبة لتتمكن من التخلص من يرقاتها. وبما أن سكان المناطق الحارة يحصلون فى العادة على مياه الشرب من الآبار والأنهار، فإن

سيقانهم وأقدامهم تتعرض إلى البلب بالماء، وبالتالي يتم فيها تفريغ يرقات الدودة الفينية. غير أن مرض الدودة الفينية فى الهند، مثلاً، ينتشر بين بائعى الماء الذين يحملونه فى القرب على ظهورهم، ولذلك تظهر الدودة الفينية فى تلك البلاد داخل جلد الظهر، مما يعتبر نوعاً من التأقلم المدهش على ظروف الحياة غير قابل للشرح والتفسير.

أما فيما يتعلق بالطريقة التى كان يتبعها الأهالى فى التعامل مع هذه الدودة، فهى مثيرة للاهتمام، ذلك أنهم يقومون بمسك الجزء البارز من الدودة، ويكل حرص وعناية يتم سحب بوصة أو بوصتين من جسم الدودة، ويلف هذا الجزء حول عود صغير، ولا بد من التركيز على عبارة "بحرص وعناية" ذلك أنه إذا تم سحب الجزء بشدة فقد تنقطع الدودة، الأمر الذى يجب تفاديه بأى ثمن لأنه يؤدى إلى التهاب حاد ومؤلم. ويتم تدوير العود يومياً لسحب المزيد من البوصات من جسم الدودة إلى أن يبلغ طول الجزء المسحوب من أنسجة الجلد متراً أو أكثر. وهكذا أصبحت رؤية الكبار، وهم يحملون تلك الميدان الصغيرة التى تلتف حولها هذه الدودة الملتصقة بسيقانهم، منظرأ شائماً ومألوفاً.

فى أرمينيا القرن الماضى لم يكتشف العلم طريقة أكثر فعالية من تلك التى كان يستخدمها الأهالى فى معالجة المشكلة عندما تحدث الإصابة، مع أنه قد جرت بعض المحاولات للسيطرة على المرض عن طريق تصميم رؤوس للأبار تمنع إعادة الماء إلى داخل البئر بعد سعيه منها.

كنت أشعر أنه لا بد من أن تكون هناك طريقة أفضل، ولذلك شرعت فى البحث والاستقصاء، وكان أول شئ يجب القيام به هو معرفة عدد الآبار الموبوءة ببراغيث الماء، فقامت بفحص عينات من كل بئر فى رمليك وغيرها من القرى التى كانت تقع فى طريق جولاتى، ووجدت أن البراغيث تكاد أن تكون موجودة فى كل الحالات التى تم فحصها، كان منع البراغيث من الإصابة

بالمرض، أو مناشدة الأهالى لترشيح مياه الآبار قبل شربها لا يبدو حلاً للمشكلة. لقد رأيت أن الحل ربما يكمن فى إيجاد طريقة لعزل البراغيث، ولذلك اقترح ديفيد لويس (David Lewis) خبير الحشرات الذى ناقشت معه المشكلة، أن استخدام (الجامبوسيا gambusia) لهذا الغرض، وهى أسماك صغيرة الحجم من نوع (الشبوط)، قد يكون محاولة ناجحة، خاصة وأن هذا النوع من الأسماك قد استخدم بنجاح فى القضاء على يرقات البعوض عندما أطلق فى بعض برك المياه فى الشمال، ولم يساوره الشك فى أنها سوف تلتهم بالمثل جميع براغيث الماء إذا قدرت على العيش فى الآبار، ولكن لم يكن بالإمكان معرفة ذلك.

بناء على ذلك، وبمساعدة ديفيد، قمت بإطلاق هذه الأسماك الصغيرة فى عدد من الآبار. غير أنه لسوء الحظ أن هذا العمل لم يكتمل، حيث تم نقلى من رمبيك قبل أن أتمكن من جمع البيانات الكافية، ولكن وضح لى أن أسماك الجامبوسيا استطاعت العيش فى الآبار، ونجحت فى تخفيض أعداد البراغيث. لا أدري ما إذا كان أى شخص آخر قد تحمى لتابعة هذه التجربة، وما إذا كان قد خرج منها بأى نتائج.

لم تكن الأمراض الوبائية المنتشرة فى الشمال، كالسعال والحمى الراجعة، معروفة لدى الدينكا، ولكن مرض الجدري، بنوعيه الأصفر والأحمر، كان منتشرًا ويتسبب فى العديد من الوفيات. لذلك كنا نقوم بتطعيم الأهالى ضد هذا المرض على نطاق واسع، ونجعلنا فى احتواء انتشاره، وأرسلنا بعض الحالات إلى مستشفى رمبيك.

كانت نقطتا الضعف فى التركيبة الجسمانية للدينكا، كما فى العديد من القبائل الأفريقية الأخرى، هما الرثتان والكبد، ولذلك كان ينتشر بينهم الالتهاب الرئوى الذى كان يؤدى إلى الوفاة فى أغلب الحالات، مع أنه قد تم

إنقاذ الكثيرين بفضل (الساقوناميد) وحبوب (إم أند بى ٦٩٣) التى تم توفيرها مؤخراً كما ذكرت آنفاً.

لقد دهشت لعدد حالات اليرقان التى كانت ترد إلى المستشفى والشفغانات، وتملكنى شعور بأننى أتعامل مع مرض ويل (Weil's Disease) وهو مرض نادر تسببه جرثومة لولبية تحملها الجرذان والفئران، وتنقل عدواه عن طريق المياه الملوثة بهذه الجراثيم. وبما أنه لم يسبق تشخيص هذا المرض فى هذا الجزء من أفريقيا، فيمكنت أن تتخيل مدى ما تملكى من إثارة عندما ظهر لى على أرضية المجهر الداكرة، فى معظم الحالات التى قمت بفحصها، ما حسبه حركات لولبية للكائن المسبب للمرض.

هكذا اقتنعت بأننى قد حققت اكتشافاً عظيماً، وأن الشهرة قد باتت فى قبضة يدى، فواصلت العمل بهمة ونشاط. كان أول شيء يتوجب على عمله هو متابعة الكائنات الناقلة للمرض، وهى بالتأكيد القوارض المحلية. لذلك أعلنت أننى سوف أدفع "تعريف" (نصف قرش وكان يعادل نصف بنس) عن كل جرذ أو فأر يتم إحضاره لى فى المنزل. ولم تمض فترة طويلة حتى أصبح لدى عدد كبير منها، مما اضطررنى لسحب عرضى بسرعة، ولكن ليس قبل أن تجتاحنى الفئران التى هربت من الشراك التى صنعها أولاد المدرسة من أغصان الشجر اللينة للإمساك بها وتسليمها لى.

لقد سعدت كثيراً عندما قمت بفحص بول هذه الحيوانات الصغيرة وتبين لى وجود كائنات حية مماثلة، وبدا لى أن ذلك يؤكد اكتشافى، غير أننى عندما واصلت فحص دم المرضى غير المصابين باليرقان بالمستشفى بغرض المقارنة وإجراء الاختبارات الضابطة، بدأ يساورنى الشك عندما وجدت كائنات نخاعية، ولم أفهم كيف يكون ذلك، واحتاج الأمر إلى شهور قبل اكتشاف الحقيقة، وذلك أثناء مرورى بالخرطوم فى طريقى للإجازة، حيث قمت بمرض

نتائج أبحاثى على أخصائى علم الأمراض الحكومى، الدكتور روبرت كيرك (Robert Kirk) الذى ألقى نظرة على جراثيمى اللولبية، وأعلن فوراً أنها جراثيم كاذبة. ويبدو أنها كانت خيوطاً دقيقة قد قذفت بها جسيمات فى السائل فانتجت ما يسمى بالحركة البراونية (Brownian Movement) التى تشبه كثيراً الجراثيم الحقيقية من حيث مظهرها وحركتها، مع أنها . بالطبع . لم تكن كائنات حية بتاتاً، ويبدو أن ذلك هو الشيء الذى كان يتراءى لى تحت المجهر.

فقدت أعصابى، ولم أصدق ذلك فى بادئ الأمر، فقد أضعت شهوراً عديدة أطارد السراب، ولكنى تعلمت من ذلك درساً لن أنساه: كم من الأفكار المسبقة تحاصر المرء أحياناً، وكم يصعب عليه أن يتجنب تفسير ما يتوصل إليه من نتائج جديدة بالطريقة التى تلائم فرضياته، خاصة إذا قضى شهوراً عديدة فى تطويرها، وكم هو ضرورى فى أى بحث أن تتساءل عن كل شئ، وأن يظل ذهنك مفتوحاً دائماً.

كان مفتش المركز فى رمبيك هو تيد نايتنجيل (Ted Nightingale) الذى جاء إلينا مع زوجته من كينيا، فأصبحا الجيران الوحيدين لنا من الإنجليز، وكانا يديران رئاسة المركز بكفاءة عالية. لم يكتفيا فقط بإدارة مزرعة الألبان (رغم أن البقرة الواحدة لم تكن تحلب أكثر من رطل يومياً)، وإنما قام تيد أيضاً بتنظيف مساحة فى الغابة لتكون ملعباً للبولو، واستطعنا بالحصانين خاصتى، اللذين قطعنا كل الطريق من دارفور، أن نجتمع من البلدة المدد الكافى من الخيول والفرسان لممارسة اللعبة.

لقد عرف عن تيد اهتمامه بجمع أشبال بعض الحيوانات بفرض المتعة، وكان يستبدل كل حيوان صغير يُحضر إليه بمجل ضخ، ووجدتنى أقوم بمهام الطبيب البيطرى الفخرى الذى يقدم النصيح والإرشاد حول سلوك هذه

الحيوانات مثل جراء وحيد القرن الأبيض، والتيتل، والزراف، وعجول الجاموس وغيرها. وبما أن بعضاً من هذه الحيوانات لم يكن قد قُطِعَ بعد، فكان من الصعب معرفة كيفية تغذيتها، وكان مرض الدسنتاريا - للأسف - هو الكارثة التي قضت على العديد من هذه الحيوانات الرضعية، بالرغم من حبوب (السلفوناميد) التي كنا ندفع بها في حلاقيهما. كان جرو وحيد القرن الأبيض الذي يصل إلى أوروبا حياً، يمكن أن يباع هناك ببضعة آلاف من الجنيهات، وقبل خمسين سنة كان ذلك يعتبر مبلغاً كبيراً، لذلك لا غرابة أننا كنا لا ندخر جهداً لنقدم لها كل ما نراه مناسباً. وأذكر أنني كتبت إلى حديقة الحيوانات بلندن راجياً تزويدي بمكونات حليب أنثى وحيد القرن، والزراف، والفيل؛ غير أن الرد الذي تلقينته بعد عدة أشهر لم يساعد كثيراً، ولذلك فقدنا الكثير من تلك الجراء الجميلة. كما أذكر أيضاً عندما التفت مرة إلى ماري لأحدثها عن عجل الجاموس الذي كنت أقوم بالكشف عليه، إذا بي أجد نفسى فجأة منكفئاً على وجهي بعد أن نطعننى "المرض"!

●●

١٩١٦

قمت وماري في أبريل ١٩١٦ بأول إجازة لنا بعد زواجنا. كانت ماري حاملاً، ولذلك عندما عدت إلى السودان تركتها في إنجلترا للوضوح. وبعد أن أمضيت أسابيع قلائل في رمبيك، أرسلت إلى واو لتغطية إجازة الدكتور دي. بي. جيليف (D.B. Jelliffe) المفتش الطبي هناك.

كانت واو أكبر بكثير من رمبيك، ويبلغ عدد سكانها ٧٠٠٠ نسمة، وبها مستشفى أكثر تطوراً ويتميز بوجود الكهرباء. كان مجتمع المدينة يضم عدداً من الأوروبيين، وبخلاف موظفي المديرية البريطانيين بقيادة ريتشارد أوين (Richard Owen) مدير المديرية، كانت هناك أيضاً مجموعة من الرهبانيات

والرهبان المنتمين إلى "آباء فيرونا" (Verona Fathers)، وهى إرسالية كاثوليكية رومانية بقيادة الأب جورجيتى (Georgetti) الذى كان رجلاً مهيباً يتميز بعين طوافة، ويدمن التماط. الصور الفوتوغرافية لفتيات الزاندى والدينكا اللاتى فى سن الزواج بعالتهن الطبيعية)

لم يكن العمل الطبى يختلف كثيراً عنه فى رمبيك، ولكن وجود الكهرباء قد ساعد كثيراً، وأتاح لنا استخدام الأشعة السينية. وكان مما يدعو إلى العسر أن يكون هناك أوروبيون يأتون إلى العلاج، إلى جانب بعض المسائل المحلية المثيرة للاهتمام. كانت المستشفيات المحيطة بالمدينة تتطلب وقتاً وجهداً كبيرين لتقليل أعداد بمرض (الأنوفلين) لوقاية الناقل للملاريا الذى كانت أعدادهم تتزايد عند الغروب لتصل إلى عشرات الألوف، وكانت الطريقة التى نستخدمها لمكافحة هى أن ننثر على سطح الماء سحباً من الغبار الذى يحتوى على ذرات من (أخضر باريس Paris Green) وهو مستحضر زرنيخى. وبما أن البعوضة تتغذى على طبقة الماء السطحية، فإن أقل كمية من هذا السم تكفى لقتلها، وكلما كان بالإمكان تغطية مساحة كبيرة من المياه الراكدة، كلما أصبحت السيطرة على البعوض بصورة أفضل. غير أن ذلك كان يتطلب جيشاً جراراً من (صبية البعوض)، وعدداً كبيراً من موظفى الصحة العامة لمراقبتهم، علاوة على متابعة مستمرة من المفتش الطبى.

انتشر فى هذه المنطقة أيضاً نوع غريب من اليمى وصل إلى درجة الوباء فى بعض القرى الواقعة على ضفاف الأنهار، وهو (عمى نهر الجور Onchocerciasis) ينتقل هذا المرض عن طريق العدوى بواسطة دودة خيطية يتراوح طولها من ٢٠ - ٤٠ سم، وهى ترقد ملتفة تحت الجلد، وتحاط بتفاعل ليفى مزمن تتكوّن منه عقد صغيرة تتباين فى أحجامها من حجم حبة البازلاء إلى حجم بيضة الحمام. وتتواجد هذه العقد فى أى مكان على سطح الجسم، ولكن تكثر بصفة خاصة

على النتوءات العظمية حول الركبتين، والمرفقين، وقروة الرأس. ويكشف تشريح هذه العقدة عن وجود دودة ذكر وأخرى أنثى تلتف كل منهما بجانب الأخرى، وتوجد عشرات الألوف من أجنحتها الدقيقة بين الأنسجة في شكل خيوطات، وهي مرحلة ما قبل اليرقات، ويبلغ طول كل منها حوالى ٢٠٠ مايكرون. تنتقل هذه العقدة الخيطية إلى مجرى الدم، ثم تفرز جميع أنسجة الجسم، وهي تسبب آلاماً شديدة خاصة في المراحل المبكرة، ولكن ما يجعل المرض رهيباً هو أثر العدوى على العينين الذى يتمثل في التهاب حاد يؤدي إلى العمى في أغلب الحالات.

لقد أصاب (عمى نهر الجور) حتى الأطفال الصغار، فبمجرد انتقال العدوى إليهم، فإنه لا يبقى إلا القليل الذى يمكن عمله، مع أن إزالة العقدة بعملية جراحية، خاصة تلك القريبة من العينين، قد يؤجل أو ربما يقي بعض ضحايا المرض من الإصابة بالعمى. وفي السنوات الأخيرة تم تطوير أنواع مختلفة من الأدوية الكيميائية (chemotherapeutic agents) مستمدة من الكحل والزرنخ، وقد نجحت في استئصال المرض، ولكنها لم تكن متوافرة لدينا في أو.

ينتشر هذا المرض بواسطة لسعات "بموض الجاموس" (*Simulium damnosum*)، وهي عبارة عن ذبابة صغيرة محدودة الظهر تتغذى أساساً على دم ذوات الشدى، وتعيش يرقاتها ملتصقة على الصخور والأعشاب في الأنهار سريعة التيار. كان هذا النوع من البموض ينتشر بأعداد كبيرة في الأماكن المواتية، ومعروف بلسعته المؤلمة التي أصبحت مصدر خطر وإزعاج للأهالى الذين يسكنون بجانب الأنهار. لقد قام ديفيد لويس بإجراء دراسة مكثفة لمجموعة من هذه الحشرات وأصبح فيها مرجعاً عالمياً، وكان هو وزوجته (ليسلى) غالباً ما يقومان بجولات في المستنقعات حيث كنا نلتقى بهم كثيراً.

بدأت السيطرة على المرض في عام ١٩٤٦، وكان يتم ذلك في الغالب بترحيل القرى الواقعة بجانب الأنهار في المناطق المصابة، ولكن خلال سنوات

قليلة أدى ظهور المبيدات الحشرية (دى. دى. تى. والجماكسين) إلى إمكانية حقيقية لاستئصال اليرقات من الأنهار، ونجحت السيطرة على المرض فى العديد من البلدان.

كانت الجولات التفقدية - كما هى دائماً - فرصة طيبة للاستراحة من عناء العمل فى المستشفى، رغم وعورة وخطورة بعض الطرق، وكان أصعبها ذلك الطريق المؤدى إلى راجا التى كانت توجد بها أقصى شفاخنة فى شمال مديرية بحر الغزال. لقد سبق أن زرت هذه الشفاخنة مرة واحدة فقط، وأثناء تلك الزيارة حصل حدث عارض بصورة درامية. توقف اللورى الذى كان يقلنى واثنين من الخدم، والمساعد الطبى الذى كان متقولاً إلى راجا، والسائق، تحت شجرة (تبلدى) ضخمة فى أطراف إحدى القرى. واقترب منا زعيم القرية بعد أن لاحظ - دون شك - الزى الخاص بمصلحة الخدمات الطبية، وطلب منا الذهاب معه للكشف على أحد أقربائه الذى ظل يمانى من ألم باطنى حاد طوال الأربع والعشرين ساعة السابقة، والذى وصل الآن إلى مرحلة الخطورة. أدخلنى الرجل فى قطية مظلمة يرقد فيها شاب فى حوالى الرابعة والعشرين من العمر، وكان واضحاً أنه يمانى من ألم شديد. وأسفر الكشف عليه عن وجود كتلة طرية مشدودة فى الأربية (أصل الفخذ) اليمنى توجهه عند لمسها، مما يعنى بالتشخيص أنها فتاق أربى مختنق بسبب احتجاز عقدة من الأحشاء فى القناة الأربية أدى إلى انسداد معوى كامل. ويصرف النظر عما يسببه ذلك من ألم شديد، فإن مثل هذه الحالات تؤدى إلى الوفاة ما لم تجد العلاج اللازم، ذلك أنه إذا بقيت المعدة مختنقة هكذا، فسوف يتقطع مجرى الدم، وتصاب المعدة بالقرقرى، ثم تتمزق فى النهاية لتصب محتوياتها فى التجويف الصفاقى مما يؤدى بسرعة إلى التهاب الصفاق المميت. كانت هذه الحالة بنتائجها المميتة مألوفة لدى الأهالى، وكانوا يعالجونها بطريقة درامية من

خلال غرز رمح ملتهب فى الورم، وبذلك يتم تصريف محتويات المعدة فى الخارج على أمل تئامى التهاب الصفاق. لا بد أن يكون بعض المرضى على الأقل قد تم إنقاذهم من الموت بهذا العلاج البطولى، ولكنى أظن أن عددهم كان قليلاً جداً.

لم يكن هناك مجال لأخذ هذا الشاب إلى المستشفى فى واو، ولا حتى إلى الشفخانة فى راجا لأنه لم يكن فى مقدوره تحمل مشقة الرحلة. لذلك كان على أن أفعل ما أستطيع بالأدوات القليلة التى كنت أحملها فى حقبتى الطبية المكونة من مشرط، وملقطى أنسجة، وملقطى شرايين، وحقنة، ومخدر موضعى. حملنا المريض من القطية المظلمة وأرقدناه برفق على عنقريب (سرير محلى منسوج بالحبال) بجانب اللورى تحت شجرة التبلىدى. وبمساعدة الخادمين، اللذين كانا يهشان على الذباب بعيداً عن المريض، والمساعد الطبي بدأت أقطع ببطء من خلال الأنسجة إلى أن تم تخليص المعدة لتتهبط فى التجويف المعوى محدثة صوت فرقعة عالية. وكانت المعجزة أنها لم تصب بالقرقرينا، ولذلك كان منظرها الخارجى جيداً، وقد تأكدت من ذلك بالفعل. وفى رحلة العودة، بعد عدة أيام، قمنا بزيارة القرية، ولحسن الحظ وجدنا المريض يتماثل للشفاء على نحو مرضى، وكان الجرح بعالة صعبة نظيفة.

عادت مارى إلى السودان بطفلتنا الجديدة (جين) وقد قمت باستقبالهما فى شامبى، ويبدو أن جين كانت أول طفلة بيضاء تزور واو، مما أحدث ضجة فى المدينة.

لم نلبث على أى حال أن عدنا إلى رمبيك، وبعد ذلك بفترة قصيرة تم نقلى إلى مدينة (ليرانجو).



سافرنا نحن الثلاثة . جين محمولة في (سلة موسى) مصنوعة محلياً .  
وجميعنا في عشب دافئ مريح وسط العفش والأثاث على ظهر إحدى الشاحنتين  
اللتين خصصتا لنقلنا لنبداً بذلك رحلة الثلاثمائة وخمسين ميلاً إلى ليرانجو،  
وتركنا الشاحنة الأخرى لتقل جوادينا الاثنين، والتي كان يتعين عليها أن تسافر  
ليلاً تفادياً لذبابه التسي التسي المرعبة .

لم يمض وقت طويل حتى وصلنا بلاد الزاندى، وبدا لنا كأننا قد دخلنا عالماً  
جديداً، حيث كان كل شيء يبدو مختلفاً . كان الزاندى بقاماتهم القصيرة،  
وأجسامهم الممتلئة، ولونهم الكاكاوى يمثلون مفارقة درامية مقارنة مع الدينكا  
ذوى القامات الطويلة، واللون الأسود الذين تركناهم وراءنا . كان رجالهم يمسكون  
الدينكا يرتدون سراويل قصيرة فضفاضة مصنوعة من لحاء الأشجار اللين،  
بينما كانت نساؤهم يرتدين تنورة تتدلى من الأمام، تقابلها في الخلف حزمة  
من أوراق شجر السنط تتدلى من سير جلدى يلتف حول الخصر .

كانت المنطقة تغطيها الأدغال، لذلك كان الزاندى يقومون بحرق مساحات  
شاسعة من الأراضي في كل عام من أجل إعداد التربة للزراعة التي كانت  
تغطيها حشائش طويلة كثيفة، تتناثر بينها هنا وهناك أشجار السنط مع بعض  
الشجيرات الأخرى . أما الأماكن الأخرى التي كانت تترك دون حريق، فكانت  
تتميز فيها بمختلف أنواع الأشجار التي يعمل معظمها زهوراً في غاية الجمال .

كان الزاندى يمانون من بعض الملل الصحية العادية التي كانت تنتشر بين  
المجتمعات البدائية في أواسط أفريقيا . مثل الأمراض الطفيلية، والجروح،  
وعسر الولادة وغيرها . غير أن المشكلتين الرئيسيتين اللتين كانتا تشغلان  
السلطات الطبية آنذاك هما مرض النوم والجذام . وكان العمل الأساسي هو  
عزل الضحايا منذ البداية حتى يمكن السيطرة على هذين المرضيين . ولهذا

السبب فقد تم وضع المركز الصحي في ليرانجو على بعد مسافة طويلة من المناطق المأهولة بالسكان، وعلى بعد ١٦ ميلاً من مدينة يامبيو التي كانت توجد بها رئاسة المديرية، ومكاتب ومساكن الموظفين البريطانيين الذين كان عددهم يقرب من الخمسة عشر.

قام بتأسيس وتشبيد معظم أجزاء مستوطنة المرضى الدكتور/ أليكساندر كروكشانك (Alexander Cruickshank) في العام ١٩٢٩ م، وكانت هذه المستوطنة هي الفريدة من نوعها في السودان، وفي وقت من الأوقات كانت تضم أكثر من ٢٠٠٠ مجذوم بعائلاتهم، وتعتبر أكبر مستعمرة للمجذومين في العالم، حيث كانت تشمل إلى جانب قطاطى المجذومين الطرق والمزارع، ومستشفى عمومي من طابق واحد مسقوف بالقش ويضم ٦٠ سريراً، ثم مباني السجن، ودار المحكمة، ومباني الشرطة، وميدان المرض العسكري، وأخيراً وليس آخراً منزل المفتش الطبي، وهو منزل غير عادي يتكون من طابقين بسقف كثيف من القش، وكان هو المبنى الوحيد في جنوب السودان المشيد من طابقين. لقد أورد د. كروكشانك في مؤلفه (النيران المضرمة - The Kinding Fires) وصفاً ساحراً للكيفية التي تم بها تشييد هذا المبنى الفريد بالمواد المحلية، وبواسطة عمال غير مدربين، وشرح كيف كان يقوم بنفسه بحرق الطوب، وقطع الأخشاب من الغابة. وقد تم كل ذلك في حدود الميزانية المسموح بها من قبل رئاسة المديرية، والتي لم تتجاوز مبلغاً قدره ٥٠٠ جنيه. لقد كان حقاً عملاً بطولياً.

كذلك أنشأ د. كروكشانك حديقة جميلة أمام هذا المنزل محاطة بسور عشبي، وبها عدد كبير من الأشجار المزهرة، بالإضافة إلى ميدان للتمسك. ولأجل أن يستكمل صورة حياة الأدغال، فقد أنشأ طريقاً يقود إلى المستشفى تظله من الجانبين أشجار المانجو، وأقام سداً على أقرب الأنهار ليكون حوضاً

للسباحة. وكان كل ذلك تتوفر له الصيانة اللازمة عبر السنين من قبل المفتشين الطبيين الذين تماقبوا على المنطقة وأسعدهم الحظ بالإقامة في هذا النعيم مع ما يكفى من العمال المساجين الذين كان يتم توفيرهم من أولئك المتهربين من حملات تفتيش مرض النوم، مما أدى إلى أن يحتفظ المكان بنظام مكمل ممتاز.

ظلت هذه المستعمرة تحتفظ بنفس الاستقلالية التي بدأت بها، فكانت لها قوة شرطة بزيها العسكرية تتولى حفظ الأمن والنظام، وكنت من وقت لآخر أقوم بتفقد طابور القوة في مهبان المرض ممتهطاً حصاني الأبيض (بومبس Bombus) طالماً ونازلاً بين الصفوف. وكان زعماء القبائل ونوابهم يأتون إلى دار المحكمة لسماع القضايا التي تنشأ بين السكان خاصة وأن الزاندى معروفون بميلهم إلى الخصومة والمشاكسة. ومثلما كان يحدث في أيام كروكشانك، فقد كنا نقوم بتصميم وتشبيد وترميم مبانيها الخاصة على الوجه المطلوب، حيث كنا نقطع الأخشاب ونتولى حرق الطوب بأنفسنا.

كانت لدينا أيضاً مزرعة للألبان حيث سبق أن استورد أحد الأطباء المفامرين من الكونغو عدداً من الأبقار القصيرة المقاومة لمرض (نقانا)، وكان إنتاجها من الحليب قليلاً يتراوح بين نصف رطل إلى رطل واحد يومياً، غير أننا نجحنا في أن نستخلص منه كمية لا بأس بها من الزبدة تكفى لإمداد جزء منها إلى أحد الموظفين البريطانيين في يامببو الذى كان يتلقاها شاكراً ومقدراً. كذلك جربنا تربية الخنازير التي كانت وقت وصولنا هزيلة ومريضة بسبب الدود والطفيليات الأخرى ولكن تمكنت من القضاء على أغلبها.

كنت بوصفى المفتش الطبي المسئول أتصدر كل ذلك، وأعيش حياة مليئة بالحركة والإثارة. كان يتم توزيع الأعمال المختلفة على المساجين يومياً، وكنت أصرف التميلات فيما يتعلق بصيانة المساكن، أو تشييد المباني الجديدة، أو

تسقيفها بالقش. ثم يلى ذلك القيام بجولة حول المستوطنة، وبعد ذلك إجراء بعض العمليات. لم تكن لدينا كهرباء، وبطبيعة الحال لم تكن تتوافر لدينا أشعة (إكس)، ولكن بالرغم من ذلك يجب ملاحظة كم من الأعمال قد تم إنجازها دون الحاجة إلى مثل هذه الكماليات، وكم كان يمكن للمرء أن يتعلم عن طريق استخدام يديه وعينيه فقط.

كان مرض الجذام حتى عام ١٩٤٠ يعالج بواسطة حقن زيت نبات (الشلموجرا chalmogra) الذى كان يزرع فى ليرانجو ويستخرج منه هذا الزيت، غير أنه بعد وصولي تغيرت الأوضاع، حيث تم تطوير تركيبات كيميائية جديدة، وأصبح علاج المرض يتم بواسطة حبوب (دابسون Dapsone) التى تؤخذ بالفم، مما أدى إلى نتائج أفضل من ما مضى بكثير، حيث يعتبر المريض غير قابل للمدى خلال فترة مناسبة، وبذلك أوشكنا على تغيير سياسة عزل المريض طوال العمر، ولاحقاً أصبحت الحالات تعالج باطمئنان فى العيادة الخارجية بالمستشفى.

لا معنى ذلك القول أن المستعمرة كانت غير محبة، كلا لم تكن كذلك. وبالرغم من أن المصابين بالجذام قد فقدوا حريتهم، إلا أنه كان يتم إمدادهم بالطعام والشراب والعلاج، وكانوا يمتلكون القطاطى التى يسكنون فيها، وأصبحت لهم قراهم الخاصة، كما أنهم تخلصوا من ذل المهانة والاحتقار الذى كانوا يتلقونه من جيرانهم، بل وأهم من ذلك كله أنه ما كانت ترد منهم أية شكاوى، ولكن حدث أن تم إلقاء القبض على بعض الأفراد الذين ضبطوا وهم يحاولون تزييف ما لحق ببشرتهم من بقع الجذام لكى يتسنى لهم الالتحاق بالمستوطنة.

عندما تم اكتشاف أولى حالات مرض النوم فى بلاد الزاندى خلال العشرينات من القرن الماضى، قرعت أجراس الخطر. وقبل ذلك بفترة قصيرة

ظهر فى الكونغو ويا فتابك اأى إلى وفاة أكأر من نصف مليون شخص؁ ثم اعقب ذلك انتشار المرض على شواطئ بحيرة فكتوريا ما أى إلى وفاة ثلثى عدد السكان. غير أنه فى السودان أمكن السيطرة على المرض بنجاح؁ وذلك من خلال التعرف على الحالات لى مراكز تفتيش مرض النوم؁ وعزلها فى كل من مستوطنتى ليوبو (١٠٠ ميل شمالاً) وليرانجو؁ ومنع اتصال الإنسان بالذبابة عن طريق إعادة قطع الأشجار لى معابر الأنهار؁ وتقاط الدخول الأخرى.

فى عام ١٩٤٧ كانت لا تزال الزيارات التفقىة لكل قرية تجرى سنوياً؁ وكان معنى ذلك أن أقوم بجولة تفتيشية تستغرق عدة أيام فى كل شهر؁ مما أتاح لى فرصة طيبة للاستراحة من العمل الروتى رغم أنها كانت عملاً لا يخلو من مشقة؁ خاصة عندما يكون الطقس حاراً على غير المعتاد. كان يتم إرسال الحالات الإيجابية مع بعض أفراد عائلة المصابين إما إلى ليوبو أو ليرانجو من أجل تلقى العلاج؁ وأصبح مفهومأ لى الزاندى أن الحالات التى يتم علاجها مبكراً هى التى يمكن شفاؤها؁ ولذلك كان عزل المرضى يتم بقليل من المقاومة. كنا أثناء الحملات التفقىة نبحث أيضاً عن أية إصابات بمرض الجذام؁ وكان يتم إرسال الحالات التى تعتبر معدية إلى العلاج. كان انتشار هذا المرض الكئيب يتزايد بين الزاندى؁ ووجد ما لا يقل عن ٤٢٦ حالة من خلال حملات التفتيش التى غطت ٤١٠٩ شخصاً؁ أى بمعدل ٢٤٦ إصابة فى كل ألف.<sup>(١)</sup>

كان يوجد فى ليرانجو مهبط للطائرات عبارة عن شريط من الأرض أزيلت عنه الأشجار؁ وتمت تسويته بقدر الإمكان دون استخدام أى نوع من الآليات. وعند وصولنا كان المهبط مغطى بالكامل بالحشائش الطويلة والشجيرات الصغيرة؁ ولم التفت إليه إلى أن جاء اليوم الذى تسلمت فيه برقية من

---

(1) Observations on Leprosy among the Azande of Southern Sudan (East African Medical Journal, 1951, 28, P. 503)

الخرطوم تقول إنه قد تقرر أن تصلكم طائرة "لفحص مهبط ليرانجو"، وأن الطائرة ستكون من طراز (دى هافيلاند "دوف" De Havilland Dove)، وأن سرعتها ١٢٠ ميلاً فى الساعة، ووزنها كذا، وخلوص مراوحها كذا، والمسافة المطلوبة لهبوطها كذا، وانتهت البرقية بالمبارة التالية " نقاد إذا كان المهبط آمناً وبحالة مرضية".

لقد وضعنى ذلك فى موقف محرج، ولكننى عملت كل ما أستطيع عمله. قمت أولاً بقياس طول المهبط فوجدته مناسباً، ولكن كانت الأرض تبدو لى وعرة وكثيرة المطبات. أما تلك الأرقام الأخرى، فلم تكن لدى أدنى فكرة عن ماذا تمنى، غير أنه ما كان يعجز لنا إقشال تلك الزيارة المثيرة. وحيث أننى قد علمت أن طائرة قد سبق أن هبطت فى هذا المكان، فقد بذلت كل جهد ممكن لإعداد الموقع، وذلك باستخدام جميع المساجين الذين أمكن الاستغناء عنهم فى اقتلاع الأشجار وإزالة الحشائش بواسطة (البانجات)، وتسوية كثيبات النمل والأماكن الأخرى غير المسطحة. ثم قمت باختبار سطح المهبط من خلال قيادة شاحنة المستشفى عليه ذهاباً وإياباً فبدا لى أنه لا بأس به. لذلك أبرقت الخرطوم: "المهبط صالح وجاهز للتفتيش". وعندما وصل الرد موضعاً تاريخ وموعد الوصول، بدأت تتتابنى بعض الهواجس التى سرعان ما تحولت إلى كوابيس.

من أكون أنا حتى اتخذ قراراً بصلاحيه مهبط للطائرات؟ صحيح أنه قد تم خفق الأرض بالشاحنة عدة مرات، ولكن ماذا عن طائرة تطير بسرعة ١٢٠ ميلاً فى الساعة؟ وماذا يحدث إذا قام النمل الأبيض بإلقاء المزيد من أكوام التراب خلال الليل؟ إن هذا النمل يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك، خاصة وأنتى تذكرت بمزيد من الخوف ما حدث فى إحدى الاستراحات بدارفور عندما التهم النمل مشمع الحمام فى ليلة واحدة ليحل محله فى الصباح كوم من

التراب لا يقل ارتفاعه عن قدمين. لذلك ظل يطن فى مسامعى سيناريو ضجيج الطائرة وارتطامها بالمهبط ترحيبا بها، يقابل ذلك صورة أخرى لكثلة من اللهب تغطى حديد الطائرة الملتوى بفعل الحرارة والمبعثر فى وسط المدرج.

فى الليلة التى سبقت الموعد المقرر لوصول الطائرة، أمرت بأن توضع ملائآت من المستشفى فى زوايا المهبط الأربع، وعلى طول حدوده، مع الاستعداد لإشعال النار ليتصاعد منها الدخان لأجل معرفة اتجاه الريح، ثم قمت بإجراء تفتيش أخير للتأكد من تسوية عدد من كتيبات النمل، وهكذا بدا لى أن كل شئ يسير على أحسن ما يرام.

وفى صباح اليوم التالى علمت أن الوقت المحدد لوصول الطائرة هو العاشرة صباحاً، فحاولت أن أشغل نفسى بالعمل حتى أستطيع السيطرة على ما كان ينتابنى من قلق وخوف، ووجدتني عند الساعة التاسعة والنصف داخل استراحتنا الصغيرة أقوم بإعطاء حقنة (نثرات الأنثيمون) لمساعد مفتش المركز، فريدى ماركلاند (Freddie Markland) كجزء من علاجه ضد مرض البلهارسيا، وكان يتمنى على إعطاء تلك الحقنة ببطء خلال عشر دقائق ويبد ثابتة، ولكن بمجرد إدخال الإبرة فى الوريد، ومع بداية تحريك مكبس الحقنة، إذا بى أسمع أزيز الطائرة فوق رأسى، مما أدى إلى ارتفاع سرعة نبضى، وأصاب يدى برجفة عنيفة. لا أدري كيف تمكنت من إكمال الحقنة، ولكن بمجرد الانتهاء منها قفزت وفريدى إلى الشاحنة لتندفع بسرعة فى الطريق المؤدى إلى المهبط.

يا للرعب والفرع! كان أول شئ رأيناه أمامنا كتلاً من الدخان تتصاعد إلى السماء، وبدأ لى أن كل مخاوفى قد تحققت، ولكن عند آخر منحنى للطريق إذا بنا نرى طائرة (الدوف) بلونها الفضى الجميل تجثم فى هدوء عند نهاية المدرج، ويحيط بها جمهور غفير من أبناء الزاندى الذين تمكنت الشرطة من

صدهم إلى الخلف. وعلى مسافة قصيرة من هناك كان يتصاعد الدخان من النار التي أمرت بإشغالها لمعرفة اتجاه الريح. تلى ذلك حفل عشاء فاخر بمنزلنا على شرف الطيار والمسؤولين الذين رافقوه من الخرطوم. وبعد العشاء دعينا إلى جولة بالطائرة لمشاهدة المستوطنة من الجو. استجيت ومارى لهذا المرض، وأخذنا معنا جين التي كانت قد بلغت العامين من العمر، بالإضافة إلى فريدى وكريستين ماكلاند، وكثوع من المعاملة الخاصة أخذنا معنا أيضاً خادمينا محمد وبخيت، وركبنا جميعاً على ظهر طائرة الدوف ذات الثمانية مقاعد.

أثناء تزايد سرعة الطائرة على المدرج، كنا نملو ونهبط، ثم نرتطم بشدة على المجلة الأمامية لدرجة أنني اعتقدت أن محمل الطائرة سوف يتحطم، وتراى لنا أن الطيار إذا وصل سرعة الإقلاع، فإن الطائرة سوف تتحطم لا محالة. كنت الأسوأ حالاً وأنا أجلس على مقعد مساعد الطيار، وأشاهد الأشجار في نهاية المدرج تقترب أكثر وأكثر، ولكنى كنت متأكداً أن عظام أصابع الآخرين قد ابيضت تماماً، فيما عدا محمد وبخيت اللذين لربما كانا يظنان أن الأمر لا يمدو أن يكون شيئاً عادياً. لم نلبث على كل حال أن تجاوزنا الأشجار وأصبحنا بمد قليل نحلق في الجو.

كان الهبوط رهيباً أيضاً، ولكن لم يكن بدرجة كبيرة من السوء. وبعد مضي بضعة أيام تسلمت التقرير: "مهبط ليرانجو يصلح فقط للهبوط الاضطراري"، وبعد ذلك لم تأت إلينا أية طائرات أخرى.

عندما وصلت إلى ليرانجو كان مشروع تنمية الزاندى في مراحله الأولى، وكان يجرى بالتدريج إعادة توطين السكان في قرى على خطوط مستقيمة داخل الغابة كل زعيم فرعى يليه زعيم فرعى، مع تخصيص قطعة أرض بمساحة كافية لكل أسرة لزراعة محاصيلهم الغذائية، إلى جانب محصول

القطن الذى كان يتم جنيه وحلجه بواسطة الحكومة فى المحلج الذى أنشئ حديثاً فى مدينة (أنزارا)، وفى نفس الوقت تم التخطيط لإقامة دكاكين متنقلة لتساعد السكان على إنفاق ثروتهم الجديدة.

كان تخطيط القرى ونظافة طرق الدراجات قد جعل الإشراف سهلاً، فكان المفتش الزراعى ومساعدوه يتولون رعاية نمو القطن، ويقدمون المساعدات اللازمة فى كل ما يتعلق بالمحاصيل الغذائية، بينما اغتصمت المصلحة الطبية هذه الفرصة لاتخاذ ما يلزم من تدابير صحية. كنا نأمل أننا فيما لو استلمنا فصل إنسان الزاندى عن مخرجاته البرازية، فقد نتمكن من خفض نسبة الإصابة بمرض دودة (الأنسيلوستوما) وحالات الضعف الأخرى. لذلك طلبنا من سكان كل منزل حفر مرحاض، وكنا نقوم بزيارات تفتيشية لأجل التأكد من إطاعة هذه الأوامر. وبالفعل قام كل مجمع سكنى بحفر مرحاضه الخاص، ولكن إقناع أفراد الأسرة باستعماله كان شأناً آخر. ذلك أن الخروج فى الغابة كان بالنسبة لهم أسهل من ذلك بكثير، بل ويبدو أن البعض ما كانوا يمرضون لماذا المرحاض أصلاً ولا أنسى قصة زعيم القرية الذى أثناء تجواله داخل قريته للتأكد من أن كل شئ يسير على ما يرام قبل الزيارة التفتيشية المرتقبة التى كان سيقوم بها مفتش المركز، إذا به يلاحظ بفزع وجود بعض الغائط فى أسفل حفرة أحد المراحيض، فما كان منه إلا أن أمر صاحب السكن بالنزول إلى الحفرة فوراً لإزالة ذلك (الشئ) المثير للقرف والاشمئزاز قبل وصول تلك الشخصية المهمة!

كان يوجه قدر كبير من الاستثمار والاهتمام إلى الزاندى فى ذلك الوقت. من بين ذلك إجراء مسح لمعدات الأكل والوضع الغذائى لدى القبيلة تحت إشراف المسز/ جيرى كلويك (Gerry Culwick) التى قضت عدة أشهر فى التنقل من قرية إلى أخرى مع مساعديها المديدين الذين بذلوا جهداً عظيماً

فى تسجيل الأطعمة التى يتناولها القرويون. وقد رأيت من جانبى أنه لربما يساعد أيضاً أن أقوم فى نفس الوقت بالبحث عن أى دليل يشير إلى وجود أمراض ناتجة عن سوء التغذية لدى السكان.<sup>(1)</sup>

كما كنت أهتم أيضاً بعشرة البعوض، ولذلك قمت عبر تلك الشهور بوضع قائمة بأنواع البعوض الموجودة فى المنطقة، وكنت أجلس بعد الغروب تاركاً إحدى ساقى عارية، وبمساعدة البطارية الكاشفة أقوم بقبض البعوضة البالغة أثناء نزولها إلى جسمى ومحاولتها امتصاص دمى. وقد لاحظت أن معظم أنواع البعوض يمكن أن تهبط على جسمى وتشرع فى التهام وجبتها دون أن تخلف أى أثر. ولكن كان هناك نوع من بعوض الحمى الصفراء، التى علمت مؤخراً أنها تتوالد فى رؤوس أشجار الأتاس، قد سبب لى الكثير من المشاكل، وأصابتنى منها حساسية شديدة، ذلك أننى كنت أشعر بها عندما تدفع بخرطومها داخل جسمى ولن تمر بضع دقائق إلا وتظهر ندبة تهيج المكان الذى حطت فيه. استمر ذلك الوضع عدة أشهر، ثم توقف على نحو مفاجئ، فقد اختفت الحساسية فجأة كما بدأت فجأة، وهى ملاحظة مثيرة حول تقلبات الحساسية عند الإنسان.

كانت إحدى متع الحياة فى السودان هى توافر الخدم الذين يقومون بتوفير كافة الاحتياجات والطلبات الشخصية بكفاءة فائقة، وبذلك يستطيع المرء أن يمارس حياته دون الانشغال بالأعمال اليومية المتداة. ويكنى أن أقول أنه قد تبين لى عند مراجعة دفتر حساباتى القديم أننا فى يناير ١٩٥٠ قد استخدمنا فى ليرانجر ما لا يقل عن عشرة خدامين داخل وخارج المنزل، ولم تكن كلفتهم عالية، إذ أن مرتباتهم الشهرية تراوحت بين ٢.٥٥ جنيهًا للطباخ و ٢٥ قرشاً لصبى المطبخ، وكان مرتبى الشهرى آنذاك ٩٨ جنيهًا.

---

(1) "A Survey of Signs of Nutritional Ill-Health among the Azande of the Southern Sudan" (Transactions R.Soc. Trop Med. Hyg. 1950, 43, P. 477)

بعد أن قضينا أربع سنوات ونصف في ليرانجو استمتعنا بها تماماً، منحت  
بمئة دراسية لمدة ستة أشهر لنيل درجة طبية أعلى وهي عضوية الكلية الطبية  
الملكية، ففادرننا البلاد جميعنا ونحن نشعر بالسعادة لأننا سنقضى فترة  
استجمام طويلة بالمملكة المتحدة. كم شعرت بالارتياح عندما نجحت في ذلك  
الامتحان (نسبة النجاح فيه لا تتجاوز ١٠٪ فقط). بعد ذلك علمت أنه قد تم  
نقلي إلى ود مدني في وظيفة أخصائي ثانى باطنية، وكان تطلمي إلى العمل  
السريري بمبدأ عن الانخراط في المهام الإدارية يملؤني بالكثير من التوقعات  
البهيجة السارة.



## ود مدني

لم أصب بخيبة أمل، فقد كان مستشفى ود مدني ثاني أكبر مستشفى في  
البلاد، ويستقبل سنوياً أكثر من ٢٠,٠٠٠ مريض في عيادته الخارجية،  
ويحتوى على حوالي ٦٠ سريراً. كان نطاق الأمراض واسعاً، وكانت الصورة  
المتشعبة التي يحاول الكثيرون أن يضموا بها أنفسهم تجعل لكل يوم سحره  
الخاص بالنسبة لطبيب متعمس تواق للممل.

كانت توجد لدينا مختلف حالات الدفتيريا، والتايفويد، والزهرى بجميع  
أشكاله، والسيلان بكافة تعقيداته، وهذا قليل من كثير. وأذكر حالة من المرض  
الأخير بلغت من شدتها مرحلة أصابتي بالرعب عندما تطورت إلى حبس بول،  
مع تجويف في وعاء الخصيتين والشرج تصيل من خلاله بصورة مستمرة  
قطرات من البول الفاسد المؤذي. لقد انطبع في ذهني النمط المتغير لهذا  
المرض بين المجموعات المرقية، وهو موضوع لا يرد له ذكر في كليات الطب.  
كان الزاندي، كما ذكرت آنفاً، يحملون الأمراض المتعلقة بـ (المكورات البنية  
gonococcal) دون أن يبدو عليهم أى نوع من الضيق؛ حتى أنه كان من النادر

الإصابة بالتهابات المتحممة المتعلقة بالمكورات البنية (gonococcal conjunctivitis) والعمى، بينما يختلف الوضع هنا بين العرب حيث تظهر تعقيدات المرض بصورة متكررة.

كان هناك أيضاً عدد كبير من حالات الإصابة بمرض الدرن. وبما أن عصر العلاج الكيماوى بالاسترويتومايسين والأيسونيازيد لم يكن قد أتى بعد، لذلك كان النظام غير الفعال المتبع فى العلاج هو الراحة التامة والطعام الجيد. كانت معظم حالات المرض رئوية، ولذلك كنت أقضى وقتاً طويلاً فى فش الرئتين بضخ كمية من الهواء فى الصدر كنوع من الاسترواج، أو بمصير العصب الحجابى.

لازالت تطوف بذاكرتى إحدى الحالات الدرامية للالتهاب التامورى الدرني (tuberculous pericarditis) الذى يصيب غلاف القلب. كنت أقوم مرة كل أسبوع بتقديم يد المساعدة فى عيادة الدكتور موسى، وهو طبيب عمومى يعمل فى مدينة ود مدنى، وبينما كنت هناك فى عصر يوم من الأيام، جئت بأحد العرب فى حوالى الخامسة والأربعين من العمر، وكان فى حالة انهيار ويمانى من ضيق فى التنفس، ولون وجهه أزرق لامع، مع وجود انتفاخ فى أوردة العنق جعلها تبدو كالحبال الرقيقة فوق زاوية الحنك، مما كان يعنى بوضوح وجود انسداد بالقرب من القلب يمنع الأوردة من تصريف الدم. وبعد الفحص تأكد تشخيصى للحالة على أنها (pressure pericardial effusion) أى وجود سائل فى كيس غلاف القلب ضاغط على القلب أدى إلى وقف جريان الدم فى الأوردة، وهو أحد تعقيدات مرض الدرن المعروفة التى يتدر حدوثها. كان العلاج السريع لهذه الحالة بسيطاً جداً، وقمت بإجراء اللازم دون ضجيج، إذ أننى وسط دهشة أقرباء المريض الذين كانوا يحيطون بنا تناولت أكبر إبرة كانت موجودة بحقيبتي، وقمت بفرسها مباشرة فى صدر المريض. تهدد

المتفرجون من حولى إذ بدا لهم كأننى قد غرست الإبرة فى قلب المريض، وكانت النتيجة درامية حيث تقجرت كمية من الدم الأسود عبر الفرفة، وبعدها استرخت أوردة المريض، واستعاد وجهه لونه الاعتيادى، وأخذ فى الحال يتنفس بارتياح.

غير أن نهاية هذه القصة لم تكن مرضية، فقد طلبنا من المريض معاودة المستشفى لأن هذه الحالة تتكرر فى الغالب، ولا بد من تصريف الدم باستمرار أثناء علاج المرض، ولكن مع الأسف الشديد لم يعد المريض إلى المستشفى، وسمعنا فيما بعد أنه قد توفى بعد بضعة أسابيع بعد أن عاودته تلك الحالة المؤلة التى رأيتها عليها. كم كان ذلك محزنا خاصة وأنه لم يكن هناك ما يستدعى ذلك.

كانت الملاريا معنا على الدوام، وكانت تؤدى إلى نوع من الدراما النادرة فى أوساط الأسر الأوروبية التى لم يكن أفرادها يهتمون بأخذ حبوب الوقاية بانتظام. كنا فى الجنوب نستعمل حبوب (الميباكرين) وهى مركب مغطى باللون الأصفر، مما كان يجعل لون بشرتنا أصفر كقدم البطة، ولكن استبدلت هذه الحبوب الآن بعلاجات أخرى أقل كراهية، خاصة وأن العلاج أصبح فى حالة تغير مستمر، ولذلك كنت أحاول دائماً إعطاء الأدوية الجديدة كلما وردت إلينا.<sup>(1)</sup>

كان داء الصعر من أسوأ الحالات التى كنا نعالجها، رغم أن عبارة "نعالجها" قد لا تكون صحيحة، ذلك أن هذا المرض لم يكن قابلاً للعلاج. وكما كان مؤلماً أن تشاهد نظرة الخوف والفرع على وجه الضحية، وتلك التشنجات المربعة التى تصيبه فى الحلق والمريء عندما يرى كوباً من الماء. الحمد لله لم يكن

---

(1) A Survey of Signs of Nutritional Health-III among the Azandi of the Southern Sudan Transactions R Soc. Trop. Med. Hyg. 195, 43, P. 477

هذا المرض منتشرًا بكثرة، ولكنى قد رأيت ما لا يقل عن اثني عشرة حالة، منها اثنتان وجدتيّ منهما فيهما لدرجة اتني خشيت أن أصاب بالعدوى من لعاب المريض، أو أن أحتاج إلى (علاج باستير) أى عشر حقن من اللقاح المخفف تؤخذ فى جدار البطن. (أن تقوم الممرضة بإدخال الإبرة تحت الجلد بالطريقة السليمة لم يكن فى حد ذاته عملاً مريعاً، ولكن حدث فى حالتين أن أدخلت الإبرة فى العضل، وكان ذلك مؤلماً بحق حتى ولو أدى إلى الضحك). كانت إحدى هاتين الحالتين لطفلة صغيرة تبلغ من العمر حوالى أربع سنوات أحضرها والدها إلى العيادة الخارجية بالمستشفى وهى تشكو من "التهاب الحلق". عندما قمت بفحص اللوز، فوجئت بتلك النظرة المريبة فى عينيها، فسألت والدها إن كان قد عضها كلب فأجاب: "نعم، فى أعلى الرأس قبل شهر". ثم تأكد لى التشخيص الخفيف بكوب من الماء كانت ترد إلى السوق فى ذلك الوقت كميات من المقاقير الجديدة، وكنت فى العادة أحاول تجربة أى دواء لم يجرب من قبل، ولكن لم يكن ذلك مجدياً، إذ كان كل من يصاب بهذا المرض يتوفى دائماً، ولكننا على الأقل كنا نحاول تسكين ذلك الألم الممض وما يصاحبه من رعب وتشنج بإعطاء الهرويين الذى يؤدى أحياناً إلى الفيبوية.

كان جزء هام من عملى هو رعاية الأسر البريطانية المقيمة بالمنطقة، ولم أكن فى الواقع طبيبهم المسمى فحسب، وإنما كنت مستشارهم أيضاً. أما فى الحالات الصعبة فلم يكن هناك من الجأ إليه لياخذ عنى المسئولية أو يشاركنى فيها. ويجب أن أعترف أن ذلك قد تسبب فى سهو لى للعديد من الليالى، غير أنه كان هناك أيضاً ما يعوض ذلك. أذكر جيداً أننى قد شخصت حالة التهاب سحائى لطفل بريطانى صغير كان يلعب دائماً مع طفلتنا. قمت بعمل التشخيص السريرى، ثم أجريت عملية النزول القطنى (تقب صغير فى أسفل الظهر)، وبعد طرد السائل وتلطيفه بنفسى على الشريعة تأكد لى تحت مجهر

(Zeiss) وجود تلك البكتيريا المميزة (مكورة مزدوجة سلبية الجرام gram negative diplococcus). كان جميع أفراد الأسرة من أقرب الأصدقاء إلينا، ويمكنك أن تتصور مدى إحساسنا جميعاً بالارتياح عندما استجاب الطفل للعلاج وبدأ يتماثل إلى الشفاء التام. كانت مثل هذه الممارسات (الإجمالية) في نظري من أعظم الأشياء التي تؤدي إلى رضا الطبيب عن عمله وإحساسه بتقدير الآخرين، ذلك أن اللحظات الخالدة في الحياة هي تلك التي يستطيع المرء فيها أن يفرج عن كرب، وكم كنت أنا سعيداً بما حظيت به من تلك اللحظات التي لا تنسى.

كانت البلهارسيا من الأسباب الرئيسية للاعتلال الصحي، وكانت القنوات المائية الممتدة أميالاً وأميالاً، والتي أقيمت القرى على ضفافها هي التي توفر المناخ المثالي لانتشار العدوى بهذا المرض الذي أصبحت نسبة الإصابة به عالية بين السكان. كان الالتهاب في الغالبية العظمى من الحالات يقتصر على المثانة والأمعاء، ويؤدي إلى حيس بول أو إسهال دموي، ولكن أحياناً يشرد البيض بعيداً فيسبب تلقاً في موضع آخر. وأذكر حالة مثيرة لأحد القرويين في منتصف الثلاثينات من العمر كان يعاني من شلل نصفي (كلا الساقين)، ويبدو أنه قد أصيب به تدريجياً في العام السابق. لقد أحضر إلى المستشفى في حالة غيبوبة بعد أن ضرب على رأسه بفأس توفي على إثرها. لم يكن الشلل النصفي لدى الشبان مرضاً معتاداً، ولكن كان يظهر من وقت لآخر، ونظراً إلى غياب الفحص عن طريق التشريح، فقد كان يمزى دائماً إلى الزهري. كان المرب لا يقبلون تشريح الجثة ويعتبرونه مجافياً لتعاليم دينهم، غير أن تلك الحالة كانت جريمة قتل وكان لا بد من تشريح الجثة، لذلك تمكنت، بوصفي جراح الشرطة، من إجراء التحريات المطلوبة. كان واضحاً لماذا توفي ذلك الشاب. لقد ضرب بعنف في مؤخرة رأسه، وكل ما كان يوصى فعله لأجل

استيفاء متطلبات القانون هو الإقرار بأسباب الوفاة. غير أنه تبين لى أن تلك الحالة يمكن أن تتيج لى فرصة مدهشة إذا أردت اغتنامها . وهى معرفة الأسباب الحقيقية لتلف الحبال الشوكية لدى أولئك الشبان التمساء . كان الوقت عصرا خائفاً الحرارة، وكانت فكرة قضاء ساعتين فى نشر العمود الفقرى لاستخراج النخاع الشوكى ليست جذابة كثيراً، ولكنى كنت عائداً لتوى من الإجازة مليئاً بالطاقة والحماس. لذلك شرعت فى العمل فوراً، وتمكنت، وأنا أتصيب عرفاء من نشر ما بين الأقواس العصبية وأخذ المهنة المناسبة من الحبل الشوكى فى قطعة واحدة متصلة. ثم قمت بفعل العينة بالضرورة مالمين (محلول حمضى) وأرسلتها إلى هيربرت سبنسر (Spencer Herbert) أستاذ علم الأمراض بمستشفى سانت جيمس، الذى كنت أعلم اهتمامه بأمراض المناطق الحارة، ولدهشتنا معاً كان الحبل الشوكى مليئاً ببيوض بموض المانسونيا (S.mansoni). لم نكن نحن وحدثنا أول من أثبت هذا الحدث، واعتقد أنه قد جاء وصف له من قبل، ولكن من المؤكد أنه قد أصبح مسوغاً لإعداد ورقة قصيرة بشأنه.<sup>(1)</sup>

كنت أهتم دائماً بالبحوث الطبية، ومن خلال الحرية الجديدة التى توفرت لى بعد التخلص من العمل الإدارى الروتينى، شعرت أنه قد أصبح لدى أخيراً الوقت الكافى للبدء فى مشروع كبير. أضف إلى ذلك أن نجاحى فى نيل عضوية كلية الأطباء الملكية قد أثار فى نفسى طموحاً للتطلع إلى أشياء عليا: الحصول على شهادة أكاديمية فوق الجامعية تكون مدعاة للفخر. الدكتوراء فى الطب (من كيمبريدج) الموضوع الذى وقع عليه اختيارى فى النهاية هو (داء الفُطر المادورى (Madura foot) أو ما يسمى أيضاً بـ (داء القدم الفطرى - Mycetoma) وكان اختيارى موفقاً بحق. يسبب هذا المرض كائن حى يختبئ فى

(1) Transactions R. Soc. Trop. Med. Hyg. 1953, 47, P. 221

التربة، وعندما يدخل الأنسجة، عادة في القدم أو الصاق، يسبب لها تدميراً بشماً. وغالباً ما يحدث ذلك من طعنة شوكة تؤدي إلى جرح تدخل من خلاله الفطريات، خاصة وأن الشوك كان يوجد بكثرة في المنطقة، وبمجرد أن تجد لها موطئ قدم، فإنها سرعان ما تنتشر لتلتهم وتدمر بيطة جميع الخلايا التي تكون في طريقها. لم يكن يوجد علاج معروف لهذا المرض، ولذلك كان بتر الطرف المصاب هو النتيجة المعتادة.

إن ما جعل هذا الموضوع مناسباً للدراسة هو حقيقة أن "داء القدم الفطري" مع أنه كان منتشراً في السودان، إلا أنه كان نادراً في بقية أنحاء العالم، ولم يخضع للدراسة إلا قليلاً. وكانت الكتب الدراسية في طب المناطق الحارة لا تزال تعتمد في وصفها للمرض على ورقة أعدها بوكارو Bocaro (١٨٩٢) ضمنها تحليلاً لمائة حالة في مستشفى حيدر أباد. لذلك أتيت لي الفرصة للقيام بعمل تكون له قيمة حقيقية حول سمات المرض السريرية، وعلاقته بعلم الأوبئة، والكائنات الحية التي تسببه. علاوة على ذلك، أننا الآن في عصر أصبحت فيه العقاقير المضادة للبكتيريا والفطريات ترد إلى الأسواق بأعداد متزايدة، كذلك لربما يكون بالإمكان اكتشاف علاج ينقذ أولئك المرضى التمساء الذين يقاسون من هذا المرض.

في عام ١٩٥٢ شرعت في دراسة وتوثيق كل حالة لداء القدم الفطري وردت إلى مستشفى ود مدني، وفي شهر يونيو من ذلك العام وأنشاء إجازتي بأرض الوطن، قضيت وقتاً طويلاً بمكتبة الجمعية الطبية الملكية في الاطلاع وتسجيل الملاحظات من الأدبيات العالمية التي نشرت حول الموضوع منذ التقارير الأولى الصادرة في عام ١٨٤٢ إلى يومنا هذا، وفي نوفمبر أقرضني روبرت كيرك (Robert Kirk) جهازاً لحضانة البكتيريا من معامل استاك، وشرعت في العمل بحثاً عن الكائنات المسببة للمرض. كان كيرك يتشكك في النتائج التي سوف

أصل إليها بواسطة هذا الجهاز إذ قال لى: " سوف تنمو لديك كمية من الفطريات ولكنها سوف تكون مجرد ملوثات"، ولكن اتضح أنه كان مخطئاً.

كانت كل الأعمال الخاصة بالتزريع، بما فى ذلك عمل الوسائط، تجرى فى الأمسيات داخل غرفة الجلوس بمنزلى بعد انتهاء العمل الروتينى اليومى، وكان ذلك بالنسبة لمارى تجربة مزعجة، غير أنها، على كل حال، قدمت كل مساعدة ممكنة، حتى أنها قامت بتعميم الحاضنة بواسطة ستائر الطباخة. أما جين، وقد بلغت آنذاك السادسة من العمر، فكانت أقل مساعدة دون قصد منها. كان قد تم تصميم إحدى تجارى لأجل توضيح أن حبيبات الفطريات يمكن أن تعيش تحت أقصى الظروف الحرارية على سطح التربة، ولذلك قمت بدفن عدد من أنابيب الاختبار فى أرض الحديقة على عمق بوصة واحدة، وكانت الأنابيب تحتوى على تربة مجدبة مع حبيبات الكائن الحى المسبب لمرض ورم القدم الفطرى، وكان القصد من ذلك هو اختبار حيوية الفطريات بعد بضعة أشهر. غير أن جين عثرت على أنابيب الاختبار، فقامت بفصلها وأحضرتها لى بكل فخر واعتزاز، ولكن فوجئت بأن أباهما لم يسره ذلك كما كانت تتوقع.

عندما ذهبت للإجازة مرة أخرى فى يونيو ١٩٥٢ كنت قد جمعت ١٢٦ حالة، وكان العمل فى المشروع يسير على خير ما يرام، ثم حدثت الكارثة. أوقفت سيارتى (ملراز ديملر) فى أحد شوارع لندن، وهى سيارة محترمة كنت قد اشتريتها مستعملة، ثم دخلت إلى الحانة لأتناول مشروباً، وفى هذا الأثناء سطا عليها أحد الأشخاص وسرق حقيبة أوراقي الخاصة التى كانت تحتوى على جميع مذكراتى حول أدبيات ورم القدم الفطرى التى بذلت جهداً عظيماً فى جمعها طوال العام السابق، والأخطر من ذلك ملاحظاتى التفصيلية حول حالات المرض منذ يناير ١٩٥٢. كان ذلك بالنسبة لى ضربة قاسية بحق أدت إلى تثبيط همتى، مما جعلنى أفكر فى التخلي عن المشروع بأكمله أثناء

قيادتي للسيارة في الطريق إلى (بيبرلي) في منطقة (نيو فورست) حيث كنا نقضى إجازتنا. غير أنى تذكرت أن تي. إي. لورنس (T.E. Lawrence) كان قد فقد مؤلفه الشهير (أعمدة الحكمة السبعة The Seven Pillars of Wisdom) ، فإذا كان قد استطاع أن ينهض من جديد، فانا كذلك سوف أستطيع، خاصة وأن أدبيات الموضوع لا زالت متوفرة ويمكن دراستها مرة أخرى، كما أن السجلات الخاصة بال ١٢٦ حالة لا زالت موجودة بالمستشفى. وهكذا كانت خلاصة كل ذلك أن جاءت أطروحتي النهائية أفضل مما كانت ستكون عليه في السابق، بالرغم من أن تسليمها قد تأخر ستة أشهر. لقد استطعت أن أعود إلى الوراء لألقى نظرة طويلة على كل ما أنجزت، فازدادت معرفتي بالموضوع، وأقنعت في أن أعيد صياغة العمل من جديد في شكل مناسب أفضل. وبحلول شهر يوليو من عام ١٩٥٤ كانت الأطروحة قد اكتملت مغنية ٢١٢ حالة، وكانت أطول سلسلة تنشر آنذاك. لقد استطعت أن أعزل داء القدم الفطري من ٤٤ حالة، ومن خلال وصفى لهذه الحالات تمكنت من أن أشرح بوضوح كيف أن عدداً كبيراً من الكائنات الحية، التي أطلقت عليها أسماء معينة واعتبرت هي المسببة للمرض، قد انخفضت إلى قائمة من المترادفات. كذلك قمت باختبار بعض المضادات الحيوية وتمكنت من إجلاء المبحث الوبائي لذلك المرض.

قدمت أطروحتي، وكنت فخوراً باختيارى دكتوراً في الطب لدى جامعتي القديمة.

استكمالاً لقصة هذا الجزء من البحث، وبعد عامين من مفادرتي السودان والتحاقى بكورس لنيل دبلوم طب المناطق الحارة قبل التحاقى بشركة شل، دعيت لإلقاء محاضرة بالجمعية الملكية لطب المناطق الحارة، ويسعدنى أن أقول انها قد لاقت صدىً طيباً، ثم جاعنى الاعتراف الأكبر عندما دعيت في عام

١٩٥٨ لقراءة ورقة عن مرض ورم القدم الفطري أمام المؤتمر العالمى السادس لطب المناطق الحارة بمدينة لشبونة<sup>(١)</sup> وبعد ذلك وجدت أنه قد اقتبس منى فى كل مقال نشر حول هذا الموضوع، وبخاصة فى الكتب الدراسية المقررة لدراسة طب المناطق الحارة، وأمراض الفطريات Manson's Tropical Diseases, Conant's Manual of Clinical Mycology الذى قمت به فى مدينة ود مدنى أننى أنا الذى قمت بكتابة الورقة الرئيسية حول الموضوع<sup>(٢)</sup>

اشاء العام الأخير من خدمتى بحكومة السودان، كان المشهد السياسى يتغير بسرعة، ووضح أن نهاية الحكم الثنائى ستأتى فى غضون شهور معدودة وليس بعد عشرين عاماً كما كنا نتوقع جميعاً. وفى اشاء ذلك العام استدعيت للمساعدة فى أمرين كانا خارج واجباتى العادية؛ فقد عينت ممتحناً خارجياً فى كلية الطب بالخرطوم، كما منحت إجازة غياب من المستشفى للقيام بتصنيف "الدليل الوطنى للوصفات الطبية بالسودان".

سمعت كثيراً بهاتين المهمتين، فبعد أن قضيت عمراً طويلاً وأنا أجلس فى الطرف المستقبل لأسئلة المتحنيين، إذا بى أستمع الآن بالجلوس فى الطرف المقابل على الطاولة بجانب صديقى البروفيسير مورغان (Morgan) الممتحن الخارجى بجامعة الخرطوم.

أما المهمة الثانية الخاصة بتأليف وتصنيف ونشر "الدليل الوطنى للوصفات الطبية بالسودان"، فلم يكن أمراً سهلاً، ذلك أنه بخلاف ما هو حادث اليوم حيث أصبحت معظم العقاقير فى شكل حبوب تقوم شركات الأدوية بتصنيعها وتوزيعها على الصيدليات والمستشفيات لتكون جاهزة لاستعمال المريض، أما

(1) Proceedings of VIITH Internat. Congress Trop. Med. and Malaria, 4, 565

(2) Transactions R. Trop. Med. Hyg. 1956, 50, PP 11-30

فى عام ١٩٥٥ فكانت زجاجات الدواء السائل هى الطريقة المعتادة لإعطاء العلاج للمرضى، حيث كان يتم تجهيز الدواء فى أجرخانات المستشفيات ويرسل إلى الشفخانات فى الأرياف. لذلك كان من المهم إيجلا وصفات قياسية للأدوية المزيجية التى كانت تستعمل بكثرة، مثل المزيج المسكن للكحة، ومزيج وقف إسهال الأطفال وهكذا. كان العمل المناط بى هو توفير هذه الوصفات القياسية وإدخالها فى دليل للاستخدام الوطنى. ويمكنك أن تتصور تباين الآراء القوية التى كانت ترد من الأطباء حول الأدوية التى بصرفونها، وقد شاركت فى الكثير من الجدل الذى كان يدور فى هذا الخصوص. كذلك كانت تسمية العقاقير تسبب بعض الصعوبات، ذلك أنه لأجل التاكيد على أن الطب هو مهنة تعليمية، فقد ظلت الوصفات الطبية منذ عصر قديم تكتب باللغة اللاتينية، أما بالنسبة لى فقد ارتأيت أنه قد حان الوقت لإلغاء هذا النظام خاصة فى السودان، ولذلك وضعت الدليل الجديد بناء على هذا المفهوم، وأصبحت بذلك عرضة لانتقادات شديدة من البعض.

تم نشر دليل الوصفات الطبية وتوزيعه قبل مغادرتى البلاد بقليل، وكنت أود أن أعرف إلى أى مدى وجده الناس مفيداً، وكم من الزمن ظل مستخدماً.

جاء وقت الفراق على عجل. لقد أبدي عدد من الموظفين البريطانيين استعدادهم للبقاء فى السودان والعمل تحت رئاسة أولئك السودانيين الذين كانوا حتى ذلك الوقت يتدربون على أيديهم. وكان مما يدعو إلى السرور أنه بالرغم من التوتر الذى حدث أثناء حملة الحكم الذاتى، إلا أنه من المدهش أن الحقد كان قليلا، وقد غادرتا السودان بروح حسن النية المتبادل. واعتقد أنه يمكن أن نقول بإنصاف أن معظم السودانيين، خاصة رجال القبائل فى المديرية قد أسفوا لفراقنا، وحتى أولئك المتعلمين من سكان المدن قد بدا عليهم الحزن لمغادرتنا البلاد، وقد دعينا للكثير من حفلات الوداع من كافة الأطراف.

بدأت رحلة عودتي إلى الوطن من بورتسودان، وكنت قد أخذت سيارتي معي على السفينة إلى بيروت، ومن هناك سافرت بها عبر آسيا الصغرى عائداً إلى إنجلترا. وأنا اتكئ على جانب السفينة وأشهد الساحل السوداني يتلاشى بعيداً، تساءلت مع نفسي: ترى هل ستكون الأعوام الثلاثة عشر القادمة مثيرة للاهتمام ومليئة بالسعادة كذلك التي قضيتها في السودان ؟

بيتر ألبوت (Peter Albot)



6

حكاية

التريوى

*Sudan Canterbury Tales*

«إن طول وتنوع عبارات التحية الممكن استخدامها تتميز بأنها تمنع ذلك الارتباك الذى ينتاب المرء عند أول لقاء له بالآخرين كما توضح .... متعة اللقاء بين شخصين».

فى.إل. جريفت وعبدالرحمن على طه  
«عادات المجاملة السودانية»، ١٩٣٦.



كان الشخصان اللذان تمرقت بهما على ظهر السفينة عبر البحر الأبيض المتوسط فى طريقنا إلى السودان مهندسين، ويبدو أنه كان فى مقدورهما أن يتعاطيا كمية كبيرة من الويسكى (الاسكوتش) أثناء جلوسنا معا فى فرنده فندق شبرد بالقاهرة فى شهر نوفمبر من العام ١٩٢٩، وكنت أحاول مجاراتهما. كنت فى طريقى لأن أصبح "معلماً" بكلية غردون، المدرسة الثانوية الوحيدة آنذاك التابعة لحكومة السودان. "جميع هؤلاء المدرسين يلبسون (صنادل). المراقب الجديد، كثبهرت سكوت<sup>(١)</sup> (Cuthbert Scott) (مفتش المركز السابق المعروف بأرائه الليبرالية)، لماذا إنه حتى لا يريد أن يضربهم. صحيح أنه فى عام ١٩٢٩ فقط أصبح يسمح لضباط الداخلية (معظمهم بريطانيون) باستعمال العصا (البسطلونة)، وكان سكوت يمارس ضفطاً مثمراً من أجل المزيد من الانضباط الإنسانى. أما سلفه، دوجى يودال (Dougie' Udal) فكانت معاملته لطيفة وبخاصة مع الشبان المنفتحين، وكان مبدأه الأساسى هو: (إضرب وشجع Beat and promote)

(١) انظر الملحق بـ».

كان كثيرون سكوت شخصية خلافية بالتأكيد . كان أحياناً يلبس صندلاً وهو يقود سيارته القديمة طراز (فورد إيه "A") وكان حبه للناس عميقاً ، وشخصيته مزيجاً من الفضول والشاعرية والمخزية، وهو سلوك غير معتاد بالنسبة لزملائه الآخرين الذين يعملون في الخدمة السياسية، وكانت لغته العربية جيدة جداً، بالنسبة له كناطق بالانجليزية، ويستطيع أن يُدرّسها بطريقة تثير الإعجاب، ذلك أنه كان يرى كلا وجهي المسألة ولا يقتصر على تدريس اللغة فقط، بل كان يلم كذلك بالنواحي الثقافية والاقتصادية المحيطة . لا اعتقد أنني قد أحببت رئيساً آخر بقدر حبي له، مع أن حبي لتافى جريفس (Taffy Griffiths) كان لا يقل عنه كثيراً .

كان بضعة من المعلمين البريطانيين في كلية غردون شبه أعضاء في الخدمة السياسية منهم: دينس هبرت (Denys Hibbert) بضحكته المجلجلة ، وأن ثيوولد (Alan Theobald) بقامته الطويلة ورؤيته الناقبة التي اكتسب بها تقديراً متزايداً من أصدقائه السودانيين، وفارغارسون لانج (Farquharson Lang) بوقارة وموضة عينيه اللطيفة. كان المتظاهرون يهتفون: Hang Lang (اشنقوا لانج) وهم يطوفون حول مدرسة وادي سيدنا التي كان هو ناظراً لها في الخمسينات، ولكن كان معظم أولئك المتظاهرين عندما يكونون لوحدهم، أو بعد تفكير وتروٍ يتحدثون عنه بكل الحب والإعجاب. سأذكر في هذه الحكاية القصيرة أسماء القليلين من أولئك الرجال، ولكن هناك المشرات بل المثات الآخرين من السودانيين والسودانيات، والبريطانيين، والقليل من المصريين الذين كانوا ينعمون (بتمتع اللقائات الشخصية)، وبالعامل معا .

يمكن تصنيف الموظفين البريطانيين في السودان بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وفقاً لرؤيتهم تجاه متى نسلم السلطة للسودانيين. كان أصدقائي المهندسين مثلاً يرون أن ذلك لن يحدث إلا بعد خمسين سنة، بينما كان

زملائى بحكم صلتهم اللصيقة بالشباب السودانى يقولون بعد عشرين سنة، ولم يكن هناك من يرى أن ذلك سوف يحدث بعد عشر سنوات سوى الطلبة أنفسهم.

كان هناك قسم آخر، أو قل نوع من التدرج بين المعلمين الأجانب، فكان هؤلاء يقولون إنهم أتوا أساساً لتدريس "مادتى"، ثم أولئك الذين كان إدراكهم يتزايد بحجم مشاكل التأقلم التى كانت تواجهها: التأقلم على ذلك الخليط الذى يتميز بتنوعه وراثته الثقافى فى بلد يعانى من مشاكل عميقة، ويواجه احتمالات الانقسام. لقد اكتسبت المدارس الثانوية (كانت هناك بضعة مدارس جديدة) قيمةً حميدة من الأولين المتخصصين. أما بخت الرضا (تدريب المعلمين وتطوير المناهج)، ومكاتب مفتشى التعليم بالمديريات، فقد تبوأوا موقعاً أكثر تكيفاً واعتماداً على التجربة. واستطاعت جامعة الخرطوم المزدهرة أن تجتذب إليها من هؤلاء ومصادر أخرى العديد من الموهوبين، وخير مثال على ذلك بيتر هولت (Peter Holt) وآلن ثيوبولد (Theobald Alan)، وريتشارد هيل (Richard Hill). وهو شخصية متعددة الثقافة أتى من السكة الحديد. ولكن يحتاج الأمر إلى تأليف كتاب عن جامعة الخرطوم التى خلفت كلية غردون القديمة.

مع نهاية الحرب بدأ ينمو زخم جديد، ألا وهو التوسع فى تعليم البنات. فى عام ١٩٣٩ وصلت إنا بيسلى (Ina Beasley) لتعمل كمراقبة جديدة، ويحكى كتابها (قبل تغير اتجاه الريح "Before the Wind Changed" الكثير من تفاصيل هذه القصة. وفى عام ١٩٤٤ تم نقلنا نحن معلمى كلية غردون (الثانوية) إلى أم درمان، وفجأة سمعنا أن هناك خمس معلمات بريطانيات على وشك الوصول، وكان ذلك بالنسبة لنا نبأ مشيراً. وتم تعيين حوالى اثنتى عشرة معلمة جديدة خلال الأعوام الثلاثة التالية، وكان القصد من ذلك هو تعزيز

مدارس البنات الوسطى بالمديريات (١١-١٥) ببعض المعلمات الأجنبية اللائي أصبح بعضهن مفتشات بالمدارس الأولية، وعملت إحداهن، اليزابيث ريتشاردز (Elizabeth Richards)، التي تزوجت فيما بعد من لويس براون، في تعليم الكبار بين القرى المجاورة لبخت الرضا لإجراء التجارب التعليمية، ثم نقلت أخيراً إلى الجزيرة. كان مطلوب منهن جميعاً تعلم اللغة العربية، وبصرف النظر عن ذلك لم يتلقين إلا القدر القليل من التوجيه والإرشاد. هذا وقد ساعد بعض مفتشي المراكز وزوجاتهم، وعدد من السودانيين (مثل بعض أفراد عائلة بدرى الذين كانوا يعملون في وظائف مختلفة) الوافدات الجدد ليكون مقبولات وفاعلات في المجتمع. وفي هذا الخصوص لا يفوتنا أن نذكر الشيخ بابكر بدرى شخصياً الذي أصبح قبل ثلاثين عاماً من الرواد العظام في مجال تعليم البنات، والتعليم الأهلى للبنين.<sup>(١)</sup>

كان لويس براون معلماً ممتازاً بدرجة غير عادية: منفتحاً، ونشطاً، ومسلماً، وإنسانياً، ولكن لفته العربية كانت متمثلة. ثم أصبح في عام ١٩٤٦ ناظراً لمدرسة حنتوب الثانوية الداخلية الجديدة التي تقع عبر النيل الأزرق من ود مدنى على الضفة اليمنى، وكانت تمثل القدوة منذ تأسيسها حتى تقاعده في عام ١٩٥٥. اشتهر براون بأنه هو الذي اكتشف جعفر نميرى كألقة للفصل و(كابتن) في كرة القدم.<sup>(٢)</sup> وبعد تقاعده بقليل أصبح معلماً للفيزياء بكلية لانسنج (Lancing College)، ثم رئيساً لشعبة الفيزياء بالكلية لفترة من

(١) انظر سيرته الذاتية التي كتبها في سجلين، وقام بترجمتها جى. سى. سكوت وببتر هوج، المجلد الثاني يحتوى على مقالة نقدية مفيدة حول سياسة التعليم البريطانية كتبها جى. إن ساندرسون.

(٢) أصبح نميرى رئيساً للجمهورية وديكتاتوراً (يسارياً) خلال سبعينيات القرن الماضى. دعينا، براون وأنا، لحضور العيد الأول لاتقلابه العسكرية (١٩٧٠). كان القضاى (الذى استمر مدة أطول في الحكم) يجلس في الصف الأمامى ويشاهد عرض الدبابات الروسية، بينما كان لويس براون يتهاشم مع نميرى.

الزمن. لقد رويت عنه الكثير من القصص الأسطورية التي نبتت من تلك الحكاوى التي كان يرويها فى الفصل وغرفة المعلمين، وكان ٩٥% منها حقيقياً كما يجب أن تكون حكاوى المعلم الجيد، وكانت جميعها تقريباً تحكى عن أيامه فى أفريقيا: سعب الوطاويط التي تخرج من داخل حفرة مرحاض كان لا يزال مستعملاً، تسافد الإبل وطريقة هضمها، نباتات رونزورى (Ruwenzori) (الملاقة، شجر الإكسبير الذى ينمو على قمة جبل كسلا (التسلى الأول) والسلوك الشاذ لقطرات الماء.<sup>(١)</sup>

أثناء سنوات الحرب كان براون، إلى جانب وظيفته كضابط فى قوة دفاع السودان المساعدة، عضواً قيادياً فى اللجنة الاستشارية التي وضعت ما عرف بـ (خطة براون) وهى عبارة عن تصور لزيادة كبيرة فى المدارس الثانوية

الضغرى (١٤ - ١٦) بحيث تكون أوسع انتشاراً، وأكثر انجيازاً للتعليم المنتج: زراعى، وصناعى .. الخ. غير أن رأى العام للمثقفين السودانيين، الذى بدأ يُستمع إليه، كان يرى أن تكون هذه الخطة (الثانية فى الأسبقية)، وكانوا يطالبون بالمزيد من المدارس الأكاديمية. وكان أحد كبار السودانيين الذى قام بزيارة إلى إنجلترا يرى أن إيتون (Eton) "على الخط الصحيح" ثم اتضح فى النهاية أن هناك بصمة لكل من إيتون وغوردونستون (Gordonstoun) فى حنوب والمدارس الداخلية الأخرى. كانت الأهداف أوسع بكثير من مجرد إنجاز أكاديمى، غير أن موقف المعلمين البريطانيين كان يتناقض نوعاً ما مع التربية الأخلاقية والروحانية لصفاة البلد فى المستقبل، وذلك لشيء واحد هو أننا نجهل الكثير عن الإسلام، وكما نمترف بذلك، ولهذا قمنا بترك الجانب الدينى الصارم للشيوخ معلمى اللغة العربية والدين (لابسى الجلابيب). أما

---

(١) لقد تسلقنا جبل كسلا فى ديسمبر ١٩٤١. وكان تسلقاً شاقاً استغرق زمناً طويلاً. ثم كررنا التجربة فى عام ١٩٤٢ مع اثنين من طلبة الثانوى، ولا أعرف بمدى تلك غير تسلق واحد تم فى السهوليات. لم تكن شجرة الأكسبير لذينة الطعم.

معظم تلاميذنا فكان ينمو في أذهانهم توجهاً لا ليس فيهما: توجه ثقافي ديني، وآخر يرون إلى المعارف الغربية العلمانية المفيدة. غير أن ما كان يوحد بين سائر المعلمين في هذه المدارس وبخت الرضا رغم تنوعهم الثقافي هو قليل من الكياسة والدعابة، مع درجة عالية من قول الصدق عن شئون المؤسسة التربوية، وضمن هذا المفهوم إيمان راسخ مشترك بمواهب أبنائنا الطلاب الذين نعمل ونلعب معهم، وأحياناً نخرج معهم في رحلاتهم المدرسية.

كان من متناقضات لويس براون ذلك النزاع بين التعاليم المسيحية المنهجية التي يؤمن بها في أعماقه، وبين ماديته العلمية التي كان يعلنها ويجاهر بها، وكان ينطلق في جدله، خاصة مع زملائه البريطانيين، من الفلسفة الإنسانية الإلحادية. لم يكن يضعفه هذا التناقض، بل كان مناسباً له للعمل بمزاج انحصامي، فيكون متشدداً ومعقولاً في الأمور العملية، ويميل إلى السخرية والتشكك في المسائل الأكثر عمقا، ولكن حتى ذلك الصبى الأعور (المراسلة) والعبد الممتوق قد شهد له بالاستقامة. كانت لوجبة الغداء في حنتوب شمائرها الخاصة: يتجمع كل الطلبة. طرق بصوت مرتفع. تقف جميعاً. صمت. ابتهاج ديني. "دعنا .. نبدأ". إنها تعبير علماني مشترك عن الزمالة وحسن النظام له جنوره في الشرق والغرب معاً.

يمكن القول كنوع من الاستدراك المتأخر أنه لم يكن هناك ما يبرر إنشاء تلك المدارس الداخلية المكلفة. هل كان من الأفضل لنا جميعاً أن تكون هناك مؤسسات تعليمية كبيرة أقل عزلة وأقل تكلفة؟ لا أدري. كانت قضية وضع كليات المعلمين الأولية أقوى بكثير، ذلك أن معلمى المدارس الأولية كانوا بحاجة إلى إعدادهم للمعيش في الأرياف أو المدن الصغيرة، ولذلك كان منهج المدارس الأولية بأكمله، وجميع الكتب المدرسية المبسطة التي تدعمه، تمسير في هذا

الاتجاه<sup>(١)</sup> كما كانت أغلب الأنشطة العملية التى يقوم بها التلاميذ تتركز على الزراعة والعمل معاً فى مجتمع ريفى صغير.

مرة أخرى إذا نظرنا إلى الوراء، يتضح لنا أنه ما كان يمكن على المدى البعيد مقاومة القوة الجاذبة إلى المناطق الحضرية الفنية، وإلى المهن الكتابية ذات المردود النقدي خاصة بالنسبة لثالبية الطلاب الموهوبين. إن إيجاد نخبة ذات جودة عالية كما كانت تهدف إليه المدارس الثانوية القليلة العدد آنذاك، وإيجاد صفوة متعلمة فى الريف كما كانت تهدف إليه بغت الرضا، إنما هو عمل يمكن أن تقوم بتعزيزه وإطالة بقائه إمبريالية خيرة، وليس أمة جديدة تناضل بجسارة وتنافس، وهذه قصة تتشابه فى جميع بلدان العالم النامى فى مرحلة ما بعد الاستعمار، وهى من التعقيد بحيث تصعب مناقشتها هنا. فى ذلك الوقت كان الصراع الروحى الخفى، والكثير من المشاكل الاجتماعية - الاقتصادية التى كانت تلوح لنا تشغل أذهاننا كثيراً، وقد بذلنا بعض المحاولات لمكابدتها والصراع معها.

كان فى. إل. قريفت وبغت الرضا. تلك القرية الطوباوية التربوية الموبوءة بالمalaria، والواقعة على السهول المنبسطة التى يغمرها فيضان النيل الأبيض، كلاهما مشتبه فيه من وجهة نظر أهل المدن والمدارس الثانوية. لماذا - على سبيل المثال - تحصل بغت الرضا على أفضل المعلمين السودانيين؟ ولماذا تحصل فى الغالب على مال أكثر؟ ولماذا تحظى باهتمام واعتراف عالميين كبيرين؟ وهل إطلاق اسم "معهد التربية" عليها كان متكلفاً ومصطنعاً أولاً، كان قريفت يعرف جيداً كيف يدير علاقاته العامة، ولكن كان يخدمه فى الرئاسة

---

(١) خير مثال على ذلك - فى رأيى - هو كتاب سبيل كسب العيش فى السودان الذى يصاحبه دليل للمعلم على تفاصيل مفهدة عن تصع عائلات ريفية وثلاث حضرية، مع الرسومات والخرائط لتلاميذ السنة الثالثة بالمدارس الأولية. وضع الكتاب فريق من الأساتذة. وصمم الرسومات باتقان جرينلو (Greenlw).

شخص يعمل فى الظلام (جيمسون Jamieson). كما كان الاتحياز للريف فى احسن حالات التعاطف، ويجد سنداً قوياً من مفتشى المراكز. كذلك كان معلوم بخت الرضا يشجعون على الإكثار من السفر إلى الأقاليم لأجل متابعة "خريجهم".

كما أنه قد حدث ضمن هذه العلاقات العامة الجيدة أن جان بيير جرينلو (Jean Pierre Greenlaw) الذى لربما كان يعتبر متطفاً على الفنون، ويلبس صندلاً، كان يجلس فى فرنده مفتش مركز سنكات أو الفاشر ويمزف على جيتاره ويفنى بعض الأغاني الفرنسية.

وبالرغم من تلك العلاقات العامة العارضة، فقد استطاع فريث أن يقرن اهتمامه الشديد بالتفاصيل بنوع من مثاليات الحياة البسيطة. لقد زار خلال إجازاته، التى كان قبل الحرب يقضيها فى الهند، المتنزلات الدينية لكل من طاغور وغاندى، ودرس جميع مؤلفاتهما. كان له شبه قليل بالضعفة، ولكن مع لمسة من شخصيته التبشيرية، وذوقه الفنى الرفيع، إلى جانب خبرته فى اختبار الأنظمة والمشروعات. وكانت بخت الرضا هى الجزء المؤسسى الوحيد فى المصلحة ووزارة المعارف التى كتب عنها كتاب فى هذا الشأن، وهو الذى ألفه بعنوان "تجربة فى التربية (Griffiths's 1953) An Experiment in Education" وتكلمته بعنوان: "التركيز على المعلم" (Teacher Centred) وهما مثال حى، بل واعتقد أنهما وصف صادق لكل التجارب التى كانت تجرى هناك فى "محنة التوليد التربوية".

كانت أهدافها المركزية تنعكس فى هذين الكتابين: تجربة محسوسة شارك فيها بعض من أفضل المعلمين السودانيين، وتركيز على تزويد جميع المعلمين بأفضل المهارات والأدوات (الكتب والوسائل التعليمية) التى يمارسون بها هذه المهارات. لقد ظلت بخت الرضا منذ سنواتها المبكرة المجتدية تحاول أن يكون

تدفق جميع الأشياء الجيدة في التربية بعيدا عن المدن النهرية إلى القرى البعيدة. لقد تم تأليف ما يربو على ٢٠٠ كتاب وكراسة باللغة العربية (كتب تلاميذ وأدلة معلم) ولكن قد فقد معظمها الآن.<sup>(١)</sup>

كانت هناك أيضا مكتبة بريرية تخدم المعلمين في شمال السودان، إلى جانب الدورات التدريبية أثناء الخدمة التي كانت تعقد لقدماء المعلمين للحفاظ على تماسكهم ومواكبتهم.

بالرغم من اتجاهات تافى قريث وعبد الرحمن على طه المعتدلة أو لربما بسببها، فقد كانت هناك بعض الانتقادات. قيل إنها تنزل من الأعلى إلى الأسفل. علمانية جداً. متمجلة جداً. غريبة جداً. غير أن المرء يستطيع أن يرى الآن (١٩٩٦) أننا كنا نقلل من تأثير القوى العاكسة. ذلك المد المتزايد للإسلام المسيس، بالإضافة إلى تهديدات الاضطرابات الجنوبية. وأذكر جورج جانسين-سميث (George Jansen-Smith) المدير الكاثوليكي الذي كان يعمل في الجنوب وهو يتحدث في ذلك الوقت المتأخر من المساء بذكائه الحاد، عن تلك الأشياء في بخت الرضا، وعن الحاجة إلى المزيد من الحوار بين المؤسسات الشمالية والجنوبية، وأهمية توضيح وتدريس المبادئ المشتركة بين مختلف المقائد والثقافات، وكذلك الأفكار مثل إنسانيتنا المشتركة، وبحسنا المشترك عن الحقائق المميقة. كانت إحدى نتائج هذه المناقشات أنني قمت بتأليف كتاب عن التوترات والمبادئ التي تشكل الأساس للتدريس الثقافي الشامل، والأوضاع التعليمية المختلفة بعنوان "التربية والتغيير" (Education and Change, Oxford University Press, 1957).

---

(١) توجد قائمة كاملة باللغتين العربية والإنجليزية وتتوفر كذلك مجموعة مختارة بالمصادفة، لربما من ريع عناوين الهدايا التذكارية الخاصة بجريفس وشخصي، في أرشيف درم (Durham Ar-chives) ولكن أشك في وجود أي منها في الخرطوم أو بخت الرضا.

لم يكن أى منا يؤمن بالخرافات، ذلك أنه فى تلك الأمسية أصيب مكتبى فى الحديقة بصاعقة واحترق بأكمله، وكان كل ما فى وسعنا فعله هو أن نتفرج فقط.

يفترض أن تكون هذه الحكاية عن تجارب ومساهمات المعلمين الأجانب بالسودان الذين لا يستطيع المرء أن يتحدث عنهم دون أن يتذكر نوعية زملائنا السودانيين. إننى أذكر واحداً أو اثنين من بخت الرضا رغم أن الحكاية تتناول أيضاً عدداً من المؤسسات الأخرى. كان هناك نصر الحاج على (أصبح مديراً فيما بعد وسر الختم الخليفة (أصبح رئيس وزراء لاحقاً)، وعبد الله وجريزelda الطيب، وجمال محمد أحمد، وعبد اللطيف عبد الرحمن، وفى تاريخ مبكر، مكى عباس الذى اشتهر فى العديد من المجالات. فى حوالى عام ١٩٤٥ تم تعيين عبد الرحمن على طه نائباً للعميد وبذل جهداً عظيماً فى الترجمة والتأليف المشترك مع فى. ال. قريفت، ثم أصبح فيما بعد أول وزير للمعارف. كذلك برزت أسماء العديد من البريطانيين: جرينلو (Greenlaw) برسوماته الرائعة، إضافة إلى مؤلفاته الموسيقية، ومدرسته المتخصصة فى التصاميم (واصلتا نجاحهما بعد مفادته)، أو جون برايت (John Bright) الذى أصبح من الرواد العالميين فى مجال تدريس الإنجليزية كلفة أجنبية، وفى نفس هذا المجال آر. إتش. درم (R.H. Durham) بكلية المعلمين الوسطى. إننا ندين لأمثال هؤلاء لمواهبهم وضخامة أذهنهم وعطائهم.

هل كان كل ذلك مخططاً له؟ نعم جزئياً. فى السنوات الأولى لإنشاء بخت الرضا، كان تافى قريفت يجلس فى مكتبه الصغير الملحق بمنزله المبنى بالطوب الأخضر ليقوم بفرز وتصنيف أفكاره الخاصة، وتلك الواردة من الآخرين، ثم يحدث فيما بعد نقاش مطول عقب إفطار جماعى متأخر لوضع الخطة التى يسجلها بخط يده الأنيق على صفحات مفكرته الزرقاء لتصبح بعد ذلك "خطة

العمل الأسبوعية. ثم يكتب قائمة بالأشخاص الذين سيقابلهم في مختلف أقسام المعهد، مع الشكاوى التي وردت في الأسبوع السابق، والتقارير الواجب كتابتها، والكتب المطلوب مراجعتها أو الإرسال في طلبها. كان هناك فرد صغير مربوط على عامود خارج المنزل يسمى مفي (Maffey) على اسم حاكم عام سابق، وهو نفسه الرجل الذي قام في العشرينات بوضع سياسة نقل السلطة إلى الإدارة الأهلية التي انحازت بعيد نظر إلى ضرورة تأسيس بخت الرضا في وقت كانت تعاني فيه البلاد من تخفيضات اقتصادية. كان تافي، مرتدياً ملابسه غير الرسمية، برمق بنظرة جانبية، وهو يتصبب قليلاً من العرق (لا كهرياء ولا مراوح) ثم يتنظف إليك بمسجل من الأسئلة مسجلاً "الإجراء" في مفكرته الزرقاء: "ما هو الهدف؟ كيف ستحصل على المال اللازم؟ كيف سيكون وقعه على السودانيين؟ وبعد ذلك لربما يتفق معك على أنه يجب، على الأقل، محاولة القيام بشيء ما، ولكن من الأفضل التشاور أولاً مع عبد الرحمن على طه، أو شيخ أحمد ناظر مدرسة التجريب والتدريب. كان أول عمل أسند لي تحت رئاسة قريفت هو البدء في إنشاء مكتب النشر الذي كان يتولى إصدار بعض الكتب الأدبية للصفار الذين تركوا المدرسة، بالإضافة إلى تسويق أعمال النشر الأخرى الخاصة بالمعهد. تولى مكتب النشر كذلك إصدار "الصبيان" وهي مجلة نصف شهرية نالت شهرة واسعة. وفي عام ١٩٤٩ أصبحت عميداً للمعهد خلفاً لقريفت، وبقيت هناك مع اليزايبث (إحدى أولئك المعلمات) وأطفالنا الثلاثة حتى تقاعدنا في عام ١٩٥٥.

كان قريفت، مثل سكوت ويراون والكثير من المعلمين الآخرين، ينظرون إلى رسالتنا الإمبريالية بنوع من السخرية. كم من الزمن سوف تستمر؟ هل ستبقى تلك المبادئ الأساسية ( الصداقة، والعدل، والمعمل الصادق، والبحث عن الحقيقة)؟ كان راعماً أن تقوم بكل هذه الأشياء المثيرة التي كانت تبدو لنا صائبة آنذاك، ويحتمل أن تظل كذلك في المستقبل. ولكن قد يتسائل المرء

وقتها، ولا زلت أنا أتساءل: لماذا نحن؟ إنني افترض أن أغلب زملائنا الأجانب، ومفتشى المراكز، وأولئك المهندسين والأطباء يشاركونني نوبات مماثلة من التساؤل والأمل؛ الأمل على المدى البعيد. بل الذي يجب أن يكون الآن.

روين هودجكن (Robin Hodgkin)



7

---

حكاية

مهندسة الجيولوجيا

---

*Sudan Canterbury Tales*

يعتبر السودان من أوجه عديدة فردوساً جيولوجياً بحق ، خاصة بالنسبة لواحدة مثلى من "الجنس الضعيف" . لم يعد هناك ما يدعوني لأن أحمل فى حقيبة الظهر ما يزيد على ٢٠ كيلو جراماً من عينات الصخور طلوعاً ونزولاً بها على منحدرات جبال الألب . أصبحت أستخدم الآن مختلف وسائل النقل من لوارى وإبل وخيول بدلا من السير على الأقدام . وأصبح يعمل معى الآن عمال قليلو الشكوى والتذمر أغلبهم من جبال النوبة ، بالإضافة إلى طباطخ دنقلاوى مولع بالذهاب معى فى الجولات ، وجميع هؤلاء لا يمانعون فى الركوب على ظهور اللوارى أو الجمال أو الثيران .

فى عام ١٩٤٨ كانت المعرفة الجيولوجية ضئيلة متناثرة ، وكانت الخرائط الطبوغرافية المتاحة عبارة عن تحليق فى الخيال ، بالرغم من أنه كان بالإمكان التوصل إلى الحقائق بمساعدة التصوير الفوتوغرافى الجوى ثلاثى الأبعاد . كان يتم تطبيق الجانب الأكاديمى للجيولوجيا بصورة جيدة لأجل المشور على الماء الذى كان يعتبر المظهر المكافئ لمملنا ، كما كان يشكل أهمية كبرى للبلاد . أما التنقيب عن المعادن فلم يكن يحظى بقدر كبير من الاهتمام .

تماقت للعمل بالسودان لمدة سبع سنوات، وكان العقد ينص على راتب قدره ٥٤٠ جنيهها مصرى فى العام<sup>(١)</sup> والحصول على موافقة مسبقة من الحاكم العام على أى زواج محتمل خلال المامين الأولين من التماقت . لقد أصبحنا

---

(١) كان الجنيه المصرى فى ذلك الوقت يعادل واحد جنيهها استرلينى وستة بنسات .

جزءاً من التوصيات الحكيمة غير المكتوبة مثل عدم ارتداء الملابس عارية الكتفين في الأسواق، ولحسن الحظ أصبحت (الاسكيرتات الميني) خارج الموضة في سنوات ما بعد الحرب. كان يصرف بدل نقدي قدره ٤٠ جنيهاً مصرياً لكل من ينجح في امتحان اللغة العربية الذي كان أعلى مستوى من الدرجة الأدنى المطلوبة من الجيولوجيين (رغم أنني كنت بالتأكيد أستخدم اللغة العربية أكثر من موظفي الخدمة المدنية). لقد غمشت قليلاً في الامتحان التحريري الأقل مستوى حيث كانت الأرقام العربية بالنسبة لي تمثل سرا غامضاً، ولكن لحسن حظي الشديد كنت جالسة بجانب نتيجة التقييم العربية التي ساعدتني على النجاح في الامتحان. كذلك أسعدني الحظ على عدم الرسوب رغم أن عدم استعمال الكلمة العربية الصحيحة (فاكهة) التي استخدمت بدلاً عنها الكلمة المحلية العامة (فُرْطَة).

كان هناك أثر ثانوي آخر لوظيفتي المتواضعة بمصلحة الأشغال العامة يتمثل في ذلك العدد المحدود من جمال تحميل الغض التي يمكن استخدامها في الجولات والتي كانت تحمل كمية أكبر من الصخور. كذلك كانت غالبية النساء الأوروبيات ممن يقمن بجولات عمل في السودان يتيمن بمصلحة الخدمات الطبية. أما بين قبائل الشمال فكان أغلب النساء (المستقلات) أرامل قد تلقين تدريباً على عمل القابلات، وهن من كنت أنعم برفقتهن أثناء التخييم، وكان حديثي معهن محدوداً ذلك أن معرفتي بأمراض النساء، والكلمات العربية للمصطلحات القليلة التي كنت أعرفها بالإنجليزية كانت معدومة تماماً. كنت لكي أكتسب نوعاً من الاحترام وأعيش حياة عادية أدعى أنني متزوجة ولدي عدد من الأطفال. وفي إحدى المرات بينما كنت أتجول بالحصان في جنوب غرب البلاد إذا بمجموعة من الرجال يخرون راكمين أثناء مروري بهم. لست متأكدة لماذا فعلوا ذلك، سوى هذا المنظر النادر لامرأة (بيضاء) في مثل هذا الوضع. كما كنت في العادة أستقبل بالزغاريد المدوية!

فى عام ١٩٤٨ عندما وصلت إلى السودان بناقله جنود أدخلت عليها بعض التحسينات اللطيفة ، كان قسم المسح الجيولوجى يتبع لمصلحة الأشغال العامة ويتكون من مدير ومهندس سودانى اسمه (بنى)، وهو أبى لأحد التجار الإغريق الذين كانوا قد أسروا إبان الثورة المهدية ، وكانت أمه أثيوبية. وبفضل بنى هذا تعلمت كيف أسافر فى البلاد، وفهمت احتياجات أهلها. كانت معرفته بإمداد المياه، وجفر الآبار، والتنافس بين القبائل، لا مثيل لها. ومن خلال أول جولة لى معه من أم درمان غرباً إلى حمرة الوز، ثم فى الجنوب استطعت أن أكون فكرة جيدة عن السودان عموماً.

عملاً بنصيحة أسديت لى، فقد جهزت نفسى من محلات شكرى قرنفلى بالملابس اللازمة، بالإضافة إلى (جاكيت) مصنوعة من (الدمور) وهو قماش قطنى منسوج محلياً، ولكن ضيق عرض فتحات النسيج قد استدعى عمل شبكة معقدة من اللفقات. غير أن كل هذا الجهاز من الملابس سرعان ما ورثه أحد الجنزرجية الماملين مسمى. كنت فى الواقع عندما أدير ظهرى إلى الشمس لأنظر إلى عينة من الصخور فى يدي، كان ذلك يعنى أن تحترق ركبتيّ من الخلف بحرارة الشمس. كان بالجاكيت عدد من الجيوب تساعد على حفظ الساعة، والجنزير، وتذكرة السكة حديد، كما كانت على جانبيها جيوب أخرى أكبر حجماً، وجيب إضافى قد خيط وسط الظهر بحيث يمكن ارتداء الجاكيت بالمقلوب، مما لا يسمح بالحصول على أية تفاصيل أساسية (لمالم) جسدى، ومن كان يريد معرفة موقع انفراج ساقى، فعليه أن يعدده من موقع كوعى.

إن تحديد مواقع الآبار، ورسم الخرائط الخاصة بجيولوجيا وبنية البلد يتوقف على مدى توافر الخرائط لها، وكانت مصلحة المساحة السودانية تقوم بطباعة صحائف كتابية ريع درجة بمقاس رسم ( 1:٢٥٠.٠٠٠ )، وهى التى كانت تشكل الأساس لعملنا الجيولوجى. ولعل ما يثير الاهتمام تاريخياً هو ذلك الخط 'المنقط' المؤشر عليه بعبارة (ماكملان، ١٩٩٢) إشارة إلى التاريخ الذى انهارت فيه

إحدى الآبار التي حفرت في "سنة ماکملان" (أي السنة التي حضر فيها ماکملان). إننى أتساءل أحياناً: كم من المعالم يمود تاريخها المحلى إلى (سنة أم شاكوش)، وهو اللقب الذى كان يطلق على نسبة إلى مطرقة الجيولوجى التى كنت ألوح بها دائماً. لقد لازمتنى هذا اللقب فيما بعد عندما انتقلت إلى العمل فى جدة، إذ أن سائق زميلى الفرنسى وطباخه قد جاءا يوماً إلى منزلى ليمستفسرا عما إذا كنت أنا (أم شاكوش). ياله من حظ حسن أن يصبح المرء مشهوراً!

بعد أن ازداد عدد العاملين بالمسح الجيولوجى، بدأنا رسم الخرائط الجيولوجية فى منطقة جبال البحر الأحمر، ليكون بالإمكان تصدير أية معادن يتم اكتشافها. كانت منطقة العمل التى أسندت إلى هـى (الصحيفة ٤٦١) بخور "لنقب" الذى سمي باسم خط تصريف المياه، وهو بشكل منحنيين رئيسيين قبل أن يصل إلى خور بركة الذى ينبع من إريتريا، ويتدفق شمالاً مكوناً دلتا طوكر. يقال أن المستكشف السويسرى بيركهارد (Burckhardt) قد استغل هذا الطريق فى رحلته إلى مكة، وإن العثمانيين هم الذين أدخلوا زراعة القطن إلى دلتا طوكر.

كانت الصحيفة الطبوغرافية تحمل ملاحظة شاعرية حول هذا الخور: "خور لنقب وادى رملى واسع، تحيط به أشجار الطرفة والدوم، وهو يجرى بين تلال عالية، وتسكنه الحمير المتوحشة" غير أننى أشاء رسم الخرائط لم أشاهد حميراً، ولكنى رأيت أعداداً كبيرة من القروء الضخمة تأتى إلى أماكن وجود المياه السطحية. كانت أشجار الدوم تحدث حفيفاً مع هبوب الرياح الخفيفة، وكانت ثمارها من الأسباب التى تؤدى إلى الشجار والخلاف بين الهندوة.<sup>(١)</sup>

أثناء رحلتى بالسيارة لزيارة آبار (تيمرين) التقيت برجلى الشرطة أبوشنب وإبراهيم، اللذين أسندت إليهما مهمة حراستى. لم تكن المنطقة آمنة تماماً

---

(١) إحدى قبائل البجا الرئيسية الثلاث فى شرق السودان، ويسكنون فى تلال البحر الأحمر، وهم الذين أوحوا للشاعر كيتنج بقصيدته المشهورة (Fuzzy Wuzzies).

وذلك بسبب (الشفقة) المغيرين الذين كانوا دائماً يأتون من الوادى إلى الشرق .  
فى خور لتقب من خور بركة، وفى خور (أرفت) من خور لتقب، غير أننى لم أر  
أحداً منهم، بل وجدت كل عطف وكرم من مشايخ المنطقة الذين استأجرت  
بواسطتهم ناقة ركوب ( مولدة لدى قبيلة البشارين)، وكانوا فى الغالب يهدون  
إلى خروفاً أو تيساً من الماعز. ترى هل كان ردى لهذا الكرم والعطف هو أننى  
كنت أوفر لهم نوعاً من التسلية؟ لربما نعم فى بعض الحالات، فقد كنت ألاحظ  
عندما أنظر إلى أعلى من صحن الفسيل، والصابون يغطى شعر رأسى المبتل،  
أن هناك مجموعة من الرجال يبهجها هذا المنظر. كان الهندود أنفهم  
يصفون شعر رؤوسهم بالودك، ويبرز من ذلك الشعر الكثيف مشط (خُلال)  
بمقبض طويل.

كان الدكان المحلى بقرية (تيمرين) مليئاً بالدروع، والسيوف وأغمادها  
بأشكالها التقليدية ، والسياط، والودك (لتصفيف الشعر) والبن، والسكر، مع  
القليل من الأقمشة خاصة الثياب النسائية باللونين الأحمر والأزرق. كانت  
القهوة مصدراً للطاقة وحسن الضيافة. وبالقرب من الدكان كان يتم تخزين  
الذرة تحت الأرض، ويتم استخراجها لشراء الاحتياجات.

كان أبو شنب يعاملنى باهتمام بالغ، وكان يلازمى أينما ذهبت لابساً حذاءه ذى  
المسامير، فوق قمم الجبال، أو وراء الأجمات لقضاء الحاجة (إلى أن أعلنت أننى  
لست بحاجة إلى حماية فى هذا العمل الأخير)، وكان يطلب من مفتش المركز  
السماح له بمرافقتى فى كل مرة أستطيع فيها الهروب من الخرطوم والمودة إلى  
لتقب، حيث يتروك جملة يرعى بالقرب، ويظل منتظراً معى تحت أضخم شجرة  
ظليلة فى المكان متعلها بمنتهى الصبر إلى أن يسمع صوت اللورى قادماً إلينا .

عند منتصف النهار أقرر أنا أو الجمل أنه قد حان وقت الراحة، فتقرش لى  
فروة (سجادة وبرية تصنع من جلد الضأن وتوضع على سرج الدابة) فى ظل

شجرة مناسبة ، ليبدأ فوراً سماع ذلك الصوت الإيقاعي الودود (دق البن). يضاف مسحوق البن إلى الماء ويوضع على النار في (الجبنة) وهي وعاء من الفخار له عنق طويل. ثم تسد فتحة العنق بقطعة من ليف سعف شجر الدوم، وتوضع (الجبنة) لبعض الوقت على "الوقاية" (حلقه من الخرز) حتى تنفع القهوة، لتقدم بعد ذلك إلى جميع الحاضرين في فتاجين تقليدية صغيرة. كانت القهوة بالنسبة لى تعتبر وجبة منتصف النهار، إذ لا يجوز أن أكون أنا الشخص الوحيد في المجموعة الذى يتناول شيئاً من الطعام في هذا الوقت.

كان الماء متوفراً بكثرة في خور لنقب، ويمكن بالحفر إلى عمق ضحل توفيره للإنسان والحيوان، ولكن تحسباً لليوم الجاف كان يتم تحميل كل من جمال المفش ببرميلين من الماء سعة كل منهما ٢٠ جالونا. لقد رفضت استعمال ماء هذا الوادى عندما كنت في استراحة مدينة درديب، وذلك لمكورتها الشديدة لدرجة أنها لا تصلح للاستعمام، بالرغم من أننى كنت أشربها في المعسكر بكل سرور، ولم يحدث أن عانيت من أية آثار مرضية نتيجة لشرب الماء دون غليه أو تنقيته. لربما يكون السبب في ذلك أننى كنت أشربه كشاي أو معزوجاً بمشروب كحولى.

بعد إرسال قافلة المفش إلى الجهة المقصودة، أخرج مبكرة برفقة أحد المرشدين الهدندوة وأبو شنب لرسم الخرائط الجيولوجية، لنصل إلى المعسكر في المساء. مع الطاولة، والمقعد، وسرير على ملأه أرضية، وغلاية الشاي على النار، والجمال ترعى بالقرب. ربما كانت أخبار وصولي تصل الآبار، فيكون هناك عدد من الرجال جالسين حول الملاة الأرضية إلى أن اضطر لطردهم لأدعو النساء لتناول الشاي أو القرفة معى. وهكذا أتاحت لى فرصة للالتقاء بسيدة فاتنة هي الشيخة عائشة بنت على كريدم إذا لم تخن الذاكرة، التي كانت تزيل الذمام من أنفها بكل حرص قبل أن تشرب معى الشاي.

كان خور لنقب مشهوراً بمسوء العلقم وشدة الحرارة، وتلك المواصف  
الترايبية التي تهب إلى الداخل من دلتا ملوكر. وكان أى تأخير فى برنامجى  
كإرسال برفية مثلاً بأننى سأصل إلى محطة درديب لأنتظر الشاحنة القادمة  
من الخرطوم، يسبب إرتباكاً إدارياً، وقد أوحى مثل هذا التأخير إلى نائب مدير  
مديرية كسلا بهذه القصيدة القصيرة:

الألثة ديلنى تأخرت  
دون فىء اورفريق  
فى منطقة (لوى) القاحلة  
يا ليتها لم تكن صبية وإنما صبي  
علماً بأن الجيولوجيين الذكور  
أقل جاذبية مقارنة بالإناث  
ولكنهم إذا ضلوا الطريق  
أو تأخروا دون فىء اورفريق  
لا يسيبون اضطراباً أو إرتباكاً.

وكانت هذه أول وآخر مرة أكون فيها ملهمة لقصيدة شعرية!

بالرغم من أن ركوب الإبل فى الجبال كان تجربة سارة بالنسبة لى، إلا أن  
العمل فى تحديد مواقع الآبار كان بناءً أكثر باستخدام الطرائق الجيوفيزيائية  
عموماً، أو بالفطرة السليمة والحظ أحياناً. كانت منطقة غرب النهود عبارة  
عن مثلث من الكثبان الرملية ينمو فيه البطيخ بصورة جيدة، وكانت المياه تأتى  
من ثلاثة مصادر: من البطيخ نفسه، أو المياه التى تخزن فى أشجار التبلدى  
أثناء فصل الأمطار، أو برحلة ثلاثة أيام على ظهور الجمال إلى أقرب بشر  
للماء، ولكن يا للحسرة لم أعثر على الماء فى تلك المنطقة، حيث أن الصخور  
السفلى تحت الرمال كانت أعلى من منسوب المياه المحيط بها.

جرت محاولة فيما بعد لتطبيق نهج فى التنمية متعدد التخصصات، حيث قمت مع فريق من المختصين فى البحوث الزراعية، والبيطرية، والمائية، وحماية البيئة بمحاولة لتقدير طاقة التحميل القصوى للمراعى، ومنع الرعى الجائر بتحديد كمية المياه المتاحة. غير أنه عندما عدت إلى السودان بعد بضعة سنوات بصفة استشارى ضمن فريق من منظمة (الفاو)، واجهتنا كل صعوبات السفر فى السودان؛ وكانت الحفائر<sup>(١)</sup> ملأى بالطمى، ومضخات المياه معطلة. كم كان محزناً أن بحثنا لتقصى الحقائق لم يتوصل إلى أى شيء يذكر.

كان الجانب المتعب فى إمداد المياه هو فحص عينات الحفريات، وكان من السهل جدا إرسال برفقية بالتوقف عن العمل عندما يصل الحفر إلى طبقة الصخور المتبلورة، غير أن الصخور الرملية فى منطقة جبال النوبة المثيرة للعلل والضجر لم تكن مريحة بهذا الشكل. تم العثور على كتلة فحمية ضمن عينات من إحدى الآبار بوادى كابو بالقرب من القضارف، واتضح أنها كانت مجرد مزحة من فتى حفر الآبار الذى أرسلها لنا ليختبر ما إذا كنا نقوم بفحص عيناته التى يرسلها إلينا، وقد أدى ذلك إلى حفر بئر أخرى لا قيمة لها أيضاً. كان من الجوانب المشرقة الاختبارات الجيوفيزيائية أنه عندما يتم إدخال المتلات وسقايتها بالماء لتحسين التوصيل الكهربائى، تأتى بعض الفراشات الصغيرة الزرقاء لتستقى من الماء الموجود بين الحواجز. وكانت قمة شمورى بالرضاء عندما أتسلم تقريراً فنياً يقول: "وجدنا الماء على مستوى كذا قدم" خاصة إذا كان ذلك هو ما قد تنبأت به.

لم تكن "التكنولوجيا الحديثة" أثناء سنوات خدمتى بالسودان عبارة لها بريق مثل ما هى عليه الآن، كما أن التقنيات الحديثة لم تكن تجد فى الغالب التقدير الكافى. كانت الحياة الاجتماعية تتركز غالباً عند رؤوس الآبار حيث أن العمل المضنى فى سحب المياه من البئر كان يساعد الأسر والقبائل. فى عصر ما قبل

(١) تجريف فى الأرض يتم حفره آلياً أو يدوياً ليصبح خزاناً لمياه الأمطار.

الترانزستور - على ضرورة تبادل القيل والقال. غير أن البئر التي تضخ بضعة جوالين من الماء في الدقيقة لا تترك زمناً للعلاقات الاجتماعية، كما أنها تحتاج إلى صيانة متخصصة حيث يوجد في كثير من المناطق حفارو الآبار التقليديون الذين كانوا على مستوى جيد من الكفاءة، ولكن كانت مهنتهم تتسم بالخطورة خاصة في منخفض بارا حيث كانت تنهار الآبار بسبب الرمال التي تكون بالكاد متماسكة أثناء إنزالهم براميل البترول الفارغة. أما عمق البئر فكان يعرف بطول الطريق الذي يسلكه الشخص أو الجمل الذي يقوم برفع دلو الماء بالحبل والبكرة.

أصبحت الدراسات المختبرية في الخرطوم مقبولة من خلال الحياة الاجتماعية النشطة: التمس، والتجديف، وحفلات العشاء، والرقص. ونظرا لندرة المساكن فقد تم بناء صفوف من الاستوديوهات بغرفة واحدة. في البداية كانت أربع بنات يسكن بين العزاب، ولكن فيما بعد تم بناء أربع وحدات سكنية للعازيات خلف ميز الهبوب. وكثوع من التحسين الكبير، كانت توجد نافذة صغيرة بالدولاب (خزانة الملابس) الموجود في فرندة كل وحدة، ولذلك تم تحويله إلى مطبخ. كذلك كان هناك جدار يبلغ ارتفاعه ثلاثة أرباع ارتفاع الغرفة يفصل الحمام (الأسمنتى) من الغرفة ذات البلاط الأحمر، وتم تركيب فرن جاز لتوفير الماء الساخن في الشتاء، كما تم تنظيم ميزات للممرضات. أما النساء الأخريات العاملات في المصالح الأخرى فلم يوفر لهن شيء من هذا القبيل.

كانت سبع سنوات من العمل الممتع الذي يبدو أنه قد وفر ظروفًا معيشية أفضل لسكان يغلب عليهم الفقر، وستظل صورتها مشرقة في حياتي المهنية، ورغم أنها قد لا تسجل لمصالحى في سجلات الخلود - إلا أنها كانت جداً ممتعة.

فرانسيس ديلنى (Frances Delany)

8

---

حكاية

القاضي

---

*Sudan Canterbury Tales*

## تجهيز

يمتد السودان من مصر إلى يوغندا، وهى نفس المسافة من البصرة إلى أزمير، أو من باكو إلى القاهرة، ولكن فى عام ١٨٩٨، ذلك العام الذى دارت فيه معركة أم درمان، كان السكان الذين يقدر تعدادهم بحوالى مليونى نفس يمانون من الفقر، والمرض، والقمع. لقد أدى مرض الجدري، والمجاعة، والسياف إلى تدمير الناس، بل وأمسوا من ذلك: الجوع الروحى. لقد ضرب ستار حديدى بين السودان وبقية بلاد العالم لفترة امتدت ستة عشر عاماً. لم تكن هناك أية مدارس، وأصبحت سهول العشب الممتدة فى الغرب خاوية على عروشها بعد أن سحقت قبائل الرحل، أو أجبرت على النزوح إلى ضفاف النيل.

سيطر الخوف على السودان؛ وأصبحت العقوبات الوحشية ترع الناس، ولكنها لم تمنع الجريمة. كان السارق تقطع يده أو قدمه، ولكن ظلت أم درمان تمج باللصوص والحرامية، وظل اللص الشهير (زغبير) بأطرافه المبتورة يشب على قدمه الواحدة، ويستمر فى عمله المشين، ومع ذلك كان يحتفظ بملاقة طيبة مع القضاة، ثم مات ثرياً فى النهاية.

كان السودان يمشى فى فراغ ما كان يمكن ملؤه بعودة الحكم المصرى الذى كان سيميد إلى السودان كل شروق الامتيازات الأجنبية، والمحاكم المختلطة والقنصلية. لذلك وضع المنتصرون شئون العدل والأمن فى أيدي مديري المديريات<sup>(١)</sup> ومفتشى المراكز الذين كان الأوائل منهم ضباطاً فى الجيش البريطانى، ثم استبدلوا برجال

---

(١) جميعهم كانوا بريطانيين حتى عام ١٩٥٥.

تم اختيارهم من خريجي الجامعات البريطانية. كان مدير المديرية يترأس المحاكم الكبرى التي تنظر في التهم الخطيرة، بالإضافة إلى عضوين من القضاة الجزئيين يكونان في العادة من السودانيين، ثم يُرسل الحكم للتأييد أو الاستئناف إلى المستشار أو السكرتير القضائي السير/ إدجر بونهام كارتر Sir Edgar Bonham-Carter، الذي كان قانونياً ضليعاً. كان هناك منذ البداية كادراً من أعضاء هيئة المحققين الإنجليزية، وكان يشترط على القضاة معاونين لهم أن يجتازوا امتحانات صعبة في القانون والإجراءات القضائية.

كانت الأسبقية الأولى في عام ١٨٩٨ هي العمل على كسب ثقة الناس من خلال رافة الحكم في الجريمة الأولى، مع قمع السلوكيات الضارة، واحترام الدين، ونزاهة سير العدالة. وقد تم كسب هذه الثقة بالفعل، وكان القضاة والإداريون البريطانيون بدورهم يحترمون أهل السودان ويحبونهم كأشقاء.

يقال إن قانون العقوبات هو قانون الفطرة السليمة، ولكن لن تكون الفطرة السليمة وحدها بديلاً للنظام العادل، ولذلك تبني السودان تطبيق قانوني العقوبات والإجراءات الهنديين بمد إدخال بعض التعديلات الطفيفة عليهما ليناسبها ظروف البلاد المحلية، ولا يزال هذان القانونان ساريين في الهند والباكستان حتى يومنا هذا، ويجدان كل التفهم من أفراد الشعب. تقوم الشرطة بموجب القانونيين المذكورين بالتحري في الجريمة بتوجيه من القضاة المحليين دون تدخل من القصر أو الوزارة، وبذلك تظل الشرطة أداة للعدالة دون أن تصبح أداة في أيدي السلطات التنفيذية.

كذلك تم إنشاء محاكم شرعية برئاسة قاضي القضاة أو المفتي، وأصبح هناك في جميع أنحاء السودان مفتشون يتولون النظر في قضايا الأحوال الشخصية الخاصة بالمسلمين مثل الزواج، والطلاق، والميراث، كما تم إنشاء مدارس للشريعة حتى مستوى الجامعة.

أما فيما يتعلق بالقانون المدني، وقانون الأراضي، فقد وضعاً في أيدي قضاة محترفين، على أن تستأنف أحكامهم لدى المحكمة العليا بالخرطوم. غير أن قانون الأراضي كان في حالة من الفوضى نظراً إلى أن الاضطرابات التي حدثت في عهد المهديّة قد تركت مسائل الملكية والحيازة معلقة في الهواء. لذلك تم تعيين مأمير الأراضي في عام ١٨٩٩ وكانوا يسافرون إلى جميع أنحاء البلاد لأجل سماع شكاوى المواطنين، والتحرى في سندات الأراضي المتنازع عليها في المدن والقرى الواقعة على الأنهار وغيرها، وكان يصدر الحكم بحق الملكية بعد إثبات حيازة الأرض لمدة خمس سنوات متواصلة، وبعد ذلك يتم فوراً تسجيل سندات الملكية لدى سجلات الأراضي التي نظمت قانون الملكية في السودان وأعادت الثقة إليه.

ظل مشايخ القبائل الرحل وشيوخ القرى منذ آمد بميد يقيمون المدل بين أهليهم بتطبيق القانون العرفي. ثم جاءت الحكومة الجديدة ودعمت هذه السلطات القضائية، وفي نفس الوقت منعت إساءة استخدامها بأن أسندت مهمة الإشراف عليها إلى المديرين والمفتشين، ومديري المديرية ومفتشى المراكز في جميع أنحاء السودان الذين كانوا على اتصال يومي بالمشايخ وعامة المواطنين. كان جميع مديري المديرية بريطانيين حتى عام ١٩٥٤، وفيما بين عامي ١٩٢١ و١٩٣١ أنشئت المحاكم المحلية، وحددت لها صلاحياتها وعضويتها والضوابط الخاصة بها. أما الاستئناف فكانت ترفع إلى مدير المديرية، ولكن بحلول عام ١٩٥٣ أصبح هذا العمل الأساسي جاهزاً لإنجاز المرحلة الأخيرة وهي دمج المحاكم "الأهلية" في النظام القضائي للدولة.

في عام ١٩٠٦ إرتأى السير/ أوكلاند كولن (Sir Aucland Colvin) الرقيب العام البريطاني بمصر أنه يجب استبدال محكمة المفوض القضائي، التي أنشئت مع بداية الحكم الثنائي، بهيئة القضاة المدنيين، وأنه يجب أن يكون

هناك نظام دوائر فى المديرىات البعيدة، ولكنه كان متقدما على زمانه، ذلك أنه كان لا بد من مرور عدة سنوات حتى يتم إرساء دعائم قوية للأمن تستوعب مثل هذا التطور، حيث أنه فى الفترة من عام ١٩٠٦ إلى عام ١٩٢٨ كان لا بد من قمع حوادث العنف المتكررة بتجريد حملات عسكرية فقدت فيها أرواح كثيرة، وكان أخطرها ثورة على دينار سلطان دارفور الذى كان مطالباً بدفع ضريبة للحكومة، والتي أخمدت بعد معركة عنيفة فى عام ١٩١٥ بالقرب من الفاشر. وقد أدت هذه الحوادث إلى ضرورة إقامة نظام لا مركزى للأمن والمعدل يضع السلطة القضائية فى أيدي مديري المديرىات ومفتشى المراكز الموثوق بهم. أما تطوير القضائية على أسس حديثة فقد أرجئ إلى حين، غير أنه تم إحراز بعض التقدم بين الحريين العاليتين حيث تم استعدادات مدرسة للحقوق، وتعيين قضاة سودانيين، وتأهيل أول محامين سودانيين. كما تم تعيين رئيس للقضاء لتؤول إليه الكثير من أعمال السكرتير القضائى. وفى بعض المديرىات المعنية أصبح قضاة المحاكم العليا يتولون اختصاصات مديري المديرىات القضائية، وكان اثنان من هؤلاء الذين تم تعيينهم فى عام ١٩٤٨ من السودانيين. وبحلول عام ١٩٥٢ أصبح ثلاثة أرباع الجرائم الكبرى تحاكم بواسطة قضاة مؤهلين، وثلاث هذا الكم ينظر أمام رؤساء محاكم سودانيين.

كليه. جيه. أو، سى هايز (Kjro C. Haye)



في نهاية الحرب التي كنت أعمل أثناءها في البحرية الملكية، فكرت في ماذا أفعل بعد ذلك؟ كنت أعمل محامياً معتمداً لدى هيئة المحامين قبل بداية الحرب، كما حظيت بوظيفة مؤقتة لدى كلية جرينيش Greenwich College في انتظار التسريع من الجيش، تحت رئاسة ذلك الرجل البهيج كابتن كوبر Captain Cooper نائب ممثل النهاية العامة بالأسطول. وفي يوم من الأيام لفت نظري أحد الأصدقاء إلى إعلان منمزل صغير في إحدى الصحف اليومية بقبول طلبات للتعيين في وظيفة مساعد قانوني لدى حكومة السودان.

كنت دائماً أطلع خريطة السودان، وأقرأ كل ما يمكن قراءته حول هذا البلد الذي اشتهر بشجاعة معاربيه الذين بلغوا أوج شجاعتهم في معركة أم درمان عام ١٨٩٨ عندما هزم اللورد كتشنر السودانيون بتفوق السلاح الناري.

كتب عنى كابتن كوبر تقريراً تقريرياً، مع أنني لم أكن من لاعبي الفرق الرياضية في كيمبرج أو أوكسفورد، والذي أشيع خطأ أنه شرط مسبق للعمل في السودان. بعد ذلك استدعيت للمثول أمام لجنة الاختيار التي كانت تتكون من ثلاثة أعضاء برئاسة القاضي ديريك لوماكس (Derek Lomax) الذي كان هو نفسه من لاعبي الكريكت والتنس الجيدين، ويحمل شارة كيمبرج الزرقاء. سألتني لماذا أريد الالتحاق بالخدمة السودانية، فتحدثت عن اهتمامي بتاريخ المنطقة مما ذوب قطعة الجليد التي كانت تخيم على جو المقابلة، ثم جاء السؤال الذي لا مفر منه: ما هي اهتماماتك الرياضية؟ أجبت بأنني أهوى

تسلق الجبال، وأنتى كنت أمارس هذه الهواية فى انجلترا وجبال الألب كلما كان ذلك ممكناً. هنا أبدى ديريك لوماكس مزيداً من الاهتمام، فساءلنى إن كنت أعرف روبن هودجكن (Robin Hodgkin) الذى يعمل بمصلحة المعارف، فقلت: "نعم أعرفه، وسبق لنا أن تسلقنا الجبال معاً عدة مرات فى منطقة ويلز". فجأة تغير جو المقابلة، وبدأ أعضاء اللجنة يتحدثون عن تسلق الجبال بسعادة غامرة، فعرفت أنتى قد عبرت إلى بر الأمان.

وجدت نفسى فيما بعد على ظهر السفينة المتجهة إلى بورتسودان التى يمتد منها خط سكة حديد إلى الخرطوم ماراً بمطيرة عبر صحراء من الحصى والرمال. وفى الطريق هطلت علينا زخات من المطر، ولن أنسى أبداً أننى تسممت لأول مرة تلك الرائحة الطيبة التى كانت تهب مع التسييم أثناء هطول المطر على الصحراء، فهنبث منها ذلك الشذى الفواح الذى كنا نستمتع به مع بداية موسم الأمطار فى شهر يوليو من كل عام بعد انقضاء فترة الجفاف والجفاف.

بعد وصولى الخرطوم، مازلت بالطبع لا أعرف اللغة العربية مع أنتى، كما هو مطلوب، قد اجتزت الامتحان المالى للغة العربية. وكنت فى تلك الأيام المبكرة أرتبك كثيراً فى الحديث حتى بمساعدة شارلز ستانلى- بيكر (Charles Stanley-Baker)، حيث وضعت فى وظيفة لم أكن مستمداً لها كقاضٍ لمنطقة أم درمان. كان الشهود ورجال الشرطة يتحدثون باللغة العربية التى كانت تبدو لى فى البداية غير مفهومة، ولكن أحد رجال الشرطة برتبة رقيب تكرم بمساعدتى طوال تلك الفترة إلى أن أصبحت أفهم كل ما يدور من حديث.

قبل ذلك، وبعد فترة قصيرة من وصولى إلى الخرطوم، تم إرسالى إلى إريتريا لأتولى مهمة الدفاع أمام محكمة عسكرية عن عدد من الجنود السودانيين. بعد انتصار الحلفاء فى حملة شرق إفريقيا، أسندت حماية أسمر

عاصمة إريتريا إلى قوة دفاع السودان، وكانت فرقة النوبة السابعة تتمركز هناك. كان أفراد هذه الفرقة ينتمون إلى منطقة جبال النوبة بالسودان، ويعتزون ويفتخرون بأنفسهم، ولذلك كانوا يستخفون بالإريتريين الضعفاء، ولا يميرونهم اهتماما كبيراً، وهكذا أصبح صدامهم معهم أمراً لا مفر منه. وفي يوم من الأيام قذف أحد الإريتريين أمياشى نويواى معجباً بنفسه، بقطعة طماطم متعفنة أو شيء من هذا القبيل. وكان النويواى فى ذلك الوقت قد استمتع بشرب كمية وافرة من (المريسة) برهقة فتيات المدينة، الأمر الذى أثار حفيظته وجعله يركض إلى الحمامة فى القلعة التى كانت تمسك فيها الفرقة السابعة على بعد ميلين من المدينة، وذلك بقصد إحضار بندقيته ليرد على هذه الإساءة وينتقم لنفسه، فاقتحم مخزن السلاح ومعه آخرون، وتناولوا أسلحتهم وتوجهوا بها إلى المدينة حيث أطلقوا النار، مما نجم عنه مقتل عدد من الإريتريين.

كانت هناك محاولة لمعرفة الأفراد الذين شاركوا إيجابياً فى تسبیب هذا الأذى الجسيم، ولكن كان من الصعب تحديد ذلك حيث أن مجموعات كبيرة من الجنود كانت تدخل وتخرج من القلعة جيئة وذهاباً. لذلك أطلقت صافرة الإنذار، وقام الضباط بإغلاق البوابات لمنع خروج المزيد من الجنود، ولكن ظل السؤال قائماً: أى من الجنود كان بالداخل، وأيهم كان بالخارج فى تلك اللحظات المصيبة؟ بلغ عدد المتهمين حوالى التسعين، ولذلك نصحتهم جميعاً بأن يملأوا أمام المحكمة بأنهم غير مذنبين، وألا يحاولوا تجريم زملائهم. كانت النتيجة إدانة خمسة عشر منهم بارتكاب الجريمة بدرجات متفاوتة. وقد أدى نجاحى نسبياً فى الدفاع عنهم إلى أننى أصبحت بعد ذلك ألقى التحية من كل نويواى يلتقيني فى أى مكان، وكان كثيرون منهم يقومون بمصافحتى بكل ود واحترام أثناء جولاتى القضائية فى الأقاليم. كذلك أثناء سير إجراءات القضية، نشأت صداقة بينى وبين الضابط النويواى الذى تولى مهمة الترجمة

أثناء المحاكمة، وقد ساعدنى ذلك كثيراً فى تقوية لفتى العربية رغم أنه كان يتحدث الإنجليزية بطلاقة.

منذ أن تم تعيينى قاضياً بالمحكمة العليا بمديرية النيل الأزرق بعد بضعة سنوات، أصبحت إحدى ممارساتى . كلما كان ذلك مناسباً . أن أنقل محكمتى إلى مكان يكون قريباً بقدر الإمكان من مسرح الأحداث التى استدعت عقد المحكمة . وكانت الفكرة من وراء ذلك هى أنتى بالنسبة إلى القضايا القبلية كنت أريد أن يتمكن أكبر عدد من الأشخاص المعنيين من سماع كافة البينات بأنفسهم . كانت من بين تلك القضايا ذلك القتال القبلى الذى حدث فى مدينة الحصا حيصاً، وتتخلص خلفية الموضوع فى أنه كان قد تقرر إجراء أول انتخابات من نوعها للحكومة المحلية بالمنطقة، وتم اختيار مبنى المدرسة ليكون مركزاً للاقتراع . وفى يوم الانتخابات أقبل الناخبون بأعداد كبيرة وهم فى غاية الحماس، وكثور من الاحتياط تم تجريدهم من أسلحتهم التى تمودوا على حملها مثل المكاكيز (الهراوات)، والسكاكين والفرارير (فئوس صغيرة الحجم) ... إلخ، ووضعت جميعها خلف مبنى المدرسة .

جلس الناخبون بالدور حسب وصولهم، ثم أخذ ضابط الانتخابات ينادى كلا منهم باسمه على انفراد ليلقى ببطلانته فى الصندوق الذى يختاره، ثم يعود بعد ذلك إلى مكانه فى الخارج، وبالنسبة كان حق التصويت وفقاً على الذكور فقط . انضح فى بعض الحالات أن الشخص الذى اقترح ليس هو نفس الشخص الذى نودى باسمه، إذ لربما يكون قد طلب منه أحد أصدقائه أن يصوت نيابة عنه . لذلك بدأت المشاجرات بين أولئك الذين كانوا يعرفون هوية الأشخاص المعنيين، وأخذوا يتبادلون الشتائم مثل: "أنت كلب" و"أنت محتال"، مما أثار غضب البعض ودفهمم لأخذ أسلحتهم من خلف المدرسة، ونجمت عن ذلك معركة كبيرة انتهت بمقتل إحدى عشر شخصاً، وعدد كبير من الجرحى .

كنت بوصفى قاضى محكمة عليا أقوم أحيانا بزيارة منطقة النيل الأبيض للنظر فى القضايا الخاصة بالأراضى. والنيل الأبيض كما هو معروف عريض وضحل فى بعض الأماكن، وعندما يهبط مستوى النهر بعد نهاية موسم الأمطار يظهر فيه عدد من الجزر التى تتميز بخصوبتها لكونها غنية بالطمى. لذلك كانت ملكية هذه الجزر تعتبر غنيمة كبرى لمن تؤول إليه، مما كان يؤدى إلى العديد من النزاعات. كان السودانيون يتخاصمون كثيراً بسبب هذه الأراضى، وكان المبدأ القانونى المطبق على هذا النوع من الأراضى النهرية هو أن ملكية الأرض الواقعة على الضفة تمتد إلى منتصف النهر. وبما أن الجزر تظهر فى أماكن مختلفة عبر المواسم المتتالية، فيمكن تصور صعوبة إصدار الحكم فى مثل هذه القضايا.

كنت لأجل أن أتمكن من معالجة قضايا النيل الأبيض، أغادر منزلى بود مدنى عاصمة المديرية، وأقود السيارة عبر حقول القطن فى الجزيرة، إلى كوستى أو الدويم، ومن هناك أعبر النيل الأبيض بمباراة من طراز زمن الحرب، مع عدد من الركاب والشاحنات حيث ترسو العبارة على شاطئى طينى أو رملى بحيث تستطيع بسهولة إنزال سقالتها (سلم الهبوط والصعود). كان من المناظر المألوفة أثناء عبورنا النهر رؤية عائلة من أفراس النهر وهى ترعى على الحشائش التى تنمو على ضفة النهر الطينية ونصف أجسامها داخل الماء.

كانت زوجتى التى كانت النساء يلقبها بـ(الماركيزة) تستمتع بمرافقتى فى مثل هذه الزيارات. وكان قاضى مركز كوستى، التى يوجد بها فرع لرئاسة مديرية النيل الأزرق وتقع على النيل الأبيض، هو عبدالرحمن النور، الذى كانت بين زوجتى وزوجته صداقة حميمة. ورغم محدودية لغتها العربية كانت زوجتى تستمتع بالأنس معها والنساء الأخريات. كما كان لى صديق آخر فى كوستى يدعى أحمد كوكو وهو من أثرياء التجار ويتحدث الإنجليزية بطلاقة، وكان

عضواً فى المحكمة، وغالباً ما كان يجلس معى فى المحاكم الكبرى المتعلقة بجرائم القتل والقضايا الأخرى الخطيرة. كنت وزوجتى نمزح معه حول أولاده العديدين، ولكن فى بلد تسمح فيه الشريعة الإسلامية للرجل بالزواج من أربع نساء غير السريات، فلا غرابة أن تكون الأمر كبيرة ومعتدة، ولكن رغباً عن ذلك يجب أن يكون الرجل ثرياً بدرجة كافية تمكنه من إعطاء زوجاته حقوقهن بالتساوى.

كان الطريق بين كوستى والدويم وود مدنى معلاً ومرهقاً، ولكن كان هناك أحد المعالم بين كوستى والدويم أطلقنا عليه أنا وزوجتى اسم (الشجرة الممتدة) وكان ارتفاعها خمسة أقدام. عند استكشافنا وفحصنا لهذه الشجرة وجدنا أن سبب مظهرها العجيب هو أنها كانت مكسوة بكتلة من نسيج العناكب.

كنت أزور بصفة متكررة مدينة الكرمك فى أعالي النيل الأزرق استطعت أن أقرن العمل مع الترفيه. لقد سمعت بوجود مستعمرة للقرد من نوع (كولوبس colobus) بالقرب من المدينة وتملكتى الرغبة لمشاهدتها. كان إصرارى فى محله إذ وجدتها جميلة الشكل، ويكسوها شعر أسود لامع ووجوها ولحاهما بيضاء ناصعة.

كنت أحياناً ألتقى صديقة بمدير المديرية أو نائبه أثناء جولتهما فى تلك المديرية المتراصة الأطراف. وهى إحدى المناسبات كدنا أنا ومدير المديرية بيل لوس (Bill Luce) أن نتصادم بسيارتينا أثناء قيادتى لسيارتى عبر الغابة القريبة من الكرمك. توقفت الميارتان محدثتين صوتاً كالرعد وسحباً كثيفة من الغبار. وتسبب هذا اللقاء المرتجل فى أن نمسك معاً فى ذلك المكان، ونقضى أمسية طيبة تجاذبنا فيها أطراف الحديث حول شئون المديرية، وكان اللقاء قيمة خاصة هى أننا بحكم وظيفتنا لم نكن نتقابل كثيراً. وهى مناسبة

أخرى بالكرمك، التقيت أيضاً بنائب مدير المديرية الذى كان فى زيارة تفتيشية للسجن. وقف السجناء فى صف، وعندما سألتهم إذا كانت لديهم أية شكاوى، تقدم ثلاثة منهم إلى الأمام، وكان تظلمهم أن الفتحة التى كانت موجودة فى حائط السجن قد أغلقت استمداً لزيارة نائب المدير، وأنهم بالتالى لن يستطيعوا الذهاب إلى بيوتهم فى الليل لقلة زوجاتهم!

كذلك أتاحت لى منطقة الكرمك الفرصة لتسلك بعض الجبال، ففى إحدى زيارتى سلكت طريقاً عبر جبال الأنقسنا يمر بمكان يسمى (صودا) بينما كان الطريق العادى يمر بمكان آخر يسمى (ويسكو) وتوجد فيه استراحة (أطلق الاسمين على المكانين بعض مهندسى المساحة الغابشين فى مطلع عشرينات القرن العشرين عندما عجزوا عن إيجاد اسمين محليين. كان مساعد مفتش المركز يرافقتنى فى تلك الرحلة ليتفقد الطريق قبل هطول الأمطار، وكان الطريق بالفضل وعراً وشاقاً، وكنت أنا وهو، لربما بنوع من الغباء، قد أرسلنا شاحناتنا أمامنا، ولذلك ركب معى فى سيارتى. هبطنا إلى أحد الوديان، وعندما وصلنا إلى قاع الوادى داهمنا سيل مفاجئ، وأصبحنا محاصرين تماماً، ولكن لحسن الحظ ظهرت لنا فجأة مجموعة من السودانيين المرحين وكانهم قد جاءوا من عالم مجهول، فاندفعوا إلى الماء وهم يضحكون ويمرحون وسحبونا إلى الخارج.

كان الطريق يمر بالقرب من جبل (بنى شاكو) الذى كنت أريد تسلقه. بدأت التسلق ومعى سائقى الشرطى يوسف قبل طلوع الفجر إلى أن وصلنا إلى منبسط صخري صغير على بعد ٥٠٠ قدم تحت القمة حيث وجدنا هناك مجموعة صغيرة من الأكواخ مستديرة الشكل. كان هناك معتقد خرافى بوجود أرواح فى قمة الجبل، ولكن لم تكن لدى أدنى فكرة عما إذا كان أى شخص قد تسلق إلى ما بعد هذه الأكواخ قبل ذلك. على أية حال عندما كنا نتسلق إلى

أسفل القمة تأكد لنا، أنا ويوسف، أننا كنا "مُراققين" من الجانبين برجال صامتين و(مسلحين)، وكنا بين الفينة والأخرى نسمع أصوات حجارة تتحرك، أو صوت رمح يلامس الصخور، ولذلك ظل يوسف بدوره يقوم بتحريك (ترياس) بندقيته.

عندما وصلنا إلى الأكواخ لم نر أحداً مع أننا كنا نسمع أصوات أسورة النساء تأتي إلينا من الداخل. ناديت باللغة العربية داعياً زعيم القبيلة ليظهر نفسه، وفوراً تقدم إلى الأمام واحد من (مراقبيننا) الذين كانوا يتابعوننا، فشرحت له ما كنت أريد. وبما أنه لم يبد اعتراضاً قويا فقد واصلنا التسلق إلى أعلى بينما بدأت الشمس تشع بضوئها على قمم الجبال.

كان الجزء الأسفل من التسلق أسهل مما كنت أتصور، وبعد برهة قصيرة وصلت إلى شق بين الصخور ملئاً بالشجيرات التي تسمح بقليل من الظل. ومن هناك تسلقت إلى أعلى حيث كنت أتساءل ما إذا كان وجودي سوف يتسبب في أية ردة فعل خرافية أخرى. لم أبق هناك لفترة طويلة حيث أن حرارة الشمس قد جعلت من الصعب الإمساك بالصخور، ولذلك عدنا أدرأجنا بأسرع ما يمكن.

عند عودتي إلى ود مدني كتبت إلى "جامبو" ويكفيلد (Jumbo Wakefield) مدير الخدمات وسألته عما إذا كان قد سبق تسلق جبل شاكو من قبل، فردّ بأنه يعتقد أنه قد سبق تسلق الجبل مع أنه لا يوجد في السجلات ما يشير إلى من قام بذلك. ربما يكون روبن هودجكن (Robin Hodgkin)؟

"جوك" بوديلي (Jock Bodilly)



9  
حكاية  
الراهبة

---

*Sudan Canterbury Tales*

## نص التلويسيرى

هنا تبدأ حكاية "وين كوير"  
تبدأ ويرج الدلو ينفت برداً زمهريراً أحال الكل إلى جليد  
هنا فى دوفر بدأت حكاية "وينى"  
صانعة براميل كانت، وتسمى كوير  
على كل شاطئ، تزمجر فيه الريح وتزار  
أبحرت كوير سادرة، فى مركبة شحن هولندية  
مصفورة بنوار البحر إن اتخمتها الطعام  
أبحرت إلى أرض السود واسمها السودان  
إنها بلاد غريبة ما عرفها إنسان



قبل الخرطوم الشوس أبناؤها  
شاهدت كوير البجاويين والجلابة  
أواه ليا نهول رفقتها!  
للراحة والاستجمام استراحة جمعية التبشير الكنسى مهداً لها كانت  
حيث قضت أفضل الأوقات  
ثم كان الموكب المهيبة دوت الأبواق فالملك مات  
كلهم تدافعوا مشاركين - رجال دولة ودين

إلا هي.. قلقة كانت من هيبتها

ما من كسوة لها سوى رداء فرو كبير

●●

ثم كانت كوستى حيث شاهدت من آن لأن، أشكالا من الحيوان

حين رحلت مبحرة في النيل الأبيض

صوب جوبا حيث كان راعي الأبرشية

بول جيبسون يا له من نفر ذائع الصيت

بصدق يبشر من العهد الجديد

واسعة كانت أبرشيته مليئة بالناس

لكنه ما فاتها أبداً ما همته مطر أو راعه رعد

بل على مصاه يمتكز

واضطأ القطيع

ليحنو حنوه

نموذجاً نبيلاً

●●

ثم إلى أرض الزاندى عبر لوى والأدغال

واللوى ذو الطنين إذا ما حرن، فما من سبيل سوى دفعه من الأحوال

آل "بارى" عملوا في صفة منارص للبنات

في أماكن من بعدها يصاب الرأس بالدور

الأكل عسير المضغ بقولاً كان أم لحمأ من الأبقار

وظاكهة كثيرة تحيل ذاك العسر لنا

ودالماً هناك مرض.. كثيره دوماً خطير

ملاريا وجذام وتقرحات خلفتها الحسبة والجذام

●●

في مدرسة الزاندي كانت تدرس التكميزات  
حين اطل براسه من النافذة ثعبان يتكوى  
فباغته باولو الصغير بطعنة بحريته  
باولو يا له من رجل طيب يحبه الجميع  
اللحم كان يجلبه الدينكا وكنا نضرمه  
غير انها لم تستسفه منذاك اليوم  
البقي اشكال والوان قارة كبير وقارة صغير  
والنمل الأبيض اكل ما سقط على الأرض من كسالتها

●●

جاء اسقف هناك اسمه جليستورب .. جاء  
يسيم جون باري كاهناً من اخير الرجال كان  
كان تقياً ورعاً وصالحاً  
لم يكن للأثم قاسياً  
لا ولم يكن في حديثه جارحاً  
بل كان في وعظه حكيماً ولطيفاً  
يعطف الناس بالمعروف إلى النميم  
كان قدوة يحتذى في عمله  
هناك ايضاً كانت هيلينا زوجته وكانت مارغريت وديورا  
كن قيمات الرفقة وكن يعتنين بالبنيات ايما اعتناء

●●

اسقف آخر اسمه اليسون قال عنه كثيرون  
إنه يجيد اللهجات القبلية، بمبلغ كبير تعلم  
وكان ورعاً في فكره وعمله

عالمًا وكاتبًا كان  
لطيفاً ومخلصاً كان  
وصابراً عند النواذب.

●●

قالت البنات إنها الأرواح جاعتنا من ثغرة السقف  
فسدت الثغرات بالعشب كبرهان لهن  
ثم جاء دونالد كوغان يحاضرنا  
برفقته كان كريس كوك ودافيد براون عن التبريس  
ثم جاء المسكر فأطلق الرصاص  
ثم اعتري نفوس الكل خوف وارتياح  
ارتحلت وين كوبر إلى العيش في بوغندا  
وما أحزنها أنها لم تعد تذهب إلى يامبيو.

●●

يامبيو ١٩٥٢ - ١٩٥٤

غادرت دوفر بتاريخ ١٨ يناير عام ١٩٥٢ في سفينة شحن هولندية، وبعد  
أسبوعين رسونا في ميناء بورتسودان. كنا أربع راهبات من جمعية الإرسالية  
الكنسية (Church Missionary Society)، كل منا متجهة إلى منطقة مختلفة،  
مما يعنى أننا فيما بعد لن نشاهد بعضنا البعض إلا نادراً في هذا البلد  
المتراعى الأطراف.

استقبلتنا بورتسودان بمقدمة مدهشة: حر شديد، رجال الهندوة وهم  
يتزاحمون في حظيرة العفش، وجماعات من قبائل الجنوب، وأولاد العرب  
الذين كانوا يتحركون بتؤدة بجلاليهم وعمائمهم. بعد رحلة يوم بالقطار وصلنا

إلى الخرطوم، ولكن وجدنا أنه قد فاتنا القطار والباخرة المتجهين إلى جنوب السودان، وكان علينا أن نتنظر القطار التالي بعد أسبوعين. لذلك أقمنا مع المرضعات في المجمع السكني التابع لمستشفى جمعية الإرسالية الكسبية بأم درمان.

عادت بنا أفكارنا فجأة إلى المملكة المتحدة بعد أن تلقينا النبأ الحزين بوفاة الملك جورج السادس، حيث دعينا إلى الصلاة التذكارية التي أقيمت له في الخرطوم، ولكن واجهتنا مشكلة ماذا نلبس. ارتدت المرضعات زيهن الخاص، أما أنا فقد وضروا لي معطفاً رمادياً من الفراء، وكنت شاكراً ومقدرة لذلك. في السابعة صباحاً كانت تهب رياح باردة جداً من جهة الصحراء، ولكن أقهم الاحتفال في مكان جميل، وحضره جمع غفير من السودانيين، كان هناك الحاكم العام، وموظفو الدولة (أغلبهم بريطانيون في تلك الأيام)، وزعماء المسلمين والمسيحيين، والتجار. يبدو أن الخرطوم بأسرها كانت هناك في ذلك الصباح لتعبي في صمت ذكرى الملك الذي شارك في الحكم الثنائي آنذاك.

لم يعد الجو بارداً عند منتصف النهار، ولكني قد استسلمت لارتفاع في حرارتي بلغ ١١٨ درجة، فأصبحت بحاجة إلى بضعة أيام لاسترداد صحتي، ولذلك فاتني القطار التالي أيضاً، وكان علي أن أنتظر أسبوعين آخرين. أعتقد أنه قد استبد به القلق والإحساس بالفراغ، ولذلك أتيت لي الفرصة للتدريس في مدرسة الإرسالية للبنات بأم درمان، والبدء في تعلم اللغة العربية. لحقت بالقطار التالي المتجه إلى كوستي، ولكن هذه المرة لوحدي، ومن هناك بدأت رحلتي على الباخرة النيلية. كانت المناظر جميلة من على ظهر الباخرة، مع تلك الصنادل المربوطة بها والمحملة بالعفش، ومن فوقه تجلس مجموعة من الناس.

إنني سأظل دوماً شاكراً للظروف التي أتاحت لي الفرصة للقيام برحلة عشرة أيام طويلة على النيل من كوستي إلى جوبا. كم كانت مقعمة مدهشة لنا

أن نرى تلك المناظر الطبيعية الخلابة، ومختلف القبائل، وتلك القطعان الضخمة من الفيلة، والظباء وأفراس النهر، إضافة إلى تلك الأسراب من المخلوقات الصغيرة. ثم تلك الأيام الثلاثة والباخرة تشق طريقها في منطقة (السدود)<sup>(١)</sup> والتي كانت بالنسبة لى تجربة مريرة جعلتني أتمسب عرقاً.

عندما وصلنا إلى جوبا استقبلني رئيس الأساقفة وسكرتير الجمعية الإرسالية الكنسية بول جيبسون (Paul Gibson) وقال إنني محظوظة لأنني سوف أأأدر في اليوم التالي إلى يامبيو على مسافة ٢٥٠ ميلاً في اتجاه الغرب بمرية مفتش المركز. تخيلت أن تكون هذه المرية من نوع (رولز رويس) على الأقل، ولكن وجدت نفسي في اليوم التالي جالسة بجانب السائق على شاحنة ثقيلة حمولة ٢ طن، وحيث أن السائق لم يكن يتكلم الإنجليزية، فقد كانت السفرية صامتة، بصرف النظر عن ذلك الجمهور الفضولي الذي كان يتعلق حولنا أينما توقفنا. قضيت ليلة ممتعة في الطريق بمستشفى (لوى) الذي استقرت فيه صديقتى دوريس (Doris) قبلى بأسبوعين لأنها لم تتعرض إلى أى تأخير في الخرطوم. وبمفادرتنا لوى بقى أمامى يوم واحد لأستكمل رحلة الأسابيع الثمانية.

بينما كنا نواصل سفرنا متوغلين في اتجاه الغرب، كانت أشجار الغابة تزداد كثافة، وكنا نرتج صموداً وهبوطاً على مجرى ذلك الطريق الصلب الذي يعبر أميالاً من الأدغال. ثم بدأت أشجار المانجو وزيت النخيل تحيط بجانبى الطريق المؤدى إلى الإرسالية، محطتى النهائية. عندما وصلت إلى ممبكنى الجديد في يامبيو، وجدت هناك مارجريت بولى (Margaret Pooley) وديبولا وليسيمبلى (Debola Wallisimbli) اللتين جاعتا لاستقبالى. كانت مارجريت قد وصلت في

---

(١) سلسلة من الجزر الطافية التي تغطى مساحة كبيرة من النيل الأبيض، وتحتوى على مختلف النباتات الطافية مثل نبات البردى والحشائش... إلخ.

العام السابق، أما ديبولا، وهى من يوغندا، فقد جاءت فى الأيام الأولى لمدرسة البنات التى بدأتها تورا إينلى (Nora Ainley) قبل عشرين عاماً أو أكثر، وكانت هى الأخرى قد جاءت إلى يامبيو من يوغندا. كانت ديبولا معروفة فى المنطقة حيث أنها كانت تدبر روضة الأطفال، ولكنها فى الحالات الطارئة كانت تستدعى للقيام بعمل القابلة محلياً، وأثناء غيابها يكون للأطفال متسع من الوقت للعب.

رافقت مارجريت لتقوم بتقديمى إلى جون وهيلينا بارى (John and Helena Parry) كان جون يتولى الإشراف على مدارس الكنيسة الخارجية بالمنطقة، كما كان هو القس المسئول عن المنطقة حسب التقليد الذى كان متبعاً آنذاك. لقد فرض علينا جون قانوناً يجب علينا التقيد به، وهو الالتزام بالحضور إلى "النادى الليلى" مساء كل سبت. كان ذلك يعنى عشاء خاصاً لنا الأربعة، ثم يلى ذلك لعب (الهارت) وهو إحدى لعبات "الكتشينة" (لها أسماء أخرى أيضاً). كان جون يقول إن هذه اللعبة تطرد غل الأسبوع وتجعلنا نستعد لاستقبال يوم الأحد، وكان ذلك بالتاكيد جزءاً من حكمته التى كانت تساعدنا على الاحتفاظ بنوع من الإحساس بالتوازن.

فى وقت متأخر من ذلك اليوم الأول، جاءت كل المدرسة بمعلمتيها الشابتين مع باقة من الأطفال الصغار المحبوبين غير المرتبين الذين كانوا يرتدون أوراق الشجر وبعض الأسماك البالية. وكان كل ما استطعت أن أقوله لهم هو كلمة "سينى" التى تقال للتحية والترحيب، حيث أهدتنى مارجريت كتاباً لقواعد لغة الزاندى، وبذلك بدأت أولى محاولتى لتعلم (البازاندى).

كان يجب عمل ستائر جديدة لمنزلنا الذى كان مبنياً من الطوب ومسقوفاً بالزنك، ولذلك كان حاراً جداً. وفى ذلك المساء ذهبت مارجريت إلى المدرسة وتركتنى لأواصل العمل فى خياطة الستائر، ولأرتاح قليلاً من (قواعد جور)،

وقالت لى: إذا أردت ماكينة خياطة ما عليك إلا أن تقولى فقط (موى نا مكينا). فى أثناء فترة العصر قلت هذه العبارة لثلاث فتيات مختلفات، ولكن لم تصلنى أية ماكينة خياطة. وعندما عادت مارجريت من مشوار المدرسة كان يبدو عليها بعض الضيق فصاحت قائلة: "هذه هى دراجتى"، ثم رأينا جميعاً أنه توجد ثلاث دراجات فى الخارج، واتضح أن كلمة "ماكينا" يمكن أن تكون دراجة أو ماكينة خياطة. لا شك أننا كنا سنعانى كثيراً لولا معرفتنا للغة البازاندى، ولكننا كنا نقاسم معاً محاولاتنا بكل ما كان فيها من محن وبلايا.

كانت إرساليتنا تضم مدرسة داخلية للبنات، وكان ذلك يعتبر توجهاً جديداً حيث أن غالبية المدارس كانت نهائية ولبنين أساساً، مع قليل من البنات النهاريات اللاتى لم يتجاوز عددهن أصابع اليد. ولهذا السبب كانت البنات يأتين لمدرسة يامبيو للبنات من أماكن تبعد ٨٠ ميلاً. كان الآباء الذين يرسلون بناتهم إلى المدرسة هم فى العادة من المراكز المسيحية، أو من أولئك الذين كانوا يسكنون بعيداً، ولذلك كانت البنات يقمن بالمدرسة من شهر مارس إلى ديسمبر نظراً لبعد قراهن.

كان بالمدرسة ما يقرب من مائة بنت، وعادة لم تكن أعمارهن معروفة، وكانت أحجامهن مختلفة. كان كل من عنابر الداخلية العشرة يضم اثنتى عشرة بنتاً، وتلقب أكبرهن سناً بـ "أم المنير"، وهى تشرف على الطبخ، وكان الجميع يشاركن فى تحريك "الباكيندى" وهى عصيدة تصنع من الذرة المحلية. كان الطمام متواظراً بكثرة مع وجود اليام، والفول السوداني، والذرة كغذاء رئيسى، بالإضافة إلى كثرة الفواكه مثل الأناناس، والمانجو، والباباي. كان لكل عنبر قطعة أرض صغيرة لزراعة "الخاص" من الخضروات مثل الطماطم، ولكن بما أن الزاندى يحبون اللحم، فكان الدينكا يأتون إليهم بالأبقار التى كانت تذبح فور وصولها. كنا لحسن الحظ نملك مقرفة لحم، ذلك أن لحم البقر، إذا لم

يفرم، يكون عسير المضغ، خاصة بعد ما تكون الأبقار قد سارت تلك المسافة الطويلة من بلاد الدينكا التي تقدر بأكثر من ١٠٠ ميل في اتجاه الشمال. لم تكن يامبيو نفسها منطقة لتربية الأبقار، بسبب وجود ذبابة التسي تسي بكثرة. لذلك عندما يكون اللحم متوافراً، ينتشر الخبر بسرعة حول البلدة، ويريد كل شخص أن يحصل منه على نصيبه. غير أن اللحم كان يجب أن يطبخ ويؤكل في نفس اليوم، ذلك أنه لم تكن لدينا ثلاجة في ذلك الوقت. حصل بعض الناس فيما بعد على ثلاجات تعمل بالكروسين، ولكنها كانت غير مضمونة، وغالباً ما تتوقف أو يخرج منها دخان مزعج. وطبعاً لم يكن هناك غاز أو كهرباء، وإنما مصابيح زيتية وحطب للطبخ.

كانت الخضروات تنمو بصورة لا تصدق رغم حرارة الجو في يامبيو المشبعة بالبخار، ولكن كانت الجراثيم الناقلة للأمراض تنتشر بكثرة. حاول مفتش مركز سابق مكافحة مرض النوم عن طريق إعادة توطين الزاندي على شوارع مخططة في الغابة حتى يمكن تغطية أكبر عدد من الناس بحقنهم بلقاح مرض النوم بصورة منتظمة.

عند بداية الفترة الدراسية من كل عام، كان يتم فحص البلهارسيا لجميع بنات المدرسة، وكان ثلثهن على الأقل مصاباً بالمرض، ويجب علاجهن بحقنة يومية لمدة ستة عشر يوماً، وأثناء هذه الفترة يشدد عليهن المرض، وحدث في الواقع أن إحدى البنات المصغيرات قد توفيت أثناء فترة العلاج. كانت الملاريا أيضاً وباء مستوطناً، بل وكانت بعض البنات مصابات بالجذام، ولكن للمخربة الشديدة كان الوياء المرعب لنا بحق هو "الحصبة" التي كانت تصيب أربعين إلى خمسين من البنات، وكان باورو وسوزانا (Pauro and Susana) يتولينان تمريرهن. كان باورو رجلاً قصيراً مقوس الساقين، وله ابتسامة مدهشة، ومتزوجاً من سوزانا مشرفة المدرسة، ولذلك كانا يسكنان داخل المدرسة

ويعتبران كالأب والأم لأسرة المدرسة. لقد بذل الاثنان كل ما فى وسعهما لفصل حالات الحصبة من غير المصابات بها. فى ذلك الوقت كانت توجد شفخانة فى يامبيو، بالإضافة إلى مستشفى حكومى صغير فى مدينة ليرانجو على بعد سبعة عشر ميلاً. أن يوصف الكثيرون من أبناء الزاندى بالخمول والكسل ليس أمراً غريباً، ولكن كان يتمين عليهم أن يكونوا أكثر صلابة لمقاومة تلك الأمراض العديدة. لقد وجدنا كل المكان يتسم بالبطء الشديد لدرجة تثير السخط والفضب، إلى أن وجدنا أنفسنا نبطئ أيضاً فى حركتنا وأعمالنا بصورة تلقائية.

كانت توجد بمدرسة يامبهو روضة أطفال تتكون من أربعة صفوف لأطفال المنطقة. فى ذلك الوقت، مطلع الخمسينات، كان القليل من الأطفال يبقون بالمدرسة حتى الصف الرابع، وهؤلاء كانوا يتعلمون اللغة الإنجليزية بالقدر الكافى الذى يمكنهم من مواصلة تعليمهم بمدرسة (ياى) الوسطى الجديدة. عندما يأتى أحد الآباء طالباً أخذ ابنته لأنه قد تم سداد "مال الرمح" لزواجها، ما كانت الدموع ولا الصراخ يجديان، وما كنا نعرف كم من البنات يمكن أن يمدن إلى المدرسة فى بداية العام الدراسى الجديد، ولكن بالرغم من كل ذلك أخذ تعليم البنات ينتشر تدريجياً فى بلاد الزاندى.

كانت مارجرىت تتولى إدارة المدرسة إلى جانب تدريس الصف الرابع، بينما أسند إلى تدريب مجموعة من البنات الأكبر سناً، الثلاثى لم يحرزن درجة القبول بمدرسة ياي الوسطى الجديدة، ليصبحن معلمات تحت التدريب، ولكنى كنت أقضى معظم الوقت مع البنات الأصغر سناً. وفى صباح أحد الأيام، وبينما كنت فى روضة الأطفال إذا بثعبان طويل أسود يطل من خلال النافذة، فتهضت إحدى الصغيرات مسرعة لإحضار باورو، بينما تسلكت الأخريات بهدوء من أمامى إلى الباب. فجأة كانت هناك جلبة صاخبة عند النافذة، فإذا

بباورو قد سدد طعنة بالرمح للثعبان! كانت البنات وقد تعودن على رؤية الثعابين في المدرسة، يحملن عصيهن استعداداً لقتل أى ثعبان صغير على المر، ولكن باورو كفانا شر الثعبان السداسى (أى طوله ٦ أقدام).

كان باورو فى أيام الأحد يخرج بدراجته إلى مركز التبشير، أو لريما على بعد بضعة أميال إلى المراكز الخارجية لأبرشية يامبيو. كانت الكنائس النامية تعتمد على شخصيات قوية الإيمان مثل باورو وسوزانا لتصل إلى مناطق الزاندى الوثنية. وفى أثناء الأسبوع كان باورو يتولى رعاية مجموعة من العمال لإصلاح أسقف منازل الزاندى التى كثيراً ما كانت تتزلق عن مكانها، ولذلك أصبحت صيانتها صداعاً مستمراً. كان باورو فخوراً بأنه الذى كان أول زانداوى يلتحق بمدرسة رمبيك الثانوية، وكذلك بابنته التى أصبحت فيما بعد إحدى تلميذاتى المدرسيات للالتحاق بمهنة التدريس.

كانت الخنازير البرية، تلك المخلوقات المخيفة، من الآفات التى تقوم باقتلاع نبات الفول السودانى من جنوره، إضافة إلى أن الغابة كانت أيضاً مرتعاً للفهود، وقد استطاع أحدها فى إحدى الأمسيات أن يجد طريقه إلى حظيرة الدجاج الخاصة بدييولا، فأغلقت عليه الباب. وفى صباح اليوم التالى جاء مفتش المركز وأطلق عليه النار، ولكن لميس قبل أن يلتهم جميع دجاج دييولا. كانت هناك أفيال أيضاً، وعندما قام أحد حراس الصيد بقتل واحد منها بالقرب منا، خرج تلاميذ المدرسة صفاً ثلثو الآخر لرؤيته والقفز على ظهره. وفى اليوم التالى لم يبق من الفيل غير العظام، ذلك أن لحم الفيل يشكل وليمة من نوع خاص بالنسبة للأهالى. وبهذه المناسبة اعتقد أحد الصيادين من الأهالى أننا ربما نرغب فى لحم القورتنى (فرس النهر) الذى قام باصطياده فى نهر (يوزى) المجاور، ولكن عندما جاء إلى المدرسة بشاحنة ضخمة يغطيها الذباب، وتبعث منها رائحة كريهة، لم يجد أى نوع من الترحيب.

كانت المنطقة تجمع أيضا بمخلوقات أخرى صغيرة؛ فكانت هناك أعداد كبيرة من كثران النمل الأبيض شبيهة بالأبراج الطويلة، وكان يعتبر من الآفات أيضاً ويكفى أن أى جلباب يترك على الأرض فى الليل، يتحول فى الصباح إلى خرة ممزقة، كذلك كانت أى كتب توضع أو تغزن بالقرب من الجدار تصبح بسرعة مليئة بالثقوب. لذلك كان على باورو مراقبة أعمدة سقوف العنابر التى يمكن أن تتجوف من الداخل ثم تنهار إذا تعرضت لهجوم النمل الأبيض. كانت البنات عندما يطير النمل، يقضين وقتاً ممتماً فى ملاحقته وقتله وتجميعه فى الجرادل إذ كان يعتبر طعاماً جيداً وغنياً، ولكن عندما قدمت لى ديبولا طلبة من الحلوى مزيناً بالنمل الأبيض ليهبوا كالزبيب الخالى من البذرة، أعترة باننى لم أستسفه.

قام ببناء كنيسة سانت جورج بيامبيو القس رايبلى Canon Riley م استراليا، وأحد المبشرين التاهمين لجمعية التبشير الكنسية الذى تسلم العمل م القس جور (Gore) والسيدة زوجته، وهما من أوائل الذين عملوا بالتبشير فى منطقة بامبيو. قام القس رايبلى، بمساعدة كتيب عن المعمار لا تتجاوز قيمته من بنسات، بتشيد كنيسة ضخمة ليخاخر بها إحدى كنائس الأبرشية الإنجليز؛ الفيكترية بعد أن قام بصنع الطوب محلياً. كان برج الكنيسة يعنوى على دعامتى قضيب سكة حديد استعملنا للقرع عليهما فى أوقات الكنيسة بعد وجود جرس. وكان من الوسائل الأكثر فعالية فى إرسال رسالة ما للناس، ه طبل الزاندى الضخم الموجود فى خارج الكنيسة، وهو عبارة عن جذع شجر مجوف يسمع دويه على بعد عشرة أميال فى الغابة. كانت الكنيسة مسقوفة بحشائش الفيل المحلية الطويلة ولكن فى غير انتظام، لذلك كان المرشحو للتمديد الدينى (confirmation) يقومون فى العادة بترميم السقف عنده يحضرون من جميع أنحاء المنطقة لحضور هذه المناسبة التى كانت تقام سنوياً.

فى ذلك الوقت كان الأسقف اليمسون (Bishop Allison) هو المطران المساعد فى السودان، وكان يقوم برحلة سنوية إلى جميع مناطق الجنوب لإجراء التعميد الجماهيرى الذى يقام سنوياً كما ذكر آنفاً. كان الجميع يتطلعون إلى حضوره يشفق لأنه كان يستطيع أن (يدررش) مع كل قبيلة بلغتها المحلية، كما أنه كان يتذكر قدامى تلاميذه بمدرسة (لوكا) ويعرفهم بالاسم مما كان له أظيب الأثر فى نفوسهم.

فى عام ١٩٥٢ جاء الأسقف جيلمستورب (Gelsthorpe) مطران السودان، لحضور مناسبة رسامة (Ordination) القس جون بارى، وصادف ذلك وجود اثنين من الرواد الأوئل هما رئيس الأساقفة شو (Shaw) والقس إويل (Ewell) اللذين كانا أيضاً فى زيارة للمنطقة فى ذلك الوقت، مما أتاح فرصة طيبة لاجترار ذكريات أيام الكنيسة القديمة فى يامبيو، والتمتع بما طرا عليها الآن من نمو مثير منذ ذلك الوقت.

بعد ذلك بوقت قصير غادرنا جون وهيلينا بارى لتسلم مركز تدريب معلمى اللغة المامية فى ياي، وخلف جون بارى فى الإشراف على المدارس القروية جون بلمترى (John Plumtree). ثم جاء ديفيد براون (David Brown) الذى أصبح فيما بعد أسقف جيلدفورد، فى أول جولة له مع جمعية التبشير الكنسية استعداداً للتدريب اللاهوتى، حيث كنا فى مطلع الخمسينات نتمتع بصلاتنا مع المسئولين فى الحكومة البريطانية. كان هناك بالإضافة إلى مفتش المركز ضباط زراعيون يتولى بعضهم مهمة تشجيع المواطنين على زراعة القطن، وفى عام ١٩٥١ تم بناء محالج القطن فى مدينة أنزارا على بعد خمسة عشر ميلا، لإنتاج نوعية جيدة من القطن، بالإضافة إلى الصابون كمنتج مشتق من بذرة القطن، بينما كانت المخلفات تستخدم كوقود لتوليد الطاقة.

كان قصب السكر يزرع بكميات وافرة، ويتم تكريره فى (ساكورى) و(تيتورا) على بعد أربعة أميال فقط من يامبيو. وكانت هناك مدرسة للتدريب

الزراعى يديرها معلمون حكوميون من بريطانيا، وكذلك بداية إنشاء محطة الأبحاث التى كان لبيير دى شليب (Pierre Schlippe) دور بارز فى إنشائها، وكان قد قضى بضعة سنوات فى الكونغو. اشتهرت هذه المحطة بمختلف المشاريع فى بداية الستينات، حيث أجريت تجارب فى تصدير الأناس، الذى كان يزرع بكميات كبيرة جداً، إلى الخرطوم. وكان يشحن باللوارى فى أقفاص خاصة إلى جوبا، ومن هناك إلى الخرطوم عن طريق الجو. كما كانت هناك أيضاً أفكار أخرى بشأن استقلال الإمكانات الهائلة للكثير من الأشياء التى يمكن إنتاجها فى يامبىو (الفاكهة، والسكر، وزيت الطعام) وتصديرها إلى أسواق العالم، ولكن من المحزن أن الحرب فى الجنوب لم تترك مجالاً لذلك.

بعد سنة واحدة تقريباً تأملت طالباتى اللأى كن تحت التدريب كمعلمات، وبذلك توفر لنا عدد ست معلمات جديدات. كان ناظر مدرسة قرية (دياوو) التى تبعد حوالى أربعين ميلاً، قد قام ببناء عنبر للطالبات يسع ثلاثين أو أربعين طالبة، ولذلك طلب إمداده بمعلمتين. كانت هذه المدرسة الجديدة (الابنة) مشروعاً مثيراً، وقد حظيت منذ البداية بدعم وحماس الزعيم المحلى الذى قمنا بزيارته مع زوجاته المدييدات.

بعد شهر أو أكثر، وردت أخبار بأن جميع الطالبات قد هربن من المدرسة مدعيات أن بعض "الأرواح" أخذت تقذف العنبر الجديد بالحجارة فى الليل. وعندما ذهبت للتحرى فى الموضوع، فوجئت بأن عدداً قليلاً من الطالبات قد بقى فى المدرسة ولكن كن يقضين الليل فى سكن المعلمة الصغير. قضيت تلك الليلة مع الطالبات فى عنبرهن، وفى الحقيقة كانت هناك حجارة تأتى وتتبعثر داخل العنبر من الفراغ تحت السقف، فاقترحت على الناظر أن يعمل على إغلاق هذا الفراغ بالقش، ولم تعد هناك مشاكل بعد ذلك.

أصبحنا الآن فى عام ١٩٥٥، وقد غادر الإداريون البريطانيون البلاد. وصل إلى يامبىو أول مفتش مركز شمالي، وحاول بشدة أن يكون مقبولا لدى

للمواطنين ويكسب احترامهم، ولكن الزاندى لم يكونوا سعداء بتميين (شمالي) فى المنصب، بل كان هناك الكثير من التنمر. كذلك حدث تغيير آخر وهو أن بعض التجار العرب فتحوا متاجر فى البلدة، بينما كان التجار الإغريق يفادرون، وتم أيضاً بناء مسجد صغير.

فى أواخر عام ١٩٥٥ ذهبت مع مارجريت ومطالبات الصف الرابع إلى دياوو لحضور "اليوم المفتوح"، وجاء زعيم القرية والأهالى لمشاهدة البرنامج الذى أعدته الطالبات، وكان يوماً سعيداً. عدنا بعد ذلك إلى يامبيو بالشاحنة، وفى صباح اليوم التالى جاء إلينا جون بلمترى ليخبرنا بالمجزرة التى حدثت فى نفس الطريق الذى جئنا به فى الليل. لقد قتل العديد من الشماليين بمن فيهم بعض الإداريين، وقد تشقت من هربوا منهم على طول الطريق الذى سلكناه من دياوو قبل ساعات من الحادث.

كنا فى ذلك اليوم نتوقع وصول الأسقف دونالد كوجان (Donald Cogan) وكريستوفر كوك (Christopher Cook) سكرتير البعثة، مع أنه كان من النادر أن يأتى إلينا زوار لأننا كنا فى "نهاية الخط". وصل الضيفان فى وقت متأخر بعد رحلة محفوفة بالمخاطر، وكان ضمن أغراض الزيارة أن يقدم الأسقف كوجان محاضرة فى كلية الأسقف جواين (Gwynne) بمدينة مندرى التى أصبح ديفيد براون، أحد تلاميذ الأسقف كوجان، عميداً لها، ولكنهما رأيا أنه من الأنسب أن يعودا إلى جويما فى اليوم التالى بأسرع ما يمكن.

كان صوت إطلاق الرصاص عند المركز مثيراً للأعصاب، مما جعل الطالبات اللاتى يسكن فى الجوار يركضن إلى أهليهن، أما من بقين فقد كن تحت رعاية باورو وسوزانا اللذان أخذاهن ودخلا بهن القابة، وأخيراً ذهبت أنا مع مارجريت إلى (دنقو) بالكونغو، ومن هناك إلى ياي، ثم خرجت فيما بعد إلى الإجازة، بينما رجعت مارجريت إلى يامبيو لإعادة الأمور إلى نصابها

واستئناف الدراسة مرة أخرى. أما جون بلمتري فقد قضى فترة في سجن يامبيو، ولكنه لم يكن يعرف أى سبب لذلك. صارت الحياة كالأحقة رتيبة، خاصة بعد أن أصبح من الصعب تلقى أخبار دقيقة. استطاعت مارجريت أن تشرع في إنعاش مدرسة البنات مرة أخرى مع كبار طالبات مدرسة (مونو)، وبعض الطالبات من لوى بصحبة اثنتين من معلماتهن. وفي ديايوو تزوجت ابنة باورو من ابن زعيم القرية، ولكن لحسرة باورو وسوزان، فقد اختفيا سوياً فيما بعد وانضما إلى الثوار في الغابة.

عندما عدت من الإجازة نقلت مارجريت إلى مريدي، وجاءتا ماري شابمان (Mary Chapman) في جولة وحلت محلها. بعد ذلك تقرر عدم تجديد تصاريح العمل تدريجياً لزملائنا الأجانب، ويعطى عام ١٩٦٢ أصبحت الراهبة الوحيدة في يامبيو. كانت إجازتي شهرين في العام، وكنت في العادة آخذها في يناير وفبراير، غير أن ضغط العمل ظل مستمراً، خاصة أنه كان علينا أن ننتقد بالقانون الجديد بجمال يوم الجمعة عطلة رسمية على أن تستمر الدراسة في أيام الأحد، ولم يكن وقع هذا القانون طيباً على الناس.

انتشرت الشائعات، كان مفتش المركز الشمالى يشدد الرقابة، ولكن عندما خلفه المفتش الجديد جاء إلى المدرسة بعربة مليئة بالجنود، مما أدى إلى دخول الطالبات إلى الغابة، فساءلني: "لماذا فعلن ذلك؟" وعندما شرحت له أنهن خائفات من الجنود، علق قائلاً: "أنتم ليس لديكم مشكلة، عندكم باورو". مما يعنى اعتراضاً صريحاً بالتقدير الذى كان يكنه المسئولون الشماليون لباورو.

في ذلك الوقت كان الأسقف يريماليا (Yeremaya) يمكن في يامبيو، ويتمتع أيضاً باحترام المسئولين الشماليين، واعتاد أن يدعوهم إلى الحفل الذى كان يقيمه سنوياً بمناسبة عيد الكريسماس، حيث يقف مع زوجته عند مدخل منزلهما للترحيب بالضيوف، وكان ذلك شيئاً جديداً بالنسبة للمسلمين الذين

لم يمتادوا اصطحاب زوجاتهم معهم، ولكن روحهما الودية كانت محل التقدير. كان العديد من الأهالي خائفين ومنزعجين، ولكن الأسقف يريمايا كان يرى أن هذا الشاهد المسيحي مهم جداً.

في مطلع عام ١٩٦٤ ذهبت لقضاء الإجازة في يوغندا، وأثناء وجودي هناك وردت الأخبار في شهر فبراير بطرد جميع من تبقى من الأجانب، ولذلك لم أستطع العودة، ثم أغلقت المدرسة بعد ذلك. والآن بعد أكثر من ثلاثين عاماً لبثت الفابرة مباني المدرسة، وفتحت مدرسة جديدة يتولى إدارتها بعض المعلمين من تلاميذي.

وين كوبر (Win Cooper)



10

---

حكاية

مفتش مركز النوير

---

*Sudan Canterbury Tales*

فى أكتوبر من عام ١٩٥١ كنت فى (فنجاك) بمديرية أعالى النيل فى السودان. وكان موسم الأمطار الذى بدأ فى أواخر أبريل يقترب من نهايته، وبدأت الطرق تجف فيما عدا بعض الجسور التى لم تزل مليئة بالمياه بحيث يتعذر استمالتها بواسطة المريات. كان ارتفاع الحشائش يصل إلى حوالى ستة أقدام، ولكنها بدأت تميل إلى الاصفرار، وبدأت سنابل الذرة فى النضوج ليبدأ الحصاد بعد حين قصير. فى إحدى الأمسيات، بينما كنت جالساً فى الفرنجة أقرأ فى ضوء مصباح الجاز، جاعنى (عُثْ طُطُوق) رئيس الخدامين الثلاثة الذين كانوا يعملون لدى، وأبلغنى بأن (كولانق بيلى) أمباشى شرطة المركز يريد مقابلتى.

دخل (كولانق)، وهو أحد أبناء النوير وظل يعمل فى خدمة الشرطة حوالى عشرين عاماً. كان قوى البنية، ذكياً، وصريحاً، ومتمرساً، وأميناً، ويتمتع بكامل الصفات الحميدة المرجوة منه. قال لى إنه قد وصلت أخبار إلى فنجاك مفادها أن قتالاً قد نشب بين هرعين من قبيلة النوير، وذلك فى اتجاه الشمال الغربى على بعد حوالى خمسة وثلاثين ميلاً داخل جزيرة الزراف، وأن القتال قد دخل الآن فى يومه الثانى، ويشارك فيه عدد كبير من الرجال، وسيضم إليهم المزيد ما لم تتخذ الإجراءات اللازمة لوقفه. وأضاف أنه يتعين على أن أغادر مع طلوع الشمس، وأن آخذ معى أكبر عدد يمكن الاستغناء عنه من رجال الشرطة، على أن تسبقنى رسالة إلى هناك بأننى فى الطريق إليهم. كما يجب توجيه رسالة أخرى إلى زعماء القبائل الفرعية المجاورة، الذين يجب أن يكونوا من

المحايدين الذين يتمتعون باحترام الجميع، وأطلب منهم الوصول إلى موقع القتال في أسرع وقت ممكن، لأجل المساعدة في وقف القتال، ومن ثم الاستماع إلى طرفي النزاع ليقرروا على من يقع اللوم، مع إصدار العقوبات المناسبة.

وافقت على جميع ما قاله كولانق، وبناء على ذلك كان يجب أن ينطلق العدائون بهذه الأوامر في نفس تلك الليلة، وأن أغادر أنا في الضجر ومعى خدمي والسائس، والحصان، وجميع الاحتياجات اللازمة لقضاء حوالي عشرة أيام في ظل إحدى أشجار الشوك. لا أذكر الآن هل كان على كولانق أن يأتي معي أم يتولى المسؤولية في فتجالك؟ هل كان يتعين عليّ أن أخذ العدد الكافي من الشرطة؟ لم أستطع ذلك، لأن مجموع رجال الشرطة الموجودين في فتجالك في تلك الليلة كان حوالي ستة عشر فرداً، وأنه يجب إبقاء نصف هذا العدد بالبلدة، ومعنى ذلك أن ثمانية منهم بالكاد ربما يستطيعون التعامل مع مثل هذا القتال الكبير. كان الحل الذي توصلنا إليه هو تعزيز الثمانية باختيار ثمانية من المساجين، وتحويلهم في ليلة واحدة إلى شرطة قبلية، ولكنهم بالطبع لم يكونوا مثل شرطة المركز، لأنهم بدلاً عن الزى الكاكي والبنادق، كانوا يعتقدون على أكتافهم قطعة قماش خضراء، ويحملون رماحاً، ولكنهم مع ذلك سوف يساعدون في إنجاح المهمة، وهكذا كان الأمر. مع بزوغ شمس اليوم التالي، كنت وفريقي قد تحركنا في اتجاه الشمال الغربي عبر غابات السنط إلى ما وراء نهر الزراف يتقدمنا مرشد الطريق، وبعده أنا على حصاني، ثم رجال الشرطة الحقيقيون، يليهم الثمانية غير الحقيقيين، ثم خدمي الثلاثة، فالسائس، ثم الحمالون المكلفون بحمل عدة السفر التي كانت تشمل الطعام، والقدر، والبطانيات، والصبرير السفري، والطاولة القابلة للطي، والكرسي، والمصباح، والناموسية، وبعض الملفات والسجلات، وكتاب أو كتابين، وبعض أدوات الكتابة، والبندقية. كل ذلك؟ هذا النوع من القتال يجب عدم التعامل معه على عجل إذا ما أريد للقرارات التي يتم التوصل إليها أن تحظى بالقبول.

وتؤدي إلى إعادة السلام. لذلك كانت الحكمة تقتضى أن نكون فى وضع مريح تحت أى شجرة من أشجار الشوك التى سنتخذها مقراً لنا خلال الأيام التالية. وأنا أكتب الآن، أجد أن بعض البلاد التى عبرناها فى ذلك اليوم لا زالت فى عين الذاكرة. كانت هناك غابات أشجار السنط بلحاءها الأحمر وأشواكها المستقيمة البيضاء الطويلة، ومن وقت لآخر كانت تظهر أشجار الفايكس ذات الخضرة الدائمة بضخامة أشجار البلوط وبثمر التوت الذى تحبه طيور الحمام الخضراء. كان الطريق يتمرج أمامنا وسط الحشائش الطويلة إلى أن وصلنا إلى مجموعة المباني الصغيرة التالية، وحظائر للماشية مخروطية الشكل، ومبينة من القش بارتفاع ثلاثين قدماً، وبالقرب منها اثنتان أو ثلاث من القطاطى (الأكواخ) أصغر حجماً يسكن فيها أصحاب الماشية. كان القرع ينمو فوق السطوح، وصفار المجول مربوطة إلى أوتاد بالقرب من الحظيرة. كنا كلما سرنا مسافة أبعد، كلما قل عدد الرجال حول القطاطى أو فى حقول الذرة المجاورة، وبعد الظهيرة لم يكن هناك أحد منهم، فقد ذهبوا جميعاً إلى القتال، ولم يبق فى القرية غير النساء والأطفال الذين حصلنا منهم على أخبار تفيد بأن جولة أخرى من القتال قد دارت فى ذلك اليوم، وأن الزعماء المحايدين قد بدؤوا فى الوصول إلى المكان.

فى صباح اليوم التالى وصلنا إلى مسرح الأحداث الذى كان عبارة عن واد ضحل يتوسطه عدد من أشجار السنط، مع منحدرين مفتوحين على الجانبين تتناثر فيهما بعض الحشائش القصيرة. جاء إلينا كيك وار (Kic Wur) وهو أكثر الزعماء المحايدين احتراماً. كان لونه أسود فاحماً، وجسمه نحيلاً كأداة جمع العشب، وأسنانه قليلة جداً، وكلامه لطيفاً، وكان يرتدى قميصاً ورداء من الكاكي، مع قبعة حكومية مزينة بالريش، ويلبس فى أعلى ذراعه سواراً "قوور" عرضه بوصتان (كان كل رجل من التوير يحترم نفسه يلبس هذا السوار)،

ويحمل غليوناً ملوله قدمان، وكرسياً قابلاً للطلى مخلفاً. شرح لنا كيك الوضع بأنه وبقيّة الزعماء المحايدين قد وصلوا في اليوم السابق أو أثناء الليل، وتمكنوا من فصل الفريقين الخصمين عن بعضهما، وأضاف أن عدد المتورطين يبلغ ٨٥٠ رجلاً، ٥٠٠ منهم من قبيلة، و٢٥٠ من قبيلة أخرى، وأنه في المنحدر الذي كنا نقف عليه يوجد ٥٠٠ رجل مسلحين بالرماح، وفي المنحدر المقابل يوجد ٢٥٠ رجلاً من القبيلة الأخرى مسلحين بالمثل. وأضاف أن رجال القبائل المحايدة قد دخلوا فيما بين الفريقين، ونصح بأن أقوم أنا وفريقي بالانضمام إليهم، ونعسكر تحت الأشجار في بطن الوادي. ذهبنا إلى هناك حيث سبقنا الخدم والساييس لتجهيز المعسكر: الكرسي والطاولة تحت شجرة شوك ضئيلة الظل، وبجانب الطاولة الصندوق المعدني وبداخله الملفات والسجلات، والسرير والناموسية تحت شجرة أخرى على بعد بضعة ياردات، وحولهما النار والقذور والمقاليات والطعام، وقرب الماء معلقة على أغصان الأشجار.

جلس قائداً الفصيلين المتحاربين، وكيك وزملاؤه من الزعماء المحايدين وشخصي تحت شجرة، واتفقنا على ما يجب عمله. تقرر أن يبقى كل جانب في مكانه على منحدر الوادي، وعلى الزعماء المحايدين أن يجدوا إجابة على عدد من الأسئلة: ما هي أسباب القتال في المقام الأول؟ وكم عدد القتلى من الجانبين؟ ومن هو المسئول عن مقتلهم؟<sup>(١)</sup> من هم الرجال الآخرون المسلحون بالرماح من الجانبين؟ ومن قام بتسليحهم؟ وكم عدد الرجال الآخرون الذين اشتركوا في القتال من كل جانب؟ وأخيراً، ما هي العقوبة المناسبة لكل من الثمانمائة والخمسين فرداً المتورطين في القتال؟ وما هي العقوبة الجماعية

---

(١) حسب عادات النوير يكون الشخص مسئولاً عن القتل إذا كان هو أول من سدّد للميت طمعة برمحعه بصرف النظر عن أي رأي آخر يبدية الطبيب حول احتمال أن يكون قد أعقب ذلك طمعة أخرى من شخص آخر وتكون هي سبب الوفاة. وقد أدى قبول هذا المبدأ إلى تسهيل عملية تحديد الجناة وعقابهم، ولم يحدث أن ترددت في تطبيق هذا المبدأ طوال فترة عملي بين النوير.

التي يجب توفيقها على القبيلتين بما لا يشجع تكرار حرب من هذا القبيل في المستقبل؟.

بينما كان أولئك الزعماء الذين يستحقون كل الإعجاب يقومون بإجراء تحرياتهم، ماذا كنت أفعل وأنا أنتظر النتيجة؟ لم يكن بإمكانى غير التخمين، ويحتمل أننى كنت أطلع بعض الخطابات المكتبية التى جاءت مع الملفات فى ذلك الصندوق الحديدى، ومن المؤكد أننى أكون قد قرأت أية تقارير عن المشاكل السابقة بين القبيلتين، وبالتأكيد أننى كنت أقرا كتاباً من وقت لآخر، وبالتأكيد أيضاً أننى كنت أشاهد تلك الطيور التى تدخل فى مدى منظارى القديم من نوع (Zeiss). كانت هذه الطيور بألوانها الزاهية توجد بكميات كبيرة فى جزيرة الزراف أكثر من أى مكان آخر رأيت فى حياتى. كانت هناك طيور الباتلير، ونسور الأسماك، وطيور الكاتب، والحبارى، والكركى ذو المرف الذهبى، بالإضافة إلى مجموعة من مختلف الطيور أكالات النعل، والرفراف، وكثير غيرها. غير أنه مهما كانت تحركاتى، فقد كنت موجوداً باستمرار فيما لو أراد أى فرد من النوير مقابلتى، ولا بد أن حضورى ووجود الشرطة قد ساعدا على عدم تشجيع أى اشتباك جديد.

لربما كان هو اليوم الثالث الذى علمت فيه من كيك أنهم يواجهون مشكلة. لقد تلقوا إجابات على جميع أسئلتى باستثناء شرط واحد هام هو أنهم قد تعرفوا على الرجال المسئولين عن مقتل أريمة من الخمسة الذين لا قوا حتفهم، ولكنهم لم يتوصلوا إلى معرفة القاتل الخامس، وكان من الضروري أن يتعرفوا عليه، وإلا فإن أية تسوية تقوم بها سوف تجعل الجانب الذى ينتمى إليه القتل الخامس يشعر بالفن، ومعنى ذلك أن يبدأ القتال مرة أخرى. وافقت أنه لا بد من معرفة القاتل الخامس بأى وسيلة أو أخرى، ولذلك واصل كيك حديثه واصفاً الكيفية التى يرى أن يتم بها ذلك.

قال كيك إن من أسوأ الأعمال لدى النوير هو أن يأكلوا أو يشربوا شيئاً يخص شخصاً قاموا بقتله، والأسوأ من ذلك إذا حلت على هذا الفعل لعنة (كجور جلد النمر). واسترسل قائلاً إن القاتل المجهول لا بد أن يكون من بين الـ ٢٥٠ رجلاً الذين يشكلون أحد الجانبين، وذلك لأن القتل ينتمى إلى الجانب الآخر. وبما أن القتل كان يمتلك بعض الماعز، لذا كان الحل في نظره هو أن نرسل في طلب أكثر كجور جلد النمر احتراماً في المنطقة، وبعد وصوله سيطلب من الـ ٢٥٠ رجلاً كل على حدة أن يشرب جرعة من حليب ماعز القتل، ويتناول قطعة من لحمها. بعد ذلك يقوم الكجور بإحلال لعنته على من قتل صاحب الماعز أياً كان. وهذا هو ما حدث مع أنه قد تم بعد يومين أو ثلاثة لأن كاهن جلد النمر كان في رحلة خارج المنطقة، واستغرق الحصول عليه كل هذا الوقت.

لم يحدث شيء في بقية اليوم الذي تلا إحلال اللعنة، ولكن في منتصف الليلة التالية أيقظت من النوم، فوجدت كيك ومجموعة من أبناء النوير يقفون حول سريري. لقد تبين لي حتى بضوء الصباح أن شيئاً جسيماً قد حدث لواحد منهم بمينه، ذلك أن وجهه كان شاحباً مما يدل على أنه الرجل المطلوب، وأنه من المتوقع أن يموت قبل أن ينبلع الصباح، ما لم يرفع كجور جلد النمر لعنته عنه. لقد أراد كيك أن اسمع ذلك من الرجل حتى لا يقال فيما بعد أن الاعتراف لم يتم. وهكذا لا بد أن تكون اللعنة قد رفعت عن الرجل لأنه وجد حياً في اليوم التالي، وبلونه الأسود المعتاد، ولم يكن لديه أى ميل للتراجع عن أقواله.

تم استكمال تسوية القضية في اليومين التاليين. وبعد رجوعي للمركز بفترة قصيرة، أثار ممى زعماء القبائل ضرورة تحديد عقوبات ثابتة للاقتتال بين القبائل. وبالفعل تم وضع قائمة عقوبات متفق عليها لتطبق في أى نزاع عادل يقتل فيه أحد الأشخاص، فأصبحت عقوبة المشاركة في مثل هذا النزاع ستة أشهر سجنًا، ولن يجرح شخصاً اثنا عشر شهراً سجنًا، ولن يقتل شخصاً أربع

سنوات سجناً. أبلغنى كيك والزعماء المحايدون فى حضور الـ ٨٥٠ رجلاً، أنه يجب تطبيق هذه العقوبات عليهم. سألت ما إذا كان أى من أولئك الرجال يشعر بأنه مظلوم ويريد استئناف الحكم، فلم يتقدم منهم أحد. لذا قمت بتدوين هذه النتيجة فى سجل المحكمة، ثم قام كيك بشرح ما توصلوا إليه حول الأسباب التى أدت إلى نشوب القتال، وأى الجانبين يقع عليه أكثر اللوم. إن كل ما أذكره الآن حول هذه القضية هو أن الجانب الذى أدين قد فرضت عليه غرامة قدرها عدد معين من الماشية، وتم قبول ذلك باعتباره حكماً عادلاً، وسجل ملخص القضية فى سجلات المحكمة. دعنى أضيف أن مفهوم "القتال العادل" كان مهماً جداً من وجهة نظر النوير. إنه شيء مشرف لأى فرد فى القبيلة، ولذلك يجب أن تكون عقوبته خفيفة، ويكفى فقط منع مواصلة القتال إلى ما لا نهاية. أما "القتال غير العادل" مثل وضع كمين، أو طعن رجل من الخلف فذلك أمر آخر ونادر الحدوث، ومن ثم لا بد أن تكون عقوبته شديدة. أوردت هذا للمناسبة فقط.

عندما تم قيد آخر كلمة فى السجل، كان وقت ما بعد الظهيرة قد انقضى، فودعنا بعضنا البعض، وتفرق الجميع فى اتجاهات مختلفة. سلك الزعماء المحايدون وكجور جلد النمر الطريق الذى يؤدى بهم إلى أهلهم، أما الثمانمائة وخمسون رجلاً فقد شكلوا صفين، أحدهما يتكون من ٥٠٠ والآخر من ٢٥٠ رجلاً، واتخذ رجلان من شرطة المركز، وشرطة الشرف القبلية مكانهم فى المقدمة، وأربعة آخرون فى الوسط، والباقيون فى المؤخرة، واتجهوا جميعاً إلى فتجالك وهم ينشدون ويغنون. كانت جوقة غنائية ممتازة جبهة الصوت، أما أنا وحاشيتى المباشرة، فقد أقلنا أحد لوارى المركز. وكان لنهاية فصل الأمطار، وجفاف الأرياف، والصدفة التى جعلت ذلك القتال يدور على أحد الطرق، الفضل فى مساعدة السائق على إتمام الرحلة بنجاح. هكذا توجهت إلى فتجالك، وفى مخيلتى الاستمتاع بحمام جيد بعد قضاء تلك الأيام، وغناء المساجين يشنف أذنى من على البعد.

فى اليوم التالى، وعند نقطة معينة، سمعنا صوت الفناء مرة أخرى. جاءنا من وراء النهر، وفى البداية من مسافة بعيدة، ثم أخذ يقترب تدريجياً. وأخيراً كان هناك ٨٥٠ رجلاً على الضفة الأخرى لنهر الزراف يطرحون أول مشكلة من جملة مشاكل أخرى نوعها ينبغي إيجاد الحلول لها دون إبطاء: كيف يعبرون النهر؟ بالبنتون الذى كانت تستخدمه العربات مع حشر أكبر عدد منهم فى كل مرة، ولكن ليس كثيراً جداً، وذلك لأن النهر عميق وكان يجرى بقوة، بالإضافة إلى أنه موطن للتماسيح. أضف إلى ذلك أن السجن لم يكن يتسع إلى أكثر من ستين سجيناً. أين يتم إنزالهم إذن؟ فى الخارج تحت أشجار النيم<sup>(١)</sup> التى تحيط بمساكن الشرطة، بعد تقسيمهم إلى مجموعات تضم كل منها عشرين شخصاً، وتخصص لها شجرة أو شجرتان. ما هو الطعام الذى يقدم لهم؟ الذرة بواقع رطلين فى اليوم للرجل الواحد. لذلك، ونسبة إلى هذا العدد الكبير كان كلما أسرعنا فى إحضار مائتى جوال ذرة من ملكال بباخرة المديرية، كلما كان ذلك أفضل. من يطحن الذرة و من يقوم بطبخه؟ زوجات وأخوات السجناء. كيف لنا أن نتأكد من حضور كل سجين فى كل يوم؟ لم يكن بالإمكان مناداة الأسماء لمعرفة الغائين لأن ذلك سيستغرق وقتاً طويلاً، ولذلك كان يجب أن نثق فى أمباشى وكاتب الشرطة اللذين كان عليهما أن يتأكدا، عند غروب الشمس فى كل يوم، من حضور كل المجموعات، ووجود عشرين رجلاً فى كل مجموعة.

فى خلال الأسبوع التالى، جاءت باخرة المديرية بالذرة، وعادت إلى ملكال بخمسة وستين سجيناً حكم عليهم بالحبس لأكثر من ستة أشهر. أما الباقون وعددهم ٧٨٥، فيتم استغلالهم فى أى عمل أختاره لهم. لذلك تفاوضت مرة أخرى مع زعماء جزيرة الزراف، وكانت النتيجة أن يقوم السجناء برفع مستوى الطرق الرئيسية فى الأماكن المنخفضة التى غالباً ما تغمرها المياه أثناء فصل

---

(١) شجر دائم الخضرة أصله من الهند، واستورد إلى السودان فى عهد الحكم الإنجليزى.

الأمطار. لقد تم تثبيت تلك الأماكن بالفعل، وكان السؤال كم هي كمية التراب التي يتوقع أن يحفرها الرجل الواحد ويردم بها الطريق في اليوم الواحد؟

كانت هناك أخطاء في بعض الأمور، ولذلك كان لا بد من تعديل بعض الخطط، ولكن عموماً أخذ العمل يسير بانسياب تام وروح طيبة من الدعاية والمروح. لقد وضع أن كمية التراب الواجب ردمها حسب قرارى الأول كانت كبيرة جداً، ولذلك كان يجب تخفيضها. بعد بضعة أشهر جاء مراجعو الحسابات إلى فتجاءك فوجدوا أن كمية الذرة الموجودة أقل مما يفترض أن تكون، ولم يرد في تقريرهم أية تهنئة لمفتش المركز أو إدارته. غير أن بعض الأمريكيين الذين كانوا يديرون بعثة تبشيرية على بعد عشرة أميال من فتجاءك جاؤوا إلينا في أبهى ملابسهم، وقدموا لنا التهاني، وكان ذلك بعد وصول السجناء بقليل. أخذ السجناء يأكلون ويزدادون وزناً، ذلك أن الحصاة اليومية المقررة لهم من الطعام كانت تزيد كثيراً عما تعودوا عليه في حياتهم العادية. أما الطرق الرئيسية فقد أصبحت نعمة على الناس. وفيما يتعلق بالمشاكل بين فرعى قبيلة النوير، فقد تم التعامل معها بصورة جيدة أنهت كل إشكال بينهما. وأهم من ذلك أن المساجين لم يهرب منهم إلا واحد فقط، ولكنه ترك رسالة يقول فيها أنه يجب أن يهرب لأن أخته ستزوج ولكنه سيمود، وقد عاد بالفعل.

هل كل ما ورد أعلاه حقيقة؟ اعتقد ذلك، رغم أنه قد مضى عليه أكثر من أربعين سنة، ولكن إذا شابه أى تحريف أو تشويه، فلربما أكون قد نسبت معظم الفضل إلى نفسي. غير أنه لم يكن لنا غنى عن مساهمة الآخرين بطرقهم المختلفة؛ أمباشى ورجال الشرطة الآخرون، والزعماء المحايدون، وكجور جلد النمر. وفي الواقع أنتى بدون مساعدتهم لم أكن لأستطيع إعادة الأمن والسلام إلى ربوع المنطقة، ولكن بالمثل، فإنهم بدونى ما كانوا سينجحون أيضاً.

بيل كاردين (Bill Carden)



11

حكاية

المرضة

---

*Sudan Canterbury Tales*

فى نهاية الحرب العالمية الثانية، كان الدافع للسفر والمعمل بالخارج قوياً جداً فى أوساط الكثيرين من أصدقائى، وكان بعضنا يرغب فى الالتحاق بالقوات المسلحة بعد إكمال فترة التدريب للتمريض العام التى تمتد لأربع سنوات. غير أن الحكومة لم تستجب لذلك الخيار، وإنما تم توجيهنا للالتحاق بدورة تدريبية فى فن القبالة (توليد النساء). ولربما كان ذلك مقدمة لزيادة متوقعة فى عدد المواليد فى ما بعد الحرب. بعد أن أكملت هذه الدورة، وعندما رفع الحظر عن السفر، خطر لى أن الالتحاق بدورة تدريبية أخرى فى أمراض المناطق الحارة ربما تكون فكرة جيدة، لأننى فى ذلك الوقت كنت على وشك التقدم بطلب إلى مكتب الخدمات الطبية الاستعمارية، ومصلحة الخدمات الطبية السودانية للحصول على وظيفة.

وصلنى رد الأخيرة برجوع البريد، وبعد إجراء مقابلة شخصية فى لندن، تم قبولى، واقترحوا على السفر عن طريق البحر واستلام عملى خلال شهرين أو ثلاثة. يمكنك أن تتخيل مدى دهشتى عندما تم الاتصال بى، وطلب منى أن أسافر جواً إلى السودان بأسرع ما يمكن، على أن يتبعنى ما ثقل من عفش بطريق البحر. لقد دهمتنى هذه المجلة إلى الاعتقاد بأن أزمة أو وباء ما ينتظران وصولى، ولا زلت أجهل حتى اليوم سر ذلك الاستمجال، وبالتأكيد عندما وصلت كان كل شيء هادئاً تماماً. خلال تلك الأسابيع المليئة بالقلق، وأنا أقوم بتجهيز الزى الرسمى وأمتعتى الشخصية، وأحاول تعلم بعض العبارات المربية، كنت دائماً أسأل: "لماذا السودان بالذات"، هذا البلد الذى كانت

معلوماتى عنه شحيحة، ولو أنى سريعاً ما اكتشفت أننى لم أكن الوحيدة فى هذا الجهل.

بعد مفادرتى مطار بلاكبوش (Blackbushe) فى صباح يوم بارد من شهر أبريل عام ١٩٤٧ برفقة ممرضتين جديديتين سبق أن التقيت بهما فى محطة فيكتوريا، بدأت رحلتنا على متن إحدى طائرات الفيكيج. كما نحن الثلاثة نبدأ حياة مهنية جديدة مليئة بالإثارة، ولم يسبق لنا أن سافرنا بالجو من قبل. كان المسافرون الآخرون بالطائرة هم زوجات موظفى الخطوط الجوية السودانية، إضافة إلى أفراد طاقم الطائرة. وفى الحقيقة أننا سرعان ما اكتشفنا أن زوجة كبير الطيارين كانت معنا بالطائرة، مما ساعد على تهدئة أى إحساس بالقلق نكون قد شعرنا به. بعد توقف ليلة حاملة فى مالطا، نقرر تحويل مسارنا إلى القاهرة لأسباب ميكانيكية حيث قضينا هناك ليلة أخرى. وصلنا إلى وادى حلفا على النيل فى الوقت المناسب، وهى المدينة السودانية الحدودية مع مصر، لنلتحق بقطار السكة الحديد السودانية، ونستمتع فيه بالراحة مع سرعته البطيئة.

كان الوقت منتصف الصيف وشديد اليفظ، حيث كانت درجة الحرارة فى الظل تفوق أحياناً ١٠٠ فهرنهايت. تحرك بنا القطار متجهاً إلى الخرطوم على الخط الحديدى الذى قام ببنائه كتشتر قبل خمسين سنة مضت عندما أعاد غزو السودان. يخترق الخط الصحراء ليلتقى بالنيل مرة أخرى عند محطة أبو حمد، التى تبعد عن وادى حلفا بمسافة مائة ميل، مختصراً بذلك منحنى كبيراً من النهر. كانت قمرات النوم واسعة بسريرين فى كل منها، ومزينة بطبقة لامعة من الخشب الموهقنى، مع حوض للفسيل يلمع نظافة، ومزود بالماء البارد والساخن وأخفى بذلك داخل خزانة خشبية. وكان الزجاج المعتم ومصاريع النوافذ يساعدان على خفض وهج الشمس وعزل الحرارة، وأثناء سير القطار

كان يساعد على تلطيف الهواء أيضاً نسيم بارد منعش ولو أنه مشبع بالغبار. كان "السفرجية" الصامتون يلبون كل طلباتنا، ويزودونا بمشروب الليمونادة البارد، ويميدون ترتيب أسرتنا بالليل بملايات كتانية أثناء تناولنا وجبة المشاء فى عربة البوفيه.

كانت وجبات الطعام جيدة عموماً، ومكوناتها الطازجة يتم توفيرها من بعض المحطات، حيث كان يستقبل القطار جميع من كان يعمل بالتجارة، بل معظم السكان. كانت بعض المحطات تعرف بالأرقام وليس لها أسماء، وكانت سرعة القطار بطيئة لا تتجاوز ١٠-١٥ ميلاً فى الساعة. وفيما عدا المدن والقرى التى توقفنا فيها، كان المنظر العام عبارة عن صحراء خالية من الناس تماماً، وسرعان ما أصبح وميض الرمال الممتدة مملأً. فى إحدى وقفات القطار سمعت لأول مرة زغاريد النساء السودانيات الذى يبدأ أولاً بصوت غريب يخرج من الحلق بنغمة عالية متغيرة، وعلمت أنه يمكن أن يكون للتعبير عن الفرح أو الحزن الشديد.

كان بين المسافرين معنا على القطار رئيس أساقفة كاثدرائية الخرطوم، الذى أظننا برعايته نحن الثلاثة، وأطلق علينا اسم "الثالوث المقدس"، وكان هو من رجال الدين المسيحى المروفين والمحبوبين، وفيما بعد ببضعة سنوات كان هو الذى قام بتعميد ابنى فى كنيسة الأبيض. وصلنا الخرطوم وحرارة الجو فى الظل تبلغ ١١٢ فهرنهايت، وكان فى استقبالتنا رئيسة الممرضات التى كانت تقف تحت مظلة. لا يمكن أن أنسى أبداً ذلك الجو الحار ونحن نخطو من داخل القطار إلى الخارج.

اختارت اثنتان منا الذهاب إلى أصغر الميزين الخاصين بالممرضات، وهناك استقبلتنا بحرارة من قبل الممرضتين الساكتين فى الميز من قبل. كان المسكن واسعاً يتكون من طابق واحد بفرنندة كبيرة ظليلة، وبه حديقة واسعة تزينها

أشجار النيم الظليلة، ونبات الخبازى، والبوغنيلية، وشجيرات الدفلى الوردية اللون ذات الأريج الفواح، لكن لم تكن فيها أحواض للزهور نظراً لقلة الماء.

من هنا بدأنا ندخل غمار حياة المناطق الحارة. أخذنا فى جولة تعريفية للخرطوم وما حولها شملت زيارة المستشفيات، والعيادات، والصيدليات، ومدرسة تدريب القابلات بأمدرمان التى يتعلم فيها النساء الأميات مهارات فن القبالة. أثناء هذه الفترة المبدئية كنت أعانى من آثار ضربة شمس جعلت منى رفيقة (ساخنة) لمن يجلس بجانبى على السيارة التى كانت مخصصة لجولتنا، وذلك لأننى لم أكن قادرة على إفراز العرق. كان ضمن جولتنا أن نقوم بزيارة ودية إلى مدير الخدمات الطبية الذى أكد لى أنه يجب أن أحضر إليه إذا واجهتى أية مشاكل. كم تمنيت أن أعترف له بالمأزق الذى وجدت نفسى فيه، وما أعانيه من مشقة، وتخيلت أنهم سيميدونى إلى الوطن بسبب عدم قدرتى على إفراز العرق. استمرت هذه الحالة لمدة عشرة أيام قبل أن يعتدل جهاز تنظيم الحرارة فى جسمى، وذلك بفضل الجهود الكريمة التى بذلتها أيضاً صديقاتى فى الميز.

بعد فترة وجيزة أرسلنا إلى مستشفى الخرطوم، الجناح الأوروبى، ومن هناك تم توزيعنا على أقسامنا المختلفة. كان نصيبى هو أجنحة السودانيين بما فى ذلك جناح النساء حيث كان للدورة التدريبية التى سبق أن تلقيتها فى أمراض المناطق الحارة فائدتها الفورية، إلى جانب ما تعلمته من كلمات عربية أثناء الفترة التى كنت أنتظر فيها اكتمال إجراءات تعيينى، أما رفيقتاى فى السفر فقد أبقيتا فى الجناح الأوروبى.

كانت أيا منا فى الخرطوم بهيجة وملتئة بالحياة الاجتماعية، وكنا نجد من الجميع كل مساعدة ومعاملة كريمة، لكنى سرعان ما اكتشفت أن "الجن" يجب أن يستبعد من قائمة مشروباتى المفضلة، حتى وإن خُفف كثيراً، ذلك أنه بدأ بدور براسى، وأصبحت أتناول مشروب الليمون الطازج البارد لأنه أكثر أماناً.

ومن بين ذكريات حياتنا في الخرطوم - المختلفة جداً - تلك السلال العجيبة المملوءة بفاكهة المانجو (القووس) التي كانت ترسل إلينا بانتظام من جنيحة سراي الحاكم العام. كذلك كان من ضمن التجارب المثيرة بالنسبة لنا الذهاب إلى السوق الذي كان يجمع بمختلف أنواع المطور من الجزيرة العربية، بالإضافة إلى أصناف عديدة من الملابس الحريرية الدمشقية، والأقمشة الملونة المطرزة، ومختلف أنواع المنسوجات القطنية، وأهمها الفوالات القطنية الناعمة، إلى جانب المنسوجات الصناعية التي بدأت لتوها تدخل السوق.

كانت النساء السودانيات يفصلن ثيابهن من تلك الأقمشة القطنية لأنها تناسب (الثوب) السوداني المعروف، وهي تتباهين من فماش قطنى ثقيل تهبث منه رائحة الصبغة الزرقاء، إلى الفوالات الجميلة الناعمة، ويتوقف الاختيار بالطبع على وضعية صاحبة الثوب. وفي العادة يلبس الثوب فوق فستان، وهو شبيه باليسارى الهندى، ويكون لونه أبيض في الغالب، وأحياناً بظلال فاتحة اللون، ويمكن إضافة المزيد من الألوان بعمل شريط مطرّز على طرف الثوب الذي يلقى على الكتف في غير مبالاة، كما يمكن لفه حول الرأس واستخدام جزء منه لتغطية الوجه بالكامل مع إبراز العينين فقط، وغالباً ما يغطى أيضاً تلك العلامات القبلية الموسومة على الخدين ( الشلوخ) التي تعمل للوجه أثناء فترة الطفولة لأغراض جمالية. لقد تمررنا في السوق على سيدة سورية مدھشة تمتن خياطة الملابس، واستطاعت بسرعة أن تمتد إلى دواليب ملابسنا، ولو أن ذلك كان من الضرورات حيث أن عفشنا قد تأخر في الوصول. كان من ضمن قدرات (مدام س) الخاصة براعتها في إدخال الأقواس إلى تصميماتها التي غالباً ما تبرز المعالم الجسدية التي نريد إخفاها، وكانت تمنى من ضيق في التنفس، ويبلغ وزنها خمسة عشر استوناً (الاستون يعادل ١٤ رطلاً بريطانياً)، وتلبس في المادة جلابيب عديمة الشكل تفوح منها رائحة المطور الشرقية التي سرعان ما أصبحت مألوفة لدينا.

انقطع كل ذلك سريعاً، إذ أنه بعد ثلاثة أشهر كلفت بالسفر إلى ود مدنى لأخلف ممرضة ذاهبة للإجازة. كانت إقامتى فى النيل الأزرق قصيرة، ولكنى لا زلت أذكر نزهاتنا فى الجزيرة صباح أيام الجمعة، حيث يزرع القطن قوام الحياة الاقتصادية فى السودان. كنا نقضى وقتاً طيباً بعيداً عن غبار المدينة وحرها، ونسافر أحياناً عبر تلك الأراضى المروية المنبسطة بتريتها السوداء الخصبة. وبالرغم من وعورة الطرق، إلا أننا كنا نشعر بالانتماء لיום واحد فى الأسبوع بعيداً عن جو العمل، ونستمتع بما كنا نلقاه من كرم وحسن ضيافة خاصة فى نادى (٨٨) الخاص بموظفى مؤسسة القطن الأجانب.

فى نهاية عام ١٩٤٧ نقلت إلى الأبيض عاصمة مديرية كردفان التى تقع جنوب غرب الخرطوم على مسافة رحلة يوم وليلة بالقطار. تغطى المديرية مساحة ضخمة من الأراضى تقدر بالآلاف الأميال المربعة، بما فى ذلك المراعى الشاسعة التى يستفيد منها العرب الرحل الذين يملكون أعداداً لا تحصى من الأبقار والإبل والأغنام، بالإضافة إلى جبال النوبة التى هى عبارة عن سلسلة من الجبال الصخرية المنخفضة التى ترتفع فوق سهل ممتد، ويسكنها بكثافة النوبة السود الذين يمارسون حياة بدائية، وهم خليط عجيب من التنوع الجسمانى، ويميشون فى مجموعات كل منها مستقلة بذاتها، وكان أغلبهم وثنيين بخلاف بقية سكان المديرية الذين كانوا من العرب والمسلمين. وكان رجالهم يتميزون ببنية جسمية قوية، جمعت منهم جنوداً أقوياء، وتم تجنيد الكثيرين منهم فى قوة دفاع السودان.

كانت الأبيض بتعداد سكانها البالغ ٤٠,٠٠٠ نسمة سوقاً هاماً للحبوب والماشية والإبل والأغنام، وكذلك مركزاً للصمغ العربى الذى يتم تجميعه من غابات أشجار الهشاب المنتشرة فى السهول، ويعتبر من الصادرات السودانية الرئيسية، ويشكل نسبة ٩٠% من الإنتاج العالمى. ولكونها عاصمة المديرية، فقد كانت بها المجموعة المعتادة من الموظفين البريطانيين بزوجاتهم، ويسكنون فى

مجمع يضم حوالى عشرين منزلاً بالقرب من مكاتب الحكومة، ولكن يفصله عن المدينة ما يعرف هناك بـ (الميدان)<sup>(١)</sup> وكانت هناك أيضاً مساكن مخصصة لعدد من الضباط المنتدبين من الجيش البريطانى للعمل مع فرقة الهجانة، وهى وحدة من قوة دفاع السودان، بالإضافة إلى نادٍ مزود بحوض للسباحة، وكيسة إنجليكية صغيرة.

لم يسبق للممرضات البريطانيات العمل فى المديرية الغربية من قبل، وهانحن الاثنتان قد وصلنا إلى الأبيض الآن لنسكن معا فى بيت واحد، وننشئ مدرسة لتدريب الممرضات بالمستشفى. كان منزلنا مجهزاً بصورة جيدة، وتم تأثيثه حديثاً، وكان واسعاً وبارداً بفرندات لا يدخلها البعوض، إضافة إلى مصطبة للنوم على السطوح كلما كان ذلك ممكناً. كانت درجة الحرارة أحياناً تنخفض فجأة بالليل، وفى بعض الأوقات كنا نحتاج إلى عدد من البطانيات على أسررتنا. بالرغم من استعمالاتنا للناموسيات، إلا أن منظر السماء المرصعة بالنجوم كان مثيراً بالنسبة لنا، وكانت النجوم تبدو لنا كأنها قريبة فى متناول اليد. لم نكن نتمتع بترف مرآوح السقف كما فى الخرطوم، وإنما كنا نعتمد على مرآوح الطاولة الصغيرة، ولكن على الأقل كانت لدينا كهرباء. لم تكن هناك مزروعات فى حديقة المنزل عند وصولنا فيما عدا بعض الشجيرات الشوكية، وقليل من الأشجار السامة ذات أغصان بنية كثيفة ناضرة تخرج فى الموسم زهوراً وردية اللون مليئة بالحيوية، ولكن دون صفق يذكر، بالإضافة إلى بعض أشجار النيم للاستفادة من ظلها. كان يوجد أيضاً اسطبل ملحوق بجناح الخدم استطعت أن احتفظ فيه بحصانى الخاص.

كانت الحياة الاجتماعية مليئة بالنشاط، وكنا نعرف فى الغالب بـ (المسترات)، وندعى للحفلات خاصة فى البداية. وكنا كلانا نلعب الأسكواش

---

(١) مساحة كبيرة مفتوحة تمتد إلى مئات الأكرات، وتتناثر فيها أشجار السنط والنيم.

والتس في ميادين مغطاة بخليط من الطين والصمغ العربي كان يتشقق مع هطول الأمطار. كذلك كانت هناك لعبة الاستكويت (stiquet) التي يقال إن أصلها هندي، وهي خليط من التمس والاسكواش، وكانت تُلعب في ملعب مزدوج محاط بجدار من الطوب الأخضر، وهي لعبة منهكة جداً. كنت أيضاً اشتاق إلى ركوب الخيل في الصباح الباكر مرة في الأسبوع قبل الإفطار، وأقضى ما تبقى من صباح الجمعة في حوض السباحة بنادي كردفان الصغير. كذلك كنا نقوم، مع بداية أيام الحر والجفاف، بنزهات ممتعة في الليالي المقمرة تحت سفح جبل يبعد حوالي ثلاثين كيلو متراً من الأبيض، وكنا نرفاح لهدوء المكان وسكونه بعد صخب المستشفى وضجيجيه.

كان يوم الجمعة هو يوم الراحة والعبادة للمسلمين ، ولذلك تتعطل كل مكاتب الحكومة، مما يتيح لنا الفرصة لكتابة خطاباتنا إلى أرض الوطن، وكذلك لتعلم بعض الكلمات العربية، خاصة وأنه كان لدينا معلم ممتاز مرج هو ناظر المدرسة الوسطى بالمدينة، الذي أنجبت له زوجته ولداً بعد عشر بنات، وكان محبوباً من جميع فئات المجتمع في الأبيض.

كان موسم الأمطار يحل في يونيو/يوليو، وهي لها أهميتها الحيوية في سد نقص إمداد المياه، ولذلك كان صهرج الماء الصغير الذي يخدم مجتمع الأجانب يراقب بقلق شديد في هذا الوقت من العام، وأصبح مألوفاً لدينا رائحة الأرض التي تمطر الجو قبل المواسف المطيرة، وكنا نمجب لاستجابة الأرض السريعة لماء المطر، ولأوراق المشب التي كانت تظهر إلى الوجود بين عشية وضحاها، وتلك الحشائش الخشنة التي تسمى بـ (الحسكيت). كان يظهر في الأفق فجأة أحياناً جدار بني سميك يتقدم إلى الأمام بثبات، وبعد قليل يصبح الجو ملبدًا برمال بنية اللون بسبب الرياح القوية المصاحبة لها والتي تترأخ سرعتها بين ٢٠ - ٥٠ ميلاً في الساعة، وأحياناً تكون مصحوبة بالمطر. إنها (الهبوب) المخيفة التي يتسرب غبارها إلى كل مكان، وعندما تمتزج بالمطر تبدو كأنها تمطر طينا.

لذلك. كما فى البيت تندفع مذعورين لإغلاق الأبواب والنوافذ، ثم تأتى فيما بعد نظافة المنزل التى كان يقوم بها الخدامون دون تذمر، وذلك بمساعدة المنفضات المصنوعة محلياً من ريش النعام الأسود، والتى كانوا يعتبرونها أداة بالغة الأهمية.

كان المستشفى يحتوى على ١٥٠ سريراً موزعة على أجنحة من طابق واحد: الباطنية، والجراحة، وأمراض النساء، والأطفال، بينما كان الموظفون البريطانيون يمالجون فى غرف صغيرة بمسيرين فى كل منها، بالإضافة إلى قسم الدرجة الثانية للجنسيات الأوروبية الأخرى. كانت المقابلات المختلفة تجرى فى قسم الميادة الخارجية بازدحامه وضجيجها، وكانت غرفة العمليات تتوسط المستشفى. أما الصيدلية ومختبر الفحوصات الطبية فكان يديرهما اثنان من السودانيين الأكفاء. وكانت الهيئة الطبية تتكون من طبيبين بريطانيين وثلاثة أطباء سودانيين، بينما كانت هيئة التمريض تضم ثمانين فرداً أغلبهم من الرجال، غير أن جناحى أمراض النساء والأطفال فكان يخصص لهما بعض المرضات الأميات اللاتى يتميزن بالطيبة. كان المرضى يأتون إلى المستشفى برفقة ذويهم للمساعدة فى رعايتهم، وأحياناً ينامون بالقرب منهم تحت أسرتهم.

كان هدفنا الأول من وضع برنامج للتدريب هو إقامة دورة مكثفة لكبار المرضى لمدة عام تقريباً لتمكينهم من تحسين أساليب وممارسات التمريض، وبعد نهاية الدورة يحصلون على ترقية وزيادة فى الراتب، وليصبحوا قادرين بدورهم على تدريب زملائهم فى الأجنحة. كانت المحاضرات ودروس المعاينة تقدم باللغة العربية (لم يكن أى من المرضى يتحدث غير القليل من الكلمات الإنجليزية)، وكانت تلك الدروس والمحاضرات تستقبل بحماس غامر، والحافز على ذلك هو بالطبع زيادة الراتب. كان هذا العمل صعباً بالنسبة لنا الاثنتين، حيث كنا نقوم بترجمة المحاضرات إلى اللغة العربية، ونجدد معنا معلماً للغة

العربية، أو أحد الأطباء السودانيين عندما نحتاج إلى مساعدة في نطق بعض الكلمات.

بما أنني أثناء فترة التدريب قد مارست العمل في غرفة العمليات، فقد طلب منى الطبيب الجراح البريطاني أن أحاول تحسين الممارسة العامة بغرفة عمليات المستشفى، وكان قد سبق أن اختار قبل وصولنا بعض المرضى الجديدين، ثم قام بتدريب أكثرهم خبرة على العمل في غرفة العمليات، وكيفية إعطاء المخدر البسيط تحت إشرافه. وكان أثناء إجراء العمليات يستفسر من وقت لآخر عن حالة المريض ولونه، وتأنيبه الإجابة دائماً إما أنه 'كويس' أو 'مش كويس'، وكانت الأخيرة تعني أن المريض لم يمد معنا. وبالنظر إلى الحالات عموماً، فقد كانت نسبة الشفاء جيدة بصورة تدعو إلى الدهشة. لقد عرف السودانيون بجلدهم وتحملهم كما سيوضح من القصة التالية:

في الصباح الباكر لأحد الأيام عند شروق الشمس، استدعيت للمستشفى على عجل لأرى هناك منظراً لن أنساه. كان أحد رجال القبائل العربية يركب على ظهر جمل يسير عكس أشعة الشمس، وهناك رمح قد اخترق عنقه أفقياً من جانب إلى الجانب الآخر، وتم إسناد الرمح بذكاء باستخدام عمامته وربطها بإحكام بحيث يصعب فكها، وكان يرافقه ذلك الحشد الممتد من رجال قبيلته.

أمكن إزالة جانب واحد من الرمح بمساعدة ضابط الصف المسئول عن مستودع معدات النقل الميكانيكي بغرفة الهجانة، ثم نقل المريض إلى غرفة العمليات حيث أجريت له عملية جراحية. ويكفي أن أقول أنه في لحظة حرجية أثناء العملية أصبح لا مفر من استعمال القوة لسحب الرمح ذى الأسنان (الشكابة) من عنق الرجل، وعندها حبس الجميع أنفاسهم. غير أن هذا الرجل المحظوظ قد استرد صحته خلال أيام قلائل بصورة لا تصدق، وتم علاجه وتمريضه كأنه قد أجريت له عملية إزالة الغدة الدرقية، وفي خلال أسبوعين

أو ثلاثة أصبح قادراً على ركوب جملة والعودة إلى مضارب قبيلته في شمال  
سودري على بعد أميال عديدة من المستشفى.

كان من ضمن مسئولياتنا تفقد القابلات القرويات في شتى أنحاء المديرية،  
ويعنى ذلك القيام بجولات قد تستغرق أسبوعاً أو أكثر. كانت رحلات طويلة  
شاقة على طرق غير معبدة، وأحياناً تمتد إلى القرى النائية، يرافقتني فيها سائق  
شرطي نوبايوى يعمل ممناً بالإعارة، وزائرة محلية سودانية، والطباخ/الخادم  
الذى كان يجلس في الصندوق الخلفى لعمرة الفورد حمولة واحد طن، مع جميع  
متعلقاتنا ومعدات المصكر. لا يمكن وصف غبار الطريق الذى كان يتغلغل في كل  
مكان، ولذلك وجدت أن "الثوب" السودانى هو أفضل جلباب يمكن أن أقي به  
نفسى فوق زيى الرسمى. وبالرغم من ذلك كان يتغير لون شعرى، مع عدم وجود  
الشامبو آنذاك، وكان مجرد الاغتسال في حمام المشمع بما لا يزيد عن أربع  
بوصات من الماء، يعتبر ترفاً في حد ذاته عند نهاية رحلة يوم واحد. كان الماء  
أحياناً يصبح نادراً جداً لدرجة أننا كنا لى نفصل نتمتع على حوض صغير من  
الماء العكر، وزجاجة كبيرة من مستحضر "اليزابيث أردان".

كما أحياناً نصل إلى إحدى القرى لنجد أن القابلة قد خرجت لإحدى  
حالات الولادة، فاقوم بمراقبتها أثناء تأدية عملها. ونظراً لوجودى فقد يطلب  
منى القيام بتوليد الجنين، الأمر الذى كنت أستمتع به كثيراً، وبالرغم من  
التعامل مع تعقيدات انخفاض الأنتوى، كان من النادر حدوث تعسر في الولادة.  
وإذا جاء المولود بنتاً، فكانت تسمى "مريم" تيمناً بى، وهو الاسم العربى المعادل  
لاسسمى. وبعد عدة سنوات من زواجى كنت أزور تلك القرى برفقة زوجى الذى  
كان يعمل في الخدمة السياسية السودانية، فكانت أولئك (الحريمات)  
الصغيرات يأتين لمقابلتى في الاستراحة، أو أى مكان آخر تنزل فيه، وكنت في  
العادة أهدى إليهن فضلتين جديدتين.

كما خلال تلك الجولات نخوض العديد من التجارب المجدبة، خاصة فى جبال النوبة. كان المرء يستطيع أن يعرف دائماً متى يكون الناس فى حالة مفادرة من المدينة، وذلك من خلال مظهر النساء النوبيات وهن يسرن على جانب الطريق بلون بشرتهن الحالك السواد المتدرج بين الأزرق والأسود، وكن يمشين عاريات إلا من حزام أزرق مصنوع من الخرز أو الجلد، مع هداى يوضع فى الأمام من أجل "الحشمة". وبالرغم من ذلك كان سلوكهن يتسم بمزة النفس والاستقامة نظراً لإحساسهن بالعلمانية وراحة البال وهن يحملن أمتتهن على رؤوسهن. أما فى المدينة فكان يغطين أجسامهن، ويخلعن البستنه عندما يتعدن بمسافة عن البلدة حيث يستعملنها بعد ذلك كوقاية على الرأس يضمن عليها أحمالهن.

فى إحدى المرات وصلنا جبال النوبة فى وقت متأخر بعد الظهر لنقضى الليل فى الاستراحة، وهى عبارة عن بناء من الطين مستوف بالقش، وأرضيته من الرمل، ويتكون من كوخين مستديرين مبنيين من الطين للنوم يتصل بهما جناح للجلوس وتناول الطعام. ويمجرد الفراغ من إنزال حقائبنا ومعدات المطبخ، وقيام الخادم بإشعال النار لإعطائنا كؤياً من الشاي. ومن ثم إعداد طعام المشاء، إذا بصوت ضجيج و هياج يأتينا من الخارج. وبعد قليل وصل رسول من قبل المدة يطلب من "الستات" الحضور معه بسرعة حيث كانت هناك ناقة تعاني من الألم وتحتاج إلى المساعدة. ودون أن نعرف ماذا ينتظرنا هناك، فقد أسرعنا للنجدة. وعند وصولنا وجدنا الناقة فى حالة مخاض، وكان نتاجها فى وضعية البروز إلى الخارج. ولحسن الحظ، كما قد قابلنا فى وقت مبكر من اليوم أحد الأطباء البيطريين الذى كان أيضاً فى جولة بالمنطقة، واقترح أن ينزل معنا فى استراحتنا ويقضى معنا تلك الليلة، وكنت قد دعوته لتناول وجبة العشاء معنا، حيث كنا سنصل إلى الاستراحة أولاً، ويمكن أن يقوم خادمنا بإعداد الطعام. بعد أن أكدت للعمدة مجدداً أن المساعدة ممكنة، تركت

زميلتي السودانية لتتولى طمأنة صاحب الناقة، بينما انتظرت أنا وصول الطبيب البيطرى. فى تلك الليلة تناولنا طعام المشاء فى وقت متأخر، ولكن أمكننا على الأقل إنقاذ جمل جديد غالى الثمن.

كانت البعثات التبشيرية التابعة لجمعية الإرساليات المسيحية البريطانية، والإرسالية المتحدة السودانية تنتشر فى جبال النوبة، وكان موظفو الأخيرة من أستراليا ونيوزيلندا، وبعضهم لم يعد إلى بلاده منذ عشرين عاماً، حيث أنهم كرسوا أنفسهم لخدمة الكنيسة. وكنا فى جولاتنا نحرص دائماً على زيارتهم فى شفقاناتهم ومدارسهم. ومهما كان وقت وصولنا ليلاً أو نهراً، كان الشاى يعد ويقدم إلينا فى دقائق، ولا أدري كيف كانوا يعرفون أننا فى المنطقة، ولكن يبدو أنهم كانوا مستعدين دائماً لاستقبالنا. وبالرغم من أنهم كانوا يعيشون فى ظروف صعبة، إلا أنه يبدو أنهم كانوا ناجحين فى عملهم التبشيرى، إذ كانت كنائسهم فى أيام الأحد تمتلئ بالناس حتى تقبض.

أثناء إضراب عمال السكة الحديد الذى استمر لفترة طويلة، كانت زوجة أحد مفتشى المراكز على وشك الموضوع، ولم يكن بالإمكان أن تسافر عن طريق الجو إلى الخرطوم نظراً إلى أن الخطوط الجوية السودانية لم تكن مستعدة لنقلها وهى فى تلك الحالة على متن طائرة "الدوف" الصغيرة. لذلك كان البديل الوحيد هو أن تضع طفلها فى الأبيض. غير أن الإمكانيات اللازمة لمثل هذا الحدث لم تكن تتوافر بالمستشفى، ولذلك كانت زوجات المسئولين فى المادة يذهبن للموضوع فى الخرطوم. والآن مع طبيب بريطانى واحد كان فى إجازة، وطبيب آخر جراح اعترف بأن خبرته فى التوليد محدودة وتقتصر على أيام الدراسة فقط، وهكذا لم يتبق غير أن تقوم الممرضتان البريطانيتان الموجودتان بمواجهة الموقف. كان مصدر قلقنا الرئيسى هو أن جميع أنواع الأمراض تنتشر فى ذلك الوقت من العام، أى فى شهرى مارس وأبريل، وكان من الصعب تجنب انتقال العدوى مع مواصلة أعمالنا الأخرى بالمستشفى،

إضافة إلى الاعتناء بهذه الحالة. وكأمر لا مفر منه عندما حان وقت ولادة الطفل، كان قد انتشر مرضا السعال الديكى والجدرى، وبعض حالات الالتهاب السحائى. غير أن الأم قد وضعت طفلة جميلة فى أشد الأوقات حرارة. وبعد قضاء فترة قصيرة بالمستشفى غادرت وطفلتها إلى المنزل حيث كانت تنظرهما مربية بريطانية لتتولى رعاية المولودة الجديدة، ولكن لحسرتنا الشديدة، فقد أصيبت الأم بالسعال الديكى، وهى لا تزال تحت رعايتها، وخلال بضعة أيام انتقلت نفس العدوى إلى طفلتها وأصبحت مريضة جداً، مما سبب لنا جميعاً قلقاً شديداً. كانت تلك الأيام من أسوأ الفترات فى حياتى المهنية، غير أنه لحسن الحظ أن نهاية هذه القصة كانت سعيدة، ويسرنى أن أسجل هنا أن أول طفلة بريطانية ولدت فى مستشفى الأبيض هى الآن أم لولدين اثنين.

كان مرض الجدرى يشكل مشكلة فى الأشهر الأولى من كل عام، ذلك أن أعداداً كبيرة من الفلاتة (التيجيريين) كانوا يأتون من غرب أفريقيا فى طريقهم إلى مكة لأداء فريضة الحج عبر مدينة الأبيض، التى كانوا يمارسون فيها بعض الأعمال لأجل الحصول على مال يساعدهم فى الطريق. لذلك كان لا بد من إخضاعهم للفحص الطبى بواسطة سلطات الصحة العامة، وكان غالباً ما يتبين أنهم يحملون مرض الجدرى، ولذلك أقيمت لهم (كرنتينة) داخل مخيم نصب خارج المدينة بفرض إجراء التطعيم اللازم لهم. وكانت واحدة منا تقوم يومياً بزيارة هذا المخيم، بينما ترسل المستشفى أيضاً بعض الممرضين لرعاية المرضى. كان أولئك الحجاج الفلاتة حريصين على الحياة ويتدفقون حيوية ونشاطاً، ولذلك لم يكونوا يتهيبون من تلك القيود.

لقد سمعت فى أحد الأيام من زائرة صحية تعمل فى الأبيض أنها قد اكتشفت وجود امرأة حامل تعاني من مرض الجدازم، وأن القابلات المحليات لا يردن الاقتراب منها. وعليه قررنا أنه فيما لو ذهبت أنا لزيارتها، لربما يقلل

ذلك من تخوفهن. بعد أيام وضعت المرأة طفلة على يدي بمساعدة إحدى الزائرات الصحيات في ظروف غير مثالية، ولكنها اختفت بعد أيام من تزويدنا لها وطفلتها ببعض الملابس. كذلك كنا نواجه مشاكل مماثلة مع الأمهات غير المتزوجات المنبوذات من قبل ذويهن، واللاتي كن يعشن على التمول، ويختفين أيضا بعد ولادة أطفالهن مباشرة. طلب منا مدير المديرية بحث إمكانية تحسين أحوال النساء السجينات بالسجن المحلي الذي كان يوجد به عدد كبير من الأطفال الصغار، والأطفال الرضع مع أمهاتهم. كان الطمام الذي يقدم من السجن غير كاف لهم، ولذلك تقرر زيادة الكمية، مما أدى إلى تحسين الأحوال الصحية عموما، خاصة لدى الأطفال. ولست بحاجة إلى أن أذكر بأن الخبر قد تسرب بأنه قد تم توفير كل ذلك، ونما إلى علمي أن عدد النساء السجينات نتيجة لذلك كان يزداد بصفة أسبوعية!

أثناء أول إجازة لي قررت الالتحاق بدورة إنعاشية، حيث أنني كنت قد اهتمت عن التمريض العام لمدة سنوات عندما انشغلت بدورات تدريبية في القبالة، وأمراض المناطق الحارة. تم اتخاذ التدابير اللازمة لعودتي إلى مدرستي القديمة في فترة تدريبية لمدة شهر واحد، ولكني وجدت أنه قد حدث هناك تغيرات كبيرة في أساليب العلاج خاصة فيما يتعلق بالجراحة. غير أن اهتمامي الرئيسي كان ينصب على معرفة الأفكار الجديدة الخاصة بعلاج الحروق، ذلك أن كثيراً من الأطفال بالسودان، كانوا يصابون بحروق مرعبة أثناء فصل الشتاء بسبب سقوطهم في النيران المفتوحة.

عند عودتي إلى الأبيض، خرجت زميلتي لقضاء إجازتها، وأثناء ذلك تمت ترقيتها إلى وظيفة رئيسة ممرضات بمستشفى الخرطوم. وبما أنه قد تأخر وصول بديلتها، فقد أصبحت لوحدي بالمستشفى لمدة أشهر. وأثناء شهر رمضان الذي كان قد انقضى لتوه، تدهور مستوى المستشفى بصفة عامة، وأصيب

المرضى بالكمل والخمول، وأصبحوا لا يهتمون بنظافة ملابسهم، وأهملوا النواحي الصحية، واتضح لنا أن كل ما حققناه منذ وصولنا من مستويات عالية قد انهار تماماً، وأصبحنا في حالة كآتنا سوف نبدأ من جديد. عدت بعد الإجازة وأنا أكثر طاقة وأشد حماساً للعمل، وظلت الأمور تسير بصورة عادية لبعض الوقت، غير أنه في صباح أحد الأيام جئت إلى المستشفى فجأة لأخذ الغياب من كبير المرضيين بكل قسم، ولكن لم أجد أيّاً منهم. وجاءني ممرضان كانا يقومان بالعمل ويبدو عليهما بعض الخجل والارتباك، وأوضحا لي أن جميع المرضيين، فيما عداهما وممرضات جناح الحريمات/الأطفال، قد أضربوا عن العمل، وأنهم لن يتلقوا أي أوامر أخرى من جانبي. وقام الممرضون بإرسال برقيات إلى مدير المديرية، ومدير الخدمات الطبية توضح ما كان يحدث، وتطالب بإمدادى عن المستشفى. كانت المدينة في ذلك الوقت تشهد بعض الاضطرابات السياسية، واكتشفت شرطة المباحث أن بعض الشيوعيين المروطين الذين كانوا يعملون تحت رئاستى هم الذين قادوا الإضراب. بالرغم من أنني كنت أشعر بعدم الميل للاستمرار، إلا أنني قد واصلت العمل، وصرفت التعليمات أثناء طوافي بالأجنحة من خلال المرضيين القائمين بالعمل، ولحسن الحظ أنني أثناء تلك الفترة العصيبة كنت أجد كل دعم ومساندة من جميع أطباء المستشفى، وموظفي الصيدلية والمختبر، وفيما عدا ذلك كنت أشعر بالمزلة. في غضون ذلك أفيث كل المحاضرات والدروس، وكان ذلك بالنسبة لي بمثابة الكارت الرابع، لأنه سوف يؤخر ترقية المرضيين، وما يعقبها من زيادة في الرواتب بعد التأهيل. لقد استمر هذا الوضع المتوتر حوالى أسبوعين قبل أن يطلب منى المضربون مواصلة المحاضرات، مما جعلنى أمتد سلطاتي، وتم استعادة التوازن. وعند عودتى فيما بعد، وأنا لا أزال أسكن في الأبيض، طلب منى تقديم الجوائز إلى المرضيين الأوائل الذين سبق أن ساعدت في تدريبهم، وكان ذلك مسك الختام لعملى بالخدمات الطبية السودانية.

أثناء الإجازة تزوجت وعدت إلى السودان مع زوجي الذي كان يعمل بالأبيض، وفي ذلك الوقت كان عقد خدمتي قد انتهى، ولكن عرضت الاستمرار في عملي ريثما يتم توفير البديل، وهكذا أصبحت الجولات في المديرية بصحبة زوجي أكثر متعة وإثارة، خاصة وأنتى أصبحت الآن أكرم كمروسة.

في إحدى تلك الجولات المبكرة بصحبة زوجي، أهداني أحد المشايخ تيمس غزال حبشى رمادى اللون، وموشع بخطوط سوداء مع علامات أكثر سواداً على رأسه، وكان عمره حوالى اثنى عشر شهراً، وطوله قدمين. وبما أنه قد تربى منزلياً، فقد أصبح أليفاً جداً. كان طول قرنيه بوصتين فقط، ولكتهما حادان جداً. قمنا بنقله ليقيم معنا في منزلنا بالأبيض، حيث أخذ يتجول بحرية داخل المجمع السكنى أثناء النهار، وينام في الليل داخل أحد الأسطبلات. وأصبح محبوباً، خاصة لدى الأطفال الذين كان يلعب ويمرح معهم، وعندما نما قرناه، أصبحنا نقلق من أن يؤذى بها أحدهم، لا سيما وقد بلغ طولهما ست بوصات قبل أن يفادرننا، وكان أحد المعارف قد اقترح علينا تقطيعتهما بالفلين، ولكن نظراً إلى أنهما وسيلته الوحيدة للدفاع عن نفسه، فقد قاومت الفكرة.

كان "ديك" حيواناً أليفاً مدهشاً يصدر أصواتاً حنونة محببة عندما يتبعنى من مكان إلى آخر وهو يقفز من سجادة إلى أخرى بالمنزل ليتنادى الانزلاق على بلاط الأرضية، ثم يرقد على الأرض مسنداً أنفه وفكه على إحدى قدميَّ عندما أجلس للقراءة. كما كان مولماً بشيئين: أحدهما بسكوت الزنجبيل، والآخر أعقاب السجائر التى كان يتناولها بنفسه، في غفلة الآخرين، من على الطاولات الصغيرة في غرفة الجلوس. كان الخدم يعيونه جداً، وفي يوم من الأيام شمروا أنه لا بد أن يكون قد وقع خطأ ما عندما حيانى الخادم محمد بحزن شديد بعد تناول طعام الإفطار، ثم أبلغنى بأن ديك أصبح أعرجاً. لقد خشيت من الأسوأ، فقد اتضح جلياً أنه قد حدث له كسر في فخذه بطريقة أو

أخرى. جاعنا الطبيب البيطرى بسرعة ولكن بدا عليه الحزن، ولم أقبّل رأيه بأنه لاشئ، يمكن عمله. وبعد إقناع ومساعدة الطبيب الجراح قمنا نحن الثلاثة بوضع ساق الفزال فى الجبس من مفصل الورك إلى مفصل الركبة ليبقى هكذا لمدة أربعة أسابيع حيث أوكلت لى إزالته بعد ذلك. ولحسن الحظ كان ديك صغيراً فى عمره، وعظامه غضة، مما ساعد على جبر الكسر بسهولة. كان من المفترض أن يحل موعد إزالة الجبس فى يوم الإهداء<sup>(١)</sup> (Boxing Day)، وكنت متخوفة من ذلك كثيراً. غير أنى بعد تناول طعام الإفطار فى ذلك اليوم ذهبت إلى الاسطبل لرؤيته كالمادة، فإذا بى أجده هناك واقفا منتصباً فى ضوء الشمس، والجبس الذى اتخذ شكل المدخنة مرمياً على المشب. لقد سرنى ذلك كثيراً. يبدو أن عدم حركته الاضطرارية قد أدى إلى هزال وضمور فى عضلات ساقه، مما جعل الجبس ينزلق عن موضعه ويسقط على الأرض. ويصرف النظر عن ورم بسيط فوق موضع الكسر، وعرج طفيف فى الساق استمر لمدة أسبوع، فسرعان ما أصبح "ديك" قادراً على العدو من مكان إلى آخر بصورة عادية. غير أنه قد اتضح لنا أنه لن يكون بإمكاننا الاحتفاظ بهذا الحيوان الساحر الجذاب أكثر من ذلك، علاوة على أننا كنا على وشك السفر للإجازة، ولذلك فقد أصبح بحاجة إلى رفقة. وعليه عندما اتصلنا بعديقة الحيوانات بالخرطوم فى هذا الخصوص، رحبوا بقبوله لديهم بكل سرور، خاصة وأنه كانت لديهم أنثى من نوعه، وكانوا يأملون أن يحصلوا منهما على نسل. لذلك أرسلوا لنا صندوقاً مبطناً لنضع فيه ديك فى طريق رحلته بالقطار إلى الخرطوم بصحبة مرافق. وبعد بضعة أشهر عندما غادرنا للإجازة مررنا بالخرطوم، وتمكنت من زيارة حديقة الحيوانات، وهناك داخل تلك الرقعة الواسعة من الأرض المسورة التى تحتوى على كل ما يمكن تخيله من

(١) يوم ٢٦ ديسمبر التالى لميلاد الذى تقدم فيه الهدايا إلى سمة البريد وغيرهم من المستخدمين الآخرين. (للترجم)

أنواع الغزلان، وقع نظري على ديك، فتأديته، ولن أنسى أبداً ردة فعله: تصلب جسده، وارتعشت أذناه، ثم أخذ يستطرد مرة أخرى قبل أن يتجه نحوي ليبادلني التحية. كنت أحمل معي صندوقاً من يسكوت الزنجبيل استمداً لهذه اللحظة.

بعد سنوات قليلة غادرت السودان مع زوجي وابني الصغير، واستمرت تلك الذكريات تتدفق في حياتي، واستظل دائماً مفعمة بالحياة من خلال ما اكتسبناه من صداقات حميمة سنواصل الاستمتاع بها خاصة مع السودانيين القلائل الذين لا زالوا يتحفوننا بزياراتهم. إن السودانيين، كشعب، محبوبون جداً وأفراحهم ومسراتهم معدية للآخرين، وإحساسهم بالمرح والدعابة يماثل ما لدينا. إنهم في كل مكان يفعمونك بحسن استقبالهم وكرمهم المريب الأصل. لا يهم أين كنت في السودان، ربما على بعد أميال عديدة من مكان ما، وبفرتي سودانيون فقط، ولكني لم أشعر قط بأى قلق تجاه سلامتي الشخصية. غير أن حالة السودان الحالية، بعد هذه الحرب الأهلية التي استمرت أكثر من عشرين عاماً، تجعلنا جميعاً نشعر بحزن عميق، ولكن السودانيين المعروفين بالمرونة والتسامح قد استردوا عافيتهم من كوارث سابقة عديدة، وأنا على ثقة أنهم سوف يستردون عافيتهم من هذه الكارثة أيضاً.

ماري رولي (Mary Rowley)



12

---

حكاية

موظف السكة حديد

---

*Sudan Canterbury Tales*

## تقديم

راوى هذه الحكاية شخص كان قد تقدم للحصول على وظيفة بالدرجة 'دى' (Scale D) فى مصلحة المالية بالخرطوم، بعد أن تشبع بدراسة الاقتصاد والتجارة، ولكنه تسلم بطاقة الرفض الممهودة بأطرافها المذوقة باللون الذهبى، وقد أشير فيها إلى أنه بالرغم من تعليمه العالى، إلا أن الوظيفة قد تقدم لها من هو أفضل منه بكثير. وبعد بضعة أشهر بدأت الحرب، ولذلك تطوع الراوى بالعمل فى الجيش معتمداً على ما حصل عليه من إعداد ذاتى بفرقة تدريب الضباط بالجامعة (Officers' Training Corps). غير أنه بدلا عن أن يكون من حملة السلاح فى الجيش الملكى البريطانى بفرنسا، وجد نفسه 'موظف سكة حديد بالإكراه' بعد أن اتصل به مكتب حكومة السودان بلندن مستفسرا عما إذا كان يرغب فى وظيفة محاسب بإدارة سكك حديد السودان بمطبرة، وأنه إذا وافق على الوظيفة فسوف تتم مخاطبة وزارة الحربية لإخلاء طرفيه. رد الراوى على الاستفسار مؤكداً استعداده للقيام بأى عمل ترى وزارة الحربية وسعادة الحاكم العام فى الخرطوم أنه يساعد فى المجهود الحرى. وجاء الرد بلغة دبلوماسية عالية: يمكن أخذ الجنود حملة الأسلحة الخفيفة حسب الطلب أو بالتجنيد الإلزامى، ولكن إذا كان هناك شخص مصاب بالجنون وقد اختار أن يتطوع من تلقاء نفسه بالذهاب إلى السودان - فى عطبرة مقر رئاسة السكة الحديد السودانية دون سائر الأماكن الأخرى، فيجب العمل على إرساله إلى هناك فوراً قبل أن يغير رأيه. لذلك وصل نحو الطرف

فى ظرف ثلاثة أو أربعة أيام، وقد ساعد على ذلك تكرار وصول البريد يومياً  
بواقع بنس ونصف فى المرة الواحدة. غير أن وزارة الحرية احتفظت لنفسها  
بحق الاستدعاء فى حالة حدوث أية مشاكل فى ذلك الجزء من العالم، ولو أن  
ذلك كان بعيد الاحتمال. وهكذا بدأت الرحلة من مدينة شريك (Chiswick)  
إلى مدينة عطبرة.



كان الطريق البرى من محطة فكتوريا يعنى رحلة عبر القنال إلى جنوب فرنسا، ومن هناك عن طريق البحر إلى الأسكندرية. وكانت غالبية الرحلة عرضة إلى التمتع بسبب الغارات الحربية، ولذلك ليس هناك ما يستدعى إسدال قناع عليها، ولكنى سأفعل ذلك فيما عدا توضيح عبارة "موظف سكة حديد بالإكراء". من المؤكد أنه فى مرحلة ما قد ورد ذكره أن الوظيفة فى عطبرة وأنها فى اسكيل (E)، والأقل منها اسكيل (E2)، ولكن (إى) و(دى) كانا بالنسبة لى مجرد حرفين من حروف الأبجدية. كان معنى على ظهر السفينة (تعتيم أمتى) بعض الذين تم تعيينهم أيضا للعمل فى خدمة حكومة السودان من بينهم معلم حرف يدوية علمت منه أنهم فى وضع سكنى أفضل ويستمتعون بالوجبات الساخنة، ولم يكن ذلك نتيجة لضربة حظ فى سحب بانصيب أجرى فى زمن الحرب، وإنما لمجرد أنهم كانوا فى اسكيل (دى). لقد ظلت هذه الدرجات الوظيفية - لبراءتى أو غيائى - تشكل سرأ غامضاً بالنسبة لى، غير أن ذلك لم يسبب لى قلقاً يذكر طالما أنه قد تم إخلاء طرفى لأقوم بأداء عمل مدنى له أهميته الاستراتيجية، بالرغم من أن وثيقة خلو الطرف الرسمية قد نسبت السبب إلى أننى "لم أوضع فى القائمة المصححة" - وهى عبارة يمكن أن يعتبر المرء أنها قد كتبت للتشهير بى.

تواصلت الرحلة بالسكة حديد المصرية من القاهرة إلى الضلال وهى آخر محطة فى الشمال لخدمات شبكة سلكك حديد وبواخر السودان حيث تم بكل سهولة وكفاءة نقل المسافرين وأمتعتهم إلى فصل آخر من الرحلة على نهر النيل

بمناظرة الطبيعية الخلابة إلى وادى حلفا. لقد كاد يفوتنى القطار فى محطة القاهرة عندما انطلقت مسرعا إلى الرصيف رقم تسعة بدلاً عن رقم ثمانية، ومع شكرنا وتقديرنا لك (بى بى سى) إلا أنه لم يتيسر لها مساعدة حجيج أيام الحرب ( لم أكن بحاجة إلى مساعدة كبيرة، ذلك أن عفشى قد وضع فى قمرة النوم كأنما بلمسة سحرية!)

كان عرض المسافة بين القضيبين فى خط السكة الحديد المتجه من وادى حلفا جنوباً أضيق من مثيله فى مصر، ولذلك كانت هزة القطار الناجمة عن ذلك تساعد البعض على الخلود للنوم. أما بالنسبة لأولئك الذين لا ينامون، فإن الرواد الأوائل بالسكة الحديد قد هدام تفكيرهم إلى بناء محطات على الخط تعرف بالأرقام فقط، ويمكن تغطيتها طائلاً لا توجد بهائم ينشغل المسافر بعدها عبر تلك الصحراء الممتدة إلى مدينة (أبو حمد) حيث يمانق الخط نهر النيل مرة أخرى.

عند الفجر، أو بعد وصول القطار إلى محطة التقاطع يلتقى خط السكة حديد القادم من بورسودان بالخط الرئيسى القادم من الشمال إلى الجنوب ماراً بمدينة شندى إلى الخرطوم وما يليها. كان يحيط بمحطة التقاطع هذه عدد من المنشآت العمرانية أكبر بكثير من ما هو موجود على طول الخط من الشلال. كما توجد بها خطوط فرعية صغيرة مغلقة بالمديد من عربات السكة حديد والشاحنات، بالإضافة إلى أربعة أرصفة على الأقل، لذلك لا غرابة أن يطلق عليها (سويندون السودان The Swindon of Sudan). إنها مدينة عطبرة التى كانت محطة وصولى النهائية.

انتقلت للسكن مع رجل اسكتلندى عطوف من موظفى مكتب الإدارة، تفضل باستضافتى إلى أن تم العثور على موظف عازب سمح لى بمشاركته فى سكنه الذى كان عبارة عن (قطية) مبنية بالطوب الأحمر والمونة الحرة، ولولا تلك

المروحة التي وضعت هناك لإنزال الهواء الساخن الذي كان يتجمع في القطية، وذلك الطوب التقليدي المصنوع من طين النيل الذي بنيت به القطية، لأصبح الجو فيها أكثر تحملاً. غير أنى سأظل ممتاً لذلك للأبد، خاصة أنى كنت بحاجة إلى بضعة أسابيع ريثما يصل عفشى الثقيل ( صندوق شأى ) عن طريق بوريسودان. فى غضون ذلك كنت أخرج سيراً على الأقدام لاستكشاف المدينة قبل أن أشتري دراجة مستعملة كانت فى السابق أكثر استعمالاً مما هى عليه الآن بعد شرائى لها.

كانت هناك بقالة ماركيتو (Marketto) ، ومكتب البريد، ومبنى رئاسة السكة الحديد، ورئاسة مصلحة الهندسة المدنية، وورش السكة الحديد التى تغطى مساحة شاسعة، وكان أبرزها المكتب الرئيسى للهندسة الميكانيكية، ومصلحة الكهرباء المشيدتين بالطوب وليس بالزئلك.

كانت ساعات العمل الرسمية تبدأ عند السادسة والنصف وتستمر حتى الثامنة والنصف صباحاً، ثم فسحة لمدة ساعة لتناول طعام الإفطار الشهى، وبعد ذلك يستمر الكدح حتى الثانية بعد الظهر لستة أيام فى الأسبوع. كانت تلك الصدمة الأولى. أما الصدمة الثانية فقد تمثلت فى تلك العاصفة التى صاحبت تقديمى إلى رؤسائى بمستوياتهم الثلاثة. لقد انتظرت أسابيع قبل أن أقابل المدير العام الذى كان يتقل بسيارة ليموزين أنيقة عنابية اللون، ويبدو أنه كان يصل إلى المصلحة بعدى ويفادها قبلى. لا شك أن وضعه الوظيفى كان يستدعى ذلك، ولكن سلوكه فى القيادة كان يختلف كثيراً عن أسلوب هارفى جونز (Harvey Jones) فى القيادة على سبيل المثال، الذى اعتبره بطريقتى البسيطة الأسلوب الأنسب. أما الصدمة الثالثة فقد كانت عندما أدخلت إلى مكتب يضم (دسته) أو نحو ذلك من كتبة الحسابات الذين كانوا بأسلوبهم المحلى يعملون بهمة ونشاط، وهو يلى المكتب المخصص لى: "محاسب - قسم المرتبات والملاوات". لقد تأكد لى، وأستطيع بدورى أن أؤكد أن جميع النظم

واللوائح ذات الصلة كانت معلومة بصورة جيدة لدى رئيس القسم القبطى المسيحى المصرى الذى تمّ تقديمى إليه. وبالرغم من ذلك، ومن كونه هو الذى يقوم بالتوقيع بجانب توقيع مقدم الطلب أو بصمته، ثم التوقيع من قبل رئيسه بالاعتماد، ثم توقيع الموظف المخول له فى أحد المكاتب الرئيسية بمطبرة، إلا أنه بالرغم من كل هذه التوقيعات ما كان يمكن صرف ملزم واحد دون أن يعمل إذن الصرف توقيمى أيضاً بل والأسوأ من ذلك أنه إذا اكتشف المراجع الداخلى، أو أحد مفتشى مكتب المراجع العام أى خطأ ما فإننى أنا الذى أتحمّل مسئولية ذلك. كانت ترد إلينا فى كل شهر أكداً من استثمارات المطالبات المالية، ولذلك فكرت فى محاولة تقويض شرف التوقيع إلى جهة أعلى، ولكنهم نصحنى بالدول عن هذه الفكرة.

يمكننى أن أؤلف كتيباً عن تلك النظم واللوائح التى تتركس ذلك الاهتمام العجيب بالمحافظة على أموال الخزينة العامة، والتى تسمح فى نفس الوقت بشراء أسطول من القاطرات التى هى، فى تقديرى، مشكوك فى ملامتها لاحتياجات ومناخ السودان وطبيعة أرضه. ولكن دعنا نخوض غمار شئون أخرى أكثر توسعاً بعد أن نضيف أولاً أن الكتابة المريبة كانت تغلب على عملنا الورقى. وبالرغم من ذلك، و تواضع درجتى الوظيفية، إلى جانب المسئوليات الجسيمة الملقاة على عاتقى، كان مطلوباً منى إحراز درجة المرور فقط فى اختبار اللغة المريبة الشفهى للمبتدئين مع إعطائى مهلة عامين للاستعداد له. غير أنه لم تكن هناك فرصة للتعلم بخلاف الاستماع إلى حصص الحساب اليومية، وتكليف المراسلة بأخذ هذا أو إحضار ذلك.

كنا نستعمل الحرفين (إس. آر. SR) كاختصار لـ (Sudan Railways) سكك حديد السودان، مع أنه بعد ضم خدمات البواخر النهرية التى كانت جزءاً من نفس الإدارة الحكومية، أصبحنا نستعمل الحروف (SGR&S) كاختصار لـ (Sudan Government Railways & Steamers) ، أى سكك حديد وبواخر

حكومة السودان، وربما كان ذلك للتأكيد بأن البواخر خدمة حكومية. غير أن التشميب لم يتوقف عند هذا الحد. فقد كنا ندير أيضاً بعض الفنادق لراحة المسافرين بالطيران الإمبراطوري، لذلك لم لا يصبح الاختصار (SGRS&H) "سكك حديد وبواخر وفنادق حكومة السودان، أو (SGRSH + PS + PS + RC&A) ليشمل كذلك محطات توليد الكهرباء (Power Stations) الثلاث في عطبرة، ووادي حلفا، وبورتسودان، إضافة إلى خدمات الميناء المتسمة في بورتسودان (Port Seivices) واستراحة ميسكر أركويت (Rest Camp) ، والخطوط الجوية ((Airways (إدارة الحركة فقط)، مع أن هذه القائمة لا تشمل المؤسسات الصغيرة الأخرى التي تديرها السكة الحديد لمقابلة الاحتياجات التي لا يمكن توفيرها من قبل القطاعين التجاري أو الصناعي، مثل مصنع تكسير الحجر لرصف الطرق، ومصنع القطران لصيانة الأخشاب، والمدرسة الصناعية بجبهيت، ومصنع مشتقات الخرسانة. غير أن حكومة السودان قد اختارت اسم "إدارة سكك حديد السودان" مع أنه لا يعكس سوى تلميح بسيط لشخصيتنا المختلطة، وعلى كل لم يشمل الاسم كلمة "حكومة" مما وفر لنا نوعاً من الاستقلالية التي كنا نتمناها ونستفيد منها كلما كان ذلك ممكناً.

كان الدور أو "الرسالة" - كما يصطلح عليه الآن - الذي تضطلع به سكك حديد السودان، والمؤسسات التابعة لها رهيباً بحق، ولكنه يتسم بالحيوية والإثارة.

عندما يتذكر المرء طول المسافة بين وادي حلفا وجوبا (حوالي ١٧٠٠ ميل) والمسافة بين بورتسودان والجنينة (حوالي ١١٠٠ ميل)، وتلك المساحة الشاسعة التي تبلغ بضعة ملايين ميل مربع، لا بد أن يصاب بالدهشة، ذلك أن ما يبلغ مجموع طوله ٤٥٠٠ ميل من خطوط السكة الحديد والبواخر النهرية، أي بنسبة ٥٠% من تلك المساحة تقريباً، كان يعتبر بالنسبة للسودان بمثابة العمود

الفقرى لأنشطة النقل والمواصلات والتجارة والتنمية، وكان من النادر القيام بأى نشاط حكومى أو خاص دون مساعدة من السكة الحديد. كان المجيئ إلى السودان أثناء اشتعال الحرب فى أوروبا يضى على المرء شعوراً بالهدوء والسعادة والامتنان، ولكنه مشوب بنوع من وخز الضمير ناجم عن الإحساس بالهروب من أداء الواجب أو اتخاذ الخيار الأسهل.

غير أن كل ذلك لم يلبث أن تغير بسرعة عندما قرر مومولينى الانحياز والدخول فى الحرب. كانت لدينا فكرة بسيطة عما يدور فى وايت هول (White-hall) إلى أن جاءنا بعض الخبراء العسكريين ليشرحوا لنا ما كان يحدث هناك، وليناقشوا معنا الاحتياجات المطلوبة من خدمات السكة الحديد والبواخر النهرية، وخططهم فيما يتعلق بتوفير المؤن العسكرية. وكان التصور حسب أحد مقترحاتهم التى صرف عنها النظر نهائياً هو إمكانية نقل ١٠٠٠ طن من المؤن يومياً من منابع نهر الكونغو فى غرب أفريقيا، عبر مدينة جوبا، ومن هناك إلى مصر، ذلك أن الخبراء الزائرين لم تكن لديهم أية خبرة عن منطقة السدود، أو أدنى معرفة ببواخرنا التى لم تكن حمولتها تتجاوز ٢٠٠٠ طن، ليس يومياً أو شهرياً، وإنما سنوياً.

ورد اقتراح آخر مناسب بإقامة مستودع على بعد ستة أميال شرق مدينة عطبرة، وتم تنفيذ الاقتراح بالفعل، بالإضافة إلى إقامة ورش لترميم وإصلاح الدبابات والمركبات الأخرى، وأطلق عليه فوراً اسم (إسلاو Slough) ومنع منعاً باتاً ترديد كلمات قصيدة بيتجمان (Betjeman) التى تقول: "تمالى أيتها القنابل الصديقة واسقطى على [إسلاو]. خاصة أن بعض القنابل المعادية كانت فى الواقع تقذف على السودان من الطائرات الإيطالية. لم تسبب القارة الأولى على عطبرة أى دمار فيما عدا إصابة شخص واحد بجرح طفيف، أما الثانية فقد أسقطت مواد متفجرة على المحطة، وبعض القنابل المحرقة على المكاتب،

ولكن لم يصب أحد بأذى، وفيما بعد تم إرسال طائرتين من طراز كلوستر Gloucester لحمايتنا، ولكن لم تستدعى أى منهما لمناوشة العدو.

أصبحت بورتسودان مزدحمة جداً بالممل، وكذلك الخط الحديدى/ النهرى الموصل من هناك إلى الشلال. غير أن الأوضاع الأمنية فى القاهرة لم تكن كما يجب أن تكون، وتبعاً لذلك كانت قوافل سفن الحلفاء تعاني كثيراً أثناء عبورها للبحر الأبيض المتوسط، ولذلك تم إيجاد وتشغيل بديل آخر بمنتهى السرية. لقد استطاعت إحدى القوافل التى أبحرت حول أفريقيا أن تصل إلى بورتسودان بسلام، وتم شحن المؤن بالسكة الحديد إلى قواتنا المتمركزة فى الصحراء الغربية.

لقد طلب من حكومة السودان فى وقت سابق إخلاء طرف أى موظفين أوروبيين يمكن الاستغناء عنهم لمساعدة القوات العسكرية الضعيفة بما فى ذلك قوة دفاع السودان، وكنت قبل ذلك أتساءل: متى تطلب وزارة الحربية استدعائى من السودان بتمام وزن لحمى البالغ ١٢٢ رطلاً؟ وحتى أتمكن من استمجال الأمور لتصب فى مصلحتى الشخصية، فقد طورت المبدأ الذى كان معمولاً به فى السكة حديد من جاء أخيراً يذهب أولاً. وفى النهاية كان هناك أفندى<sup>(١)</sup> مصرى ملماً أكثر منى بممل المراتبات والملاوات، بل ربما كان يعرف أكثر منى كيف يتهرب من المسئولية. ولم يمض وقت طويل حتى كنت فى طريقى إلى قيادة الجيش بالخرطوم حيث عملت أولاً فى وظيفة مدنية. وعلمت من خلال التجربة أن الجيش له مقدرة خاصة فى وضع الأشخاص غير المؤهلين فى الوظائف التى تسند إليهم، فقد سبق أن وضعونى فى كتيبة الأسلحة الخفيفة رغم أنه تم تدريبى على المدفعية، والغريب أنهم الحقونى

---

(١) كان لقب «أفندى» يطلق على الموظف المصرى أو السودانى، فمثلاً إذا موظف فى السكة الحديد اسمه محمد حسن عبدالله، فإنه يصبح محمد أفندى حسن عبدالله.

الآن بسلاح المخابرات. كان العمل محاطاً بسرية فائقة ومثيراً جداً، حتى أنني عملت لفترة قصيرة مع الجنرال وينجيت Wingate الذي كان في السابق حاكماً عاماً للسودان، وخبيراً متخصصاً في شئون الشرق الأوسط. كنا نعمل بنظام المناوبة لتغطي ساعات اليوم الأربع والعشرين، وفي إحدى الليالي وصلت رسالة تبدأ بعبارة "وزير الدولة"، وبما أنه كان يوجد واحد فقط، فقد أرسلت الرسالة إلى السراى حيث كان أنطوني إيدن يقيم آنذاك مع الحاكم العام، وهكذا نقلت إليه الأخبار غير المسارة بأن قواتنا سوف تتسحب من اليونان، ولربما يكون ذلك فوراً.

تعبت ترقيتي في هذا الوقت إلى رتبة ملازم في سلاح المخابرات، ونقلت إلى أسمرأ، وكانت الرحلة إلى هناك تمتع بالتحفيزات المفاجئة، فقد توقفنا في مدينة كسلا للتغيير وحمل أمتعتنا على ظهورنا عبر خط السكة الحديد. وبما أنني كنت ملماً بمواعيد السكة الحديد الدقيقة، فقد كنت متأكداً أنه لن يصل قطار في تلك الساعة، ولذلك رحلت أعبّر الخط دون مبالاة، إلى أن وجدتني أقفز فجأة وحمل على ظهرى عندما سمعت صغيراً صاخباً لقاطرة صغيرة تريد أن تتحول من خط إلى آخر. كان واضحاً أنه من غير المسموح أن أخرج كما أشاء مثل سفير متجول بسلاح المخابرات. أما الرحلة من كسلا إلى إريتريا فقد كانت صعبة ومخيفة، ذلك أن ممركة (كرن) كانت قد انتهت منذ فترة قصيرة حيث كانت عزيمة وإصرار رجال كتيبة (الكامبيرون هايلاندرز) وهم يتعاملون مع موقع يفترض أن يكون حصينا، مذهلة ومثيرة للإعجاب وتدعو إلى التأمل.

لم يكن ارتفاع مدينة أسمرأ البالغ ٦٠٠٠ قدم فوق سطح البحر هو وحده الذي جعلنا نلث، وإنما كذلك جاذبية النساء سواء أن كن إيطاليات أو أثيوبيات. كان جميع الضباط تقريباً لديهم وسائل مواصلات فردية، ولذلك أرسلت إلى سلاح الإشارات حيث تعلمت خلال حصّة مدتها عشر دقائق كيفية ركوب الدراجة النارية، ولكن بعد بضعة دقائق فيما بعد، وأثناء أدائي لمهمة من القيادة

إلى مكتب البريد، انحل (الكتش) وتناثرت أجزاءه على الأرض في شكل قطع صغيرة. وبما أنه لم يكن يتوفر المزيد من المركبات التي تم الاستيلاء عليها كفنائم ( كانت تعرف رسمياً بالمصادرة)، فقد عدنا إلى السير على الأقدام، والوقوف على الطرقات لاستجداء الركوب بالتأشير للمائتين (Thumbing Lifts)، فيما عدا تلك المهمة الرسمية التي كلفت بها إلى مصوع، والتي خصصت لى فيها سيارة كبديل مؤقت، وطلب منى أن أحرص على الوصول إلى مصوع خلال النهار حيث يفلق الطريق بعد ذلك وربما تسبب الترميمات التي كان يقوم بها سلاح المهندسين الملكى بعض المشاكل. كان الهبوط إلى مستوى سطح البحر فى مسافة طولها ٦٠ ميلاً يعنى احتمال السير تجاه الساحل بسرعة قد تصل إلى ١٠٠ كيلومتر فى الساعة إذا نفذ وقود السيارة. أبصرت أمامى مستشفى ميدانياً لم يكن لى به علم من قبل، فرأيت أن أسجل زيارة مجاملة للممرضات، وبذلك فقدت الأمل فى الوصول إلى مصوع أثناء النهار. لم يذكر لى مهندسو سلاح المهندسين الميكانيكيين والكهربائيين الملكى الكرام أى شيء عن ضعف (فرامل) السيارة، ومزاجية نظام الإضاءة فيها، ولربما كانوا يعتقدون أننى سوف أكتشف الأولى بسرعة، وأننى لن أحتاج إلى الثانية، هكذا خمنت! لقد انطلقت أنوار السيارة فى منحدر عال أثناء الهبوط من ارتفاع ٦٠٠٠ قدم، ثم بدأت تتوقف تدريجياً. حاولت بكل ما لدى من معرفة أن أعيدها إلى الحياة، وفى النهاية تركتها تتقهقر إلى الخلف دون (تمشيق)، ثم وضعت الترس مرة أخرى ونجعت هذه الحيلة، ولكنى لا أوصى باتباعها على الطرق الجبلية أثناء الظلام. دفعنى حب الاستطلاع للخروج من السيارة لأعرف إلى أى مدى يمكنى إرجاع السيارة إلى الخلف، فوجدت أن المسافة المتبقية لا تتجاوز بضعة بوصات بين إحدى العجلتين الخلفيتين والسقوط فى هاوية مجهولة قد تكون عميقة جداً.

لم تعد مدينة مصوع ممسكراً لقضاء الإجازات، فقد قام الإيطاليون الذين يفترض أن يكونوا مهندسين، ورومانسيين، ومثقفين، بتدمير جميع منافعها

العامّة، وبذلك شجعوا الملايين من الذباب الرملى على محاولة القضاء علينا. كانت لدى فكرة عن حرارة الطقم ورمولته فى مصوع وأهمية الناموسية، وكنت أحمل معى زجاجة (جن) ليمساعدنى على النوم، ولكن كنت فى كل مرة أحاول فيها ارتشاف جرعة كبيرة، فهاجمنى آلاف الذباب الرملى الذى كان يطن فى أذنّى كأنما يريد أن يقول لى: "إعطنا جرعة مماثلة"، ولكنى لم التحق بسلاح المخابرات عيباً، فقد رفعت الزجاجة وأدخلتها معى داخل الناموسية، واستسلمت فى النهاية إلى النوم وأنا أضحك مع نفسى لما سببته للذباب الرملى من غضب شديد.

عندما عدت إلى الخرطوم كان وينجيت مشغولاً بتنظيم عملية تهريب شحنة نفيسة إلى أديس أبابا ممثلة فى الإمبراطور هيلاسلاسى، ومشفرة بعبارة "غير متوقع بتاتا" (Highly Unlikely). وبعد إنجاز هذه المهمة ظللنا نقيم فى خيام بالقرب من محطة الكهرباء كمجاملة لنا من شركة النور وإمداد المياه، ولكننا استبدلنا تلك الخيام بذلك "القصر الوردى" الجميل الفاخر الذى كان يختبئ فيه الإمبراطور هيلاسلاسى، وعندما أصبح جاهزاً للتفتيش النسائى، أقمنا حفلة تدشين دعونا لها المشرات من فتيات المدن الثلاث، وممرضات أحد المستشفيات الميدانية، وفتيات الـ (ATS أو الـ WAAS) من الخرطوم بحرى، وكان بين الضيفات سلفيا كولنز (Sylvia Collins) من الخدمات الطبية السودانية التى كنت قد التقيت بها فى بورسودان عندما نقلت إلى هناك بين فترة عملى فى إريتريا وعودتى إلى الخرطوم.

كان هناك نوع من المودة والفرل جعلنى أتردد بالدراجة النارية جيئة وذهاباً بين ميزنا بالقرب من كبرى السكة الحديد بالخرطوم بحرى، وميز الممرضات فى أمدرمان، هل تصدق؟ لم يكن الطريق إلى الزواج لدى مكتب مدير المديرية بجوبا بالقصير أو السهل، غير أننا استغلنا أن نستمتع فى البداية بالحياة الاجتماعية فى الجيش والحكومة السودانية، وببهجة نادى المودان، والتجديف

فى النيل الأزرق. تلى ذلك نقلى إلى (كفرة) فى وسط الصحراء الليبية التى تقع على بعد مسافة طويلة إلى الشمال الغربى من مدينة وادى حلفا. لقد أثارنى . كما كنت أعتقد . احتمال أن أكون قريباً من القوات الألمانية بكل ما يشككه ذلك من خطر، وكذلك إمكانية قيامى بمساعدة قواتنا عن طريق تشكيل قوات خاصة، ولكن نظراً لتدخل سكك حديد السودان، وحكومة السودان فى الأمر، فقد طلب منى العودة إلى إدارة السكة الحديد.

لقد قاومت المودة بشدة. كان المصريون يسيطرون على العمل ويؤدونه بكفاءة لوقت طويل، ولكنى استعظمت، على أى حال، أن أنمى نوعاً من الاحترام للنظام العسكري رغم شكوكى السابقة. كنت متأكداً أننى سأكون أكثر فائدة للمجهود الحربى بنهاى إلى كفرة، غير أن الجيش بحث إلى ببطاقة الرفض الثانية، ولكن هذه المرة بدون أطرافها المذهبة، وقبل إتاحة الفرصة لى لرفع الموضوع، بواسطة قائد فى الخرطوم، إلى القيادة العامة فى القاهرة، ومن ثم إلى وزارة الحربية. لم يكن فى هذه المرة أى مجال للخطأ، فقد أمرت ببساطة أن أعود إلى تقلد مسئوليات مدنية ذات أهمية وطنية. إن من اتخذ هذا القرار، أياً كان، لم تكن لديه أية فكرة عن الأهمية المتناهية الصغر لإضافة توقيع خامس على مئات الطلبات الخاصة بملاوات السفر والإعاشة.

بقيت فى الخرطوم إلى أن كادت السكة الحديد أن تعيدنى إلى عطبرة بالقوة، ولكن بعد أن عرضت خدماتى على مكتب الإمدادات الحربية (أصبح يطلق عليه فيما بعد اسم "مصلحة الاقتصاد والتجارة")، الذى أبدى رغبة شديدة فى تعيينى لديه، وكنت أعتقد أنه بما لدى من معرفة وخلفيات سأكون ملائماً لديه أكثر من بقائى فى السكة الحديد، غير أن الأخيرة تمسكت بشروط تعاقدها معى.

عندما عدت إلى عطبرة، وفور تقديم الإخطار باستقالتى، استدعيت إلى السراى، حيث أخطرني سعادة الحاكم العام أنتى يجب أن أذن إلى القرار، وكان

هو القائد الأعلى للجيش، والحاكم المدني للسودان. لقد استمع إلى بتفهم وتعاطف، وأعطاني انطباعاً بأنه لو كان في مكاني لكان قد تصرف بالمثل، ولكنه قال إنه ليس بالإمكان تجاهل السكرتير الإداري، ومدير عام السكة الحديد. لذلك قدم لي خيارين: إما عطبرة أو السجن بالخرطوم بحرى. وبما أن السجن لن يساعد السكة الحديد، أو الجيش، أو يرفع معنويات البريطانيين، فقد اخترت التوجه إلى عطبرة. ثم طلب من الياوران أن يكتب لي خطاباً يعبر فيه عن تقديره لخدماتي. تسلمت هذا الخطاب في فرندة الفندق الكبير بواسطة ساعي البريد العسكري الذي تلقيت منه تحيتي العسكرية الأخيرة .

بعد عودتي إلى مقرن نهري عطبرة والنيل، وجدت الحياة كما كانت عليه من قبل، فيما عدا النقص المتسارع في المتاجر والأسواق، والإرهاق المتنامي من كثرة الطلبات الإضافية على كل فرد، علاوة على قلة الإجازات أو ربما عدمها. وأصبح التعمين لشغل الوظائف الخالية من المتقاعدين مستحيلاً عملياً إلى أن بدأ تسريح الجيش في الوطن. وأثناء ذلك كان التضخم يزحف إلى الداخل، ولكن ساعد على احتوائه سياسة الحكومة الحازمة فيما يتعلق بالمرتبات والملاوات الحكومية.

كانت الحياة في الحي السكني للسكة الحديد مليئة بالأنشطة الاجتماعية، رغم أن نشوب الحرب قد أدى إلى أن يكون عدد الزوجات أقل من المعتاد. غير أنه عندما تم تخفيف الحظر على السفرات المدنية، أصبح بالإمكان إحياء نشاط المسرحيين بمطبرة، وتم تقديم العديد من الأعمال المسرحية الطموحة، واستمر نشاطهم مزدهراً حتى عام ١٩٥٥ عندما تقاعد العديد من الموظفين البريطانيين.

كانت المدارس تشكل مشكلة بالنسبة لنا، ولكن مدرسة الراهبات بمطبرة كانت تقوم بإعطاء الأطفال وغيرهم أساساً جيداً في التعليم المتأخر، وقد

أسعدنا الحظ بوجود سلسلة من المعلومات المخلصات المقدرات بين سيدات عطبرة.

كانت الأنشطة الرياضية بأنواعها المتعددة تعتبر من وسائل التسلية الجادة، وكانت الفرق الزائرة من الخرطوم تحظى بمنافسات قوية، بالرغم من أننا كنا نخسر أمامها لقلة الجمهور الذي يقضى فترتها. وكانت مباريات التنس تتال اهتماماً واسعاً، وتكشف عن مهارات عالية خاصة بين السودانيهن الذين كنا نرحب بهم دائماً.

لا يمكن أن تكتمل هذه الحكاية دون ذكر لبعض نوادر "الشخصيات" التي أضافت إلى حياتنا نكهة خاصة، واحتلت مكاناً بارزاً في ذاكرتنا. كان هناك مصور سينمائي يملك قدرة عالية في إيجاد المناظر التي تمكنه من رؤية وتصوير كل ما يحدث بزاوية ٩٠ درجة من خط إبصاره الظاهري، وكان الناس دائماً يصطفون من أجل مشاهدة الأوضاع المحرجة التي قام بالتقاط صور لها. كذلك كان هناك شاب آخر أعزب يحتفظ بسيارته الصالون في حالة عرض مستديمة، ولا يستخدمها إلا في المناسبات النادرة، ثم باعها أخيراً بأكثر مما كلفته. ثم مراقب المواصلات المبقرى الذي قام باختراع وتطوير (ترولى) بمحرك لاستخدامه على الخط الحديدي، وكان أفخم بكثير من ترولى "المضخة" العادي، لولا أن جهاز تبريد المحرك (الراديبتر) كان يسخن بسرعة. غير أنه وجد حلاً لهذه المشكلة بإزالة جهاز التبريد من المقدمة، وبدلاً من ذلك قام بتركيب جهازى تبريد على كل جانب من المركبة، حتى يكون أحدهما أو الآخر في الظل دائماً. ونسبة لولمه الشديد بأمور الطاقة فقد علق، عند استلامه برفية بأنه قد أصبح أباً لتوأمين، بقوله: "حسناً، هذا يوضح أنني كنت في قمة اللياقة".

ولكن ماذا صار لتلك العلاقة الرومانسية التي بدأت في "حفل القصر الوردي"؟ لقد استمرت، ولكن نظراً إلى الفساد الذي كان ملازماً للثقلات، فقد

نقلت (سيلفيا) إلى مكان بعيد خارج المدى الذى يمكن أن تصل إليه الدراجة . إلى جوبا، فأصبحنا نعانى سوياً من ضنى المحبين ووحشة الفراق والحرمان، إلى أن استجد تعديل غريب فى لوائح الإجازات فتمتعوا على إجازة لمدة ستين يوماً فى شرق أفريقيا خلال العام الجارى. تقدمت سيلفيا أيضاً بطلب لمنحها إجازة بنفس المدة، وتمت الموافقة على طلبها، ولكن البرقية التى قالت فيها "نعم" لمرضى عليها بالزواج منى قد ضلت طريقها إلى مكان يبعد عن عطبرة ببضعة أميال. ومما يدعو للفرابة أنه كان هناك أشخاص آخرون يحملون أسماء (Niel, Neale, Nealon, and Nolon) ، وعندما يتم نقل البريد والبرقيات الخاصة بهم من الحروف الإنجليزية إلى العربية يتضح ما حدث من خلط. وعلى كل حال تكرم المستلم بإعادة توجيه برقيتى الغالية إلى بالجمل السريع!

سافرت إلى الجنوب، ولبضعة أيام عكس تيار النهر من ملكال، ظلت مدخنة الباخرة (الرجاف) تشتعل مع حرارة وقود حطب السنط. كانت التعليمات لمهندس الباخرة تقضى بأن يستمر فى الرحلة ما لم يكن هناك خطر يهدد الممتلكات الحكومية، أما المسافرون فلا يهم! بعد شهر العسل الذى استمر لمدة سبعمين يوماً عدنا إلى الخرطوم فى الوقت المناسب الذى يمكننا من الجلوس للامتحان التحريرى للغة العربية، وكان المستوى الذى أحرزناه أعلى من متطلبات الدرجة الوظيفية لكل منا، ولذلك منح كل منا مكافأة مالية قدرها عشرة جنيهات مصرية، مما مكنا من شراء سجادة مصرية ضخمة لا زالت تبدو حتى الآن وكأنها يمكن أن تمشى خمسين سنة أخرى. لقد تعلمنا معظم الكتابة العربية خلال أيام شهر العسل مما يدل على وحدة عزيمتنا من نوع "سأفعل إذا فعلت".

فى خلال أربع سنوات من عودتى إلى عطبرة وصلت إلى درجة وظيفية عليا، ولو أنها لم تتجاوز المعدل الأساسى المسموح به للترقية، مع أن المعدل الذى كان معمولاً به بالنسبة للموظفين الذين تم تعيينهم بدون خبرة بمد

الحرب، كان أعلى من ذلك بنسبة ٢٥ - ٣٠٪ غير أنه من ضمن حظي، ونظراً إلى كبر سن رؤسائي، فإنني بعد ترقيتين إضافيتين أصبحت أحتل مقعد كبير المحاسبين، وأتراس ٢٢٠ موظفاً، وهو إنجاز لا بأس به بالنظر إلى نفوري السابق وعدم رغبتى في الالتحاق بمهنة المحاسبة والمراجعة. وعلى ذكر هذه المناسبة فقد قام الموظفون التابعون لى بتسجيل نقابتهم، ولكن لم يحدث أبداً أن تقدموا إلى باى طلب للتفاوض، ولا زلت أستغرب لماذا لم يفعلوا ذلك؟

عندما تسارعت عملية السودنة، قمنا بإعداد مشروع لتدريب المحاسبين في أوقات الفراغ. وبحلول عام ١٩٥٥ أصبح هناك عدد كاف من السودانيهين المؤهلين وشبه المؤهلين لشغل أكثر من الوظائف العليا الست، وعشرات الوظائف الأخرى على مستوى امتحان الشهادة المتوسطة، غير أنه من المؤسف أنه لم تتح لهم الفرصة للعمل بالترادف مع الموظفين الوافدين حتى يكتسبوا الخبرة من خلال التطبيق العملي. هكذا انتهت فترة خدمتى بالسودان التي اختلفت أثنائها مع ثلاثة من مدرائي العموميين الأربعة، وقال لي أحدهم أنه "يوجد مكان لمدير عام واحد فقط بسكك حديد السودان". والغريب أنني بعد مغادرتي السودان قد انجرفت نحو مهنة الاستشارات الإدارية حيث أصبحت اتقاضى أثماناً مقابل ما أقدمه من نصائح وآراء بدلاً من الاستقبالات الباردة والجامدة أحياناً، ولكن كانت الحياة طيبة في السودان، اكتسبت فيها خبرة ممتازة في إدارة شئون الموظفين، كما تعلمت منها الكثير من الأعمال الأخرى.



## خاتمة..

دعنا نتذكر مساحة السودان الشاسعة وصغر حجم خدمات السكة الحديد والبواخر النهرية، ولكن عندما غادرنا السودان كانت السكة الحديد والبواخر النهرية تحمل ٦,١ مليون طن من البضائع، و٦,٢ مليون مسافراً في العام.

كانت موازنتنا منفصلة عن موازنة حكومة السودان، وعندما بدأ مجلس النواب في ممارسة أعماله، طُلب مني أن أجلس خلف وزير المواصلات أثناء تقديمه لآخر موازنة اشتركت في إعدادها. كان صافي المائد المتوقع يتجاوز ٢ مليون جنيه مصري من إجمالي إيرادات بلغ قدره ٤.٥٠٩ مليون جنيه مصري. ربما لا تمنى هذه الأرقام شيئاً في عالم اليوم باستثناء ما يتعلق بشروط الإعاشة في الفندق الكبير في عام ١٩٥٥ التي لم تتجاوز ٧٠٠٢ جنيه (جنيهان ومبعماية مليم مصري) في اليوم.

نك نيل (Nick Neale)



13

---

حكاية

الطالبة

---

*Sudan Canterbury Tales*

كنت طالبة بكلية شيلتنهام Cheltenham للبنات في عام ١٩٢٠، وقد احتفلت لتوى بعيد ميلادى السادس عشر، ولم أكن أتطلع إلى إكمال سنة الشهادة المدرسية. قبل نهاية الفترة أخبرتنى والدتى بأنها قد تحدث عميدة الكلية المربعة وأخبرتها بأننى سوف أترك الكلية لقضاء سنة أشهر بالسودان مع شقيقتى الكبرى التى كانت قد تخرجت حديثاً في الكلية. وأضافت الوالدة أنها تعتقد أن ما سأتعلمه في السودان سيكون أفضل بكثير مما تلقينته في الكلية.

كان ذلك بالنسبة لى أمراً مثيراً للغاية، ولذلك قررت أن احتفظ بمفكرة يومية أسجل فيها جميع أحداث هذه التجربة. كان والدى روبرت فوكس<sup>(١)</sup> (Rubert Fawkes) يعمل في وظيفة كبير المهندسين الميكانيكيين بسلك حديد السودان المتمركزة في مدينة عطبرة، وكان من المقرر أن يعال إلى التقاعد في الربيع التالى عند بلوغه سن الخمسين. لقد سمعنا عن السودان كثيراً خاصة بعد أن كبرنا. وكانت في بيتنا بعض الصور الفوتوغرافية، وقطع من الفضة السودانية، والمصنوعات الجلدية. كما كنا نسمع الكثير من القصص عن الحياة في عطبرة، وكانت ترد إلينا بالبريد أصناف من التمور السودانية التى يصنع منها طبائخنا أنواعاً من الحلوى. كانت أُمى تقضى شهور الشتاء في عطبرة، وتعود إلى إنجلترا مع بداية عطلة الربيع المدرسية. أما الوالد فكان يأخذ إجازته في أكتوبر من كل عام، وتتمدد إلى ثلاثة أشهر.

---

(١) تدعى الأميرة أنها من سلالة جاى هوكز المشهور.

تم الحجز لنا للسفر عن طريق البحر من مرسيليا فى أوائل شهر أكتوبر، ولذلك كان لا بد لنا من القيام بالكثير من التسوق لشراء ما يلزم من الملابس الشتوية. وبما أنه كان من المنتظر أن تظهر أختى فى صالة الرقص بسرأى الحاكم العام بالخرطوم، لذلك كان لا بد أن يكون من بين ملابسها فستان أبيض طويل. أما أنا فقد أوضحت لى أنه يمكننى فقط ارتداء فستان إلى الساقين. باللون القرميلى. كانت الموضة آنذاك أن تلتزم الفتاة فى كل الأوقات بتسريحة شمر متموج عند بلوغها سن الرشد، ولكن ظل شعرى مستقيما كما هو.

أبحرت بنا السفينة فى الليل، وبعد ستة أيام وصلنا إلى بورسعيد حيث نزلنا إلى الشاطئ، وفى مساء اليوم التالى وصلنا إلى بورسودان حيث استقبلنا الوالد بصالونه الخاص الملحق بأحد القطارات العادية. كان الصالون يحتوى على مطبخ بطباخه، وغرفة جلوس، وغرفة نوم مزدوجة. أما أنا وأختى، فقد حجز لنا بحرية النوم لنسافر مع والدنا فى رحلة اليوم الواحد إلى عطبرة. كانت المناظر جميلة وجذابة، وقد أحببت الصعراء منذ تلك اللحظات. وصل بنا القطار إلى عطبرة فى الساعة المباشرة صباحا، ولدهشتى فقد سحب الصالون مباشرة إلى مدخل حديقة منزلنا حيث تولى الخدم نقل حقائبنا إلى داخل المنزل.

كان المنزل يتكون من طابق واحد وتحيط به حديقة يوجد على جانبها الجنوبي مهادن نجيلة ينحدر إلى النيل مباشرة، وكان عمال الحدائق السودانيون يستمتعون بضمه بالماء مرة فى الأسبوع، ولذلك كان مخضراً بصفة مستديمة. وفى الجانب الجنوبي من المنزل كانت توجد أيضاً فرنجة طويلة مؤتلة بالكراسى والكتبات، وكانت جميع الغرف تفتح على الحديقة. لقد سجلت فى مفكرتى أن كل شيء جميل ويبدو جميلاً. كان لدينا زورق كبير يرقد تحت المنزل على ضفة النهر، وفى يوم وصولنا قام الوالد بإنزاله إلى الماء بمساعدة الخدم.

كانت الحياة فى عطبرة جديدة بالنسبة لنا، فكان الوالد يذهب إلى عمله يومياً فى الساعة السادسة صباحاً بدراجته النارية، ويأتى إلى المنزل لتناول طعام الإفطار فى التاسعة، ثم يعود إلى العمل حتى الثانية مساءً، فنتناول وجبة الغداء التى تعقبها قيلولة ما بعد الظهيرة، ثم نخرج إلى اللعب أو السباحة، ومع غروب الشمس نجلس لتناول الشاي فى الحديقة على طاولات صغيرة أنيقة مضادة بمصابيح قياسية. بعد ذلك قد نخرج إلى حفل عشاء، أو نلعب البريدج أو ندعى إلى حفلة راقصة أو نزهة مسائية. كنا دائماً ننام فى الحديقة ليلاً حيث كان الخدم يتولون إخراج أسرقتنا بعد تناول وجبة العشاء، ولا أذكر أننا كنا نستخدم أية ناموسيات أو أى نوع آخر من الحماية.

بعد أن استقر بنا المقام، وضع لنا الوالد برنامجاً لإقامتنا، كان مجتمع عطبرة يذخر بعناية اجتماعية واسعة، ولذلك كنا بحاجة إلى تجديد وزيادة معرفتنا بالبريدج، كما كانت هناك ألعاب أخرى كثيرة مثل التنس، والبادمنجتون، والسباحة، والرقص، وقد استؤجر لى خصيصاً بيانو لأتمرن عليه، وكنت أقوم بذلك لمدة ساعة أو ساعتين فى أغلب الأيام.

كذلك نظمت لنا دروس فى ركوب الخيل مع الكابتن دبل (Dibble) رئيس الشرطة المحلية، وأصبحنا نركب خيول الشرطة ونخرج بها عدة مرات فى الأسبوع. كان كابتن دبل يأتى إلى منزلنا فى الساعة السادسة والنصف صباحاً ليأخذنى وأختى لنركب الخيل منذ شروق الشمس، فنمر من خلال السوق إلى أن نصل إلى المطار عبر أرض فضاء من الرمال والصعراء لا وجود لأحد فيها. وكنا أحياناً نخرج مع الوالد، وفى أحد الأيام كتبت فى مفكرتى أن الخيول كانت لموية نوعاً ما. ركبت الحصان (بيستو) وأوشكت على السقوط من ظهره، ثم جريت حصاناً آخر عمره ثلاثة وثلاثون عاماً، وسقطت منه فعلاً. كنا أيضاً نزاول رياضة التجديف وأحياناً نعبّر بالزورق إلى الجزيرة فى نزهة نتناول

خلالها وجبة الإفطار، ونصطاد طيور القطا (٣٦ زوجاً في مناسبة واحدة)، أو نصطحب معنا عدداً من الأصدقاء فن تناول الشاي معاً، حيث كان الزورق يتسع لثمانية اشخاص بارتياح. ورد في مفكرتى أيضاً أننا خرجنا سيراً على الأقدام لمسافة طويلة على ضفة النيل. كما سجلت في مناسبة أخرى خروجنا بالسيارات في نزهة على ضوء القمر على شاطئ نهر عطبرة. وفي رحلة أخرى، إلى مدينة بربر غرست السيارة في الرمال عدة مرات مع اضطرنا إلى تناول وجبة المشاء وسط الخرابات. كذلك نظمت لنا رحلة أخرى على ظهور الجمال مع بعض الأصدقاء وصفتها في المفكرة بأنها "ممتعة ورائعة" بينما كانت الجمال تغيب بنا في اتجاه بربر.

أما الاحتفال بعيد الكريسماس فقد وصفته في مفكرتى بأنه "الأفضل أبداً". بعد أداء الصلاة في كنيسة عطبرة، كانت هناك شمبانيا في صالة الرياضة، ثم مأدبة عشاء ورقص وسباحة حتى الساعة الثانية صباحاً، وفي الساعة الثالثة من صباح يوم الإهداء (Boxing Day) غادرنا إلى الخرطوم في عربة النوم بالقطار. لم تكن هذه أول زيارة لنا إلى الخرطوم، ولكنها كانت زيارة خاصة لحضور "حفلة الرقص بالسرائي"، غير أنه لم يرد في مفكرتى سوى أن "القصر فخم ومضاء بصورة جيدة. البرنامج ممتاز وممتع جداً. رقصت مع الكثيرين. سهرنا حتى الثانية صباحاً".

كما نذهب إلى الخرطوم كثيراً ودائماً بصالونتنا الخاص الذي كان يضاف إلى قطار المساء ليصل إلى الخرطوم في حوالى الثامنة صباحاً. كان للوالد العديد من الأصدقاء هناك، وكما نقيم مع بعضهم حيث تقام لنا حفلات خاصة. كانوا يأخفوننا إلى حوض السباحة الفخم بنادى السودان (سودان كلوب)، أو يخرجوا بنا في رحلة نهريّة إلى أم درمان لمشاهد ميدان المعركة، وسوقها المدهش، وبيت الخليفة الذى أصبح فيما بعد متحف المهدية.

قمنا بزيارة أخرى إلى الخرطوم لحضور حفل (حديقة القصر). كان الجميع في أبهى حللهم، والوالد يرتدى الزي الخاص بحفل استقبال الصباح. كانت حدائق القصر جميلة، وجلسنا جميعاً حول طاولات صغيرة لتناول الشاي، بينما كان الحاكم العام السير جون مفي (John Maffey) وعقيلته يتجولان بين المدعوين، وفي لحظة معينة وزعت أوسمة الشرف على مختلف الأشخاص. (منح والدي وسام الـ CBE ضمن أوسمة شرف يوم الميلاد لذلك العام). لقد أعجبني الحفل مما جمعه. حضر الحفل أيضاً العديد من الشخصيات السودانية بالإضافة إلى أفراد الجالية الإنجليزية.

كان أحد الأحداث الهامة أثناء إقامتنا في عطبرة هو وصول ثلاث طائرات ضخمة من طراز فيكتوريا إلى المطار تحمل ضباطاً من الجيش ضمن رحلة من القاهرة إلى مدينة الرأس. لا بد أنه كان حدثاً غير عادي، فقد هرع عدد كبير من السكان لرؤية هذا المشهد، ولكن كان هناك دائماً الكثير الذي يستحق المشاهدة: تلك القافلة من الجمال التي مرت بنا أثناء ركوبنا الخيول في صباح أحد الأيام؛ أو أولئك النسوة من الأهالي وهن يسرن على ضفة النيل ويحملن حزم الحطب على رؤوسهن، بينما المراكب تبهر في النهر جيئة وذهاباً.

وهكذا مرت اللحظات، وفي أحد الأيام أجريت مباراة للهوكي استمرضنا فيها أنا وأختي ما اكتسبناه من مهارات في كلية شيلتهام للبنات؛ وعند غروب الشمس في تلك السماء الصافية أقيمت حفلات الشاي، ثم مباراة في البريدج، وبعدها (بروفة) للتمثيلية التي ستمرض خلال أيام عيد الكريسماس بعنوان (هل ننضم إلى السيدات؟) لمؤلفها جيه. إم. بارى J. M. Barri. كما كانت تقام حفلات الرقص بصفة مستديمة داخل المنازل، ومن بينها تلك الحفلة الراقصة التي أقامها الوالد على شرفنا بالمنزل قبل حلول أعياد الكريسماس. استمر الرقص في فرندة المنزل الواسعة حتى الساعة الثانية صباحاً. وتقول مفكرتي عن هذا الحفل: "رائع! (من) كان لطيفاً. أحببت كل شيء".

فى شهر فبراير بدأت إجازة الوالد النهائية التى نظم لنا خلالها رحلة نيلية قصيرة إلى بلاد المينكا. لذلك ذهبنا إلى الخرطوم، ومن هناك أقلنا القطار إلى مدينة كوستى حيث واصلنا الرحلة بإحدى البواخر النهرية لحكومة السودان. كانت الرحلة مريحة والقمرات جميلة جداً كما ورد فى المفكرة.

أبحرت الباخرة عكس التيار وهى تقطر صندلين طويلين مريوطين معاً. كانت المناظر مذهلة ومثيرة: أفراس البحر تسبح من حولنا، وستة من التماسيح تستلقى على إحدى الصخور. ولتمضية الوقت على ظهر الباخرة، كنا نلعب التنس، ورمى الحلقات، ورياضة القفز، وفى المساء نلعب البريدج كامر لا مفر منه، أو نشاهد أحد العروض السينمائية. وصلنا (كدوك) فى اليوم التالى، وهى مدينة مثيرة للاهتمام، واستقبلنا رجال قبيلة الشك بعراة بقاماتهم العالية وملابسهم المزركشة بالخرز، وأغطية الرأس المتعددة الألوان، وكانوا يرتدون ثياباً طويلة تربط عند أحد الكتفين. كذلك كانت النساء بالمثل لافتات للنظر وهن يسرن فى الطريق ويعملن على رؤوسهن الجرار أو الصفائح. قدم والدى للرجال بعض التباكو فتقبلوه بسرور بالغ. وفى اليوم التالى وصلنا إلى ملكال، وهى مدينة كبيرة بمسوقها وشوارعها المحاطة بقطاطى القش. وكانت ضفة النيل تجم بمراكب الأهالى التى يطلق عليها محلياً اسم (نُجَر). أما المنظر العام للمدينة فهو عبارة عن أرض منبسطة تكسوها الخضرة. وفى اليوم التالى وصلت باخرة أخرى لنقلنا فى رحلة العودة إلى كوستى. كانت رحلة مثيرة استمتنا فيها برؤية مناظر الصحراء بمختلف أنواعها.

بعد عودتنا إلى عطبرة بدأت الإستعدادات لمغادرتنا. كانت هناك حفلات عشاء لوداع والدينا، وفى الصباح الباكر كما نركب الخيل حتى المطار، ثم تم تسليم الزورق، ثم أقيم مزاد علنى فى منزلنا. وفى اليوم الأخير قام المطران جواين، أسقف مصر والسودان، والصيديق الحميم لوالدى بأداء صلاة خاصة

في كبينة عطيرة. وفي ذلك المساء ركبنا صالونتنا للمرة الأخيرة وغادر بنا  
القطار مدينة عطيرة في الساعة الثانية صباحاً. وأثناء النهار أخذنا الوالد إلى  
غرفة ماكينة القاطرة البخارية حيث قضينا هناك ساعة كاملة، وكنا أحياناً  
نضع الفحم الحجري على النار المشتعلة المحركة للقاطرة. استغرقت السفيرة  
طوال النهار، ووصلنا مدينة حلفا في الساعة السادسة مساءً. كانت هذه  
بالنسبة للوالد هي رحلة الوداع للسكة الحديد التي ظل يخدمها لمدة ثلاثين  
عاماً.

لكن ليست هذه هي نهاية حكايتي، فقد استمر "تعليمي" طوال سفرنا من  
حلفا عبر مصر، وفلسطين، وسوريا، وتركيا، وقبرص، واليونان، وإيطاليا،  
ويلجيكا، إلى أرض الوطن.

ديانا أودجرز (Diana Odgers)



14

---

حكاية

الجنسدى

---

*Sudan Canterbury Tales*

لقد كان سبب انتدابی إلى العمل بقوة دفاع السودان في عام ١٩٢٨ عندما قابلت سايمون فيرجسون Simon Ferguson، أحد الضباط الذين زاملوني في فرقتي الأرجايل (Argyll) والسزولاندرز، وذلك أثناء زيارته لي في المخيم العسكري الإقليمي في (دنبار Dunbar) حيث كنت أقوم بالتدريب السنوي، وكان قد جاء في إجازته حيث كان يعمل مع حامية الاستوائية التابعة لقوة دفاع السودان، والتي كانت تتمركز في جنوب السودان الإنجليزي المصري في المنطقة المعروفة باسم "المستنقعات"، وكان بالفعل اسماً على مسمى. ونظراً إلى أنني لم أعد أتمتع بسلطات تستحق أن أبقى من أجلها، وحيث أنني بدأت أشعر بالملل من العمل العسكري فيما قبل الحرب، فقد فكرت في الاستقالة من الجندية، ولكن نصحتني سايمون بالمدول عن هذه الفكرة، واقترح عليّ أن أقدم بطلب للانتداب إلى قوة دفاع السودان، حيث تتوافر هناك فرص القيادة الصحيحة، مع الراتب المجزى، ومتمتع العمل في أفضل بلاد العالم من الناحية الإدارية.

وهكذا تقدمت بطلبي، وبعد بضعة أشهر من عام ١٩٢٩ كنت في طريقى على ظهر (لوري) مدني غير مأمون، ولكن ليس إلى (المستنقعات) وإنما إلى كادوقلي بجبال النوبة في أواسط غرب السودان، لأتولى هناك منصب القائد الثاني لسلاح الهجانة التابع لفرقة النوبة رقم (٦) أو "ستجي بلك" كما كانوا يسمونه باللغة العربية، تحت قيادة قس باول (Gus Powel) من البحرية الملكية الذي كان معروفاً بلقب (أبو زيز) لأنه كان كمادته يخلد إلى النوم سريعاً كلما وجد فرصة لذلك.

كانت هناك علاقة وثيقة بين فرقة النوبة السادسة والبحرية الملكية، وكان قائد سلاح الهجانة السابق، الأميرلاي<sup>(١)</sup> إيه. آر. شيترييه (A.R. Chater Bey)، الذى أصبح فيما بعد الميجر جنرال (اللواء) إيه. آر. شيتري، حامل وسام الامبراطورية البريطانية، ووسام الخدمة الطويلة الممتازة، ووسام الإمبراطورية بدرجة فارس. كما كان يأتى إلى كادوقلى فى كل عام أحد ضباط الصف من القوات البحرية لتنشيط برامج التدريب الخاصة بالمجندين السودانيين من قبائل جبال النوبة. وقال أحد ضباط الصف هؤلاء بعد وصوله بفترة قصيرة إن السودانيين فى براعتهم العسكرية يماثلون جنوده فى بليموث (Plymouth) بل هم أفضل منهم، من ناحية أن جندى البحرية لن ينفذ أنفه إذا حطت عليه ذبابة، ولكن النواوى يظل ثابتاً حتى لو جاءه نفس الخطر من زنبور.

كان من ضمن المهام المناطة بفرقتنا القيام بما كان يطلق عليه (جولة المطر)، التى تبدأ من كادوقلى وتنتهى فى تلوى على بعد ٧٠ ميلاً إلى الجنوب. كان الهدف من هذه الجولة هو التدريب واستعراض سلطة الحكومة وقدرتها على الحركة، حتى فى موسم الأمطار، لمواجهة أية انتفاضة محتملة، وقد أظهر هذا التمرين أفضل ما لدى الجنود السودانيين من سلاح المشاة من براعة. بدأنا المسيرة ونحن فى غاية السعادة والسرور لخروجنا من الثكنات، وكنا نتشوق إلى مواجهة صمويات الرحلة. بدأت المواصف الرعدية، وكانت الرعود تقصف من بين الغيوم والبروق الخاطفة، ثم تهطل الأمطار بغزارة، وتتوقف لفترة قصيرة، لنعود للمرح والضحك بينما يخفت صوت الرعد ويتمادى إلى أن يتلاشى تدريجياً، ثم نخلع ملابسنا المبتلة ونلقها على الأشجار حتى تجف، وربما يغالبن الضحك حينما تتحول الأرض إلى طين لزج، ويمشى عليه (الأنفار)

---

(١) الأميرلاي رتبة عسكرية كان يرقى لها الضباط فى ق.د.س. أو (الجيش المصرى)، وهى تعادل رتبة الكولونيل أو اللغشتات كولونيل لدى الجيش البريطانى، ويمكن أن تسند إليه قيادة فرقة كاملة مثل فرقة العرب الشرقية، وكانت الفرقة فى ق.د.س. تعادل باتليون (Battalion) لدى الجيش البريطانى.

الذين تصرف لهم الأوامر لخلع صنادلهم وتعليقها على أكتافهم، بينما يظل الطين ملتصقاً بأقدامهم. أما الضباط فكانوا يمانون ويتضررون أكثر لأنهم يركبون الخيول.

وبالرغم من هذه الحالة كان الجنود يشقون طريقهم وبعضهم يحمل غلايات الشاي وأواني الطبخ معلقة على أكتافهم، بينما يقوم (البروجي) بعزف مقطوعة موسيقية يتجاوب معها المساكير بترديد الأهازيج مع تكرار اللحن والكلمات. كانت إحدى هذه الأهازيج تقول:

“ لا لا يا بنية ما تجنبننى، اكلم العسكرية كويونجو  
ما صندى إلا أربعة وعشرين ساعة فى جبل كورونجو.”

ومن بين أناشيد (المارشات) العسكرية التى أخذوا يرددونها بعد هزيمة الطليان فى شرق أفريقيا عام ١٩٤١ أنشودة تقول ما معناه:

“ ثلاثة سودانيين قتلوا طلائنة كثير  
نهض الباقون ولاؤوا بالضرار  
بعد ذلك وصلت قوة الهجاة”

قبل وصولنا إلى تلودي مررنا بخور ملء بمياه الأمطار التى هطلت على بعد عدة أميال. قمنا جميعاً بعبور الخور ونحن فى غاية الابتهاج والسرور، كما عبره الضباط على صهوات خيولهم، وكان الجنود من الرتب الأخرى يضحكون عليهم وهم يحاولون البقاء على السروج بصمودية، وعندما يعبر أحد الضباط إلى اليابسة بسلام، يصفقون ويهتفون له بحرارة. كانت دواب النقل التى تسمى “الحملة” من الثيران ذات الأسنان، وكانت بحوافرها المفلطحة تستطيع السير على تلك الأرض الطينية، ولكن عندما وصلنا إلى الخور أنزلت أحمالها، واقتيدت إلى مياه الخور الجارفة، وأخذت تصيح بقوة بينما لم يظهر منها على سطح الماء غير الأستمة والقرون. غير أن المياه قد جرفت أحد

الثيران ليصطدم بشجرة، فقفز الجنود إلى الماء وتمكثوا من إنقاذه حيث أخذ بعضهم يدفعه من رأسه والبعض الآخر من ذيله، وهكذا الحقوه بالآخرين. أما البغال التي كانت تجر المدافع فقد عبرت الخور بحوية واندفاع، رغم أنها كانت تعبّر عن شكواها بصهيلها المتواصل.

فى ذلك الوقت كان روبن سنيد - كوكس (Robin Snead - Cox) قد خلف قس باول على القيادة، وكان يمتلك طوقاً مصنوعاً من خمسة براميل صغيرة سعة خمسة جالونات ومغطى بألواح خشبية، مع حبل موصل بكل من طرفيه، وكان يستخدم فى حمل المواد الغذائية، ومدافع الفهكرز، والمؤن دون أن تتعرض للبلل. أخيراً تمكن الجميع من عبور الخور، ومن ثم خلعنا ملابسنا ومعداتنا المبتلة بالماء وتركناها حتى تجف. كان معنا نيل إنز (Neil Inns) مفتش مركز كادوقلى الذى تعرض بنظرونه القصير إلى التمزق أثناء عبور الخور بحصانه. وحيث أن الرجل كان خبيراً بمستلزمات السفر، فقد كان يحمل معه إبرة وخيطاً استطاع بهما إصلاح التلف وهو ينحنى إلى أسفل خارجاً ساقه دون أن يخلع البنطلون ١

بعد قضاء بضعة أيام فى تلوى استمتعتنا خلالها بكرم الضيافة من الأهالى، بدأنا رحلة العودة بطريق آخر يمر بجبال (كورونجو). كان نوية كورونجو قوما طبيين ومشهورين بإنتاج أفضل المصارعين والمحارين بالهراوات فى ذلك الجزء من جبال النوبة. غير أنه لم يتقدم منهم أحد للتجنيد بفرقة النوبة، رغم أنه كان لدينا أمل ضئيل فى أن يطمح أحد رجال الكورونجو فى الالتحاق بالجندية، وفى هذا المكان دخل حياتى شخص يدعى كوكو نية.

بعد عودتنا إلى كادوقلى، رجعنا إلى روتين ورتابة التدريب العسكرى وممارسة رياضة البولو. كان روبن سنيد كوكس صياداً ماهراً مثلى، وحتى نخفف من وطأة الملل والرتابة عن أنفسنا ورجالنا، فقد كنا أحياناً نتخذ قراراً

مفاجئاً، لربما فى إحدى الأمسيات التى كنا تناول فيها شيئاً من الخمر، بأن نخرج فى مسيرة إلى بحيرة (كيلك) وهناك نقضى الوقت فى صيد الإوز ذى الشوك فى جناحيه، وإوز النيل، والبط ذى الذيل الطويل (وهو من أفضل ما يؤكل) إلى جانب البط الضخم ذى اللون الأزرق المائل إلى الخضرة المعروف محلياً باسم (أم شليلي) بالإضافة إلى واحد أو اثنين من الكراكي ذوات العرف التى يوضع ريشها على شرائط قطنسوات الضباط. وفى صباح اليوم التالى، وبناء على المبدأ المعلن من قبل الحاكم العام، السير هيوبرت هدلستون (Sir Hubert Huddleston) الذى كان هو نفسه قائداً سابقاً لفرقة الهجانة، بأنه "ينبغى أن يكون فى مقدور الجنود العيش على رائحة خرقه معطونة فى الزيت" فقد نسير من أرض الطابور مباشرة إلى الوجهة المقصودة، وكانت تدريبات التكتيك تدمج بطبيعة الحال مع التمارين العسكرية لإراحة ضماثنا، كما كانت للحركة قيمتها كونها استمرارى للقوة والسلطة.

بعد فترة قصيرة من وصولى كانت قد بدأت الدورة السنوية لاستخدام الأسلحة الخفيفة، وقد تولى الضابط السودانى اليوزياشى طالب أفندى إسماعيل، وهو أعلى منى رتبة، مهمة تدريبى على هذا النوع من الأسلحة. كان إلمامى بالخطوات جيداً، ولكن فى تلك المرحلة لم تكن لفتى العربية بالقدر الكافى الذى يمكننى من الإسهام فى التدريب بفعالية. وأثناء هذه الدورة علمت شيئاً عن قدرات الكجور والإيمان بها، وكان الملك (الملك) والكجور (وهو الزعيم الروحى والطبيب الشعبى) هما اللذان يتولىان شئون الإدارة القبلية بين قبائل النوبة.

بالرغم من أن الكثير من الجنود المتمرسين كانوا يعتبرون تمارين الرماية مضحكة للزمن، إلا أنه كان يتمين على كل فرد أن يجتاز اختبار ضرب النار (الرماية) بأشواطه الخمسة من مسافة مئتى ياردة. وبينما كان الشاويش كاتشو البروجى يتخذ وضع القيام راقداً، علق اليوزياشى طالب بأن هذا الشاويش لربما يكون من أفضل الرماة فى قوة دفاع السودان، وأنه من النادر

أن يخطئ الهدف حتى ولو كان التصويب لعشر جولات. قام الشاويش كاتشو بإطلاق الجولة الأولى، ولكن بدلاً من أن يكون القرص الأبيض موضوعاً فوق الهدف ارتفع علم أحمر فوق (الدروة) مما يعنى أنه قد أخطأ الهدف، فاعتقد الشاويش أن هناك رصاصة لم تطلق، ولكن عندما أعاد المحاولة ارتفع العلم الأحمر مرة أخرى. هنا ركض أحد الضباط إلى (الدروة) لمعرفة ما جرى، فلم ير أى علامة على الهدف الذى كان كاتشو يصوب نحوه. اعتقد البيوزياشى طالب أن هناك خطأ ما فى البندقية، ولذلك قام كاتشو بإطلاق جولة جديدة مستخدماً بندقية أخرى مضمونة، ولكن العلم الأحمر ظهر مجدداً. هنا أصدر البيوزياشى أوامره إلى الشاويش بأن يعود إلى التكتات ريثما يتم التحقيق فى الأمر. وظل الشاويش كاتشو أثناء سير التحقيق يلتزم الهدوء تماماً.

كشف التحقيق الذى أجراه البيوزياشى طالب أن هناك أمباشى يتبع لنفس بلتون كاتشو له أحقاد وضفائن شخصية معه بسبب بعض الأمور المتعلقة بالانضباط، ولذلك قام الأمباشى بزيارة الكجور، وأقنعه بأن يحل لعنته على الشاويش بحيث يرسب فى دورة الرماية (ضرب النار) الأمر الذى سيكدر صفوه أكثر من أى شيء آخر. أوضح البيوزياشى طالب أن كاتشو لن يفلح فى إصابة الهدف طالما أن هذه اللعنة قد حلت فيه، ولذلك أصبح لزاماً عليه أن يعود إلى الجبل حتى يتمكن كجور قريته من إزالة تلك اللعنة. عندما عاد كاتشو أفلح فى تصويب طلقات الجولة بالكامل، ولم يخطئ الهدف فى أى شوط منها. لقد استنتجت من ذلك أن اللعنة قد أزيلت، وأن براعة كاتشو فى الرماية ستظل لا مثيل لها كما كانت دائماً. غير أنني كنت أتساءل ربما كان طلب السماح له بالذهاب إلى قومه فى إجازة قصيرة نوعاً من التحايل، ولكنى اعتقد أنه كان فوق الشبهات، ذلك أنه قد سبق فى دورة سابقة أن حصل على الميدالية العسكرية للبراعة والشجاعة، كما منح لاحقاً براءة الحاكم العام كضابط فى الجيش.

فى مطلع عام ١٩٣٩ كثر الحديث عن الحرب لدرجة تأثر بها طائر الببغاء الذى كان يخص فيليب برودبنت (Philip Broadbent) مفتش مركز الدلنج. كان الببغاء يختال فى الردهة جيئةً وزهاباً متأرجحاً من جانب إلى آخر مثل النوتى فى البحر، وكان عندما يحضر ضيف للمنزل يصيح قائلاً: "ويمسكى صودا"، وعندما يقوم المضيف بتقديم الويسكى والصودا، يتدخل الببغاء فجأة فى الحديث ويقول: "بحق الجحيم ما هى احتياطات الغارات الجوية على أى حال". مع ازدياد احتمالات نشوب الحرب، ارتفعت درجة الاستعداد فى الفرقة، وأصبحت فى كامل قوتها مع زيادة التدريب. وفى يوم من الأيام قدم شاب من منطقة (كورونجو) إلى غرفة حرس الفرقة، وأبدى رغبته فى الالتحاق بالجيش. وعلمت من البلك أمهن أن الفرقة لم تكن فى كامل قوتها فحسب، وإنما لم يكن يتوفر لديها أيضاً أى فائض فى الزى المسكرى. وبما أن الشاب القادم من كورونجو كان قوى البنية، ورغم أنه كان عارياً تماماً كما خرج من رحم أمه إلا من بعض أوراق الشجر التى كان يكتسى بها بطريقة فاخرة، إلا أنه كان لا مفر من قبوله والاحتفاظ به. إنه (كوكوتية) الابن الثالث، كما يشير اسمه، لكوكو زعيم قبيلة كورونجو التى قمنا بزيارتها أثناء دوريتنا من تلودى إلى كادوقلى. تم توفير بندقية له وحقيبة عسكرية، وحزام الكتف لحفظ الرصاص. أما حقيقة عدم وجود زى مسكرى فلم تقلق أحداً، ذلك أن كوكوتية أصبح بمد قليل يتفخر مع الآخرين مرتدياً كل شىء ما عدا الملابس.



## الأيام الأولى للحرب

نشبت الحرب فى شهر سبتمبر من عام ١٩٣٩ ضد دولتى المحور ألمانيا وإيطاليا، وكنت فى الخرطوم بفرض علاج الأسنان فى اليوم الذى أعلنت فيه بريطانيا الحرب على ألمانيا. طلبنى القائد العام لقوة دفاع السودان الجنرال

سير ويليام بلات (William Platt) وأبلغني بأنه قد أصدر الأوامر إلى سنيد - كوكس الضابط بمسلح الهجانة للتحرك فوراً لحماية خزان سنار الذي كان يعتبر مصدر المياه لمنطقة الجزيرة المروية الواقعة بين النيلين الأزرق والأبيض، وأمرني بالتوجه فوراً إلى سنار لاستكشاف منطقة الخزان (كان الخزان يعتبر هدفاً لهجوم محتمل، حيث أنه قد علم من المخابرات أن قوات إيطالية تعرف باسم باندا رولو "Banda Rollo" كانت على وشك عبور الحدود إلى السودان) وذلك لاتخاذ التدابير اللازمة للوصول فرقتي (سلاح الهجانة) إلى هناك. وأثناء الحديث رن جرس الهاتف، وتلت ذلك معادثة طويلة انتهت بقول الجنرال: "أسف يا سيدى، أخشى أن تكون طائراتنا الآن في طريق العودة بعد قصفها لأسمر". ثم شرح لى بعد ذلك أن الحاكم العام المتزوج من امرأة إيطالية يرى أنه لم يتأكد على الإطلاق أننا فى حرب مع إمبراطورية شرق أفريقيا الإيطالية، وأردف قائلاً: "طبعاً هذا كلام فارغ". وفى نفس هذا اليوم توجه البمباشى آرثر هانكز، قائد ثلاثى تلك إدارة التابع لقوة العرب الشرقية إلى مسافة تمكنه من استخدام نهران الأسلحة الخفيفة على مدينة المتمة وقد هاجمها بالفعل، وكان ذلك مفاجأة كبرى للإيطاليين.

لحق بى روبن سنيد - كوكس وستجى بلك عند خزان سنار بعد رحلة شاقة وهم يشقون طريقهم خوضاً فى الوحل الناجم عن أمطار نهاية فصل الخريف فى جبال النوبة إلى أن وصلوا محطة السكة الحديد المخصصة لتوزيع المؤن، ومن هناك وصلوا رحلتهم بالقطار. كان خطر هجوم فرقة (الباندا رولو) قد تلاشى، وأصبح فى مقدورنا نحن الضباط الاستمتاع بفواكه (جنيئة) الحكومة التى كان يوجد بها أيضاً حوض للسباحة. كما كنا نستمتع بصيد أسماك النيل، وتلك الأسماك الضخمة الموجودة فى قاع الخزان، بالإضافة إلى البط والإوز البرى فى منطقة (مايرنو) المجاورة، مع لعب البولو والبريدج فى الأمسيات. وكان نادى اليخوت بالخرطوم قد تكرم بإعارتنا قارباً لممارسة رياضة التجديف، وقد تم شحنه لنا على عربة سكة حديد مسطحة، وكان مرساه فوق

الخزان، وكنا نبحر به إلى أعالي مياه الخزان لمشاهدة التماسيح وهي ترقد على الشاطئ فاغرة أقواها لطيور المسقاق الأنينة التي تخلل لها أسنانها. وفى أحد الأيام، وبينما كنا ننزل إلى القارب بواسطة سلم حديدي موجود فى واجهة الخزان، حذرنا أحد موظفى مصلحة الرى بأنه يوجد ثعبان على ظهر القارب. لم نلاحظ شيئاً من هذا القبيل، ولكن طلبت من رقيب أول بالفرقة إحضار بعض خبراء الثعابين، فأتى إلينا باثني منهم أحدهما كوكو تية الذى فاجأنا بإحضار طوة معدنية مسطحة، وشوى فيها بعض الأعشاب الجافة غير المعروفة لدينا، واستمر يوجه الدخان المتصاعد منها إلى بدن القارب إلى أن خرج منه ثعبان ضخم انزلق بسرعة إلى داخل الماء.

وفى يوم من الأيام طلب منى مهندس الخزان أن أقوم بقتل نمر كان قد قضى على عُشر بهائم القرية التى يمكن فيها عمال الخزان، وطلبوا بوصفى "ضابط ورجل معترم" ما كان يجوز لى أن أرفض مثل هذا الطلب. وافقنى (منان شيتاكا) وهو جندى سودانى قديم اشتهر بأنه فى السابق قد قتل ستة نمور، وكان من أولئك المساكين الذين لا يقدرّون بثمن فى أية وحدة عسكرية يعملون بها، وكان يفوق كل الآخرين برتبتهم وملفاتهم، ويخلو من أية عيوب سلوكية، ويتمتع باحترام جميع الرتب العسكرية، ولكنه بالرغم من كل ذلك كان دائماً محروماً من الترقية. وصلنا إلى أرض خالية من الأشجار، وكان كل منا يحمل بندقية ومعنا معزة بيضاء. قال منان أنه سيهبط المعزة إلى وقد، ثم نجلس فى وسط الساحة وكل منا يسند ظهره إلى الآخر، على أن أكون أنا فى مواجهة المعزة. وجلسنا هكذا إلى أن حل وقت الغروب، ثم جاء الليل ونحن ما زلنا نجلس دون حراك، وكل منا يريد أن يحك ظهره فلا يستطيع. كانت المعزة تصدر نفاث من وقت لآخر إلى أن استسلمت للنوم فى النهاية. استمر هذا "الصمت الصاخب" لفترة طويلة من الليل، فقلت لمنان إن النمر لن يظهر بعد ذلك ويحسن بنا أن نعود، وقد أراحنى أنه قد وافقنى على ذلك.

كان الرجال فى هذه البقعة الريفية يمارسون لعبة كرة القدم ، ويقيمون المنافسات الرياضية للترفيه وتجديد النشاط، وفيما عدا ذلك كانوا ينشغلون بالأعمال العسكرية المعتادة من صيانة المعدات وتلقيمها، والقيام بالحراسة، والاستعداد للزيارات التفتيشية، علاوة على طوابير التدريب، ودورات استخدام الأسلحة الخفيفة، والمسيرات العسكرية التدريبية. أثناء إحدى هذه المسيرات صرخ أحد الرجال: "أرنب! مما أثار الآخرين للقيام بتمرين يجيدون ممارسته خاصة وأن صيد الأرانب من الأنشطة المحببة لديهم. تم الحصول على الإذن من القائد لتجاوز الرتب العسكرية، وبدأت المطاردة حيث انتظمت الفرقة بكاملها فى شكل ( قرن)، وكان على كل من يحدد موقع الطريدة أن يصرخ بأعلى صوته: "أرنب! . استمرت المطاردة إلى أن أصيب الأرنب بالنصب، فقتل عليه أحد الرجال بأن رماء بطلق العصا الخاصة التى هى نوع من السلاح فى شكل قطعة خشبية معقوفة ومقوسة إلى الخارج بزاوية قدرها ٢٠٠ درجة، وإلى الداخل بزاوية ١٦٠ درجة، ويتراوح عرض جزئها السميكة بين ٤-٥ بوصات، وهى مشطوفة فى جزئها الرفيق بمقدار ثلاثة أرباع البوصة، ويمكن أن يؤدى استخدامها إلى كسر ساق الأرنب أو الفزال الصغير مما يمكن الصائد من القضاء عليه بسهولة. وكان مما بعث على الارتياح أن كابتن رولو الإيطالى لم يظهر لنا فى تلك اللحظات المرحية.

لندع كل ذلك جانبا، فقد كان ينتظرنا عمل حقيقى فى القلايات. لقد تقرر أن يمود روبن سنيد - كوكس إلى أرض الوطن ليلتحق بكتيبته من جديد، ولذلك أسندت إلى شخصى قيادة ستجى بلك (الفرقة السادسة). وفى صباح أحد الأيام وصلت أوامر عاجلة من القيادة العامة لإعداد البلك للتحرك إلى منطقة القلايات على الحدود السودانية الأثيوبية. وكان آرثر هاكز قد اضطر إلى إخلاء مدينة القلايات نفسها بعد أن واجه قوة إيطالية كبيرة كانت متمركزة فى (المتمة) عبر الوادى على الجانب الأثيوبي من الحدود، ومدعومة

بقاذفات قنابل من طراز (كابرونى). لقد قام مع فرقته بانسحاب تكتيكى إلى منطقة صخرية مرتفعة محاطة بالأشجار والحشائش على مسافة ستة أميال من الطريق المؤدى إلى القضايف عاصمة المركز. وتمشياً مع مبدأ العيش على ( رائحة خرقه معطونة بالزيت) تم نقلنا بسرعة إلى القطار المعد لنا الذى أقلنا إلى القضايف ليلاً، حيث كان قائد المنطقة الأميرلاى هوسى دى بيرج Hussey de Burgh يقوم بتجميع المدد الكافى من الإبل لحمل مؤننا وعنادنا. كان علينا أن نتحرك بأقصى سرعة فى مسيرة جبيرة فور تجهيز الجمال، وبالرغم من ما كان يتفوه به من سباب ولعنات بطريقته الأيرلندية، فقد استغرق تجميع الجمال وقتاً أطول مما كنا نتوقع، ولكن عند الساعة الرابعة مساء تمكنا من مغادرة المدينة رغم طبيعة الأرض الطينية التى ازدادت لزوجة من جراء هطول الأمطار المتكرر الذى كان يصاحب أواخر موسم الأمطار فى ذلك الوقت من العام.

كما قد تقدمنا على الطريق بمسافة اثنى عشر ميلاً قبل أن أقرر أخذ قسط من الراحة خلال ما تبقى من ساعات الليل على أن نواصل المسير مبكراً فى صباح اليوم التالى. كان معى جهاز تلفون لاستخدامه بالنقر على الخط الرئيسى لنبلغ بما نحرزه من تقدم، وقد أدت محاولتى لتنفيذ الأوامر إلى تمزق فى يدي وحدة فى الطبع دون تحقيق أية نتيجة، ولذلك لم أحاول مرة أخرى. تحركنا مبكراً فى اليوم التالى، وواصلنا المسير حتى الغروب بمد استراحة قصيرة عند منتصف النهار لتناول الطعام، ثم واصلنا السير بـ 'رتل طائر' طوال الليل تاركين الأمتعة لتبعنا من الخلف، وذلك بفرض اللحاق بأثر هانكز عند الفجر. وبالرغم من عدم توافر اتصال لاسلكى مع آرثر، وعدم معرفتنا لطبيعة هذه المهمة المأجلة، فقد كانت التعليمات الصادرة لى هى الوصول إلى هناك بأقصى سرعة.

عند مفادرة (الرتل الطائر) أمطرت السماء بغزارة، وأخذ الطين يلتصق بأحذيتنا كما الشكولاتة مما اضطر الجنود والضباط إلى خلع مناديلهم وأحذيتهم، ولا زلت أذكر إلى اليوم إحساسى والطين يتخلل من بين أصابع قدمي. استمر هطول الأمطار بصورة متقطعة مع نقيق الضفادع وصرير الحشرات المتواصلين. وصلنا عند بزوغ الفجر، واتخذنا مواقعنا التى حددناها لنا آرثر هانكز، ووجدنا أن الإيطاليين لم يتقدموا إلى ما بعد القلابات، ولكن كان لا بد من القيام بإنشاء بعض الاستحكامات الدفاعية فى موقعنا الجديد المطل على طريق القضايف - القلابات حتى نعلم من الأمطار، ونكون على أرض جافة بقدر الإمكان. تم تحديد الموقع المناسب لكل فصيل، واختيار الأماكن المناسبة للمدافع، ومخازن المؤن والذخيرة، والنقاط الطبية، وحفر الخنادق.

وبما أن الجنود السودانيين قد اعتادوا على الحياة الطبيعية، فقد كان سهلاً عليهم الارتجال، ولذلك قاموا بقطع الأخشاب اللازمة لمواقع المدافع باستخدام تلك المدى الطويلة التى عرفوا بها ( كان كل جندي يملك مدية من هذا النوع محفوظة فى غمد من الجلد) كما استعملوا أشجار الشوك بدلاً عن الأسلاك الشائكة، وقاموا ببناء السناجر<sup>(١)</sup> بدلاً عن الخنادق باستعمال ألواح الصخور السائبة كلما لزم الأمر. وكان لا بد من الحرص على تمويه الموقع بصورة جيدة قدر الإمكان، خاصة أن إحدى قاذفات كابرونى الإيطالية كانت تحلق فوق الطريق جيئةً وذهاباً بشكل يومي تقريباً. وهكذا كان يتمين علينا مع شروق الشمس إخفاء دواب النقل (الجمال والبغال والحمير) وإطفاء كافة النيران. فى ذلك الأثناء أصيب أحد الجنود بغطاف حزام المرح عندما كان يأخذ أحد البغال إلى الماء، فبينما كان يرفع رجله ليترجل من البخل، إذا بالخطاف يشتبك

---

(١) استحكامات دفاعية تبني من الحجر وتخدم نفس أغراض الخنادق.

بوعاء خصيتيه، فصرخ بأعلى صوته مقتعداً أن حياته قد دمرت، ولكن تمكن الطبيب من علاجه بسرعة، وتم إصلاح (المحفظة) ولم تصب (الثروة) التي بداخلها بأى أذى !

مكثت الفرقتان هناك طوال الفترة المتبقية من خريف عام ١٩٤٠ ، وكان نشاطنا الرئيسي خلال تلك الفترة هو القيام بدوريات ليلية ونهارية إلى القلابات التي تبعد حوالى ستة أميال، وذلك بغرض إثارة أعصاب الإيطاليين بقذف مواقعهم الأمامية ونقاط استخباراتهم. غير أن هطول الأمطار المتكرر كان كثيراً ما يضطرنا للبقاء فى مواقعنا. فى إحدى تلك الليالى كنت أقوم بتفقد مخافر الحراسة، وبينما كانت الأمطار تهطل بغزارة، والبرق يلمع ويلقى بظلاله المخيفة، لمحت رأس حرية يلمع فى الظلام، وبعد تبادل التحدى وكلمة السر، إذا بي أجد نفسى وجهاً لوجه أمام كوكو تيه الذى كان عارياً تماماً. طلبت منه توضيحاً لذلك، فقال أنه لا يزال لديه زى عسكرى واحد، وقد تركه ملفوفاً فى الفراش حتى يجده قد جف بعد انتهاء نوبة حراسته.

عندما تلاشى هطول الأمطار، ازدادت حركتنا وكانت طائرة الكابرونى الإيطالية تحلق فوق الطريق على مستوى منخفض ولكن دون أن تكتشف مواقع مخابئنا. وبعد حصولنا على إذن من القيادة المامة قررنا محاولة إسقاطها بمدافع البرين والفيكرز واتخذنا وضع الاستعداد. وبما أنى كنت خبيراً فى التصويب نحو الهدف، فقد تصورت أننا لن نخطئ إصابة الطيار فى غرفة قيادة الطائرة. وبينما كان الطيار يحوم حولنا صموداً وهبوطاً، فقد تمكن من إطلاق عدد من القنابل المضادة للأفراد التى أحدثت بعض الأضرار. لذلك قررنا الانتقال إلى موقع آخر يبعد نحو ميلين. ومن هناك استمتعنا فى اليوم التالى برؤية ثلاث طائرات كابرونى وهى تقصف بغزارة موقعنا السابق الذى قمنا بإخلائه، ولكن يبدو أنها لم تلحق به أضراراً تذكر، وكان على أن أضحي

بالجزء الأمامى لخيمتى للمساعدة فى تلك الخدعة. بعد ذلك لم يشن الإيطاليون علينا أى هجوم برى.

بعد وقت قصير وصلتا تعليمات لاستقبال لواء من الفرقة الهندية الرابعة بقيادة العميد (البريجادير) بيل سلم (Bill Slim) الذى أصبح فيما بعد مشيراً (فيلد مارشال)، بعد أن حقق شهرة فى بورما. وكانت تحت قيادته فرقة من المدفعية مسلحة بمدافع ١٨ رطل، بالإضافة إلى وحدة من الدبابات الخفيفة. وفى الصباح تم شن هجوم على الإيطاليين فى القلابات والمنمة بكتيبة بريطانية على الجناح الأيمن يدعمها آرثر هانكز وثلاثى بك إدارة من قوات المرب الشرقية. واتخذت فرقة بريطانية أخرى موقفاً لها على بعد ميل ونصف شمال القلابات. كما كانت هناك كتيبة بريطانية احتياطية. أما الفرقتان النوبيتان فقد كانتا فى إجازة، ولذلك أسندت إلى مهام ضابط الاتصال مع اللواء الهندى، وكانت مهمتى العاجلة هى إرشاد الفرقة البريطانية إلى جبهة الطليان الأمامية. كان الهجوم ناجحاً وتم استعادة القلابات، ومع أن الطليان لم يتمكنوا طويلاً فى المنمة وانسحبوا منها إلى المرتضعات الأثيوبية، إلا أن الوضع فى القلابات ظل مضطرباً لبعض الوقت.

بعد أن قمت بإرشاد فرقة الجناح إلى الهدف، أسرعت إلى قلعة القلابات وفى الطريق شاهدت بعض الجنود البريطانيين يهربون، فحاولت اعتراضهم ولكن دون جدوى. ثم واصلت سيرى حيث بلغنى ما قيل عن قائد الكتيبة البريطانية الذى اعتصم بأحد الخنادق ورفض الخروج منه لقيادة رجاله الذين بعد أن استولوا على القلعة هاجمتهم فاذفأت الكابرونى من على مستوى منخفض، وأمطرتهم بوابل من القنابل المضادة للأفراد. كان هناك عدد كبير من الجنود محصورين فى محيط ضيق، وداخل عدد غير كاف من الخنادق، مما أدى بالضرورة إلى سقوط عدد كبير من الضحايا. كما ازداد الوضع سوءاً

بوجود شاحنتي ذخيرة كانتا تحيطان بالموقع، ثم أحضرنا إلى داخل القلعة فأدى القصف إلى تقجيرهما، مما أعطى انطباعاً بأنه هجوم مضاد قام به بعض الأشباح. غير أن القائد الثاني أو أحد الضباط الآخرين (لمت متاكداً أيهما) قد تولى القيادة، وقام بنشر بعض الوحدات من القلعة، واستعيد الهدوء، ولكن ليس قبل أن يضطر العميد سليم (Slim) من موقع القيادة الأمامي لإطلاق النار من معدسه على الجنود الذين هربوا من ميدان القتال. وكان مثار التعليق في ذلك الوقت أن القوات السودانية ظلت ثابتة في مواقعها طوال الوقت. بعد ذلك عاد بيل سليم بلوائه لينضم إلى قيادته التي كانت موجودة في مصر آنذاك.

تقهقر الإيطاليون واتخذوا موقعا دفاعياً في أعلى المرتفعات الأثيوبية، وقاموا بتدعيم قلعة (شيلجا) التي كانت تحرس الطريق الممتد من الغرب إلى مدينة (قُندار). لذلك استمدت الكتيبة المكونة من قوة دفاع السودان بقيادة الأميرالاي جوني جيفورد بيه ((Johnnie Gifford Bey لمطاردهم. كانت هذه الكتيبة في الواقع عبارة عن قوة ميدانية متعددة السلاح وتضم الفرقتين (ستجي نوبة وخمسجي نوبة) بقيادة البمباشي فاي كامبل ((Guy Campbell)، وثلاثجي إدارة بقيادة البمباشي آرثر هانكز، و(باندا بكر) وهي فرقة غير منتظمة تم تجهيدها من منطقة المضارف تحت قيادة البمباشي بات كاوسينز (Pat Cousens). وتولى البمباشي جون يومانز (John Yeomans) مسئولية (الملك أمين) إلى جانب القيام بمهام ضابط الأركان لجوني جيفورد وألحقت مع القوة بطارية مدفعية من سلاح المدفعية السودانية مزودة بمدافع (هاوتزرز ٧.٢) بقيادة البمباشي جد بالمر (Ged Palmer)، بالإضافة إلى وحدة من سلاح الإشارات، وكتيبة من سلاح المهندسين التابع لقوة دفاع السودان، ومستشفى ميداني صغير تحت قيادة الدكتور كوركيل (Corkill) من الخدمات الطبية السودانية.

سربنا إلى الشرق دون عوائق أو مضايقات في اتجاه المرتفعات الأنثيوبية المحصنة بالخنادق الدفاعية، وأنشأنا معسكر قاعدتنا العسكرية في منطقة ريفية مليئة بالأشجار الظليلة والمياه المتدفقة (أرض تتدفق بالشهد واللبن) بالمقارنة مع أراضي السودان الكالحة الكثيرة. قام الإيطاليون بتفجير الطريق، ولذلك بدا لنا من المستحيل في البداية أن يتمكن المدفعية من نقل مدافع (الهاوتزرز) إلى موقع يكون في مدى قصف مواقع العدو الأمامية بقلمة شيلجا الهامة. لذلك قمنا بتقطيع أعواد الخيزران بأطوال مناسبة لنحمل عليها المدافع. وبما أن الجزء الأثقل من المدفع هو الماسورة، فقد حملها ثمانية من الجنود النوبيين، أربعة منهم في الأمام وأربعة في الخلف، مع تمرير أعواد الخيزران من داخل الماسورة. أما الأسطوانات والمعدات الأخرى مثل مؤخرة المدفع وعجلاته وعريته فقد تم نقلها جميعاً بالأيدي. دون إلحاق ضرر بالأرواح أو الأطراف. وذلك من خلال الممرات المنحدرة والمتوية لتكون مواقع الإيطاليين في مدى نيراننا. ربما يعتبر ذلك من الوسائل الفريدة لوضع المدافع في حالة الاستعداد!

وفي اليوم التالي، وبعد مسيرة في محاولة للاقترب من العدو، شنت كتبتنا هجوماً سبقته بغارات جوية على مواقع الطليان الأمامية لقلمة شيلجا. كان الهدف من هذا الهجوم هو زعزعة العدو في قلمته الرئيسية التي كانت تحميها قوة من لواء كامل. أما كتبتنا المشتركة فكانت مكونة من أربع فرق فقط. غير أننا عندما وصلنا إلى مواقع العدو الأمامية، وجدناها مهجورة تماماً مع كمية من الأسلحة والمعدات المختلفة التي تم التخلي عنها. ورأينا الطليان وهم ينسحبون إلى القلمة على مسافة نصف ميل. كان من بين الأسلحة المهجورة بعض المدافع المحمولة التي أعدها إلى الخدمة فوراً بالرغم من عدم وجود مدفعية معنا. ثم أطلقنا على القلمة قذائف شديدة الانفجار تعمل بضغط الهواء، ولعلنا كنا بذلك أكثر خطراً على أنفسنا منا على الطليان.

شن الطليان هجوما مضادا، ولكن تلاجى بك بقياة آرثر هانكرز رء عليهم بهجوم مباغت، ونجح فى صء نيرانهم، مع أن هانكرز نفسه قء وقع فى أيدى العدو وقضى بقية أيام الحملة أسير حرب فى حصن قنءار الذى قام البرتغاليون ببنائه فى وقت سابق. فى اليوم التالى لاحتلالنا مواقع العدو الأمامية، تسلل بعض القناصة الطليان إلى مكان يقع قبالة موقع ستجى بك نوبة. وبعد حصولى على الإذن من القائد جونى جيفورد، قمت سريماً بتحريك البلك حيث تم إخلاؤهم وتمكنا من قطع خط سيرهم، وإعادة ١٨ جنءى من الطليان الأعالى على رأسهم وكيل أمباشى. أسرعء بعد ذلك لكى أمنع فصيلى المهاجم من التورط داخل مواقع الطليان الرئيسية. وبعد أن قمت بإيقاف تحركه، وصل جونى جيفورد واستفسر عن سير الأحوال. وكنت قد لاحظء أن بعض جنوء سلاح المشاة الطليان كانوا يتسللون من بين الأشجار فى أشكال متقاطعة، فقلت له ربما يستمدون لشن هجوم مضاء. استعمار جونى إحدى البناءق وأسند نفسه على شجرة، ثم أطلق النار على أول جنءى قاءم، ثم أعاء تعمير البندقية فأسقط الثانى، وكاء أن يصيب الثالث، ثم قال: "سيوقفهم ذلك من التءدم"، وبالفعل قد تم ذلك. لقد سبق لى أن أطلقت النار عدة مرات مع جونى فى دورست (Dorset)، إلا أن ما حققه جونى فى شيلجا من إنجاز أمر لا يصدق، بل ربما يكون من أعظم إنجازاته جميعاً.

بالرغم من أن جنودنا قد اعتادوا على خوض هذا النوع من الحرب بعيوية شءيدة، إلا أن تأءرهم بماءاتهم كان أقوى، فقد حءء أن واجهنا ونحن فى الجبال الأثيوبية المرتفعة نموذجاً آخر لقوة تأثير الكجور. جاءنى الياشاويش وأبلغنى بأن أءء الجنوء أصبح عاجزاً عن الكلام ولكنه يصءر صياحا كالكءك. اعتبرت ذلك هروباً من الخدمة العسكرية، واستءعيت الرجل أمامى وأخذء أخطب فيه منذراً له بأنه بموجب الصلاحيات الممنوحة لى أستطيع أن أطلق عليه النار لأنه قد جبن عن مواجهة العدو، ثم سألته غاضباً: "ما هو رءك على

ذلك؟" فأجاب بقوله: "كوكا دودل دو". شعرت أن الكجور كان مسيطراً عليه تماماً، ولذلك أرسلناه إلى بلدته التي كانت تبعد مئات الأميال، حيث تم علاجه هناك وعاد إلينا بعد بضعة أسابيع وقد تعافى تماماً، وأخذ يثرثر ويلغو مع الآخرين كمادته دائماً.

كانت حملتنا الهجومية على شيلجا أكثر من ناجحة، ولذلك قرر جوني جيفورد في اليوم الثالث ضرورة الانسحاب، خاصة وأنها قد نواجه هجوماً مضاداً أشد ضراوة. كانت الأمطار تهطل علينا بشدة وتم انسحابنا في الوقت المناسب. عدت مع ستجي بلك نوبة إلى القضايف، بينما أخذ بقية الضباط من الرتب الأخرى إجازاتهم، وسافر معظم الضباط البريطانيين إلى جنوب أفريقيا عن طريق الجو إلى ساحل أفريقيا الشرقي عبر كيسيمو، ثم ممبسا ولورنسو ماركيز، ومنها إلى ديربان، وهناك تبادلوا أرقام هواتفهم مع فتيات جنوب أفريقيا. وعند وصولي إلى ديربان اتصلت بأحد هذه الهواتف، وبدلاً من أن أسمع صوتاً عذياً مستساغاً كما كنت أتوقع، إذا بي أسمع صوت ضابط من قوة دفاع السودان، ومن يكون هو هذا الضابط سوى البمباشي فاي كامبل، قائد خمسجي بلك نوبة، الذي صار فيما بعد السير فاي كامبل حينما اتته البارونية عن طريق الوراثة.

بعد قضاء الإجازة، تم إرسال الكتيبة المشتركة إلى الرصيرص بالنيل الأزرق لتنضم إلى الأميرلاي هيو باوستيد الذي كان شخصية معروفة في السودان، وكان يتولى قيادة كتيبة الحدود، وتجهيز قطار من الهجن لدعم حركة إعادة الإمبراطور هيلاسلاسي إلى مملكته. كان معور تحركنا هو اتخاذ الطريق من (افودو) إلى (أسوسا)، وكان هدفنا الأول هو احتلال افودو التي كان يتحصن فيها الطليان لحراسة أسوسا. وبعد معالجة مواقعهم الأمامية، اتخذ جوني جيفورد تكتيكاً صحيحاً بالتحرك ليلاً وشن الهجوم عليهم عند الفجر. تم وضع ستجي بلك نوبة على اليسار، وخمسجي بلك نوبة على اليمين، وأسندت

قيادتهما معاً إلى كامبل، وبدأ الأمر كأنه شأن عشائري خاص. كانت مهمتهم، مع إبقاء ظهرهم إلى أشوشاً، هي زحزحة موقع العدو المحصن من اليمين إلى اليسار، بينما تتمركز فرقة باندا بكر بقيادة بات كاوسينز على طريق أسوسا لحماية القوة من الخلف، ويبقى ثلاثجي بلك إدارة التابع لفرقة العرب الشرقية كاحتياطي.

كانت الخطة أن يسبق الهجوم الرئيسي قصف مركز على مواقع الطليان من كتيبة المدفعية بقيادة قيد بالمر. اتخذت الفرقتان التوبيتان مواقعهما عند الفجر. وفي أثناء ذلك الصمت المطبق الذي يغيل فيه للمرء أن ضربات قلبه هي الوحيدة التي كانت تحطم جدار ذلك الهدوء الرهيب، إذا بقذيفة واحدة تتطلق بتصرف غبي من أحد جنودي، وبعد فترة من الهدوء فتح الطليان نيرانهم. انزعج رجالى بادئ الأمر من سير الأحداث بهذه الصورة المفاجئة، ولكن كان لا بد من الالتزام بالخطة، ولذلك أصدرت أوامر مشددة بالالتزام الهدوء. وهنا برهن (التفر) منان شيتاكا، صائد النمر، على كفايته عندما أخذ يمشى جيئة وذهاباً بين الصفوف ينشر الهدوء ويطلب من الجميع انتظار الأوامر بالهجوم. غير أن إطلاق النار من بعض الأسلحة الصغيرة قد أفتح الجنود في خمسين بلك بأن المعركة قد بدأت، ومع أن ذلك كان مخالفاً للموعد المقرر، لكنهم شرعوا في الهجوم على كل حال. وبما أنني كنت أعلم أن قيد بالمر كان على وشك فتح نيران مدافعه، إلا أنني أمسكت بقواتي، وبدأت في إرسال إشارات ضوئية خفيفة خوفاً من أن تقوم المدفعية بقصف جنودي، وتمت رؤيتها في النهاية وتوقف القصف فعلاً.

بعد تجمعنا في الموقع الرئيسي الشمالي، تقدمت الفرقتان خمسين بلك نوبة على اليمين، وستجي بلك نوبة على اليسار في اتجاه الشرق على طول انحدار أطراف الهضبة مع جعل الطريق كحد فاصل. وحيث أن المنطقة كانت غنية بالنباتات المختلفة خاصة أشجار الخيزران، فقد أصبح الاتصال بين

الفرقتين شبه مستحيل، ولكننا بالرغم من ذلك واصلنا سيرنا ونحن نواجه وابلًا من نيران البنادق الأتوماتيكية والمدافع التي كانت تمطرنا بقذائفها في خط ثابت، وبين الغينة والأخرى كانت تُسمع صيحات "وين ستجي"، ثم يأتي الرد سريعاً: "هنا". بعد خروجنا من غابة الخيزران وصلنا إلى أرض ذات أشجار منخفضة، وبدأنا في حصر الخسائر، خاصة تلك التي نجمت من نيران المدافع المطمورة في الخنادق التي كان يطلقها علينا جنود إريتريون.

بعد ذلك وصلت رسالة تفيد بأن جون ويكستيد الذي كان يلينى في الرتبة العسكرية، ويقود بلتون الهسار الأمامي، قد أصيب بجرح من قنبلة يدوية. وعندما ذهبت إليه وجدت أن حالته تستدعى بالتأكيد حمله على نقالة، فأعطيته بعض الحبوب المسكنة للألم قبل أن يتم نقله إلى المؤخرة. كان أغلب الطليان يمارسون طريقة (أنقذ نفسك ما أمكن)، وظل القليلون منهم يطلقون النار من الخنادق العميقة، ولكنهم في النهاية لم يشكوا عبثاً ثقيلًا علينا كأسرى حرب.

أخذنا جوني جيفورد إلى أسوسا مباشرة التي وجدناها قد أخليت من الطليان تماماً، فاعتقد جوني أنهم سينسحبون إلى أديس أبابا، ولذلك طلب الإذن بمطاردتهم، ولكن جاءت الأوامر بأن يعود بقواته إلى القضايف، ومنها إلى القلابات، ثم إلى شيلجا لإجراء محاولة هجومية أخرى عليها. وهكذا عدنا نخوض الأوجال مرة أخرى من القلابات إلى شيلجا بموقعها الدفاعي الممتاز. كان منظرنا بهيجاً ونحن تقترب منها عبر تلك الأراضي المجذبة الخالية من الخضرة، لنصل إلى نهر صغير حقيقى تغذيه مياه الأمطار التي تسقط من أعالي الجبال. وقع اختيار جوني جيفورد على هذا المكان كمعسكر مؤقت للمبيت. أما أنا فقد تصورت أنه لا بد من وجود أسماك في هذا النهر الذي كان يتدفق بفزارة. لم يكن لدى عود للصنارة، ولكن كانت هناك عبيدان

الخيزران، ولم يكن لدى الخيط، ولكن كان هناك خيط القنب، ولم تكن لدى الصنارة، ولكن تغلبت على ذلك بشئ الدبابيس. وتمكنت بالفعل من نقض ثلاث أو أربع سمكات إلى الشاطئ من خلال ضربات شديدة خاطفة قبل أن ينحل الخيط، ولكن لحسرتي لم تكن ذلك اللحم اللذيذ الذي كنت أشتهيه. لقد كانت كلها عظاماً فقط!

سرنا في اليوم التالي إلى معسكر قاعدة قواتنا الذي كان يحتل مساحة مليئة بالأشجار الظليلة، وتحيط به غابة من أشجار الخيزران الضخمة، وهنا دعانا القائد جونى جيفورد إلى اجتماع حول مشروبات المساء. كانت زجاجات الجن وكثوس الويسكى تتحرك على طاولته السفرية ليشرح لنا بها خطته لعمل تقدم أولى نحو مواقع المدو الدفاعية، وذلك قبل بدء الهجوم على شيلجا نفسها. وبعد أن تناولنا كأس الويسكى الثالث استوعبنا الخطة تماماً.

بعد ذلك شغلنا أنفسنا باستكشاف الطرق المؤدية إلى الموقع الدفاعي. ولم يكن أمامنا من سبيل لتنفادي تلك الفتحة في الجبل التي كان يتعين علينا أن نتناول عبرها يدويا كل ما نحمل من مأكولات، وأسلحة، وذخائر ومعدات، وقبل أن نتجاوز هذه العقبة المربعة، ذهبت مع بعض البمباشية لزيارة مستشفانا المهداني بقيادة الدكتور كوركيل الذي وجدناه يشرف على مجموعة عمل تحمل بعض الممول والمجاريف. لقد تصورت أنه كان يقوم بحماية مخازنه الطبية، ولكنه أوضح لنا أنهم يقومون بحفر بعض القبور، ثم علق قائلاً: "إنها قد أعدت كاحسن ما يكون، أما أنت يا دنكن فإنك تقف الآن بجانب قبرك؛ إنه أطول بقدمين لأنك فارغ في الطول!"

بعد تلك المقابلة البهيجة عدنا أدراجنا لننقل متاعنا إلى أعلى تلك الفتحة. لقد استغرق ذلك العمل يومين، حتى أن بعض البغال الأثيوبية المعروفة بخفة حركتها لم تساعدنا كثيراً، فقد انزلقت إحداها وسقطت مسافة مائة قدم

لتلاقي حتفها في أسفل الهاوية. كان ذلك بمثابة خسارة جسيمة لأن البغلة كانت تحمل الويسكي الخاص ببات كاوسينز وكل الجن الخاص بالحملة. لذلك قام زملاؤه من باب الولاء والإخلاص له بإنشاء بنك أودعوا له فيه بعض الزجاجات من مخزونهم الخاص! أقمنا المسكر في قمة موقعنا الدفاعي وسط منطقة جميلة تتدفق فيها جداول الماء الرقراق بما فيه من سراطين المياه العذبة، وتحيط بها الزهور البرية من كل نوع، وترعى حولها قطعان الماشية في مروج الحشائش الخضراء المحيطة بها. إنها مفارقة مدهشة بالمقارنة مع أراضى السودان الصحراوية التي كانت تلوح لنا على البعد من خلال الفيوم المغبرة على بعد آلاف الأقدام إلى الأسفل. كان المكان جميلاً أثناء النهار، ولكنه يتحول إلى برد قارس أثناء الليل.

كانت قلعة شيلجا تبعد حوالي ميلين أو ثلاثة إلى الشمال، وتتميز بموقع أمامي حفرت بداخله خنادق حصينة، وقد أحيطت بالأسلاك الشائكة على امتداد أنف الجبل الذي تقع عليه القلعة. كانت الخطة هي أن يقوم ثلاثي تلك إدارة التابع لقوات العرب الشرقية تحت قيادة البمباشي بوير (Boyer) بمهاجمة الموقع الأمامي مدعوماً بغمصجي تلك نوبة الذي يجب أن يتقدم ليستغل أي نجاح يمكن إحرازه، بينما يتولى متجى تلك نوبة وياندا بكر حماية المدفعية. قمنا بتحريك ليلى مستخدمين بوصلات سلاح المشاة اليدوية التي كان يحملها مسجلون يرتدون أطباقاً بيضاء ويستخدمون في سيرهم طريقة قفز الضفادع. وهكذا استطاع متجى تلك بقيادتي أن يتقدم إلى الأمام بمشقة شديدة مما استغرق زمناً طويلاً، وكان علينا أن نشد من مزائج أحنيتنا حتى نصل إلى خط البداية عند حافة الجبل.

كان الطليان يتحصنون في خنادقهم بقوة لواء كامل داخل قلعة شيلجا، بينما كنا نحن مجرد كتيبة ومطالبيين باحتلال هذه القلعة. كانت الخطة الوحيدة هي أن تقترب من القلعة بثلاثة بلتونات (فصائل) مدعومة بيلتون رابع. بدأ تراشق

صاحب النيران الأسلحة الصغيرة، ووجدت تقسى مع قسم مدافع البرين ضمن بلتون اليسار على جناح المواجهة. أما البلتون الآخر فكان على اليمين متخذاً من طرف الموقع حماية له. وكان هناك كوكبة تية، الابن الثالث لزعيم قبيلة الكورونجو، والمجنّد الوحيد من ذلك الجيل في كردفان. كان يقوم بعمل جيد بمدفعه البرين عندما صرخ فجأة بصوت أشبه بالمواء نتيجة لإصابته برصاصة في فخذه. قال إنه يستطيع أن يزحف إلى الخلف لكي يخرج من خط النار، فاستلمت منه مدفع البرين مع خزائن الذخيرة. ثم لاحظت لى في الأمام بعض رؤوس واكتاف جنود العدو وهي تتحرك بوضوح بين الخنادق التي لم تكن تبعد عنا بأكثر من ١٥٠ أو ٢٠٠ ياردة. وعندما وجدت أنه ليس بالإمكان استبانة الهدف من على مستوى الأرض، فقد قمت برفع البرين على غصن شجرة صغيرة في شكل شعبة. كيف يجوز لى أن أخطئ الهدف؟ كان الأمر عبارة عن إطلاق النار على سوق محلى موسمي، وبدأ لى أن تلك الرؤوس المتحركة قد قل عددها. ثم سمعت صوت انفجار في مؤخرة جيشنا كان سببه حاجز النيران الذي أقامه الطالبان بين موقعهم وبين موقع فرقتي، ووسط هذا الوابل الكثيف من قذائف المورتر كان كوكبة تية يقفز وهو يجر ساقه المصابة ويمدو بساقه السليمة إلى خط الانسحاب.

لقد نجا كوكبة تية، ولكن وصلت رسالة من فصيلنا بالجناح الأيمن تحمل خبراً أليماً. لقد قتل منان شيتاكا أثناء مطاردته للعدو في مواقعه الأمامية بروح قتالية عالية لرجل يكفيه فخراً أنه قد قتل ستة نمور من قبل، وأنه قد عرف برياطة جأشه، وكنت أعتبره من أشجع الرجال الذين قاتلت بجانبهم، مما أهله لنيل الميدالية العسكرية بمد وفاته. وأثناء ما كنت أحاول استيعاب التقرير الخاص بمقتله، تيقنت أن العدو سوف يشن هجوماً مضاداً من جهة اليسار، فرأيت أنه قد حان الأوان للانسحاب، وأصدرت الأوامر بذلك قبل أن أبداً بنفسي في طريق العودة. أوقف الطالبان حاجز النيران الذي كانوا قد أقاموه، وذلك لأجل سلامة قواتهم التي ستفقد الهجوم المضاد. عندما وصلت

إلى أطراف مواقعنا الدفاعية التفت لأطمئن على أن فرقتي قد تمكنت من تجاوز منطقة الخطر، وهنا شاهدت ثلاثة من جنود العدو قد أطلوا برؤوسهم فجأة، فركضت مسافة ٢٠ ياردة تقريباً إلى أسفل الجبل حتى اختفى من ناظرهم، ثم أفرغت فيهم مسدسى عيار ٢٨٠ وأخذت أعدو بسرعة محاولاً أن أسلك طريقاً ملتوياً لتصعب عليهم ملاحقتي، ولكن كان يملكني شعور بالعار ليس لكوني قد لذت بالفرار، وإنما لأنني لم أتمكن من إصابة أى منهم.

كان صباحاً مليئاً بالحيوية بالنسبة لستجى بلك، فقد كتب جوني جيفورد في تقريره الرسمي أننا قد خضنا المعركة بحماس دافق، وأنها ظللنا نقاتل بحيوية لمدة أربع ساعات. لم تكن نشعر بطول الوقت، ذلك أن الزمن يمضي بسرعة إذا كان هناك ما يجعلك تشمر بالتمتع. غير أن ما قمنا به من عمل، مع أنه قد وضع أنه قد أدى إلى بعض التحول، إلا أنه لم يكن له تأثير يذكر على هجوم ثلاثجي بلك إدارة ضد موقع العدو الأمامي، فقد تداعى الهجوم بعد مقتل نورمان بوير أثناء محاولة التغلب على حاجز الأسلاك الشائكة.

ربما كان هذا الهجوم على شيلجا هو آخر عمل تم القيام به ضد الامبراطورية الإيطالية في شرق أفريقيا - كان الأول هو ذلك الهجوم الذي قاده آرثر هانكز على المتمر. وبعد مضي ثلاثة أيام، ولكون الطليان قد استسلموا في شرق أفريقيا فقد خضعت لنا قلعة شيلجا بعد أن منعنا الطليان (شرف الحرب) حيث قامت فرقتي، ستجى بلك نوبة، بتشكيل حرس الشرف الذي مرّ الطليان من أمامه قبل أن يلقوا بأسلحتهم لتصبح كوماً غير منتظم، وحتى يوفر عليهم الشعور بالحرج من أن قوتهم كانت تمثل لواء كاملاً، بينما كنا نحن مجرد أربع فصائل صغيرة، فقد قرر جوني حيفورد وضع الجزء الرئيسي من قواتنا في المؤخرة. بعد ذلك أقيم (طابور النصر) في مدينة قندار معلناً انتهاء الحرب في شرق أفريقيا، وهناك التقيت بالكتيبة التي أنتمى إليها (أرجيل والمسرزلاند هايلاندز) التي شاركت في المرض العسكري بفرقتها الموسيقية، وقد أشير هناك إلى أن كلا

الفرقتين النوبيتين يقودهما أحد أفراد آل كامبل، ولذلك عندما مررنا أمام  
النصبة لإلقاء التحية العسكرية صرخوا قائلين: "آل كامبل قادمون" (The  
Campbells are coming)

قبل مغادرتنا منطقة شيلجا إلى السودان، تقرر أخذ جزية من السكان  
المحليين الذين لم يتعاونوا معنا أثناء عملياتنا الحربية ضد الطليان. لذلك  
صرح لنا بالإغارة على سكان الهضبة بفرض جمع ما يمكن من رؤوس الماشية،  
وأمكن بالفعل جمع سبعين رأساً سيقت جميعها إلى جبهتنا الدفاعية عبر  
القلابات ثم إلى القصارف. وقد ساعد عائد بيع هذه المواشي على تحسين  
مخصصات الرعاية لدى الوحدات التي شاركت في العمليات العسكرية.

استعاد كوكوتية صحته بالكامل من الجرح الذي أصيب به في ساقه، ولكن  
عندما عدنا إلى مركزنا الرئيسي في كادقلي لم ينتظر إلى أن يتم اكتمال  
إجراءات التسريح العادية، وإنما قرر من تلقاء نفسه الارتحال فوراً إلى موطنه  
في جبال كورونجو. وقد أرسلت في أعقابيه بعض رجال الشرطة العسكرية،  
ولكن بعد ثلاث محاولات فاشلة خضمت للأمر الواقع. ويكفي أنه قد أدى  
واجبه بالانخراط في قوة دفاع السودان، وساعد في دحر أعداء السودان، وكان  
له شرف الإصابة في ساحة القتال. لم أكن أتصور أنني سوف ألتقي بهذا  
الرجل الممتاز مرة أخرى.

بعد حملة شرق أفريقيا، وانتهاء خدمتي في شمال أفريقيا مع الجيش الثامن  
الذي كانت قوة دفاع السودان تشكل جزءاً صغيراً منه، التحقت بخدمة (فرقة  
العمليات التنفيذية الخاصة) عندما قام الجيشان الثامن والأول ممأ بطرد الألمان  
والطليان من شمال أفريقيا. كنت آنذاك في اليونان بهذه الصفة، ثم نقلت إلى  
إيطاليا كأحد أسرى الحرب. وبعد إعادة الأسرى إلى أوطانهم، قمت فوراً بتقديم  
طلب للانتداب مجدداً إلى قوة دفاع السودان، وحظيت بموافقة الحاكم العام  
المير هيوبرت هدمستون (هدلستون باشا) لأصبح قائداً لسلاح الهجانة.

وفيما بعد، ويصفتى القائد العسكري المحلى، رافقت السير هدلستون لحضور عزومة (وليمة) أقيمت فى جبال النوبة، وأبلغنى السفرجى بأن هناك رجلاً ذكر أنه صديق لى ويريد مقابلتى. كنت أجلس فى قطية القش المخصصة لى - شيدت هناك قطية لكل مسئول - فأخذت زوجتى التى اقترنت بها حديثاً، وخرجنا من القطية لئرى من هو ذلك الصديق. وهناك كان يقف كوكو تية متألماً فى ملابسه القبلية، وبعد أن تصافحنا بحرارة، قدمته إلى زوجتى، كما قام هو بتقديمنا إلى زوجته بلونها الأسود الأبنوسى، وكانت ترتدى تنورة جلدية قصيرة مجدلة، وعلى رأسها حلقة مصنوعة من الأصداغ الصفراء وسدادات زجاجات البيرة. لقد مضت ثلاث سنوات منذ التحاقه بالجيش، وجاء هذا اللقاء السعيد كتجربة سارة يجب أن تدخر.

لم يعد لقوة دفاع السودان أى دور فى الدفاع المباشر عن السودان بعد انتهاء حملة شرق أفريقيا مع أنها قد استمرت فى الخدمة فى شمال أفريقيا. لقد حاولت أن أعكس طعم ما كنت أشعر به وأنا أقاتل فى صفوف هؤلاء الجنود السودانيين المدهشين القادمين من كل قبيلة فى السودان، ولكنى أعلم أن حكايتى هذه إنما تشكل جزءاً يسيراً من كل، إذ كانت هناك مساهمات عظيمة قدمتها وحدات قوة دفاع السودان الأخرى مثل المدفعية، والهجانة، والمشاة، والمهندسين، والإشارات، والوحدات الطبية وغيرها. غير أن الكتيبة المشتركة بقيادة الأميرالاي جونى جيفورد بيه، حامل وسام الخدمة الطويلة الممتازة، قد أدت دوراً بارزاً فى حراسة حدود السودان أمام الطليان فى شرق أفريقيا، وذلك من أسوسا فى الجنوب إلى كسلا فى الشمال، وصمدت بمفردها ضد قوات العدو بأعدادها الضخمة.

دنكان كامبل (Duncan Campbell)



15

---

حكاية

مهندس المساحة

---

*Sudan Canterbury Tales*

لقد خدمت بالسودان لمدة أربعة عشر سنة، من عام ١٩٢٩ حتى عام ١٩٥١  
فيهما عدا الفترة بين عامي ١٩٤٢ و ١٩٤٥ التي انتدبت فيها إلى سلاح  
المهندسين الملكي بالقاهرة، ولعبت دوراً مهماً في مجال المساحة ورسم الخرائط  
الخاصة بالسودان.

كانت مصلحة المساحة السودانية صغيرة الحجم نسبياً، وتتمركز في الخرطوم،  
وتتولى إدارتها مجموعة من الموظفين البريطانيين كنت أنا واحداً منهم، ويساعدنا  
بضعة مئات من السودانيين، وواحد أو اثنان من المصريين والإغريق. كانت البلاد  
واسعة تقرب مساحتها من مليون ميل مربع، وبالرغم من ذلك أمكن تغطيتها  
بالكامل بخرائط تخطيطية بمقياس رسم قدره ١:٢٥٠,٠٠٠، أو ٤ أميال إلى  
البوصة، مع أنه كانت توجد هناك خرائط لأماكن أخرى بمقياس رسم أقل، كما  
بصفة عامة نواجه مختلف المشاكل من طبيعية، وجغرافية، وإنسانية وغيرها،  
وسأصف فيما يلي من صفحات كيف كان يتم أداء أعمال المساحة في تلك الأحوال  
المختلفة المتباينة.



## وضع إطار العمل

كما هو الحال في المباني الحديثة التي تقوى فيها الجدران والأرضيات  
الضعيفة بإطار حديدي، كذلك فإن رسم الخرائط التفصيلية للطبوغرافيا، أو  
حدود الأملاك يتطلب إطار عمل أكثر دقة، أو كان كذلك قبل اختراع أجهزة

تحديد المواقع الأرضية (Global Positioning Systems) التي غيرت بالكامل تلك التقنيات التي كانت مستخدمة في مجال المساحة. كان إطار العمل المستخدم في السودان يشتمل على ثلاث طرق: النقاط الثابتة المحددة فلكياً (بملاحظة الشمس والنجوم)، والتثايلث (Triangulation) والمسح الاجتيازي (Traverse).



### أ) النقاط الثابتة المحددة فلكياً:

وكانت تستخدم في شمال السودان المعروف بلياليه الخالية من السحب من خلال ملاحظة النجوم التي كان من الضروري تحديدها بطريقة سليمة. لقد فشلت في تحديد النجوم في إحدى المناسبات الهامة عندما كنت أعمل في قوة دفاع السودان برتبة بمباشى أثناء غارة حربية من كفرة إلى واحة جالو التي كان يحتلها الطليان، ذلك أنني اعتقدت أن نجومات (الفرس الأعظم الأربع) جميعها في هذا الكوكب، ولكن في الواقع واحدة منها لم تكن كذلك، غير أنني لحسن الحظ قد اكتشفت خطأى في الوقت المناسب، ولكنى شمرت بالارتياح بعد أن ساعدت في توجيه قواتنا للمسير في اتجاه القلعة الإيطالية لنرى ونسمع نشوب القتال من هناك وليس من خلفنا!

أثناء الحرب تم مسح مصاحات شاسعة في الصحراء الشمالية، وكذلك في جنوب غرب مصر وليبيا عن طريق المسح الاجتيازي، وكان يتم حساب المساحة باستخدام عداد المسافة بالسيارة، وتحديد الاتجاهات بواسطة البوصلة الشمسية، مع رسم تخطيطى مفصل يمتد إلى بضعة أميال على أى من الجانبين، وكانت تتم مراجعة موقعى في المعسكر بواسطة قراءة النجوم في كل ليلة. وبهذه الطريقة أمكن رسم أكثر من ألف خارطة في اليوم الواحد، وكان بالفعل عملاً سريعاً رائعاً. في إحدى المناسبات استلفنا سيارة زميلى البمباشى دونالد هولى (Donald Hawley) وأثناء سيرنا اصطدمت السيارة بواجهة كنيسة

رملى، فارتطم وجهى بالبوصلة الشمسية التى كانت موضوعة على (مبلون) السيارة، ولحسن الحظ كنت قد فقت من قبل إبرة الحياكة الحديدية الممودة التى تركب على البوصلة لعمل ظل إرشادى، واستبدلتها بمشبك ورق قمت بتعديل لهجته مستقيماً، ولكونه قد أصبح مسطحاً، فقد نجوت من كارثة محققة سوى كدمة بسيطة حول العين، مع أن الصدمة قد قذفتنى إلى خارج السيارة. ولحسن الحظ أيضاً، أن اللورى الآخر الذى كان يقوده جندى سودانى (نفر) قد توقف فى قمة (القوز) للتأكد من عبورنا بسلام ثم تحرك بعد ذلك.



### (ب) التثليث:

كان يطلق على أدق طريقة للتثليث فى عصر ما قبل الأقمار الصناعية اسم التثليث الجيوديسى (Geodetic Triangulation) لأنه كان يسهم فى دراسة شكل الأرض. وفى الواقع أن ذلك العمل الجيوديسى المبكر هو الذى جعل دقة تحديد مواقع الأقمار الصناعية، التى تتوقف عليها الآن الكثير من الأشياء، أمراً ممكناً. وكان إسهام السودان الرئيسى فى هذا المجال هو استكمال الفجوة الأخيرة فى القوس الثلاثين الأعظم لدائرة خط الزوال (Arc of Meridian) الذى يمتد فوق الأرض إلى مسافة ٧٠٠ ميل من آرشنجيل إلى مدينة الرأس (كيب تاون).

بدأ هذا العمل جمبو ويكفيلد<sup>(١)</sup> (Jumbo Wakefield) فى عام ١٩٢٥، وهو عمل قد تميز بالدقة وحسن التنظيم والتكلفة المنخفضة. كان يجب تمديد هذه المثلثات من وادى حلفا عبر الصحراء إلى تخوم مدينة الأبيض فى كردفان. اختار "جمبو" ستة من السودانيين للعمل معه فى وظائف كبار ملاحظين لأعمال

---

(١) آر. جى. ويكفيلد، شقيق اللورد ويكفيلد، وقد اشتهر ضمن أشياء أخرى كلاعب رجبى عالمى، ورئيس اتحاد الرجبى.

الإضاءة الشمعية، وقام بتدريبهم على استخدام العاكسات الضوئية، ثم أخذهم معه كمساعدين لاستكشاف كل قطاع على حدة. وبعد ذلك عادوا إلى المنطقة لبناء أعمدة على التلال يبعد كل منها عن الآخر بحوالي ثلاثين ميلاً، وبهذه الطريقة اعتادوا جميعاً على الموقع، وأصبح في مقدورهم التعرف على كل تل ومحطة بالنظر إليها فقط.

شكلت هذه الأعمدة زوايا للمثلثات والأشكال الرباعية منتظمة الأضلاع في السلسلة، وفور الانتهاء من بنائها، قام جميعو بزيادة عدد الفريق في كل محطة ليتم منها تسجيل الملاحظات باستخدام المزواة لبضعة أيام في ستة أماكن يوجد بها عدد من مشغلي العاكسات الضوئية الذين سبق تدريبهم على هذا العمل. وتولى كبار الملاحظين تحديد الأهداف بعمل حفرة على الأرض، واستخدام الأسلاك المتعارضة بحيث تظل العاكسات الضوئية متجهة إلى التل الذي يتم منه تسجيل الملاحظات من قبل الملاحظين الستة الأقل خبرة في كل فريق،

لم تكن هناك أجهزة لاسلكي محمولة في تلك الأيام، ولذلك كانت جميع الاتصالات بين الفرق السبعة تتم بواسطة العاكسات الضوئية، وذلك من خلال مجموعة من الإشارات المبسطة باستعمال سلسلة من التوقفات داخل الهدف أمام العاكسة، التي تعني "زيادة أو نقصان الإضاءة" أو "أغلق ولكن ابق مكانك"، أو "أغلق وتحرك إلى المحطة التالية" وهكذا. كان المسئول عن النقل بواسطة العربات الخفيفة والشاحنات هو عجب على، أحد السودانيين البارعين الذي قام بتعيين سائقين للعربات من أقربائه. وكان إذا لحق بالعربة أى خلل نتيجة للإهمال أو التقصير، أو إذا ارتكب أحدهم أية مخالفة أخرى، توقع عليه أشد العقوبة بطرق لم تكن معروفة لدينا.

كانت الملاحظات التي يتم تسجيلها تكاد أن تكون دقيقة بشكل لا يصدق، ويتم إجراؤها بواسطة مزواة (theodolite) مقاس خمسة بوصات، من خلال

تكرار قياس الزوايا الذى يتم التخطيط له بعناية فائقة فى مختلف أقسام الدائرة المقسمة إلى ٢٦٠ درجة. وكانت النتيجة أن ثلاث زوايا فى كل مثلث أغلقت تماماً خلال ثانية من القوس، وهى تعادل بوصة واحدة فى كل ثلاثة أميال. ولهذا السبب استخدم جميع الأعمدة بمفردها بدلاً عن (السببة) وبالتالي تم فى كل محطة وضع المصباح والعاكسة الضوئية فى نفس المكان بالضبط، وكان ذلك يتطلب قدراً كبيراً من الإلتقان وعدم قبول مرتبة (الأفضل رقم ٢) التى لم أفلح فى تحقيقها أبداً.

بعد كل مسافة ٢٠٠ ميل، كان يتم تخفيض حجم سلسلة المثلثات وإدخالها فى قاعدة قد سبق قياسها لإيجاد مقياس الرسم، ويتم إجراء ذلك شرقاً وغرباً على أرض منبسطة بشكل مناسب، مع وجود تل عند نهاية كل طرف يكون مرتفعاً بالقدر الكافى الذى يجعله ظاهراً من التل التالى والمحطات الرئيسية بالسلسلة. وبعد ذلك يتم قياس هذه القاعدة بدقة تصل إلى حوالى عُشر البوصة فى الميل الواحد، وذلك باستخدام شرائط حديدية خاصة بطول ١٠٠ قدم، وكانت هذه الشرائط تعلق بين السببتين، ويتم حمايتها من الرياح الشمالية الشتوية بواسطة ستارة يمسك بها حوالى ٢٠ عاملاً.

كان هؤلاء العمال أكثر خشونة من الملاحظين المستديمين، وهى إحدى المناسبات نشب شجار فى المعسكر نجم عنه أن أحدهم قطع أذن زميل له، مما جعل جمبو ويكفيلد، وديفيد منسى (David Munsey) وهو مهندس مساحة آخر من بريطانیا، يقضيان النهار بأكمله فى المعسكر يستمعان إلى الشهود لمعرفة حقيقة ما حدث قبل توقيع العقوبة المناسبة. ويصرف النظر عن مثل هذه التصرفات النادرة، فقد كانت الخصائص الرئيسية المتعلقة بقياس القاعدة تدعو إلى الملل المشوب بنوع من الاهتمام النظرى بسبب الحاجة إلى تفادى الأخطاء المجهرية المنهجية فى أقسام المائة قدم التى يمكن أن تتراكم فتؤدى إلى إفساد العمل بأكمله.

كان العمل المنوط بى شخصياً فى عملية التثايت هو وضع إطار العمل الخاص بأعمال المساحة الحدودية على سهل فيضان النيل شمال الخرطوم. كان خط السكة الحديد المتجه إلى وادى حلفا محاذياً لهذا السهل، وفى إحدى المرات وبينما كنت أقوم بملاحظة إحدى النقاط التى تقع بعد السهل من تل على ضفة النيل المقابلة، واصلتى إشارة ضوئية غريبة ليمنت موجودة فى الدفتر، وكانت عبارة عن مجموعة من النقاط تفصلها شُرطة تأتى على فترات متقطعة. وعندما وجهت المنظار إلى الماكسة الضوئية، وجدت أن قطاراً كان يمر بيننا، وكانت تلك النقاط بسبب شعاع الماكسة الذى كان يأتى من خلال نوافذ عربات القطار، أما الشُرطة فكانت تأتى من الفجوات بين كل عربة وأخرى. وفى مناسبة أخرى، وبينما كنا فى سهل الفيضان نقوم بملاحظة التل، استفسر صبى صغير عن العمل الذى نقوم به، فقلت له بعثت: "إننا نشعل النار على ذلك التل بشعاع الموت". وبعد بضعة دقائق أضاعت الماكسة الأخرى، فما كان من الصبى إلا أن أطلق ساقه إلى الريح، ولم يتوقف إلا بعد مسافة ميل.

كانت الخطة أن نستمر فى قياسات القوس الثلاثين عبر أعالي النيل، ونظراً إلى عدم وجود تلال فى تلك المنطقة، فكنا نستخدم أبراج بيلبى (Bilby Towers) المتقلة الأمريكية المصنع، وهى مزدوجة الشكل بحيث يمكن استخدام البرج الداخلى لوضع المنظار والمصباح الماكس، والبرج الخارجى الذى يتصل بالآخر عند القاعدة، لاستخدام الملاحظ. كانت هذه الأبراج تبنى على عارضات حديدية يبلغ وزن كل منها حوالى ٢ طن، وقد يصل ارتفاعها إلى ١٠٠ قدم. كنا نصعد إلى أعلى البرج بواسطة سلم خارجى، وكان الجزء المتدلى من تحت مسطبة الدرج يتطلب الوقوف فى هذا المكان المرتفع دون الشعور بالخوف أو دوار الرأس. لقد سبق أن قمنا ببناء أحد هذه الأبراج لمرض أقيم بالخرطوم، وحدث أن أحد الزائرين السودانيين للمعرض عندما بدأ فى صعود البرج، تذكر فجأة أنه يعول أسرة تحتاج إلى رعايته، فهبط بالدرج مهرولاً. كان

من الممكن استخدام ثمانية أبراج ملاحظة مساحية رباعية الأضلاع بما فى ذلك أضلاعها القطرية مع الجوانب، وذلك بطول ١٤ ميلاً، وكذلك باستخدام الأشعة الأمامية والخلفية الممتدة إلى تقطى رباعى الأضلاع التالية والسابقة، وبعد ذلك يتم تحريك البرجين الخلفيين باللورى إلى الأمام لينصبا مرة أخرى بعد البرجين الأماميين.

كانت الخطة أن يفرغ السودان من هذا العمل خلال سبع سنوات، مع ملاحظة أنه لم يكن يوجد فى البداية سوى مهندس بريطانى واحد (ميمسون دوجلاس Mason Douglas) مع مسجل سودانى، بالإضافة إلى ملاحظى العاكسات الضوئية الذين تم تدريبهم أيضاً على تركيب وتشكيل الأبراج إلى جانب تشغيل العاكسات الضوئية أو المصابيح. غير أنه فى المؤتمر الأول للمساحين بدول الكمنولث الذى عقد بعد الحرب فى عام ١٩٤٧، كان الأمريكيون الذين شاركوا فى المؤتمر أيضاً قد أبدوا حرصهم الشديد على إكمال هذا العمل بأسرع ما يمكن، واقترحوا أن نقوم نحن فى السودان بإنشاء رباعى أضلاع رادارى ضخم مع سلسلة للتثليث، على أن يتجه شرقاً وغرباً فى المناطق الواقعة شمال وجنوب الفجوة.

ويوصفى مثلاً لحكومة السودان، فقد اتفقت مع المساح العام لجنوب أفريقيا على أن عدم إكمال مسح القوس الأكبر بواسطة القياسات الأرضية أمر يدعو للأسف، ولكن بعد التشاور مع الأمريكان الذين كان يهمهم معرفة شكل الأرض فيما لو دعت الحاجة إلى إطلاقهم صواريخ إلى موسكو، وافقنا على الانضمام إلى المجموعة العاملة فى المشروع لأجل الإسراع بالإجراءات، ووافق الأمريكان على توفير الكادر المهنى المطلوب بحجم أكبر بكثير من القدرات المتوفرة لدينا، على أن نقوم نحن بتوفير العمال والمسانقين والميكانيكيين تحت إشراف (عجب على)، وبهذه الطريقة كانوا يأملون الانتهاء

من المهمة خلال أربع سنوات. وأسندت إلى دوجلاس ميسون مهمة قياس جميع القاعدات، وهو عمل شاق مرهق كاد في النهاية أن يصيبه بالجنون.

وبالرغم من أن السودان لم يكن عضواً بالكمونولث، إلا أنني قد تشجعت وقدمت اقتراحاً يؤكد أن نقوم بإكمال المهمة معاً بالوسائل التقليدية، على أن تقوم يوغندا بإكمال جزء صغير في حدودها الشمالية. لقد قمت بذلك، ولكن تسجيل وقائع هذا المؤتمر قد واجهته بعض العقبات، ولم تنشر مداولاته الرسمية إلا بعد أربع سنوات قبل انعقاد المؤتمر التالي. لقد سجلت ملاحظاتي الخاصة إزاء ذلك على التقرير الأمريكي الذي تم إعداده حول هذا العمل الضخم، ولكن كان لا بد لي أن أضيف أيضاً أن ذلك العمل الضخم الذي يكلف مبالغ طائلة وتشارك فيه ثلاث حكومات يعتبر نموذجاً نادراً كونه يكتمل قبل طباعة التوصية الصادرة بشأنه. غهر أن سكرتير المؤتمر الذي أصبح فيما بعد رئيساً لي بدائرة المساحة لما وراء البحار بلندن، لم يكن مرتاحاً للأمر بالرغم من موافقة الأعضاء الآخرين. وعندما أسندت لي سكرتارية المؤتمر، الذي كان ينعقد كل أربع سنوات، تمكنا من إصدار وقائع المؤتمر في عام واحد.

في عام ١٩٤٥ أسهمت في وضع طريقة دقيقة لقياس القواعد عندما كنت مساعداً لديفيد منسى الذي كان آنذاك يتولى مسئولية العمل الجيوديسي، وذلك بقياس قاعدة مساحتها ثمانية أميال ونصف بمنطقة (الهشيب) بأرض البطانة شمال الخرطوم، وكان ذلك من أجل سلسلة المثلثات شرق - غرب التي أصبحت جزءاً من السلسلة الثانية عشرة الموازية لـ (خط الطول) التي تعبر أفريقيا. وقد استخدمت هذه الطريقة فيما بعد لوضع مقياس الرسم لإطار عمل عالمي يمكن من خلاله أن تقوم محطات المراقبة بتحديد مواقع الأقمار الصناعية بكل دقة، حيث استفادت من ذلك أنظمة ملاحة الأقمار الصناعية المستخدمة اليوم، وبالنظر إلى حجم السودان فقد لعبنا دوراً هاماً في تحديد شكل الأرض بصورة دقيقة.

أثناء قيامنا بقياسات منطقة الهشيب، احتفل منسى بعيد ميلاده، وقمنا أنا وزوجته وعجب على بتجهيز هدية خاصة له . مقعد مرحاض خشبي، تم ترتيبه للمناسبة بشريط بنفسجي قبل وضعه على حفرة المرحاض التي حفرت داخل خيمة صغيرة مفتوحة في اتجاه الريح من الممسكر.

●●

### (ج) المسح الاجتيازي:

يشمل المسح الاجتيازي قياس الزوايا عند محطات متتالية في اتجاهات مختلفة على خط أو بقمة دائرية، مع قياس المسافات بين هذه المحطات، وكانت المادة أن يتم قياس الزوايا بواسطة المزواة (الثيودوليت) أو بواسطة البوصلة المغنطيسية، أما المسافات فكانت تقاس بطرق متعددة تتباين بين استعمال الشريط الحديدي والخطوات.<sup>(١)</sup>

كان شمال السودان يتميز بأراضيه المنبسطة، وبخاصة على سهل فيضان النيل بحقوله المروية، ولذلك كان يمكن مد شريط القياس على الأرض، ولكن عندما ذهب إلى الجنوب لمسح مشروع الزاندي بيامبيو، حيث الأراضي هناك غير متساوية وملينة بالغابات، وجدت أن الأمر يحتاج إلى عمل كثير يشمل إزالة كثران النمل، وأحياناً عبور قيمان بمض الأنهار العميقة، وبالرغم من أنني لم استخدم شريطاً يعلق بين سببتين، إلا أنني قد تعلمت القيام بذلك نظرياً، واستخدمته على وجه الخصوص في عبور أحد الأنهار العميقة المخيفة.

كذلك استفدت من السببتات الاحتياطية في عمل جهاز مبسط لقياس منحنيات السلسلة شبيه بالجهاز الذي يستعمل لقياس القاعدة، ووجدته أكثر سرعة حتى بالنسبة للأراضي المنبسطة نسبياً<sup>(٢)</sup>. كان أحد العمال يقف في

(١) لم يكن ذلك بفرض وضع أطار عمل وإنما لأجل تسهيل التفاصيل.

(٢) يتميز أيضاً بأنه أكثر دقة لأن حرارة الشمس تؤثر في طول الشريط.

منتصف شريط المائة قدم ممسكا بالشريط فوق بكرة قطن موصلة بشاخص المهندس (Ranging rod) ويتم ضبطه بالعين المجردة بين السببتين. وكان يتم إعطاء أطوال الخطوط المستقيمة من خلال معادلة تشمل الوزن والطول والجهد من ميزان زنبركى، ويمكن بكل سهولة تحقيق دقة ترتيب السنتيمتر الواحد فى ١٠٠ متر بسرعة نصف ميل فى الساعة.



## رسم الخرائط الطبوغرافية

(أ) بواسطة مسح الأرض:

كان يستحيل تماماً قبل عصر التصوير الجوى والأقمار الصناعية تغطية السودان البالغ مساحته مليون ميل مربع بخرائط طبوغرافية دقيقة، ولكن فى البلاد المفتوحة كان استخدام لوحة المسح المستوية هى الأسلوب الأمثل الأكثر دقة. كانت الخريطة تثبت على لوحة يمكن تسويتها وتويرها على الحامل (بواسطة البوصلة أو من نقطة عمل إلى أخرى) إلى أن تصبح متوازية مع الأرض، ثم يتم تعيين الانحرافات تخطيطياً بواسطة مسطرة بصرية، والارتفاعات باستخدام الكلنومتر (مقياس الميلان والانحدار) لقياس الزوايا الرأسية.

أما الأسلوب الأقل دقة فهو الميور بالبوصلة مع قياس المسافات باستخدام عداد المسافة بالسيارة، أو بواسطة الخطوات، أو بتوقيت تقديرات المسافة عند السفر بالجمال أو سيراً على الأقدام، وكان يتم تزويد الإداريين وغيرهم، خلال فترة تدريبهم الميدانية بالمملكة المتحدة، بتعليمات محددة حول كيفية رسم الخرائط التخطيطية أثناء أسفارهم فى البلاد، وكنا نبين هذه الرسومات على خرائطنا، ونحتفظ لدينا بقائمة تحتوى على أسماء الذين قاموا برسمها مع اعتبار التفاصيل المتعلقة بدقة سرية للغاية، ذلك أن

الخرائط المتجاورة نادراً ما تكون متوافقة مع بعضها البعض، كما أن دقة عمل الإدارى لا علاقة لها دوماً بأقدميته!

أذكر فى هذا السياق أن مفتش أحد المراكز قد عبر لى عن غضبه من أنه كاد أن يموت عطشاً أثناء عبوره مسافة تقدر بخمسين ميلاً سيراً على الأقدام فى أعالي النيل، وذلك لأنها كانت مبيّنة على الخريطة على أنها 'مستقع'. كذلك اكتشفنا فى مكتب الرسم أن عبارة الوصف المميزة 'ممطرة' قد حذفت فاعتدنا لهذا الخطأ و أعدنا إدخال كل العبارات المحذوفة فى الطبعة التالية. أما فى صحراء الشمال، فكان يتم أحياناً توضيح بعض السمات القليلة، ولكن وجدت خريطة لم يوضح عليها أى شيء سوى خط منقط يشير إلى الطريق الذى سلكه أحد المسافرين فى السابق، وتم وصفه مثلاً بعبارة (كذا وكذا ١٩٢٩). كان ذلك أمراً مضحكاً، ولكن مثل هذه الطرق تبقى مرئية أحياناً، وتعتبر علامة أرضية لمشرات السنين فى المناطق التى لا تميزها أية سمات أو خصائص أخرى.



### (ب) بواسطة المساحة الجوية :

كان التصوير الجوى يستخدم نادراً، غير أن خبرتى مع سلاح المهندسين الملكى بالقاهرة فى الفترة ١٩٤٢ - ١٩٤٥ جعلتني استكشف الإمكانيات التى كانت متاحة آنذاك. لقد بذل الأمريكان جهوداً عظيمة خلال عامى ١٩٤١ - ١٩٤٢ من خلال استخدامهم للتصوير ثلاثى الأبعاد، أو التصوير بثلاث كاميرات بفرض توضيح طرق الإمداد الجوى من تاكوراى فى غانا إلى الخرطوم والقاهرة، ثم إلى الشرق الأقصى مؤخراً. وفى عام ١٩٤٥ عندما تسلمنا نسخاً من نصف المليون خريطة التى قاموا برسمها، اكتشفنا أنه بإمكاننا أن نقوم بعمل خرائط مماثلة، ولكن بمقياس رسم أكبر بكثير من

المعتمد في تلك الخرائط إذا ما تمكنا من الحصول على الصور الفوتوغرافية، خاصة تلك التي أخذت للمناطق المنبسطة الضخمة التي لا تحتاج إلى رسم خرائط كنتورية، أو للمدن التي تمت تغطيتها بالصور الرأسية.

بناء على ذلك حصلت على تصريح لزيارة الولايات المتحدة لاستجلاب نسخ مطبوعة من تلك الصور، ومعرفة كيفية تحويلها إلى خرائط، وكعادة حكومتنا الصديقة تمت الموافقة على ذلك بسرعة أثناء جلسة شراب مع جوفري هانكوك<sup>(١)</sup> (Geoffrey Hancock) الذي صادق على تغطية تكاليف الزيارة. قضيت حوالي أسبوعين في الولايات المتحدة، تمكنت خلالها من جمع ٦٠,٠٠٠ صورة فوتوغرافية تغطي جميع أنحاء السودان من حدوده الشمالية إلى واو في الجنوب، فيما عدا الصحراء الشمالية الغربية.<sup>(٢)</sup>

كانت التقنية الأمريكية بالنسبة لنا متقدمة جداً، ولكن أثناء زيارتي إلى القاهرة التي سوف أنطرق إليها لاحقاً، تمكنت من الحصول على بعض معداتهم التي خلفوها هناك، والتي قمنا بتعديلها لتساعدنا في تدريب خريجي المدارس على استخدام التقنيات البسيطة، وبهذه الطريقة تمكنا من رسم خرائط لمناطق واسعة للفريق الذي كان يقوم بإجراء دراسة حول مشروع جونقلي، وذلك بطريقة تحديد النقاط فلكياً التي قام باستخدامها مهندس المساحة دونالد فيرجسون (Donald Ferguson)، وقد ساعد حرق الحشائش على معرفة السمات الأرضية في الصور الماثلة، وبذلك أمكن ربط الطريقتين معاً. كذلك تم إجراء مراجعة لمشروع الجزيرة بمديرية النيل الأزرق الذي تم مسحه بتصوير دقيق وضح أن متوسط الخطأ فيه لا يتجاوز ٢٠٠ متراً على

---

(١) موظف بمكتب السكرتير الإداري آنذاك.

(٢) مع بداية الحرب الباردة في عام ١٩٥٠ تم منع الصور الأخرى من التداول بحيث لا يمكن رؤيتها في الوقت الحاضر، ولكن إذا تغير ذلك فإنه سيوفر سجلاً فريداً للصحراء عبر شمال أفريقيا عن الفترة ١٩٤١ - ١٩٤٢.

الأرض، ولكن لم يكن لذلك أهمية تذكر في مناطق أعالي النيل حيث كنا نقوم باستبدال الخرائط التخطيطية غير الدقيقة.



## مسح أراضي الأملاك والعقارات

### (أ) المديرية الشمالية:

إن أهم أعمال أى مصلحة للمساحة هو رسم خرائط القياس الخاصة بحقوق ملكيات الأراضي. ويشمل ذلك في معظم بلاد العالم، فيما عدا بريطانيا، ترسيم حدود الأراضي التي تملكها أو توجرها الدولة، أو المؤسسات، أو القبائل، أو الأفراد وذلك بمعد شواهد (نواطير) على أركانها. وبالنسبة لشمال السودان، فقد قامت الإدارة التركية السابقة بتسجيل ملكيات أراضي الأفراد، ولكن دون رسم خرائط لها، واكتفت فقط بتحديد أركانها بأعمدة أو شواهد مبنية.

وعند إعادة فتح السودان في نهاية القرن التاسع عشر تم رسم خرائط لهذه الأراضي بقياس رسم قدره (١ : ٢٥٠,٠٠٠)، وقام بهذا العمل مساحون تم تدريبهم محلياً تحت إشراف البريطانيين، وتمت تغطية جميع أراضي المنطقة الواقعة على امتداد نهر النيل التي تروى بالسواقي، وبالمضخات الآلية مؤخراً بدءاً من مقام ثلاث بوصات، التي يمكن تحريكها من مكان إلى آخر في أسفل أو أعلى ضفة النهر حسب مستوى المياه، إلى المضخات الضخمة الثابتة التي تروى آلاف الأفدنة.

كذلك قامت فرق خاصة من المساحين بتخصيص الأراضي التي تزرع بالسلوكة للملاك الأفراد، وهي تلك الأراضي الواقعة تحت مستوى الفيضان العادي وكانت قيمتها عالية، رغم أنها كانت تتغير باستمرار، ذلك أنها بعد

زراعتها لا تحتاج إلى رى لأنها تتغذى على الرطوبة التى تخلفها مياه الفيضان. وبما أن ظهور هذا النوع من الأراضى كان يختلف من عام إلى آخر، فكان من يحظى بها فى إحدى السنين، يقوم بتأجير جزء منها لمن لم يحالفهم الحظ الذين قد يسعد الحظ أبناءهم فى المستقبل ليتولوا بدورهم رد الجميل بالمثل. غير أن هذا العمل الضخم كان يكثفه خطأ فادح، وهو عدم وجود إطار للعمل فوق أعلى مستوى للنهر بحيث يمكن بمده إعادة تثبيت النواطير أو الأعمدة الطينية فى حالة تحريكها، أو إذا جرفت مياه الأمطار أو الفيضان كما حدث فى فيضان عام ١٩٤٦ الذى ضرب رقماً قياسيماً.

لذلك عندما نقلت إلى المديرية الشمالية فى عام ١٩٥٢، أسند إلى القيام بمهمتين رئيسيتين: إعادة تثبيت العلامات الحدودية فى أماكنها التى كانت فيها، وإقامة نظام مستديم لعملية تحديد الأراضى، ذلك أن عدم وجود علامات حدودية للأراضى كان يتسبب فى نشوب نزاعات كثيرة. وهكذا خصص لى مدير المديرية بن آربر (Ben Arber) سجيناً محكوماً عليه بالسجن المؤبد كان قد قتل جاره بسبب مثل هذا النزاع حول حدود الأراضى (حول قطع الأخشاب وجلب الماء) وقال لى إن هذا كفيل بتذكيرك بأن عملك الأساسى هو منع حدوث مثل هذه النزاعات.

كانت هناك بالمديرية ستة مكاتب للمساحة يديرها سودانيون نالوا تدريباً جيداً، وهى موزعة على رئاسة المديرية بالدامر، ورئاسات المراكز فى كل من شندى، ويرير، ومروى، وبنقلا، ووالدى حلفا. تم التنسيق مع السلطات القضائية على تشكيل فريق عمل مشترك من القضائية والمساحة يتولى إعادة تثبيت علامات حدود الأراضى ورسم خرائط لها، ومن الناحية القانونية تسوية أية نزاعات حول الأراضى، أو أية ادعاءات أخرى فى هذا الشأن. كانت حقوق الأراضى تشمل على سبيل المثال حق المرور فوق أرض زراعية تقع على الشاطئ يملكها شخص آخر ملكاً حراً بفرض الحصول على الماء.

قمت بإقناع كبار المساحين السودانيين لمساعدتي في عمل إطار جديد للعمل المساحي. وبينما كنت أقوم بربط مجموعات العلامات المرجعية في الأماكن المحددة على امتداد النهر حتى موقع (القوس الثلاثين)، كانوا هم يقومون بإجراء المسح الاجتيازي باستخدام العاكسات الضوئية وأشرطة الحديد بين تلك العلامات المرجعية، مع وضع النواطير التي يبعد كل منها نصف كيلو متر عن الآخر. كذلك قمت، كما ذكرت أعلاه، بإنشاء مجموعة من العلامات المائلة عن طريق استخدام عملية (التثليث) من التلال المقابلة للأراضي الزراعية، وتم تحديد كل هذه الأراضي بوضع علامات خرسانية عليها وتثبيتها داخل الأرض. وتمكننا فيما بيننا من تثبيت ١٠٠٠ شاهد (ناطور) خلال أربع سنوات، وعندما عبرت عن شكري للمساحين عند تقاعدي في عام ١٩٥٥ قالوا لي: "لقد كنت أنت تؤدي العمل، ولذلك كان لا بد لنا أن نؤديه معك!"

كانت تستخدم في البلاد الأخرى قطعة من الحديد كعلامة حدودية توضع على قاعدة خرسانية ، ولكنها كانت دائماً معرضة للسرقة، وبدلاً عن ذلك قمنا ببساطة بعمل حفرة داخل القطعة الخرسانية قبل تثبيتها في الأرض لنضع بداخلها شاخص المهندس كهدف، ولكن كان الصبية يعبثون بهذه الحفر ويمسحونها بالحصي، وكحل لهذه المشكلة أصبحنا نملأها بالرمل، ولكن بعد تجهيز المساحين بملاحق طويلة!

لقد أدى إعادة مسح حدود الأراضي إلى إثارة بعض الشكوك لدى ملاك الأراضي، وكانت البداية عندما قام جمهور من هؤلاء المتشككين بمرافقة أحد المساحين أثناء تأدية عمله، فقد أكد هذه الشكوك في العديد من المرات عندما كان يسأل عن أماكن الشواهد الطينية التي لم يكن للملاك الأراضي مقر من نصبها في المكان الذي يعتقدون أنها كانت فيه من قبل. كان المساح يطلب منهم

أن يحفروا فى الأماكن المفترض وجود العلامات فيها حسب مؤشرات المقاسات التى أخذت من الشواهد الطينية القليلة التى كانت لا تزال قائمة، وعندما تكشفت الأساسات القديمة زالت الشكوك وتفرق الجمهور كان يتم تثبيت العلامات الخرسانية التى حلت مكان الأعمدة الطينية فى الموقع باستخدام قوالب صنعت فى مصلحة المسكة الحديد، وتحاط بالأسلاك الشائكة لحمايتها.

لم تكن لى صلة مباشرة بجلسات الاستماع فى المحاكم الخاصة بحقوق الأراضى وحدودها، ولكن فى إحدى المرات أتيت لى الفرصة لحضور إحدى هذه الجلسات حيث جاء إلى المحكمة رجل كبير السن يصحبه ابنه وابنته، اللذين قالاً إنهما الوحيدين القادرين على مخاطبته والتفاهم معه، ولذلك لم يكن غريباً أن إجاباته التى قاما بترجمتها للمحكمة كانت تؤكد باستمرار جميع الادعاءات التى تقدم بها نهاية عن والدهما.

كانت حدود الأراضى فى المدن تتطلب فى الغالب تقسيم المنطقة التى تقع بين شارعين إلى قطع سكنية، وكان يتم تخطيط قطع غير مستطيلة على الشوارع التى ليست فى زاوية قائمة، وبالتالي تشيد عليها منازل غير مستطيلة وتسقف بالواح زنك مستطيلة يتم تمديدها بالمنشار، الأمر الذى أثار سخط المختصين بمصلحة الأشغال العامة، وقد شكوا لى أحدهم بمرارة من هذا التصرف.



### (ب) مثلث زاندى:

قضيت ستة أشهر بالجنوب خلال عامى ١٩٤٥ - ١٩٤٦ لأجل مسح مشروع الزاندى لزراعة ونسيج القطن الذى وضع مخططة الدكتور توتهيل (Tothill) مدير مصلحة الزراعة، وتايجر وايلد (Tiger Wyld) مفتش مركز الزاندى

المقيم في يامبيو. كان وايلد في السابق ضابطاً متميزاً في الجيش، ويحمل نياشين الخدمة الطويلة الممتازة، وتيشان الصليب الحري من الحرب العالمية الأولى، ويتمتع بشخصية قوية كما يدل على ذلك لقب تايجر (نمر) الذي أطلق عليه. وكان قد تعاقد مع المصلحة بصفة ضابط، وليس كمضو منتظم بالخدمة السياسية، وهو أحد الذين كان يطلق عليهم (بارونات المستقعات Bog Bar- ons) وعمل على تهدئة الأحوال في الجنوب، وكرس كل طاقاته لقبيلة الزاندي ورعايتها، خاصة وأنه كان يرى أن السودانيين الشماليين يستغلون الجنوبيين. وفي مسلك مستقل، رفض وايلد أن يرفع العلم المصري، مع أن العلمين البريطانى والمصرى كانا يرفعان فوق مبانى جميع الرئاسات الحكومية الأخرى بالسودان، وهو إجراء دستورى سليم فى ظل الحكم الثنائى الإنجليزى المصرى، كما أنه لم يسمح برفع أية أعلام فوق مكتبه.

كانت خطة تنفيذ المشروع تشمل تشييد المكاتب والمساكن الحكومية فى رئاسة المركز بيامبيو، مع مصنعين للنسيج والملابس فى مدينة أنزارا على بعد ثلاثين ميلاً من يامبيو باستغلال القطن المزروع محلياً الذى لم يكن يستحق التصدير إلى الخارج عن طريق البر والبواخر والسكة الحديد إلى بورتسودان. كان الزاندى قوماً ذوى أحجام صغيرة، ويميل لونهم إلى السمرة، ويعرفون باسم (نيام نيام) لأنهم اشتهروا بأنهم من آكلى لحوم البشر. وكانوا يرتدون صديريات ويضعون على رؤوسهم قبعات مستديرة مصنوعة من القش ومربعة الشكل فى جزئها الأعلى.

قام لاركن (Larkin) الذى خلفه وايلد بتنظيف العديد من الطرق، وأسكن الأهالى على جوانبها ليبتعدوا عن الأنهار وذبابة (التسمى تسمى) التى تسبب مرض النوم للإنسان والحيوان. كانت هذه الطرق التى تتابع مستجمعات المياه متعرجة، وتشكل معالم أرضية جيدة عند النظر إليها من الجو. قمت بمساعدة

اثنين من المساحين السودانيين برسم الخرائط الخاصة بمنطقة يامبيو وانزارا باستخدام مقياس رسم كبير، كما وضعت خطة لتحسين خريطة ربع البوصة التفصيلية التي سبق أن قام لاركن بتصنيفها بحيث تشمل جميع الأنهار مع أسمائها.

لذلك طلبت مساعدة سلاح الجو الملكي لعمل استكشاف جوى، واتضح لنا أن الطرق هي السمات الوحيدة التي تستخدم للملاحة الجوية في مناطق الغابات الكثيفة. كان التصوير من الجو يتم بتحليق الطائرة فوق المنطقة، مع الانعطاف عند نهاية كل خط مستقيم بزاوية محسوبة من الشاطئ. وبلاستفادة من الطرق التي كانت تطبق في الصحراء، قمنا بمسح الطرق على الأرض حتى يتم التنسيق مع التصوير الجوى، وتمكنا من رسم خرائط بمقياس رسم كبير عن طريق المسح الاجتيازي على امتداد الخطوط التي تم شقها داخل الغابة مع أن العمال المحليين لم يكونوا ماهرين في عمل ثلاثة خطوط متوازية، وبالرغم من الجهود التنظيمية التي بذلها شاوليش شرطة سابق يدعى (مبورى) التي تعنى "إله" باللغة المحلية. لقد استفاد وايلد، وألن ماكول (Alan McCall) مفتش الزراعة الذي أصبح فيما بعد آخر مدير لمصلحة الزراعة قبل استقلال السودان، من هذه الخرائط في إعادة توزيع القرى من أجل تسهيل زراعة القطن المحلى.



## تهجئة الأسماء

كانت كتابة الأسماء بحروف غير عربية تشكل صعوبة كبيرة، كما كانت تتباين كثيراً تهجئة أسماء الأماكن على خرائط مقياس الرسم الصغير التي تغطي البلدان الواقعة تحت مختلف أشكال الاحتلال الأوروبى، فعلى سبيل المثال كانت كلمة "جبل" تكتب وتطلق في كل من مصر وسوريا بطرق متباينة

مثل ((gebel أو(djebel) أو(jabal أو(ghebel) كما كان الفرنسيون يكتبون كلمة "وادي" (ouadi).

لذلك فكرت في إزالة حرف الـ ((i من كلمة ( Gambeila جمبيلا) حتى تكون هناك تهجئة موحدة للبلتين السودانية والأثيوبية اللتين تحملان نفس الاسم. غير أن مفتش المركز اعترض موضحاً أن ذلك يعنى أن البريد المرسل إليه لن يصل أبداً. وهكذا عدلت عن الفكرة، ولكن بالرغم من ذلك تقدمت بتوصية في النهاية بأن تكتب الأسماء في نصق واحد على كل الخرائط، وفي جميع الوثائق الرسمية.



## نسخ وطباعة الخرائط

عندما ذهبت إلى السودان أول مرة، كان النظام المتبع في المساحة قديماً وبسيطاً، فكانت الرسومات الاستشفافية تعمل من الصفحات الميدانية الأصلية بواسطة الرسامين السودانيين مع واحد لكل لون على الخريطة إذا لم تكن ابيض وأسود. كانت في الغالب تستخدم ثلاثة ألوان: اللون الأسود للأسماء والتفاصيل الأخرى مثل المسالك والقرى، واللون البنّي لخطوط الكنتور، والأزرق للأنهار والوديان والخيران والسماوات المائية الأخرى، وبعد ذلك يتم عمل أكليشية لكل رسم شفاف بتمريض صفيحة زنكية حساسة إلى الشمس بعد تغطيتها بمستحلب في إطار زجاجي للطباعة. ثم يتم تحميض الشريحة ومراجعتها تحسباً لأية تشوهات قد تحدث بسبب الفبار أو غيره. وبعد ذلك تحول الشريحة إلى ماكينة الطباعة. كانت لدينا ماكينتان للطباعة مبسطتان بقاعدتين مسطحتين توضع فيهما الشريحة بعد تغطيتها بصفحة من الورق، ثم يضغط عليها بالدحرجة لنقل الصورة المقطاة بالحبر إلى الورق. أما بالنسبة إلى الخرائط الملونة فتكرر العملية بالشريحتين الأخريين. كانت كمية العمل المنتج في الأيام الأولى ضئيلة جداً، ولكن لم يكن لبطء العمل تأثير يذكر.

كنا نستخدم فى السودان وسيلة غير عادية، إن لم تكن فريدة، للعمل الإدارى الجيد - (الخريطة المندبل Handkerchief Map ) التى كانت نسخة خاصة من خرائط البسلاد الطبوغرافية بمقياس الرسم القياسى (١ : ٢٥٠,٠٠٠) التى كانت تطبع على قماش أبيض، وكان يستفيد منها بصفة خاصة أولئك الذين يعملون فى مناطق المراكز، ذلك أن الخريطة الورقية قد تحدث حفيفاً أو خشخشة تجمل الجمل يجفل، أو قد تطير أو تتمزق مع هبوب الرياح، أو تسبب أية مناعب أخرى. كان يتم إنتاج خرائط المندبل بنفس الطريقة التى تنتج بها الخرائط الورقية، فهما عدا أن قطعة القماش التى تطبع عليها يجب أن تثبت فى ستة نقاط على ورق مقوى. وكان الجيش البريطانى يتبع طريقة مماثلة بطباعة الخرائط على الحرير ليستخدمها من قد يتعرضون للأسر فى الحرب، ولكنها كانت رقيقة جداً بحيث أنه بعد حياكتها داخل الملابس لا يمكن العثور عليها إذا تعرض الأسير للتفتيش بحثاً عن الأسلحة المخبوءة.

أثناء الحرب طُلب من مصلحة المساحة طباعة أربعين نسخة من ملصق للتجنيد فى الجيش، وكان الملصق عبارة عن صورة لجندى سودانى فى زيهِ العسكرية. لم يكن هناك ما يبرر عمل شريحة منفصلة للرقع الصغيرة الملونة الموجودة على الزى نظراً إلى أن المدد المطلوب كان أربعين نسخة فقط، ولذلك تم إجراء عملية التلوين باليد. كان أحد الأسباب التى استدعت انتدابه إلى سلاح المهندسين الملكى بالقاهرة فى عام ١٩٤٢ هو معرفة ما طرأ من مستجدات فى مجال استنساخ وطباعة الخرائط.

وهناك فى القاهرة وجدت كافة وسائل الطباعة بطريقة (الأوفست) بما فى ذلك آلة تصوير ضخمة تقوم بتقليل حدة رسم الخطوط وتحسينها، وكذلك آلة (النيموغراف) الفوتوغرافية التى تقوم بطباعة الأسماء على الورق الشفاف.

كما وجدت هناك ماكينة طباعة تدور بسرعة هائلة وتطبع الخريطة خلال بضعة ثوان باستخدام تقنية الأوفست. وبعد الحرب عُرضت هذه المعدات للبيع، فأرسلنى جمبو ويكفيلد لشراء ما كنا نحتاج إليه. كذلك حصلت عن طريق الإعارة المستديمة على آلة للتخطيط البيانى كانت ضمن المعدات التى خلفتها الكتيبة الأمريكية. وعندما عدت إلى السودان، أبدى ضابط الجمارك المصرى فى الشلال بعض الصعوبة بشأن هذه المعدات نظراً إلى أنه لم ير مثلاً من قبل، غير أنه سرعان ما غير موقفه وسمح بمرورها عندما سرت به إلى الخارج وانتعيت به جانباً لبعض الوقت تحت حرارة الشمس. لم يطالب الأمريكان، حسب علمى، باستمادة هذه المعدات، ووضعنا كل ما حصلنا عليه من القاهرة فى مكانه الصحيح، وأحسننا استعماله.

بعد الحرب طرأت مشكلة شغل وظيفة مدير مصلحة المساحة خلفاً لمديرها السابق. كان ريكس هاردى (Rex Hardie) قد تقاعد فى مطلع الأربعينات، وكان من يله فى سلم الأقدمية هو جيم ثورنبيرن (Jim Thornburn) وجيرى سويتنج Gerry Sweeting الذى كان يعمل فى منابرات قوة دفاع السودان أثناء الحرب ولكنه أصبح مريضاً. كذلك كان هناك جمبو ويكفيلد صاحب الشخصية القوية المميزة، ولكنه كان أقل منهما من حيث درجته الوظيفية. فاجانى جون ويلي روبرتسون (John Willie Robertson) الذى كان آنذاك أحد كبار المسئولين بمكتب السكرتير الإدارى عندما أخذنى جانباً أثناء حفل عشاء أقيم فى دار الإكليريوس الملاصق لكاتدرائية الخرطوم، وطلب منى الإدلاء بوجهة نظرى فى ما يجب عمله. اعترضت على طلبه قائلاً: "من أنا يا سيدى حتى أقوم بتقديم مقترحات؟"، فرد بطريقته الماكرة المعتادة: "حسناً، هأنذا أسألك"، فاقترحت له تعيين شخص برتبة عميد أو عقيد مهندس متقاعد له إلمام بالتقنيات الحديثة كإجراء مؤقت. غير أنه تم تعيين جمبو ويكفيلد مديراً للمصلحة رغم صغر سنه نسبياً، ولكن كان قرار تعيينه موفقاً بالنظر إلى همته

وزكائه، وقوة شخصيته المطابقة لقوته الجسدية. أذكر مرة أنه كسر مقبض باب إحدى العريات بقبضة يده القوية، وفي مناسبة أخرى أثناء حملة قطبية، تمكن من سلخ دب مستخدماً يده أيضاً، كما لعب دوراً هاماً خارج مصلحة المساحة من خلال مشاركته في المجالس واللجان التي تقوم بتشكيلها الحكومة المركزية، ورئاسته للجنة القومية الخاصة بأجور الوظائف الفنية في حكومة السودان.

بعد الحرب تمكنت المصلحة من استجلاب بعض المعدات الجديدة، والقيام بأعمال إضافية تشمل طباعة مئات النسخ من الميزانية السنوية للدولة، وهي مهمة صعبة لم تكن أي جهة أخرى تستطيع القيام بها، إضافة إلى عدد كبير من المصنّعات التي تدعو إلى محو الأمية في جميع أنحاء البلاد. غير أن الأحوال الطبيعية، خاصة في فصل الصيف لم تكن تساعد على أعمال الطباعة. كان يتولى مسئولية هذا العمل اليكس داوسون (Alex Dawson) مع اثنين من الفنيين من قسمي الإنتاج والطباعة بعد أن قاموا بتجميع ماكينة طباعة جديدة. بدأ تشغيل هذه الماكينة في يوم حار جداً من شهر يونيو، وحاول داوسون أن يلمس أحد ركائز الماكينة فوجدوها ساخنة جداً. وبعد لحظة صمت مسح خلالها حاجبيه، انكأ على أحد أعمدة الفرقة الحديدية فإذا به يقفز فوراً إلى الخلف، إذ كان العامود أشد سخونة - ١٢٠ درجة.

أما أولئك الذين كانوا يتولون أعمال المراجعة، فقد كانوا أوفر حظاً حيث أنهم كانوا يؤدون عملهم داخل غرف مكيفة. وفي شهر رمضان طلب الموظفون السودانيون من جميع وكفيلك أن يأذن لهم بالبقاء داخل الغرف المكيفة بعد انتهاء ساعات الدوام المعتادة التي كانت تنتهي عند الواحدة بعد الظهر خلال شهر رمضان. وافق جميعهم على الطلب، ولكن بشرط أن يواصلوا العمل، وهكذا حدث أن ساعات دوامنا، بخلاف المصالح الأخرى، كانت أكثر وليس أقل إنتاجاً

لم يكن مطلوباً منا معرفة اللغة العربية مثل الآخرين الذين كانوا يعملون بالخدمة السياسية السودانية، وقد دهش الأساتذة الذين اختبرونى فى اللغة العربية من عدم إلمامى تسيباً بمفردات المصطلحات المساحية مع أننى قد نجحت فى الامتحان. لم أتمكن بعد ذلك من تعلم عدد كبير من المصطلحات الفنية كما كان يفترض، وذلك نظراً لوجودى فى الميدان فى أيام الحرب، وكنت فى الممارسات اليومية مع العمال استعمل الأوامر البسيطة، ولكن تحسنت لفتى العربية كثيراً أثناء سنواتى الأربع الأخيرة بالمديرية الشمالية.

كنا محظوظين جداً فيما يتعلق بكبار الموظفين السودانيين الذين عملوا معنا فى المصلحة، ذلك أن كثيراً من الطلبة المتفوقين من خريجي كلية غردون قد اختاروا الانخراط فى المصالح الفنية التى يستطيعون أن يتقدموا فيها بسرعة أكثر مما هو متاح فى المصالح الإدارية - كان هناك أطباء مؤهلون فى السودان منذ عام ١٩٢٧، وكان لدينا موظفون بمستوى رفيع يترقون بسرعة فى عملهم ، وقد انضم بعضهم إلى جمبو ويكفيلد فى عمله الجيوديسى الميدانى. وكنت قد تعرفت على اثنين منهم معرفة جيدة هما مكى المنا ابن شاويش فى الشرطة كان يعمل فى كردفان، وشارلى أنطون الذى كان مسيحياً وجده إغريقى، أما جده الآخر فكان مبشراً مشهوراً، وقبل هروبه إلى مصر حكم عليه بالإعدام شنقا ست مرات - لم ينفذ فيه القدر - فى عهد الخليفة عبد الله فى محاولة يائسة لإدخاله الإسلام. أما مكى فقد أصبح أول مدير سودانى لمصلحة المساحة بعد الاستقلال، ولكنه لم يلبث أن استقال ليصبح مديراً للمشاريع المروية التابعة للسيد عبد الرحمن المهدي فى منطقة النيل الأبيض، ثم عين مؤخراً وزيراً للرى وهو منصب هام فى السودان حيث أن أغلب المشاريع الزراعية تعتمد على المحاصيل المروية، وكان قد خلفه شارلى أنطون مديراً

للمساحة حيث شغل هذه الوظيفة لعدة سنوات.

كان من أصدقائي الآخرين عمر العتباتي، مراقب المكتب الطبوغرافى، الذى احتج علىّ فى إحدى المرات لأننى فقدت أعصابى فى المكتب أمام العامة، ولكنه سامحنى عندما علم أننى كنت قد تلقيت للتو خبراً بوفاة والدى فى إنجلترا، ولم يكن ممكناً بطبيعة الحال أن أعود إلى الوطن لحضور الجنازة. لم يكن السودانيون يبدون اهتماماً عندما يحتد مزاجنا بين حين وآخر، وكانوا يعتبرون ذلك تصرفاً إنسانياً، وأذكر أن بعض سائقي العربات الذين كانوا يعملون معنا قد عبروا عن قلقهم لأن أحد مهندسي المساحة البريطانيين كان دائم الهدوء، وكانوا يقولون عن مثل هذا الشخص، "إنه بارد".

كانت مساحة الأراضي مهنة صغيرة، ولكنها كانت من المهن التى تشجع على المبادرة من وراء البحار بعيداً عن مواقع القيادة. ولذلك استطاع القليلون من أفراد المهنة أن يبرهنوا على قدراتهم الفائقة التى جعلتهم يتمسكون بها، وخبر الأمثلة على ذلك تشمل كل من جورج واشنطن، وغردون، وكتشنر، ولينويد بريجنيف. ومن الأمور ذات الدلالة أن المبعوضات الجيش فى السودان قد انجذبوا إلى الأسلحة الفنية، فقد كان أحمد باشا محمد الذى أصبح قائداً للجيش بعد الاستقلال، ضابطاً بسلاح المهندسين، وإبراهيم عيود الذى أصبح رئيساً للسودان بعد انقلاب عسكري وصفته جريدة التايمز بمباراة انقلاب سودانى أبيض (Soft Sudan Shuffle) قد جاء أيضاً من سلاح الخدمة.



## خاتمة..

أثناء فصل الشتاء الذى أعقب الاستقلال، كنت أنا الموظف البريطانى الوحيد المتبقى فى الدامر. وكان هناك (فكى) قادم من كردفان اشتهر فى المديرية الشمالية بأنه يشفى كل الأمراض، وجذب إليه أعداداً هائلة من عامة

الجمهور، بل أن بعضهم كان يأتى إليه محمولاً على المناقريب (الأسرة). وكان يعالجهم بطرق مختلفة، منها أحياناً وضع قطعة عملة ملتهبة على العضو المصاب.

وفى يوم من الأيام مررنا بالمنزل الذى كان يسكن فيه وكان محاطاً بالمرضى الصامتين وهم يجلسون القرفصاء على الأرض خارج المنزل، وعلمت من سائقى ان (الفكى) يخرج إليهم بين الضينة والأخرى ويكرر عليهم الا يعطوا فلوساً لحيرانه (حواريه)، ولكن يمكن إعطاؤهم طعاماً فقط. وأخيراً قام بعض الأطباء السودانيين، وموظفى الحكومة، لربما بعد ممارسات خاصة كبيرة، بإبلاغ مدير المديرية الذى كان من أحفاد الخليفة مطالبين بضرورة منع (الفكى) من ممارسة هذا العمل حيث أن ازدحام الناس قد أدى إلى تفشى بعض الأمراض. ولذلك قام مدير المديرية باستدعائه وطلب منه أن يوقف عمله، ويعود إلى قريته فى كردفان. ألقىت نظرة خاطفة عليه أثناء انتظاره لمقابلة المدير، فوجدته سقراط أسود اللون، واسع العينين. لقد أطاع الأوامر.

جون رايت (John Wright)



16

---

حكاية

جيلين

---

*Sudan Canterbury Tales*

كنت أحد أفراد مجموعة اقتفوا خطى آبائهم في الالتحاق بالخدمة السياسية السودانية، وكان الآخرون هم روين يونغ Robin Young، وروبن كروول (Robin Crole) إلى جانب إيليهوت بالفور (Elliot Balfour) ابن الطبيب المشهور الذي نجح في استئصال الملاريا بالخرطوم، وجون يودال (John Udal) ابن 'دوجي' ناظر كلية غردون المعروف، وكان الأب والابن - كما في حالتي - من أهالي (ويكام Wykeham). كما كان هناك فاي بيز (Guy Pease) وهو ابن هيربرت بيز الذي كان يعمل بالشرطة، وأخيراً موري جونستون (Morie John-ston) ابن أحد موظفي حكومة السودان.

لقد عاش والدي فاي بوسون (Guy Pawson) إلى أن أدرك الثامنة والتسعين من العمر، وعندما توفي في عام ١٩٨٦ كان عميداً لموظفي الخدمة السياسية السودانية، بالإضافة إلى أنه كان لاعب كريكت ممتازاً في ذلك الوقت، بل ربما كان نموذجاً مصغراً تجسدت فيه شخصية وأصالة عضو الخدمة السياسية. وبما أنه قد نال تعليمه في وينشستر (Winchester) وكلية كرايست تشيرتش (Christ Church) بجامعة أوكسفورد، فقد كان من أوائل المدنيين الذين تم اختيارهم للمشاركة في حكم السودان الذي كان لا يزال آنذاك تحت الإدارة العسكرية، حيث ذهب إلى هناك في عام ١٩١١. كان (كابيتا) لفريق الكريكت في أوكسفورد، وفيما بعد لفريق يوركشير، رغم أنه في السودان قد حول مهاراته في الكريكت إلى لعبتي البولو والتنس، وكان يتميز بحس صادق لإنصاف الآخرين، عندما كانت عبارة (ليس هذا بكريكت)

التي يقصد بها تورية أن هذا ليس بعدل، تعنى معناها الحقيقي، وتجسد النهج العام للإداريين البريطانيين خلال فترة الحكم الثنائي في تعاملهم مع السودانيين. لقد تجلى ذلك بوضوح في استمراره في اللعب في خانة حارس مرمى بعد تقاعده، تماماً كما كان حاله في فرق الدرجة الأولى بفريقه المحلي بنهيرست بارك (Penhurst Park). كذلك كان حسه الرياضى، الذى ربما تكون السنوات التى قضاها كمدير مديرية قد وضعت بصماتها عليه، قد أكسبه عادة لم تكن دائماً تجد قبولاً لدى رماة كرة الكريكيت إذا ما طالبوا بخروج الخصم بعجة مشكوك فى صحتها، كان تكون ساق ضارب الكرة أمام مضربه، أو أن تكون الكرة قد تم التقاطها بطريقة مشكوك فيها، فكان هو يخالنهم الرأى، ويصر بلهجة أمرة على بقاء الخصم، ويأن (رامى الكرة لم يخطئ) حتى قبل أن يصدر الحكم قراره برفع إصبعه. واستمر يلعب الكريكيت حتى بلوغه سن الرابعة والستين.

لقد عمل الوالد فى كل من مديرية الخرطوم، والنيل الأبيض، والنيل الأزرق، وأعالى النيل، كما قضى فترة فى مكتب السكرتير القضائى. وأصبح مديراً لمديرية النيل الأبيض فى الفترة من عام ١٩٢٧ إلى ١٩٣٤ التى كانت رئاستها فى مدينة الدويم. وهناك أصبح صديقاً وسنداً للسيد عبد الرحمن المهدي الذى ولد بعد وفاة أبيه المهدي الذى قتلته قواته الجنرال غردون فى عام ١٨٨٥. كان السيد عبد الرحمن أحد أبرز زعميين دينيين فى البلاد، ولم يكن فى ذلك الوقت صاحب ثروة أو شخصية بارزة فى الشئون الوطنية مثلما أصبح فيما بعد، ولكن تشجيع والدى له قد مهد له الطريق للبدء فى مشاريع الزراعة بالظلمبات التى شكلت الأساس لثروته فى المستقبل. كذلك ساعد والدى فى إرساء الأساس لمشروع الجزيرة الذى كان يزرع فيه معظم القطن السودانى. وفى عام ١٩٢٧ عندما جاء السيد عبد الرحمن إلى لندن لحضور احتفالات تتويج الملك، وكان والدى حينئذ قد تقاعد عن الخدمة فى السودان، فرافقه

إلى أحد المسارح حيث كانت تعرض مسرحية (بلالاىكا)، وبهذه المناسبة تم حجز مقصورة خاصة لنا بالقرب من خشبة المسرح. كان السيد عبد الرحمن شخصية مهيبة وهو فى زيه السودانى الفضفاض، وأثناء الاستراحة، وعندما بدأ الجمهور يصفق للممثلين أثناء بروز كل منهم منفرداً من وراء الستارة لتحية المشاهدين، وقف السيد عبد الرحمن ليعبر عن شكره للتصفيق معتقداً أنه كان مركز اجتذاب الجمهور، وقد أصبح كذلك بالفعل!

لا أذكر زيارتى الأولى إلى السودان التى كانت فى شتاء عام ١٩٢٠ عندما تم نقل والدى إلى الخرطوم حيث كان عمرى آنذاك سنتين، غير أنى أذكر زيارتنا إلى ود مدنى فيما بعد عندما أصبح والدى نائباً لمدير مديرية النيل الأزرق. ولازالت تعلق بذهنى ذكريات (البببى لاين) وخليج بسكاى الذى اكتسب سمعة سيئة عن جدارة، وبورسعيد، ورحلتنا بالقطار المصرى، ثم بالباخرة النهرية إلى وادى حلفا، وكنا بتعليمات من المربية ننظر شذراً من خلف نافذة القطار لنمنع الباعة المتجولين من مضايقتنا عند وقوف القطار بالمحطات، وزيارتنا إلى (أبوسمبل) فى موقعه الأصلي على ضفة النيل، ثم رحلتنا بالقطار مجدداً إلى الخرطوم، ثم ود مدنى حيث منزلنا الفخم الذى كان فى نظرى آنذاك أشبه بقصر، ثم تواضع فى نظرى إلى حجمه الطبيعى عندما رأيته مؤخراً بعد أكثر من خمس وعشرين سنة. كما لازلت أذكر كلبى أبى وامى (بببى وبمباس)، وجميع تلك الفراشات التى كنت أقوم بجمعها وحفظها (لا زالت لدى)، وتلك الخنافس والحشرات التى كان من بينها عقرب (تلقيت بشأنها تحذيراً مشدداً)، وذبابة التسميتسمى (أهدانى إياها اختصاصى الحشرات)، وركوب الحمير، ومشاهدة مباريات البولو، والأزيار التى تحتفظ ببرودة الماء، والتحذيرات بأن الوقوف لأكثر من دقيقتين فى شمس الظهيرة دون وضع قبعة على الرأس يسبب ضربة شمس مؤكدة، والمساجين الذين كانوا يعملون فى حديقة المنزل وهم مقيدون بالسلاسل ولكنهم كانوا يبدون قانعين بما هم فيه،

وتلك القصة التي روتها لى الوالدة عن ذلك المسجين الذى ذهب إلى حارسه فى الفرنة يجرجر سلاسله المجلجلة، وعندما وجده يقف فى نوم عميق (استلف) منه المفتاح، ونقل قيده إلى رجلى الحارس قبل أن يستأنف عمله فى الحديقة، كما أذكر حضورنا الافتتاح الرسمى لخزان سنار فى أوائل عام ١٩٢٦، وأخيراً وليس آخراً لن أنسى عبدالمجيد السمرجى الذى كان يعمل لدينا، ذلك الشخص الطيب بروحه المرحه وسلوكه المستقيم.

كانت مثل هذه الذكريات، إضافة إلى إعجاب أبوى بالبلد وأهلها وحياتهما التى مارساها هناك، هى التى دفعتنى فى عام ١٩٢٩ إلى أن أقوم بتسجيل زيارة إلى مكتب وكالة السودان بقدن، وتسجيل طلبى للالتحاق بالخدمة السياسية السودانية عندما حصلت على الدرجة الجامعية من أوكسفورد فى العام التالى، ولكن نشبت الحرب فالتحقت بمدفعية الخيالة الملكية بأوكسفورد، وبعد حصولى على الشهادة "ب" تم تعيينى وإرسالى إلى فرنسا كأحد الفرسان المقتدرين، ولا شئ فيما عدا ذلك إلا القليل، إذ لم تكن لدينا خيول مع المدافع! وفى صيف عام ١٩٤٥ ذهبت فى إجازة إلى الوطن من النمسا، وهناك تم استدعائى إلى وكالة السودان حيث أجريت لى مقابلة شخصية، وتم قبولى للالتحاق بالخدمة السياسية السودانية، ولكن كان على أن أعود إلى النمسا، إلى حين حصولى على خلو الطرف "ب" وقد تم ذلك فى مطلع نوفمبر، ومع أننى كنت أمل أن استمتع بدورة فى اللغة المربية، وقضاء بضمة أشهر فى إنجلترا، إلا أننى فى الواقع قد منحت عشرة أيام فقط لتجهيز نفسى والتبليغ للسفينة فى ليفربول.

عندما وصلت الخرطوم فى منتصف ديسمبر عام ١٩٤٥، نقلت إلى منطقة مروى - دنقلا، وكان مفتش المركز هناك هو جاك ماكربيل (Jack Mackrell) ويساعده على نديم كأول سودانى يتقلد منصب مساعد مفتش مركز. وفى نهاية عام ١٩٤٦، وأنا أناضل من أجل الوصول إلى المستوى المطلوب لأداء

امتحان اللغة العربية - المستوى العالى، كتبت إلى الخرطوم ملتصقةً إلحاقى  
بمركز الشرق الأوسط للدراسات العربية فى لبنان الذى سبق أن أرسل إليه  
بعض زملائى، ولكن لم يجد طلبى أدناً صاغية لدى السكرتارية. وبعد فترة  
قصيرة تم نقلى إلى مديرية أعالي النيل حيث أرسلت إلى مدينة (واط)، مركز  
وسط النوير، وقضيت هناك الثلاثة أعوام التالية حتى أواخر عام ١٩٤٩. كان  
منزلى فى واط عبارة عن قطية بدائية من القش، وأصبحت فيما بعد أول بيت  
زوجية لنا عندما اقتترنت بـ (بيجى Peggy) فى عام ١٩٤٨. ربما ينطبق على  
هذا المكان تعبير ورد فى كتاب صدر مؤخراً عن السودان بأنه ليس بلداً للنساء  
(No Woman's Country). وبنهاية عام ١٩٤٩ نقلت إلى الخرطوم فى وظيفة  
مفتش مالى بفرع الحكم المحلى الذى تم إنشاؤه حديثاً بالسكرتارية الإدارية.  
كانت هناك بالمركزين اللذين سبق أن عملت بهما قواعد أساسية للحكم المحلى،  
حيث كانت توجد فى الأول "إدارتان محليتان"، وكان البمباشى عبد الله إدريس،  
وهو ضابط متقاعد، رئيساً للإدارة المحلية بمنطقة مروي، بينما كان الشيخ  
الزبير حمد الملك رئيساً للإدارة المحلية بمنطقة دنقلا. أما فى فرع مركز  
النوير، فلم يكن هناك زعيم واحد بصلاحيات عليا، وإنما خمسة زعماء  
متساوون يتولى كل منهم مسئولية أحد أقسام قبيلة النوير لاو. كانت الإدارات  
المحلية فى المنطقتين تتمتع بسلطات واسعة، وتعمل تحت قانون الحكم المحلى  
لعام ١٩٣٧، وقانون المحاكم الأهلية، ولكنها فى الأساس كانت إدارات قبلية  
تحت إشراف مفتش المركز، ومن خلاله مدير المديرية الذى كانت تؤول إليه كل  
المسئوليات. كانت الخطوة التالية هى القيام بتحديث هذا النظام وجعله أكثر  
تمثيلاً للمواطنين.

فى عام ١٩٤٩ تمت الموافقة على التوصيات الرئيسية لما عرف آنذاك بـ  
(تقرير مارشال) من قبل المجلس التنفيذى الذى كانت غالبية أعضائه من  
السودانيين. وفى عام ١٩٥١ صدر قانون جديد للحكم المحلى ليحل محل

القانون القديم الصادر فى عام ١٩٢٧. وبعد موافقة المجلس التنفيذى تم تعيين دونالد كلارك (Donald Clarke) مساعداً للسكرتير الإدارى لشئون الحكم المحلى ليتولى تنظيم فرع الحكم المحلى، وكان على أن أفضى بقية فترة خدمتى لحكومة السودان فى التعامل مع الحكم المحلى.

كان نظام الحكم المحلى الجديد مبنياً على وحدة واحدة تشرف على كل الأغراض. كان المجلس المحلى يتكون من عشرين إلى ثلاثين عضواً، ويتم ترشيح ثلثهم من قبل مدير المديرية، أما بقية الأعضاء فيأتون عن طريق الانتخاب. وكانت هذه المجالس تقدم مدى واسعاً من الخدمات المحلية خاصة فى مجال الصحة العامة، والتعليم، والأسواق، وكانت فى حدود معينة تفرض بعض الضرائب المحلية مثل ضرائب القطعان، وعوائد الأراضى، وضريبة الدقنية، وعشور المحاصيل وبعض الإتاوات الأخرى، بالإضافة إلى وضع الميزانية السنوية وتنفيذها بعد إجازتها، مع الاحتفاظ ببند خاص للمصروفات الاحتياطية، علاوة على تنفيذ بعض المهام نيابة عن الحكومة المركزية نظير عمولة معينة. وكان بالمجلس موظفون دائمون هم الضابط التنفيذى (أو ضابط المجلس)، وأمين الخزانة، وعدد من الكتبة. وكان مدير المديرية يتولى، بالإضافة إلى تعيين الأعضاء المعينين، التصديق على الأوامر المحلية، وإذا لزم الأمر كان بإمكانه تعليق أى قرار صادر من المجلس لمقتضيات إدارية أو أمنية. كذلك كان مدير فرع الحكومة المحلية يتمتع بصلاحيات واسعة فيما يتعلق بالمسائل المالية والتدابير الخاصة بالمواطنين، والموازنة السنوية، وتدقيق الحسابات، والمصروفات الرأسمالية، والرقابة، والتفتيش، وتعطيل المجالس المحلية.

فى نهاية ١٩٤٩ بدأ العمل فى إنشاء المجالس المحلية. كان فى الفرع آنذاك ثلاثة مفتشين سودانيين أكبرهم خليل عبد النبى فى الجانب المالى، إضافة إلى بعض الكتبة والمحاسبين والمراجعين. أما فى المديریات، فكانت مهمة توفير

للكاتب، والموظفين، وانتخاب وتعيين أعضاء المجالس تقع ضمن سلطات المديرية، ويتولاها في العادة مفتش المركز. وتقيب ذلك زيارة يقوم بها مندوب من فرع الحكم المحلي (كلارك أو شخصي) لوضع الميزانية السنوية الأولى والاتفاق عليها.

كان هناك تفاوت كبير في الثروة ومصادر الدخل المحلي، بالإضافة إلى نقص حاد في عدد الموظفين الملائمين للأعمال التنفيذية والكتابية، خاصة في ذلك الوقت الذي كان يتطلب الإسراع في ترقية وتدريب الموظفين السودانيين ليحلوا محل الموظفين الأجانب في جميع المصالح بالحكومة المركزية. غير أن فصل نظام الحكم المحلي الديمقراطي الجديد، القائم على نواب يتم انتخابهم، من النظام الأتوقراطي القبلي القديم، كان في حد ذاته يشكل معضلة عويصة الحل.

بحلول عام ١٩٥٠ تم استحداث مصلحة الحكم المحلي، وفي عام ١٩٥١ تم إنشاء ٤٢ مجلساً محلياً كل منها يتمتع بشخصيته الاعتبارية، وموازنته المستقلة، ودعم مالى من الحكومة المركزية. وكان مفتش المركز في العادة هو الذى يتولى رئاسة المجلس المحلي، ولكن إذا وجد موظف سودانى متقاعد، أو شخصية محلية مرموقة، فكان هو من يتم تعيينه رئيساً للمجلس. وبحلول عام ١٩٥٢ ارتفع عدد المجالس إلى سبعمين، خمسون منها في المناطق الريفية، والبقية في المدن. وكانت تعقد دورات لتدريب أعضاء المجلس بتركيز خاص على النواحي المالية وإعداد الموازنة، كما كان يرسل بعضهم إلى دورات تدريبية في مدرسة الإدارة بكلية الخرطوم الجامعية، التى كان يتولى عمادتها آنذاك بول دانيال (Paul Daniell) الذى كان أيضاً عضواً في الخدمة السياسية.

كان من حسن حظي أن وظيفتي كمفتش، وفيما بعد كمدير للحكم المحلي، قد مكنتني من رؤية العديد من المناطق في السودان، هذا البلد المتراعى

الأطراف الذى تبلغ مساحته مليون ميل مربع. كنت أحياناً أفكر ملياً وأنا أقارن بين خبرات مفتش المركز ومفتش الحكم المحلى. كان الأول يقضى ثلاث أو أربع سنوات فى منطقة واحدة تمكنه من معرفة الناس ومشاكل المنطقة بصورة جيدة، ويستطيع خلال فترة عمله فى السودان التى قد تمتد إلى خمسة وعشرين عاماً أو أكثر فى مجال العمل الإدارى بمختلف المديرىات والمراكز أن يكتسب خبرة واسعة حول مختلف الناس والتضاريس، ولكن كان الواحد منهم يعمل فى عدد محدود من الوظائف. أما أنا فبالرغم من أن فترة عملى بالسودان كانت محدودة بمئتين سنة، إلا أنه لحسن الحظ أننى تمكنت من رؤية جزء كبير من البلاد وما كان يمكن تحقيق ذلك لو أننى كنت فى الخدمة السياسية خارج الخرطوم، ومع ذلك فإن ذكرياتى عن السودان تقتصر على أحداث معددة.

كنت مسافراً فى رحلة جوية صباحية بطائرة (الدوف) من الخرطوم إلى وادى حلفا. كانت الطائرة تتوقف فى كل من عطبرة، وكريمة، ودنقلا. وكان المسافر الوحيد معى هو المراقب الجديد الذى تم تعيينه لمطار وادى حلفا. وعندما كنا بين الخرطوم وعطبرة أخبرنى بأنه سعيد جداً بحصوله على هذه الوظيفة، وأنه يخطط ليحمل منها عملاً ناجحاً. وبين عطبرة ودنقلا عرض على أن آخذ جرعة كبيرة من زجاجة الويسكى التى كانت معه ولكنى امتنعت، وعندما اقتربنا من دنقلا أوشك أن يفرغ الزجاجة لوحده، ثم قضى على ما تبقى عندما أقمنا مرة أخرى، ولم يلبث أن غاب عن الوعى. وعندما اقتربنا من وادى حلفا صاح بى قبطان الطائرة لأوقف المراقب ليأتى إلى كابينة القيادة ويشاهد هبوط الطائرة فى (مطاره). فشلت فى إيقاظه، وذهبت وحدى إلى كابينة القيادة لمشاهدة الهبوط. عند وصولنا، استقبلنا مفتش المركز إيريك بن (Eric Penn) بينما حمل المراقب الجديد خارج الطائرة، وأرسل فى أول قطار إلى الخرطوم، ومنها إلى خارج البلاد. يا مستقبلي المهني القصير!!

فى إحدى زيارتى إلى بورتسودان، كنت أقيم مع مفتش المركز بيل كلارك (Bill Clark) فأخبرنى عرضاً أنه يتوقع حضور ضيفين لتناول طعام العشاء معنا. اتضح أن هذين الضيفين هما هانز هاس (Hans Hass) ومساعدته لوتى (Lottie) التى أصبحت زوجته فيما بعد. كان هانز هاس، وجاهك كوستو (Jacques Cousteau) اسمين لامعين فى فن التصوير تحت الماء الذى كان قد ظهر حديثاً فى ذلك الوقت. وكان هانز ولوتى يقومان بتصوير الشعب المرجانية خارج بورتسودان، وكما توضح الأفلام الرائعة التى عرضناها علينا فى ذلك المساء، فقد التقطاً صوراً لكل شئ، ابتداء من الأسماك الملونة اللامعة داخل الشعب المرجانية، إلى أسماك (البركودة) والقرش التى كانت تسبح خارجها.

تشتهر مدينة (طوكو) بمواصفها الترابية حيث تحمل الرياح ذرات الطمى من دلتا طوكو، فتظل عالقة فى الجو وتنتشر مع الهواء فى شكل غبار كثيف، وقد أثر ذلك على أسلوب حياة مفتش المركز. أثناء إقامتى هناك مع جون دونالد (John Donald)، جلسنا مرة لتناول طعام العشاء حول تربيعة سفرة تبدو خالية من الطعام، وبدأ جون يشرح لى (الإتيكيت) المحلى الواجب اتباعه فقال: "الطعام موجود داخل الدرج فى نهاية التربيعة. خذ الطبق والشوكة والسكين من الدرج الذى أمامك، وأخدم نفسك من الدرج الأخير. ضع طبقك داخل درجك، وأقلل الدرج بعد كل لقمة وأخرى".

كنت فى المادة أقوم بزيارة مجلس واحد جديد فى كل مرة، ولكن فى إحدى المرات ذهبت أولاً إلى سنجة، واقمت هناك مع أندرو بليكى (Andrew Blaikie) مفتش المركز، ثم اتجهت إلى الرصيرص التى كان يوجد فيها قاي بهز (Guy Pease) مساعداً لمفتش المركز. فى وقت الفراغ قمنا معاً برحلة نهريّة قصيرة على النيل الأزرق لرؤية مناظر مضيق (الدمازين) الجذابة الموقع المقترح لخران الرصيرص. كما تهيأت لى الفرصة لإشباع هوايتى فى صيد السمك التى كان يشاركنى فيها والذى وأخى بوضع الطعام على الصنارة على أمل أن نصطاد سمكة كبيرة، ذلك الأمل الذى لم يتحقق.

فى رحلة أخرى سافرت بالجو إلى جوبا، ومنها بالبر إلى توريت، وكان مفتش المركز هناك هو جون أوين (John Owen) . كنت أحسب أننى سأوفر يوماً ونصف على الأقل بعد الانتهاء من أعمالى بالمجلس وقبل العودة إلى جوبا لأكون هناك فى الموعد المحدد لإقلاع السفيرة الأسبوعية إلى الخرطوم، ولذلك أحضرت معى صنارة الصيد. خرجت بالسيارة عند العصر متجهاً إلى استراحة تقع عند سفح جبل (كينياتى) بالقرب من الحدود اليوغندية الذى يبلغ ارتفاعه أكثر من ١٠,٠٠٠ قدم. وفى صباح اليوم التالى خرجت مبكراً أحمل معى القضيب والصنارة والطعم والبكارة، وكان يرافقنى مرشد الطريق. كان هدفنا هو أن نصل إلى نهر فى الجبل على ارتفاع ٨,٠٠٠ قدم، وكنت أعلم أنه يمج بمجموعة متنوعة من أسماك السالمون المرقطة. وجدنا النهر، وتمكنت من اصطيد مجموعة من الأسماك احتفظت منها باثنتين من وزن نصف الرطل وأخذتهما معى إلى الإستراحة، وتمشيت فى ذلك المساء بسمك السالمون المرقط الطازج مع بعض الخضار من جنية الاستراحة، ثم بعض الفراولة من الجنية أيضاً، وزبدة من أبقار الجنائنى. كان ذلك من الرهايات النادرة فى السودان!

تقع مدينة (يامبىو) بالقرب من حدود ما كان يسمى آنذاك بالكونغو البلجيكية الذى أصبح يسمى زائير فيما بعد. وكان بول دانيال (Paul Daniell) هو مفتش المركز هناك. وأثناء زيارتى للمدينة التى لا زلت أذكرها جيداً بذلك الأناس المدهش المتوفر فيها، والذى وجدت واحدة منه كانت من أكبر ما رأيت فى حياتى، فأخذتها معى على الطائرة إلى الخرطوم، وهناك قمت بتسجيل وزنها، ولكن مع الأسف قد نسيته الآن.

وفى مدينة (الجنية) على حدود أفريقيا الاستوائية الفرنسية (شاد حالياً)، دعيت إلى حفل شاي مع السلطان الذى كان يسكن فى منزل غير عادٍ من طابقين وربما ثلاثة. أبدى السلطان أثناء الحديث اهتماماً خاصاً بالعالم

الخارجي، ووجه إلى العديد من الأسئلة التي تدل على معرفته بالسفر عن طريق الجو والبحر، وربما ساعده على ذلك وجود مهبط صغير للطائرات في الجنيّة. غير أنه لا شئ من كل هذه المعارف المتطورة قد هياها لتلقى ما رويته له عن (المصاعد) مستخدما اللغة العربية بأقصى ما استطاع، وكيف أنها من خلال الضغط على زر واحد ترفعك إلى الطابق التالي- كان على أن أهدئ من حماسه بأن شرحت له أن عدم وجود كهرياء في الجنيّة يجعل التفكير في تركيب مصعد بمنزله أمراً مستبعداً.

لا زلت أذكر كذلك تلك الأشجار السامة في جبال النوبة بأزهارها الحمراء اللامعة، وشجرة (التبليدي) في كردفان وجزعاها المجوف الذي يخزن فيه الماء؛ وتلك الحشائش الجافة الطويلة في وسط الطريق المؤدى إلى مدينة (النهود) التي كانت تشتمل من ورائنا ونحن نقود السيارة من فوقها؛ وذلك الوادي بين الفاشر والأبيض الذي دخلنا فيه ياهمال وغفلة بنفس سرعة الطريق، والتصيلجات التي وجه بها الخبير هيث روبنسون (Heath Robinson)، والتي قام بتنفيذها السائق لنواصل رحلتنا بعد ذلك؛ وتلك الرحلة الممتدة إلى ملكال، وبعدها إلى بور التي رافقتني فيها زوجتي حيث أقمنا مع مدير المديرية وزوجته، جون وماري لونج (John and Mary Long) في نفس المنزل الذي كان يسكن فيه والدي قبل عشرين عاماً. وفي اليوم التالي، أقام حفل شاي بعديته لتقديم أحزمة شرف إلى عدد من زعماء الشلك، والدينكا، والنوير، وآخرين من القبائل الأخرى. كان من بين هؤلاء صديق قديم لي هو الزعيم (ناياك كواك) من قبيلة النوير لاو. في ذلك الأثناء كانت زوجتي تشاهد الحفل مع ماري لونج من خلال المشربية، وأخبرتني فيما بعد أن ناياك عندما خرج من المنزل وقف أمام المشربية دون اكتراث، وحل حزام المشرف، ثم خلع الجاكيته والبنطلون القصير اللذين كانا قد أعطيا له لحضور المناسبة، وعلقهما على كتفه، ثم واصل سيره بارتياح وهو عريان!

فى ملكال استأجرنا طباحاً ليكون معنا فى رحلتنا إلى بور، وفى الطريق بتنا ليلة فى منطقة (دوك فاديت)، ووصلنا إلى بور فى مساء اليوم التالى حيث تناولنا طعام المشاء مع جاك كمنج (Jack Cumming) الذى كنا نعرفه جداً منذ أيامنا فى واط. أمضينا الليل فى الاستراحة بعد أن طلبت من الطباح أن يأتى إلينا مبكراً فى صباح اليوم التالى، ولكنه لم يصل فى الوقت المحدد، ولذلك خرجت لكى اتحرى عن الأسباب التى منعت من الحضور، فوجدته ملقى على الأرض فى المطبخ وسط بركة من الدماء. لقد قام بقطع عضلة فى ذراعه محاولاً الانتحار، وهو حادث ليس عادياً، إن لم يكن فريداً من نوعه فى ذلك الجزء من العالم، ولكن لحسن الحظ تم إنقاذه وشفى تماماً.

عندما كنت أقيم مع جيم ريفن (Jim Raven) فى رمبيك، أعارنى مضرب تنس لمساعدته. وقد تسلم هو أيضاً بمضرب آخر. فى التخلص من الخفافيش التى اتخذت من النملية المحيطة بالفرنجة مسكناً لها. وهى مدينة واو التى قمت بزيارتها من رمبيك، تجولت فى المصنع الذى كان يصنع فيه الأثاث من مختلف أنواع الأخشاب بما فى ذلك نوع يسمى (بو Bu). ذكرنى ذلك بمناسبة أخرى فى عام ١٩٤٨ قبل أن أسافر إلى الوطن فى إجازة لإكمال زواجى، فقد أرسلت طلباً إلى ملكال لتوفير بعض الأثاث الذى كان يمكن أن يسمع فى التليفون هكذا: «يصنع فى وو من الخشبسمى بو ويرسل إلى ما هو» (To be made in Wow! From the wood called Boo! and sent to What) ولكن لم يكن لدينا تلفون، وقد أرسل الطلب فى الواقع من خلال مذكرة وضعت فى عصاة مجوفة وحملها عداء ليسافر بها مسافة مائة ميل من واط إلى ملكال.

أما فى الخرطوم، وعندما كان يتوفر لى الوقت أيضاً للعب التنس والأسكواش بانتظام، كانت هناك زيارات متبادلة من الموظفين فى المديرية والمجلس، وكذلك كان يأتى زائرون من الخارج للوقوف على تطور الحكم المحلى

فى السودان، وكان من بين هؤلاء الذين رافقتهم فى جولة، الزعيم اولو (Awolowo) وهو وزير من غرب نيجيريا، وآخر هو هيو باوستيد (Hugh Boustead) الذى كان سابقاً عضواً فى الخدمة السياسية السودانية، وأصبح فيما بعد الحاكم المقيم فى المكلا باليمن الجنوبي حيث كان يعمل على إنشاء مجلس هناك وفقاً للنهج السودانى.

كان مجلس بلدى الخرطوم يحظى بأضخم ميزانية، وربما كانت مسئولياته من أضخم المسئوليات أيضاً، وكان كاتب المجلس آنذاك (الضابط التنفيذى) هو داؤود عبد اللطيف ذلك الرجل الصغير فى حجمه، ولكنه كان من كبار المسئولين السودانين، وقد تم انتدابه إلى المجلس من الخدمة السياسية. وكنت قد تفاوضت مع داؤود والمجلس حول المون الذى يمكن أن تمنحه الحكومة لإقامة مشروع للصرف الصحى بالمدينة بدلاً عن نظام الجردل والعربة التى يجرها الجمل (التاريخى). كذلك قام المجلس آنذاك بوضع برنامج لتطوير الطرق، وآخر شئ أتذكره عن الخرطوم، وأنا استعد للمغادرة، هو أن العمل كان يجرى فى سفلتة الطريق طوال مرورنا بالسيارة، وكانت هناك آلة حفر تقوم بعمل مجرى على طول الشارع لوضع أنابيب الصرف الصحى.

والآن، وتمديلاً لقولة ماجنوس ماجنوسون<sup>(١)</sup> (Magnus Magnusson) المشهورة: "من حيث بدأت سوف انتهى"، فقد أشرت فى البداية إلى علاقة الصداقة التى كانت قائمة بين والدى والسيد عبد الرحمن المهدي. كنت عندما أكون فى الخرطوم أقوم بزيارته من وقت لآخر فى سرايته بأمدردسان. وفى إحدى المناسبات روى لى سيادته (والذى ربما نسى عدد الأولاد الذين كان يشملهم بأبوته) حادثة كان يمر منها كثيراً.

---

(١) ماجنوس ماجنوسون مقدم لبرنامج مسابقات تلفزيونية، وعندما يبدأ سؤالاً ويقاطعه أحد المتسابقين كان يقول: لقد بدأت ولذلك سأواصل (I have started, so I will finish)

قال لي: " زارني مفتش مركز برفقة زوجته التي كانت تتحدث القليل من اللغة العربية، فمساءلتها كم طفلاً لديها، فأجابت خطأً بقولها: "عندك ثلاثة أولاد"، فقلت لها كذا ٦. وفي زيارتي الأخيرة له كان قد دعاني لتناول الشاي معه، فأخذت معي زوجتي وطفلينا الصغيرين. وقف السيد عبد الرحمن في أعلى الدرج لتحييتنا بشخصه المهيّب وجلبابه ولحيته الجميلة، وعندما اقترينا منه فزعت كارول ذات الأربع سنوات وصرخت: "ماما، أنا لا أحب بابانويل".

عندما تقاعد بيتر هوغ (Peter Hogg) آخر مدير بريطاني للحكم المحلي، تم تعيين خليل عبد النبي، المدير السوداني الآخر، في الوظيفة، وفي ذلك الوقت تم أيضاً تعيين على عبد الرحمن، القاضي الشرعي، وزيراً للحكومات المحلية، ولكن مع الأسف لم يكن هو و خليل على وفاق، وفيما بعد منح خليل "إجازة مفتوحة". أما أنا فقد بدأت إجازتي النهائية، بموجب برنامج السودة، في منتصف يوليو عام ١٩٥٥ وكنت في ذلك الوقت قد أصبحت عميداً للحكم المحلي في السودان بعد أن ارتبطت به لست سنوات متواصلة. لقد طلب مني الوزير أن أعود للخدمة كمستشار، ولكي اعتذرت، نظراً إلى أنني كنت أتطلع إلى مستقبل مهني جديد.

فيليب بوسون (Philip Pauson)



17

---

حكاية

محاضر الجامعة

---

*Sudan Canterbury Tales*

وصلت إلى السودان الإنجليزي المصري في أول يناير ١٩٤٨ في سفيرة عكس تيار النيل بصحبة بعض الموظفين الجدد الذين تم تعيينهم للعمل بالسودان، بالإضافة إلى موظف بالسكة الحديد ترك لدى انطباعاً بأنه يفهم كل كلمة عندما كنا نستمع معاً إلى جمهرة من الحمالين الذين كانوا يتجادلون حول كم ندفع ولن منهم، مقابل حمل أمتعتنا من الباخرة النيلية إلى القطار بوادى حلفا. وكان أكثر المسافرين تجانساً معى في تلك الرحلة الطويلة من الحدود إلى الخرطوم، شخص يدعى بيتر شينى (Peter Shinnie) وهو خبير آثار إنجليزي يتميز بأرائه الراديكالية، فقد أعطانى صورة عن الوضع السياسى في البلاد تختلف كثيراً عن الآراء الرسمية التى استمعت إليها فيما بعد من أولئك الذين يتعاملون مباشرة مع السلطات التقليدية والقبلية.

لقد جئت إلى السودان كمحاضر جديد بكلية غردون التذكارية التى كانت تعتبر في طليعة المؤسسات التربوية باللغة الإنجليزية في السودان منذ تأسيس الحكم الثنائى. وكان قد تقرر مؤخراً تطوير هذه الكلية لتمنح دبلوما للذين يكملون بنجاح ثلاث سنوات دراسية في ثلاث مواد أدبية أو علمية بعد نيلهم الشهادة المدرسية. أما الحاصلون على إعفاء من امتحان القبول لجامعة لندن، فكان يمكن قيدهم لنيل شهادة الانتساب الخاصة من جامعة لندن. وبما أن الكلية ظلت توظف عدداً كبيراً من المدرسين المنتدبين من وظائف مستديمة بمصلحة المعارف، لذلك كان القصد من تعيينى وبعض المحاضرين الآخرين خصيصاً للكلية، هو تدريس الطلاب إلى مستوى الدرجة الجامعية. وبالرغم

من ذلك كان تماقدا لمدة سبع سنوات، بينما كان معظمنا يأمل أو يمتزم الاستمرار إلى ما بعد ذلك. كان رئيس شعبة الجغرافيا فى وظيفة محاضر أول يدعى إيمريس هاوول (Emrys Howel) وهو من ويلز، وحاصل على الدكتوراه فى دراسات استثمار الأراضى تحت إشراف البروفيسير المشهور ددلى استامب (Dudley Stamp) بكلية الإقتصاد بجامعة لندن. أما بقية أعضاء هيئة التدريس بالكلية، فكانوا من وجهة النظر الرسمية غير مدربين حيث لم يكن هناك العدد الكافى من الشباب والنساء الممدين إعدادا جيداً لشغل الوظائف التى كان يتم استعدادها خارج المملكة المتحدة فى أفريقيا وغيرها.

كان لعدم وجود التدريب الرسمى آثار متباينة، إذ لم يكن لدى المحاضرين مفهوم واضح عن المستويات التى ينبغى على الطلاب تحقيقها، وكانت الكثير من الاجتماعات الساخنة التى تعقد بكلية الآداب تنتهى بالفضب من قبل لويس ويلشر (Louis Wilcher) عميدنا الأسترالى الذى كان دائماً يترأس الاجتماعات، لأنه كان يعتقد أن المحاضرين نتيجة لغباء أو حقد فى نفوسهم يحددون مستويات عالية؛ أضف إلى ذلك أن الكلية نفعتها عندما أصبحت قادرة على تعيين بعض الأساتذة، وانتداب محاضرين من الجامعات الأخرى، لم يتردد بعض هؤلاء من إبلاغ طلابهم بأن الكثير من مدرسيهم غير مؤهلين بالمستوى المطلوب. وأخيراً استفاد المحاضرون الشباب الذين كانوا أكثر جدية وبعد نظر من ذلك العرض السخى المقدم من جامعة لندن الذى سمح للمحاضرين بكلية الخرطوم، مثلهم مثل رصفائهم فى جامعة لندن، بالتسجيل لنيل شهادة الدكتوراه عن طريق الاتصال والتشاور مع الأساتذة المشرفين بواسطة البريد أو عندما يكونوا فى إجازاتهم السنوية.

لربما يكون من المناسب أولاً أن أتحدث أكثر عن وضعى الخاص. بعد أربع سنوات من الخدمة الحربية مع سلاح البحرية الملكى، تزوجت وأنا صغير السن نوعاً ما، وعندما تم تعيينى فى كلية غردون بالخرطوم بعد حصولى على الدرجة

الجامعية الأولى، كانت معى زوجتى وطفلة صغيرة. لم يكن قد تم آنذاك بناء العدد الكافى من المساكن لهيئة التدريس، ولذلك حضرت إلى الخرطوم بمفردى تاركاً أسرتى الصغيرة لتلتحق بى بعد ثمانية أشهر. عند وصولى الخرطوم استقبلنى عميد كلية الآداب، وبسرعة ملحوظة أصبحت عضواً فى نادى السودان (Sudan Club) الذى كان كل أعضائه من البريطانيين، حيث وفروا لى هناك غرفة مؤقتة. وبعد أن تأقلمت قليلاً، وجدت طريقى على طول واجهة النيل الأزرق إلى البيت ذى الطابق الواحد الذى كان سلاطين باشا يسكنه فى السابق، وفى ذلك الوقت كان صديقى القديم دونالد هولى (Donald Hawley) ، محرر هذا الكتاب، يستغل جزءاً منه، ومعه واحد أو اثنين من الشباب العازبين الذين كانوا يعملون بالخدمة السياسية. وجدت دونالد وبيل كاردين (Bill Carden) يتناولان الشاي ويناقشان بعض الأمور السياسية مع أحد رجال القبائل البارزين من غرب السودان. كان كل النقاش يدور باللغة العربية، ولذلك علق دونالد فيما بعد أنه لم يعرف عنى هذه القدرة على التزام الصمت لوقت طويل، وقال بيل إننى، حسب خبرته عنى، لم أكن كذلك فى السابق. خصصت لى فيما بعد غرفة بممنزل ت. هـ. ب. ماينورز (T. H. B. Mynors) أحد قدماء موظفى الخدمة السياسية، الذى لم تكن معه زوجته وأفراد أسرته، لقد تعلمت منه الكثير عن السودان وشخصياته المهمة، كما ساعدنى فى تعيين الطباخ محمود الذى تولى خدمتى بامتياز خاصة أثناء جولاتى التى قمت بها إلى غرب السودان، غير أن لهجته الأمرة لم ترض جين وروزالند عندما لحقتا بى فى الخرطوم.

كان يتوقع منى فى كلية غردون التذكارية أن أحاضر عن المناخ والطقس والجغرافية الإقليمية لأوروبا والشرق الأوسط، إلى جانب الجغرافيا العملية بما فى ذلك رسم وإسقاط الخرائط، إضافة إلى العديد من المفاهيم التى كان طلابى أقل إلماماً بها. كذلك كان عميد كلية الآداب يريد منى أن أقدم محاضرات عن بعض مجالات العالم القديم ليس لأننى فى وقت ما كنت قد

تلقيت بعض الدراسات الكلاسيكية، وإنما لأن رئيس شعبتى لم يكن متحمساً لذلك. وهكذا وجدت أنه لم يكن هناك داعياً لشرائى مجلدى (The Glory that was Greece) و (The Grandeur that was Rome). عند وصولى كان قد انقضى ثلثا العام الدراسى، وكان من ميزات الترشيد، والذي كان يسميه البعض شح الاعتمادات المالية المخصصة من الحكومة للكلية، أنه لم يتم استيعابى فى الخدمة حتى أول يناير ١٩٤٨ عندما تم إيجاد وظيفة لى كواحد من ثلاثة جغرافيين بالكلية. كان من دلالات مرحلة ما قبل الجامعة بالكلية أنه لم تكن لدينا غرف معتمة، أو مدرج للمحاضرات، أو أية تسهيلات للعمل، أو أية إمكانية لاستخدام الشرائح كوسيلة تعليمية، كما كنا نعتمد فقط على المراوح والرياح السائدة لترطيب حجرات الدراسة. وفى إحدى المناسبات كان عميد الكلية يتجول بالممر بينما كنت أحاضر بصوت مرتفع، فروى عنه أنه قد علق شاكياً أنه كان يعتقد أنه هو الشخص الوحيد المسموح له بمخاطبة الكلية فى وقت واحد!

كان جميع الطلاب تقريباً الذين نقوم بتدريسهم يأتون من المدن الثلاث، ومنطقة الجزيرة، وبورتسودان، أو من المديرية الشمالية. وكان أغلبهم من الشباب الذين أحرزوا مستوى جيداً فى المدارس (الذين يحرزون درجة الامتياز كانوا يختارون الالتحاق بكلية كاشنر الطبية، أو يفضلون دراسة القانون بكلية غريدون التذكارية). كان هناك القليل من الطلبة الجنوبيين الذين تخرجوا من مدارس الإرساليات، ونظراً لعدم طلائهم فى اللغة العربية، فكانوا يستخدمون اللغة الإنجليزية عندما يتجمعون معاً، مما كان يؤذن بغياب الإحساس بوجود هوية مشتركة الذى ابتليت به العلاقات بين الشمال والجنوب فى السودان منذ الاستقلال. كانت الطالبات القلائل بالكلية يرتدين الثوب السودانى، ويجلسن بكل رزانة واحتشام فى الصف الأمامى بحجرة الدراسة، وكان جمالهن يمكن أن يكون أقل إلهاء للمحاضر إذا امتنع عن خلع (الشياشب) وعرض أقدامهن الصغيرة الوردية اللون أمام عينيه!

كنت لزمين طويل اعتقد أن طلابي جميعاً أغبياء أو بطيئون بعض الشيء في تفكيرهم عندما حاولت مرة أن أشرح لهم نسبة هبوط الثابت الحراري، أو كيفية إنشاء الإسقاط الميركاتوري، ولكن عندما ذهبت إليهم في النادي ذات يوم وشرحو لي لعبة (الطاولة) اكتشفت أنني أنا البطيء في التعلم، وهم الأسرع في التفكير عندما تتلار رغباتهم.

عندما انتهت الفترة الأولى، كان جميع زملائي البريطانيين يستحقون إجازة مدفوعة الأجر قدرها ٨٥ يوماً يقضونها في المملكة المتحدة، أما بالنسبة لي فلم أكن مستحقاً لتذاكر سفر مجانية إلى الوطن، وشجعني ذلك على أن آغتم هذه الفرصة لمعرفة شيء عن هذه البلاد، مما كان له تأثير كبير على اهتماماتي البحثية اللاحقة. لقد قررت أن أذهب بصحبة اثنين من أفضل تلاميذي لزيارة جبال النوبة بجنوب كردفان، ومن هناك أواصل رحلتي منفرداً (مع محمود الطباخ، وفراش، وسرير خلوي، وكرمي، وصحن غسيل، وصندوق مطبخ كبير) لزيارة جنوب دارفور. بدأت رحلتنا بالقطار إلى الأبيض، وبعد ذلك أصبحت كل أسفارنا باللوارى الفوردي المجهزة بمجلات وإطارات ضخمة لتمكثها من السير في منطقة (القيزان) شبه الصحراوية. لا اعتقد أنني قد تعلمت كثيراً من تلك الجولة الأولى، ولكني كنت على الأقل قد تعلمت من جغرافية أوكسفورد كيف اكتب وصفاً لمنطقة ما، مدعوماً إذا أمكن بالخرائط والصور الفوتوغرافية، ولذلك قررت أن أختار بعض المناطق كنموذج للبلد، وأكتب وصفاً لسكانها، وسبل كسب العيش فيها. وحتى أتمكن من تحديد الجهة التي أذهب إليها، فقد كان لدى مصدران أساسيان للمعلومات؛ خرائط البلاد الطبوغرافية بمقياس رسم (١ : ٢٥٠,٠٠٠)<sup>(١)</sup> إلى جانب تغطية كاملة بالصور الفوتوغرافية الجوية التي تم التقاطها بواسطة الأمريكان أثناء الحرب العالمية الثانية. وقد وفرت هذه الصور

---

(١) تطبع على القماش لتكون قابلة للتحمل. وكان يشار إليها باسم (الخرائط المتدلية).

شروط بعرض خمسة أميال من التغطية الرأسية بمقياس رسم أكثر فائدة قدره ١:٤٠,٠٠٠ ، بينما تمتد من بينها ميلانات على الجانبين كانت تستخدم في إنتاج خرائط قابلة للتحميل لأغراض الملاحة الجوية، تعرف رسمياً باسم (التصوير الجوي الثلاثي Trimetrogon Air Photographs). ومن خلال التخطيط المسبق، تمكنت من اختيار بعض القرى، أو مجموعات من القرى كانت تقع مباشرة تحت خط مرور الطائرة، لأتوصل بذلك إلى الموقع الذي يمكنني من دراسة نوعية الأراضي واستخداماتها، مع خريطة مناسبة لها يتم رسمها من الصورة الفوتوغرافية الموجودة لدى سلفاً. وأخيراً، وبعد مضي بضعة سنوات عندما كنت أستخدم من عطلات الكلية في زيارة مواقع متباينة الأحوال من حيث التربة، والتضاريس، وامتدادات المياه، شعرت أنني قد جمعت المادة الكافية التي تمكنني من تقديم رسالتي لنيل بكالوريوس الآداب من جامعة أوكسفورد، مع أنني أشعر الآن أن غيابي في جولاتي المتكررة كان يسبب توتراً شديداً لزوجتي التي قد أنجبت لنا بحلول عام ١٩٥٢ طفلين آخرين هما مارجريت وديفيد .

سوف أذكر المزيد عن ذلك في مكان آخر، ولكن ربما يكون مفيداً أن ألفت الانتباه إلى الفرق الكبير بين ذلك العمل الضخم الذي قام به جميع المساهمين الآخرين في هذا الكتاب، وبين العمل الأكاديمي. كان يتوجب عليّ أن أوصل العمل في مادتي العلمية دون انقطاع، خاصة في تلك المجالات التي كنت أقوم بتدريسها، ولكن كنت أيضاً أتولى مسئولية إجراء البحوث، وما لم أكن قد التزمت بالمشاركة في مشروع مشترك، فكنت أختار الموضوع الذي أقوم بدراسته، ونشر ما أتوصل إليه من نتائج. كان عنوان رسالتي هو (الزراعة الريفية في حزام السافانا بالسودان الإنجليزي المصري) وكنت دائماً أفكر في متابعة الرسالة بتأليف كتاب حول جغرافية البلاد بأكملها .

غير أنه في أغسطس عام ١٩٥٢ طرأ حادث كان له أثر أليم على شعبية الجغرافيا بكلية غردون التذكارية. لقد علم إيريس هاول، رئيس الشعبة،

بالخطط التى تم وضعها لإجراء أول إحصاء سكانى بالسودان، وأبدى استعداده للتعاون مع مصلحة الإحصاء فى رسم خريطة توضح التوزيع التقريبى لسكان البلاد وفقاً لرؤية جهات الاختصاص بالمديريات، ثم حصل على الموافقة والاعتماد المالى اللازم لأخذ خريطته المؤقتة إلى واشنطن لعرضها على مؤتمر اتحاد الجغرافيين الدولى، حيث كانت هناك لجنة تختص بالنظر فى محاولات رسم خرائط سكانية تفصيلية لكل بلاد العالم. وبعد انتهاء المؤتمر حجز للسفر جواً إلى السودان بعد بضعة أيام من بدء العام الدراسى، وكانت ترافقه زوجته وأطفاله الذين كان أصغرهم طفلاً رضيعاً. وبالصدفة كان قد حجز بنفس الطائرة لزوجتى (كانت حاملاً فى شهرها الخامس) وطفلينا الاثنين. وفى الساعات الأولى من صباح يوم ٢٥ أغسطس سقطت الطائرة المستأجرة من شركة أيرويرك (Airwork) فى البحر الأبيض المتوسط قبالة ساحل صقلية بالقرب من (ترابنى)، وتوفى نتيجة للحادثة سبعة من المسافرين من بينهم أطفال هاول الثلاثة جميعهم، ونجت زوجتى جين وطفلاها. وعندما حجزت هى ومارجريت بالمستشفى لتلقى العلاج من بعض الحروق الكيميائية التى أصيبتا بها أثناء وجودهما فى البحر من جراء اختلاط الوقود بالماء المالح، تكرمت الكلية بالسماح لى بالسفر إلى مالطا للاطمئنان عليهما. فى هذا الأثناء تمت إعادة جميع الناجين إلى المملكة المتحدة، وبعد انقضاء فترة النقاهة التى استغرقت شهرين، عادت جين إلى الخرطوم عن طريق البحر بصحبة بنتينا، وفى ديسمبر وضعت مولوداً ذكراً بصحة جيدة. كذلك عاد إيمريس ومiriam هاول إلى الخرطوم، ولكنهما لسبب مفهوم غادرا السودان فى نهاية العام الدراسى، وتم تعيين جون ليبون (John Lebon) فى مكانه استاذاً للجغرافيا. كانت الشعبية قد نمت فى ذلك الوقت، فأصبح لدينا محاضران سودانيان تخرجا من جامعتى بيرمنجهام ودرم، اللتين كان يوجد بهما مركزان مرموقان للتدريب الجغرافى. أما بالنسبة لى فلم تكن مغادرة د.

هاول محزنة لى فحسب، وإنما كانت هامة أيضاً، فقد أسندت إلى مهمة التعاون مع جهة الاختصاص بمصلحة الإحصاء السكانى، الأمر الذى أدى إلى قيامى بكتابة العديد من المقالات، ورسم عدد من الخرائط الأصلية التى قامت مصلحة المساحة السودانية بنشرها، بالإضافة إلى تحرير كتاب مقالات عن السكان فى أفريقيا.

لا أريد أن أترك انطباعاً بأن الحياة فى الخرطوم آنذاك كانت كلها عملاً، ولم يكن فيها مجال للهو والتسلية، فمع وجود الخدم فى المنزل أو على الأقل فى جناحهم المجاور، كان بإمكاننا الترفيه عن أنفسنا، والذهاب إلى المناسبات الاجتماعية بكل سهولة ويسر. أضف إلى ذلك أنه مع وجود ميدان معشوشب فى الحديقة، كان بوسعنا أيضاً أن نلعب التمس فى ملعبنا الخاص مرتين أو ثلاثة فى الأسبوع، ويتوقف ذلك على جدول الرى. أما حين فمعد وصولنا للخرطوم أول مرة، قد عملت موظفة لبعض الوقت فى قسم التنبؤ بالأحوال الجوية بمكتب الإرساد الجوى بالخرطوم، ثم برهنت على قدراتها المتعددة الجوانب حيث تم تعيينها معلمة بمدرسة أم درمان الوسطى للبنات، كما عملت أيضاً قائداً بجمعية المرشدات. ونظراً إلى أن والدها كان استاذاً بكلية (بالويل Balliol) فقد اعتاد لويس ويلشر (Louis Wilcher) وهو أحد خريجي تلك الكلية بمنحة من مؤسسة (رودس) العلمية، كنوع من التقدير والاحترام لكليته القديمة، أن يستخدمنا من وقت لآخر لاستضافة بعض الزوار المهمين أمثال شارلز موريس (Charles Morris) أو الليدى ليليان بنسون (Dame Lilian Penson) اللذين نزلا ضيفين عليه لمدة طويلة مما سبب له ولهما حرجاً شديداً. كما استضافنا مختلف الجغرافيين العابرين من بينهم دادلى ستامب (Dudley Stamp) وديرونت ويتليسلى (Derwent Whittlesely) من جامعة هارفارد. ليتنا احتفظنا بسجل لهؤلاء الزوار، ولكننا لم نكن من هذا النوع من العائلات. كذلك كنا نشارك من وقت لآخر فى بطولة نادى السودان للتمس

ولكن دون أن نحزر نجاحا، وفي ذات مرة وجهت لى الدعوة بوقت قصير للمشاركة مع فريق رياعى بالقصر، وكلما أذكره عن تلك المباراة أن الياور أخبرنى بأنه "لا يحب الضربات العالية".

هكذا كنا نميش حياة سعيدة، غير أننا فى الكلية كنا جميعاً نعلم أنه لا ضمان لتثبيتنا فى الخدمة، ولم تكن نتوقع أن تكون لنا معاشات تقاعدية، ولا حتى أية مساعدة سواء من الحكومة السودانية أو البريطانية لرعاية مصالحنا على المدى الطويل. ولحسن الحظ كانت أسعار القطن وعائداته جيدة فى مطلع الخمسينات، ولذلك كان الأجانب يتقاضون مرتبات عالية. أضف إلى ذلك أننا كنا نقضى إجازاتنا السنوية بالمملكة المتحدة عندما تشتد حرارة الطقس، وفى أول إجازة لنا فى صيف عام ١٩٤٩ قمنا، دون تفكير، بشراء منزل فى إحدى مناطق (ويلز) النائية لتقضى فيه إجازاتنا، ولكن بعد عامين استبدلناه بمنزل صغير شبه مستقل فى مدينة أوكسفورد كان ملائماً لنا أكثر. كذلك استفدنا لمرتين من استحقاقنا فى الإجازة للقيام برحلات مثيرة، وفى عام ١٩٥٣ سافرنا بالقطار والباخرة لزيارة الأقصر والقاهرة، ثم عبرنا البحر المتوسط إلى البندقية التى قضينا بها ثلاثة أيام قبل أن نواصل رحلتنا مستغلين (إكسبريس الشرق) إلى باريس ولندن. وفى الصيف التالى، وبصحبة جين التى لم تزل كارهة للسفر بالجو طالما توفر على الأرض والماء، اغتتما فرصة لزيارة جنوب أفريقيا مبهرين بالسفينة (نيو كاسل) من بورتسودان إلى كيب تاون، مع توقف فى عدة محطات جذابة. عدت من هناك مستخدماً السيارة، والطائرة، والسفينة، والقطار لإقناع نفسى بأننى بذلك إنما أقوم بتحسين معارفى كمتخصص فى جغرافية أفريقيا، بعد أن قمت برحلة سابقة فى عام ١٩٥٢ فى طريق العودة من الإجازة عبر المغرب، والجزائر، ثم شمال نيجيريا، والكامرون، وشاد. كان لقائى بمفتش مركز الجنية مفعماً بنوع من الحيوية، وهو يخاطبنى متلثماً بعبارة (Monsieur Bonjour صباح الخير يا

سیدی) مما يدل على أنه قد خلط بينى وبين ضابط البيطرى الفرنسى الذى كان قد حدد له موعداً لمقابلته، وأنه مثل الكثيرين من الإنجليز يصعب عليه التمييز بين كلمتى (Mercredi و Vendredi الأربعاء والجمعة). بقيت جين فى الشقة الصغيرة التى استأجرناها لبعض الوقت فى (جراهامستاون)، ثم عادت مع الأولاد عن طريق البحر من بورت اليزابيث.

كما ذكرت آنفاً، كان نادى السودان يلعب دوراً هاماً فى حياتنا بالخرطوم، ولكن كانت الكلية أقل مشاركة فيه من معظم المصالح الحكومية، وذلك لأنه منذ البداية كان عدد كبير من موظفينا من غير البريطانيين، فقد كان من بينهم سودانيون، ومصريون، وبولنديون، وهنود، إلى جانب بعض الجنسيات الأخرى، ولذلك أصبح نادى الأساتذة فيما بعد هو نقطتنا المركزية. فى عام ١٩٥٥ عندما استبدل السير روبرت هاو بالسير نوكس هيلم الذى كان أكثر قرباً من الناس كحاكم عام، وعندما أصبحت نهاية الحكم البريطانى واضحة للعيان، قرر نادى الكلية إقامة حفل، والتزم رئيس النادى بتوجيه الدعوة إلى كل من سمادته، ورئيس الوزراء السودانى المنتخب حديثاً دون إبلاغ الآخر، أو حتى عميد الكلية بذلك. كنت أنا وقتها سكرتير شرف للنادى، ولكن نظراً لأننى كنت غائباً فى جولة أثناء توزيع الدعوات، فقد علمت بالأمر لأول مرة عندما اقتحم العميد مكتبى غاضباً ذات يوم بينما كنت أستمتع بإغفاءة ما بعد الظهيرة ليلفنى باحتجاجة على تجاهلى للبروتوكول، وقال إنه قد علم بهذا السلوك المشين أثناء حضوره حفل عشاء بالقصر (ولو أنه فيما بعد قدم لى اعتذاراً رقيقاً). لم ينته الأمر عند هذا الحد، ذلك أنه عندما أقيم الحفل، وصل رئيس الوزراء إسماعيل الأزهرى متأخراً قليلاً، وشعر بحرج شديد عندما رأى سيارة (الرولز رويس) منتظرة بالخارج، فقد وصل الحاكم العام قبله.

لربما كان يتعين على أن أذكر من قبل أن شعبية الجغرافيا بالكلية كانت فى كل الأوقات تتبنى سياسة واضحة بأخذ الطلاب فى زيارات لمختلف أجزاء

البلاد. وفى عام ١٩٥٠ قمت بصحبة إيمريس هاول مع مجموعة صغيرة من طلبة السنة النهائية بزيارة إلى (محطة التل) التى تم بناؤها أثناء الحرب العالمية الثانية فى أركويت على تلال البحر الأحمر. وهناك شاهدنا نماذج جيدة للجيولوجيا وبعض النباتات القريبة على المنطقة، كما تمكنا من إجراء دراسة عن كيف يؤدى الرعى الجائر إلى تعرية جذور الأشجار والنباتات وامتلأ مجارى المياه بالطمي. غير أن أفضل الدروس القيمة التى تلقيناها هي أن المواصلات لم تزل تعتمد على أحوال الطقس العادية، خاصة أن تلك السنة كانت ممطرة بصورة غير عادية، واقتريت فيها مناسيب النيل من مستويات عام ١٩٤٦، لذلك استغرقت رحلة عودتنا بالقطار إلى الخرطوم ستة أيام، بينما كان يفترض ألا تتعدى أربعة وعشرين ساعة، وذلك بسبب تحويل سفريتنا إلى خط كسلا والقضارف. وفى العام التالى ازداد طموحنا، فقمنا إيمريس وأنا برحلة إلى الاستوائية رافقنا فيها الطلاب الأربعة الذين كانوا مؤهلين للامتحان النهائى لنيل شهادة جامعة لندن.

استأجرنا (لورى) من تاجر إغريقى صديق لنا بمبلغ مناسب، وسافرنا به إلى توريت عن طريق الضفة الشرقية للنيل، ومنها إلى جبال (الأماتونج) على الحدود اليوغندية، ثم إلى (ليتى)، وهى المنطقة السودانية المنخفضة الوحيدة التى توجد بها غابات مطرية حقيقية. كان لا بد لنا من عبور النيل لزيارة الضفة الغربية، وكان من دواعى إثارة الطلاب أننا اتجهنا جنوباً إلى نمولى حيث عبرنا الحدود السودانية، ودخلنا يوغندا إلى أن وصلنا مدينة (باكواش)، ومن هناك عبرنا النهر بالعبرة إلى مديرية غرب النيل. وفى الطريق إلى هناك مررنا بمسكن لمعال الطرق تابع لمصلحة الأشغال العامة مما أثار استغراب الطلبة الذين لم يستطيعوا أن يفهموا كيف يعمل فرع لجهة تابعة لحكومة السودان خارج حدود البلاد. ولا أدري إذا كان تأكيدى لهم بأنهم سيجدون مصلحة الأشغال العامة تعمل على

طول الطريق من وادى حلفا إلى كيب تاون، قد هدأ من مخاوفهم. بعد أن قضينا الليل فى (أروا) عدنا إلى السودان، ثم سلكنا الطريق المؤدى إلى مدينة يامبيو، موقع مشروع الزاندى، الذى كان يملن عنه كثيراً فى تلك الأيام، وكان المشروع تجربة مفرطة فى التفاؤل للتصنيع والإنتاج والتصدير إلى أجزاء البلاد النائية. فى طريقنا إلى جوبا هطلت بعض الأمطار، وأثار إعجابنا أن الطرق المحلية المغطاة بصخور سامية حمراء تصرف المياه بصورة جيدة، ويمكن استخدامها فى أشد العواصف الرعدية عنفاً. قضينا أنا وإيمريس ليلة واحدة فى مندرى حيث توجد كلية إنجليكية لتدريب المعلمين، وكان أحد أقربائى البعدين يعمل معلماً بها. لقد أحزننا كثيراً أن علمنا منه أنه وزوجته يعانيان من سوء الأحوال المعيشية، ومن عميد الكلية أيضاً. وفى اليوم التالى قمنا بزيارة رئاسة مركز أمادى حيث كان مفتش المركز أحد أصدقائنا من الخرطوم، مع زوجته المرحلة وطفلتها الصغيرة، وبالمقارنة مع ما شاهدناه فى الليلة السابقة، فقد بدا لنا أنهما أسعد زوجين فى العالم.

أثناء سنواتى الأخيرة بالخرطوم، كان للتغيرات السياسية الوشكة تأثيرها بصور مختلفة على الأحوال فى الكلية. كان الطلاب يتوقفون إلى إحداث إصلاحات عاجلة فى الحكومة المركزية، وكثيراً ما كانت تلغى خطط الزيارات التى كان يجب أن يقوم بها طلابنا تحت التفرج إلى بعض المناطق، وذلك بسبب المظاهرات التى كان يعقبها إغلاق الكلية لشهر أو أكثر. كما أن المطالبة بالسودنة لم تقتصر على الوظائف السياسية فحسب، بل امتدت فى النهاية إلى جميع عناصر الخدمة المدنية من البريطانيين والمصريين، مما أدى إلى مفارقة الكثير من الأصدقاء والمعارف، وأصبحت مزادات بيع أملاك المغادرين من السمات العادية فى صباحيات أيام الجمع. غير أن هذه التغييرات لم تؤثر فوراً على كلية غردون التذكارية التى أصبحت الآن تعرف بكلية الخرطوم الجامعية، فمن ناحية

أمكن التغلب جزئياً على ما كان يمكن أن يؤدي إلى أزمة منافسة بين الشبان السودانيين المعائدين من البعثات الدراسية بالخارج، والأجانب الذين لم يكن بالإمكان إيجاد عمل لهم في مكان آخر من خلال توسيع المصالح الحكومية في الخرطوم، أو عن طريق التوسع الأكاديمي في المملكة المتحدة وغيرها من البلاد الناطقة باللغة الإنجليزية. كتبت خلال هذه التحركات من المحظوظين، حيث قررت شعبة الجغرافيا بجامعة لندن في عام ١٩٥٥ أنها بحاجة إلى متخصص في جغرافية أفريقيا، وتم تعييني في الوظيفة اعتباراً من أول يناير ١٩٥٦، وكنت وقتها قد فرغت تقريباً من جميع أعمال البحث الخاصة بكتابي الذي قمت بإصداره فيما بعد بعنوان (جمهورية السودان The Republic of the Sudan). كما أعددت العدة لتحليل نتائج ورسم خريطة أول إحصاء للسكان بالسودان، وقمت أيضاً بإجراء بعض الدراسات التي تمكنت من كتابتها وإصدارها بل وإذاعتها حول توزيع مياه النيل بين مصر والسودان، وإمكانيات تطوير وسائل الري في السودان.

وفي الختام، أستطيع أن أقول بكل ثقة إنني كنت محظوظاً بأن يكون أول عمل لي بالتعليم العالي بكلية غردون التذكارية في السودان. وبالرغم من أنه كانت توجد مؤسسات أخرى مماثلة في نيجيريا وجنوب أفريقيا أكثر أكاديمية في أساليب التدريس والبحوث والنشر، وهي في بلاد كان السفر إليها بالتأكيد أسهل بكثير، إلا أن السودان بالنسبة لي كان يتميز بوجود إدارة مركزية لها مؤسسات تابعة لها مثل مصلحة المساحة السودانية، ومصلحة الجيولوجيا، ومصلحة الزراعة، ومتحف الآثار، وكانت كل هذه المؤسسات تقع على شارع كشمير، ولا تبعد عن الكلية، ويمكن الوصول إليها بالدراجة بكل سهولة. لذلك كتبت في الغالب أقسم ساعات العمل اليومي بين التدريس والبحوث، ومع ذلك كان يتوفر لي الزمن الكافي للسباحة، أو لعب التنس بنادي السودان في العصوريات. كان يوجد بالتحديد القليل من المؤلفات الجغرافية حول السودان، ولكن بصرف النظر عن كتاب (جغرافية السودان) لروين هودجكن، وآخر باللغة

العربية من مطبوعات معهد التربية اللذين قد أعدا خصيصاً لتلاميذ المدارس، فقد كان الطريق ممهداً لتأليف كتاب يتم تصميمه بحيث يمكن استخدامه من قبل طلبة الجامعة وعامة الجمهور.

بالإضافة إلى ذلك كان لحكومة السودان موقف مستتير تجاه النشر كما ظهر فيما بعد في (تقرير لجنة حماية التربة Soil Conservation Committee's Report) وكتاب (الزراعة في السودان Agriculture in the Sudan) لحرره جون توتهيل (John Tothill) ، وفي السلسلة الكاملة لنشرات وزارة الزراعة ومن بينها الدراسة التي أجراها جون سميث (John Smith) بعنوان (The Distribution of Tree Species in the Sudan توزيع الأنواع النباتية في السودان) والدراسة التي أعدها جاكسون وهارسون بعنوان (Soil Conservation in the Sudan and Ecological Classification of Map) الخريطة والتصنيف البيئي للنباتات في السودان). كما كان هناك الكتاب الذي حرره بول هاول (Howell Paul) بعنوان (The Equatorial Nile Project مشروع النيل الاستوائي) وتقرير لجنة دراسة تنمية الجنوب، ومجلد بعنوان (سكان السودان) كان مصاحباً لنتائج الإحصاء السكاني الأول، إلى جانب مختلف المقالات التي نشرت في (مجلة السودان في رسائل ومدونات Sudan Notes and Records). كما استفدت أيضاً من سلسلة منشورات (مصلحة الفيزياء المصرية) التي قام بتحريرها إتش. إى هيرست (Hurst, H.E) بعنوان (The Nile Basin حوض النيل). وكنت أتمنى فقط أن يظهر سريعاً تلك الدراسة التي قمت بإعدادها عن جغرافية البلاد، لأنه قد اتضح لي عندما وصلت إلى كلية لندن الجامعية، أن القليل من الجغرافيين الأكاديميين بالملكة المتحدة، إن وجدوا، قد أتاحت لهم فرصة العمل بالاتصال اللصيق مع الحكومة بمثل ما أتاحت لي أثناء سنوات خدمتي في السودان الإنجليزي المصري.

مايكل باربور (Michael Barbour)



18

---

حكاية

مفتش البيطرى

---

*Sudan Canterbury Tales*

عندما أفلنى القطار من القاهرة فى شهر مارس عام ١٩٤٦ كقريب حربي (أساسى) فى السلاح البيطرى بالجيش الملكى، كانت مخصصة لى بالطبع (قمرة) فى الدرجة الأولى. كنت متوجهاً إلى الشلال، الميناء النهري الواقع على الحدود المصرية/السودانية لأنتقل من هناك إلى الباخرة، ومن ثم إلى السودان، ذلك البلد الذى كان يكتفه الكثير من الغموض. كانت الرحلة الليلية أقل من مريحة لكثرة وقوف القطار، بل وأسوأ من ذلك كثرة الفبار والروائح الكريهة. غير أننى فى الشلال، عندما انتقلت إلى باخرة سكك حديد السودان المزودة بدولاب للتجديف، وجدت أننى قد انتقلت إلى عالم مختلف. كان كل شيء نظيفاً؛ تلك الأوانى المدنية اللامعة، والقمرات المريحة الخالية من الذباب، والسفريجية الجامزون لتلبية كل الطلبات وهم يرتدون (قضاطينهم) الناصعة البياض، ويضعون على رؤوسهم عمامتهم الأنيقة.

فى الطريق إلى وادى حلفا، رست الباخرة عند معبد (أبو سمبل)، وأصبحت مصدراً لإنارة كهربائية أضاءت لنا تلك الآثار الهيروغليفية العظيمة التى لم يؤثر عليها تماقب العصور وجفاف الطقس، وهى ترقد فى أعماق ذلك الجبل الذى يحميها من الرياح، والتى تم نقلها مؤخراً قطعة قطعة إلى قمة الجبل لإنقاذها من الفرق فى مياه النيل عند بناء سد أسوان.

كانت الرحلة من وادى حلفا إلى الخرطوم تغلب عليها الرتابة لولا محطات التزويد بالمياه الموزعة على الخط بانتظام. وكانت الرحلة مدخلاً للصحراء،

والجمال، والأشجار الشوكية، وبعض أهرامات العصور القديمة. وفي كل محطة يتوقف فيها القطار، كان الباعة المتجولون يمرضون نوعاً من بيض الدجاج صغير الحجم، ومن الكمثرى الشوكية، مما كان يعكس الفارق مقارنة بما هو متوفر في عرية (البوفيه) بالقطار المريحة الأنيقة. كنت قد قرأت في كتابي الزراعي أن الفول السوداني يطلق على فستق الأرض، ولكن فيما بعد علمت أنه يدل على معاني أخرى: شورية، أو قد يعني أحياناً أحد الأعضاء البريطانيين في الخدمة السودانية!! (كلمة "فول" العربية تعني بالإنجليزية "المغل" - المترجم).

لقد سمعت بزواجي في جنوب أفريقيا قبل ثلاثة وأربعين عاماً، أي منذ مفادرتي للسودان عبر مدينة جوبا في عام ١٩٥٥، ولذلك فإن ذكرياتي عن مصلحة الخدمات البيطرية السودانية التي كان لي شرف العمل بها لا تعدو أن تكون سطحية، ولا ترقى إلى أن تكون تسجيلاً تاريخياً دقيقاً.

كان على رأس مصلحة الخدمات البيطرية مدير، مع خمسة موظفين بالقسم الميداني بدرجة باشمفتش بيطري، وثمانية بدرجة مفتش بيطري، إضافة إلى قسم للبحوث به ضابط بحوث أول، وثلاثة ضباط. وكان في كل مديرية باشمفتش أو مفتش بيطري واحد، ولربما اثنان في بعض المديریات، ويتوقف ذلك على حجم الثروة الحيوانية بالمديرية. وكان يدعم هؤلاء مساعدون بيطريون تلقوا تدريبهم بمدرسة الخرطوم البيطرية، ويرقون في الوقت المناسب إلى جميع الوظائف القيادية، بالإضافة إلى مربين بيطريين يتم تعيينهم محلياً، ثم يتلقون تدريباً على تشخيص الأمراض الرئيسية، وإدارة العقاقير واللقاحات البيطرية تحت إشراف الباشمفتش أو المفتش البيطري. لقد كانت مصلحة صغيرة ولكنها تغطي مساحة ضخمة من الأرض، وتشتهر بخدماتها الموثوقة بها.

قبل إنشاء كلية البيطرة بجامعة الخرطوم، كان يشغل جميع الوظائف المهنية بالمصلحة خريجون بيطريون أجانب (بريطانيون)، وبمرور الزمن أصبح خريجو

مدرسة الخرطوم البيطرية يحتلون هذه الوظائف في كل من قسمي الخدمات الميدانية والبحوث، بل وأصبحوا في النهاية يتولون إدارة المصلحة برمتها.

كان آرشي شالمرز (Archie Chalmers) عميد مدرسة الخرطوم البيطرية، وزوجته مارجريت قد استضافاني في الخرطوم بكل الكرم والحنو الذين كان لا بد أن أعتاد عليهما في السودان. كان كل الموظفين، سواء كانوا في المدينة، أو في جبال النوبة، أو في صحاري كردفان، أو في المستقعات، يتعاملون مع بعضهم البعض كأخوة، وكانوا يلتزمون بمقاييس أكثر إلزاماً لهم من أية قوانين أو لوائح مكتوبة. لقد تم تسريحى من الخدمة العسكرية في الخرطوم على يد جون يومانز (John Yeomans)، ولم تكن لدى ملابس مدنية، ولذلك تولى جونى جاك مفتش بيطرى الخرطوم مهمة التأكد من قيام الترتي على بوك بتفصيل بدلتى الجبردين بالشكل الذى يناسب ضابطاً فى سلاح الفرسان، ويتماشى مع المستوى المطلوب لحضور مأدبة الفداء الإلزامية التى كانت تقام على شرف الموظفين الجدد بالسراى، مقر الحاكم العام السير هيوبرت هدلستون (Hubert Huddleston).

أما فيما يتعلق بمسئوليتى المهنية، فقد شرحها لى ببساطة مدير مصلحة الخدمات البيطرية والدو جلانفيل (Waldo Glanville) وهو آيرلندى الأصل ويتصف بالهدوء والوقار والحزم والكفاءة، ومحبوب من الجميع. لقد قال لى: "إن إسهامك لهذا البلد لن يقاس بما تقوم به من عمل، وإنما بمدى تمكنك للآخرين من القيام بالعمل". كلمات تتضح بالحكمة فعلاً، وهى مثال للروح التى كانت سائدة فى حكومة السودان فى ذلك الوقت، والتى بدد جهودها، مع الأسف، ذلك السعى المحموم لتل الحرية السياسية.

كان أول موقع عمل لى هو مديرية كردفان حيث كان توم مينزيس (Tom Menzies)، أقدم المفتشين البريطانيين بالمديرية، يتأهب للسفر فى إجازته

السنية. كان نوم وزوجته فيرا (Vera) مضيفين ممتازين قدماني بسرعة إلى زملاء الممل بالحكومة، والأعيان والشخصيات البارزة بمدينة الأبيض، وفي رئاسة المراكز باليهود، ويارا، وجبال النوية. كان الهدف الرئيس للخدمات البيطرية هو السيطرة على انتشار مرض المثقيبات الوبائي (Trypanosomia) sis) وجرب الجمال، والطاعون البقري، والإلتهاب الرئوي البقري الممدى الذى كان ينتشر بين قطمان الماشية فى تلك السهول الشاسعة الممتدة إلى غرب أفريقيا.

نصننى نوم بأن أجمل أسبقيتى الأولى تعلم اللغة العربية بالقدر الذى يكفى للتخاطب مع أصحاب المواشى بالمديرية، وإرضاء المتحنيين الحكوميين بكفائتى اللغوية تحديداً وكتابة مطبوعة كانت أو بخط اليد. وبالفعل استطعت بمساعدة أحد معلمى المدرسة الثانوية الموجودة محلياً، ومن خلال التطبيق المكثف أن أحقق المستوى المطلوب فى خلال تسعة أشهر فقط. بمد ذلك تم نقلى إلى مديرية أعالى النيل بالجنوب، ولكن يبدو اننى قد استبقت نفسى.

كان روتين الحياة البيطرية فى الأبيض لا ينفصل عن هدير الإبل الباركة حول سور المصلحة فى انتظار تلقى العلاج. وكانت الحاجة تدعو إلى القيام برحلات دورية إلى المحطات الخارجية (اليهود، الدنج، كادوقلى، أم روابة) للتأكد من سير العمل فيما يتعلق بالسيطرة على انتشار الأمراض، وعمليات التطعيم، والمستوى المعيشى للحيوانات عموماً. غير أن أكبر حدث فى حياتى كان البدء فى إعادة تجارة تصدير الماشية من الأبيض، نهاية الخط الحديدى، إلى مصر التى كانت قد توقفت بسبب نشوب الحرب العالمية الثانية. كان البقارة يسرحون بمواشيهم حتى حدود تشاد فى أقصى الغرب، مستفيدين فى طريقهم من المياه السطحية، والحشائش المغذية الجديدة التى تنمو أثناء فصل الأمطار. وكان الكثيرون منهم يواصلون رحلتهم سيراً على الأقدام إلى شواطئ

النيل، والخرطوم، وأم درمان، ولكن كان تجار الأبيض يحرسون على إعادة فتح هذه التجارة عن طريق السكة حديد إلى مصر.

كانت مدينة الأبيض هي المحطة النهائية لخط السكة حديد الفردى من العاصمة مروراً بمدينة كوستى على النيل الأبيض. وكان يسير على هذا الخط قطار واحد فى الأسبوع. وأذكر أن الحمولة القصوى للقطار لم تكن تتجاوز ٤٠٠ راساً، وكانت توزع بنظام (الكوتات) على التجار - حوالى ٢٠ تاجراً - وكان ذلك يشكل مشكلة كبرى. وفى النهاية بدأنا نطالب من كل تاجر أن يسوق ماشيته بواسطة الخيول ليجمعها بمحاذاة خط السكة الحديد. ثم يبدأ عد المشية بالراس بمساعدة مفتش المركز، وشرطة الخيالة، ومن كان يرغب من الموظفين الآخرين، وبعد ذلك يتم توزيع الحصص لكل قطار بالنسبة المثوية. واستطيع أن أؤكد أن مثل ذلك السوق المجيب لن يتكرر مرة أخرى، كما أؤكد أيضاً أنه لا يزال يوجد بعض ظرفاء السوق المجازى الذين ما زالوا يذكرون كيف كانوا يتخطون صفوف القطمان لتمييز العدد المختار من ماشيتهم.

كانت رياضة البولو بالطبع جزءاً مهماً من حياتنا فى الأبيض، وكان يستمتع بها الأغريق، والأرمن، والسودانيون، والبريطانيون على حد سواء. وكانت الخيول السودانية لا يزيد طولها عن ١٢-١٣ شبراً، ولكنها كانت سريعة جداً ورشيقة، ومن القوة بدرجة تمكها من حمل باشصراف المديرية، ذلك الرجل الضخم!

وصلت إلينا رسالة مزعجة من (التمرجى) البيطرى بالمجلد فى جنوب المديرية تقيد بأن مرضاً غريباً قد انتشر بين المشية وتسبب فى نفوق العديد من الأبقار. كان الوصول إلى المجلد، فى غياب الطرق الممهدة، وخلال موسم الأمطار، يتطلب نوعاً من البراعة والحذر، ولكن استطعنا أن نصل إلى هناك بمريتنا (حمولة ثلاثة أرباع طن) حيث وفر لنا ناظر القبيلة (حملة) من الثيران لنقل صناديقى

الحديدية بعد وضعها على جانبي إطار مبطن يُحمل على ظهر الثور. كما وفرت لنا الشرطة ركوباً مناسباً لشخصي ومرافقي، ورافقنا كمرشد ابن أخ الناظر، ذلك الشاب الذي كان يركب فرساً عربياً جميلاً يميل لونه إلى البياض. كانت مياه الأمطار، التي هطلت مؤخراً، تقمر أجزاء كبيرة من الصحراء، وكنا نرى على مد البصر مئات الألوف من البط، والإوز، وطيور الكركى، بحيث يستطيع المرء بواسطة بندقية صغيرة اصطيد ما يكفي لـ (الحلّة)، مع أن كرم الأهالي كان يكفي لسد احتياجاتنا الأساسية من الطعام.

أثناء تجوالنا من معسكر إلى معسكر ونحن نقوم بتسجيل تاريخ المرض، وفحص عينات الدم بالمجهر المتقل، استطلعت أن أشخص الداء بأنه (مرض النوم) الذي يحتمل أن يكون قد انتقل إلى الحيوانات أثناء تحركها إلى بحر العرب في فصل الجفاف، لم يكن العلاج سهلاً في ذلك الوقت، فقد كان يتطلب أخذ حقن أسبوعية لم تكن في الحقيقة مناسبة للاستعمال على نطاق واسع بالنسبة إلى قطعان الماشية شبه المتقلة.

كان التجوال بالخيل، وحمل الأمتعة على ظهور الثيران تجربة ممتعة تيمث على النشاط والحيوية، وكانت تذكرني بتفاصيل سجل الأنساب العائلية المذكورة في الإنجيل حيث كانت القبائل الرعوية تحفظ أنسابها عن ظهر قلب حتى الجد الثاني عشر بكل سهولة ويسر. كم يؤسفني أنني لم استطع أن أخرج في جولة بالجمال قبل نقلى إلى الجنوب، بعد قضاء عام واحد في مديرية كردفان، ولا يفوتني أن أذكر من بين ذكرياتي الخالدة نادي الأبيض، وفرانك لوريمر (Frank Lorimer) الذي كان يشنف آذاننا بموسيقى القرب، وذلك الفتى الاسكتلندي الذي كان يؤدي رقصة السيف.

كانت مدينة ملكال مختلفة تماماً. غادرت الأبيض بالقطار ومعى أمتعتي المنزلية، وطباخ، وسفرجي، وحصانين وسليمن. وفي مدينة كوستي انتقلنا إلى

الباخرة النهرية التي كانت تبحر كل أسبوعين وتصل إلى ملكال بعد بضعة أيام. كان نقلى فوق العادة، وذلك لأننى كنت منتدباً للعمل ضمن فريق دراسة مشروع جونقلى، وكانت المهمة تتلخص فى دراسة ووضع تقرير عن مشروع مقترح من قبل مصلحة الرى المصرية للسيطرة على تدفق مياه النيل من بحيرة فكتوريا إلى البحر الأبيض المتوسط. وقد تم إشراك مصلحة الخدمات البيطرية فى هذا العمل نظراً إلى أن تعديل مجرى النيل بفيضانه السنوى سوف يلحق أضراراً ليس بحياة البشر فحسب، وإنما بأعداد هائلة من الحيوانات الأليفة والمتوحشة. لا أريد أن أقف كثيراً عند تفاصيل هذا المشروع سوى أن أقول إننا وجدنا أنه يمكن أن يكون ذا جدوى اقتصادية متى توافرت للمتضررين سبل كسب العيش البديلة.

كان أحد الأعباء المناطة بفريق جونقلى هو جمع وفحص معلومات دقيقة حول كافة نواحي الحياة فى منطقة شاسعة تقطنها قبائل بدائية، ويمكن الوصول إليها جزئياً فقط عن طريق البر حتى فى موسم الجفاف. كان الدينكا والنوير والشلك يملكون أعداداً هائلة من الماشية، ولكن لم تكن تتوافر إحصائيات حولها. وقد حدث فى ذلك الوقت بالذات أن وافقت مصلحة الخدمات البيطرية السودانية على القيام بتجربة ميدانية لمقار جديد (بروميد الديميديوم dimidium bromide) موثوق به فى علاج مرض النوم، وذلك بتناول جرعة واحدة منه.

تم توريد ستة عشر ألف جرعة من هذا المقار، وأسندت إلى مسئولية القيام بالتجربة فى مركز بور بمديرية أعالي النيل. أثناء هذا العمل، شعرت بالامتنان والعرفان عدة مرات لمفتش المركز الميجر جاك كمنجز (Jack Cummings) الضابط السابق المساعد للقائد فى فرقة (هايلاندرز غردون الثانية). وكان يتمتع بكامل ثقة رؤسائه وتعاونهم حيث قام بوضع نظام معادل لمجالس المراكز الريفية.

وقد أمكن عن طريق هذه المجالس جمع المواشى فى معسكرات يحتوى كل منها على ٥٠٠٠ رأساً، وكانت تربط إلى أوتاد فى مجموعات عائلية حول نار المسكر المركزية، مع العجول فى وسط الدائرة، والأبقار وصغارها فى الدائرة التالية، والثيران والعجول الكبيرة فى الدائرة الخارجية.

لقد زرت هذه المعسكرات يصحبني فريق من عمال التطعيم، مع كمية من مسحوق العقار الذى يتم تحويله إلى محلول عند الاستعمال، وبضعة أطباق من إبر الحقن التى تعطى تحت الجلد، بعد أن يتم وضعها فى صفائح بنزين فارغة تعبأ بهاء يفلئ من نار المعسكر، إضافة إلى عدد من الخراصات لوسم أذن الحيوان الذى يتم تطعيمه. وبما أن الجرعة تتوقف على وزن الحيوان، فكنت أقوم بتقدير وزن كل حيوان بالنظر إليه، ثم أنادى بإعطائه الجرعة المناسبة، وهنا يقوم عامل التطعيم بملء الحقنة بالكمية المطلوبة من اللقاح، ويركض بها لحقنها فى جسم الحيوان الذى يكون قد تم تقييده بواسطة عدد من الشبان الأقوياء، وبعد ذلك توسم أذنه، وهكذا تكرر نفس العملية مع الحيوان التالى. لقد تم تدريب أحد الأشخاص لتسجيل عدد الحيوانات فى كل وحدة عائلية، ولذلك أمكن جمع معلومات دقيقة عن إجمالى أعداد المواشى، مع التفاصيل الأخرى الخاصة بسن وجنس الحيوانات التى تم تطعيمها.

كنا قد أكملنا للتو ٧٠,٠٠٠ عملية تطعيم، ونحن لم نزل فى منتصف المسافة إلى مركز بور، إذ وردت إلينا تقارير بموت بعض الحيوانات التى سبق تطعيمها قبل شهر. لذلك توقف العمل، وعادت إلى المعسكرات الأصلية حيث وجدت أن العديد من الحيوانات يعانى من الحساسية الضوئية (Photosensitivity)، وكان جلدها الأبيض يموت ويجف كورق البرشمان، خاصة وأن أبقار الدينكا يفلب عليها بياض اللون. كان ذلك عائفاً مؤسفاً لعملنا، ولكننا لاحظنا عدم تأثير المرض على الأبقار التى تعيش على العشب الأخضر، وإنما على تلك التى تاكل العشب الخشن الجاف.

وبالرغم من هذا المائق، استمرت عمليات التطعيم لمدة عامين في مركز بور، ومركزي وسط وغرب النوير حيث يمكن وصول الماشية إلى المشب الأخضر، ولكن تم تغيير اللقاح بآخر ليست له تلك التأثيرات الجانبية التشويهية والميتة. وأصبح لدينا حمى وجهه نظر فريق جونقلي إحصاء ممتاز يوضح أنه قد تم تطعيم ٥٠٠,٠٠٠ ألف رأس من الماشية في ذلك الجزء من المنطقة التي كنا نعمل فيها.

أثناء فصل الجفاف (أكتوبر إلى إبريل) تمكنا من الوصول إلى أغلب المحطات الخارجية بالطرق البرية التي تربطها بمدينة ملكال. كانت مئاث الأسيال من هذه الطرق قد تم بناؤها يدوياً باستخدام التربة القطنية السوداء المبتلة لرفع مستوى الطريق إلى عدة بوصات أو أقدام حسب ما هو مطلوب، ولكن في الأشهر الستة المتبقية من العام كان البديل لهذه الطرق هو استعمال البواخر النهرية إلى المحطات الواقعة على الأنهار، أو سيراً على الأقدام مع الحملين إلى غيرها من المحطات. كانت اللوائح الحكومية تسمح بثلاثين حملاً على أن يكون أقصى حمل للعمال الواحد ٤٠ رطلاً. ولذلك كان لابد لنا مع وجود الخدم، والمربيين البيطريين، ورجال الشرطة المرافقين لنا، أن ينظر إلينا كمجموعة مثيرة للإعجاب ونحن نتقل من قرية إلى أخرى.

بعد الفراغ من إحدى هذه الحملات، أقلتبا الباخرة (طمل) التابعة لسكك حديد السودان من مكان بالقرب من أدوك على بحر الجبل. وفي تلك الليلة اصطدمت الباخرة بفيل كان في وسط النهر محاطاً بمستنقع من نبات البردي، وشوهد بواسطة ضوء (الطورشات) وهو يمسك الصندل الأمامي بخرطوم، ثم بدأ يتحرك تدريجياً تجاه الباخرة نفسها. وعندما أصبحت أنابيب الماكينة معرضة للخطر أذن مهندس الباخرة لحرس الشرطة المرافق بإطلاق النار. صادفت الطلقة القاتلة فم الفيل الذي كان مفتوحاً عندما رفع خرطوم لتثديده قبضته، وتم إخراج جثته في محطة للأخشاب أسفل النهر، وأبلغ الحادث إلى حرس الصيد، ومفتش مركز فتجاك.

كان موظفو البيطرى الميدانيون بالجنوب يكرسون معظم جهودهم للسيطرة على أمراض المواشى الوبائية الرئيسية وهى: مرض النوم، والطاعون البقرى، وال CBPP. بالنسبة للأول، فقد أمكن التعامل معه بفعالية على المستوى العلاجى، ولكن لم يكن بالإمكان استئصاله بصورة نهائية إلا بالقضاء على ذبابة التسي تسي. ولأجل هذا الغرض تم وضع فريق لإبادة التسي تسي فى مديرية بحر الغزال لدراسة وتطبيق الطرق الكفيلة بالقضاء على الذبابة داخل الغابة التى تفزوها بأعداد كبيرة. أما بالنسبة للطاعون البقرى وال CBPP فقد أمكن السيطرة عليهما من خلال برامج التطعيم الحازمة المنتظمة، وقد أصبح فى إمكان المختبر البيطرى بالخرطوم وفرعه فى ملكال، توفير احتياجات السودان، بل وإمدادها إلى خارج الحدود.

بالإضافة إلى برامج التطعيم على مستوى القطر، كانت مصلحة الخدمات البيطرية تُعنى أيضاً بكافة مجالات الرعاية الحيوانية والصحة العامة. كانت الخيول والحمير تستخدم بكثرة فى حراثة الأرض، ودرس الحبوب، وسحب الماء للرى، أو لحمل أوجر المتاع من وإلى الأسواق. كما كانت بعض الرعاية تقدم فى الغالب عندما يتطلب الأمر موازنة احتياجات الحيوان مع احتياجات صاحبه وأسرته. أما فى مجال الذبيح للاستهلاك الأدمى، فكان العمل يجرى باستمرار لتحسين الوسائل والإمكانات اللازمة لذلك مع مراعاة الممارسات الدينية. لم تكن هناك مدرسة الخرطوم البيطرية عيادات بيطرية متطورة لعلاج الحيوانات على المستوى الفردى، ولكن كانت تتم تلبية بعض الطلبات المحلية بما فى ذلك حيوانات الصيد، سواء كانت مصابة أو صغيرة قد فقدت أمهاتها. كما تم إنشاء فرقة من شرطة الخيالة، وكانت مصلحة الخدمات البيطرية تتولى مسئولية الإشراف عليها، وشراء خيول بديلة لها سنوياً.

بعد الحرب بدأت مصلحة الخدمات البيطرية فى تنفيذ بعض الخطط

الخاصة بتطوير الصناعة الحيوانية، فقد تم تعيين البروفسير بيسكوف (Biss-choff) من أوندريستبورج بجنوب أفريقيا لوضع تقرير حول نسل المواشى فى السودان وتقديم المشورة اللازمة لتحسين نسلها. كما تم انتداب إيرنى نيو- (Er-nie Knew) الخبير فى دباغة الجلود من انجلترا لتحسين المسالخ، والتجفيف الهوائى، وتعليق وتخزين الجلود وتصديرها. كذلك تم تعيين اثنين من خبراء البحوث الباستورية هما مايكل هاريسون (Michael Harrison) وهاوارد ديفيز (Howard Davis) لدراسة إمكانات المراعى، ولكن للأسف لا أدرى مدى ما أحرز من تقدم فى هذه المجالات خلال السنوات الأربعين الماضية. غير أن حياتى قد ازدادت ثراء من خلال ارتباطى مع زملائى فى جميع المصالح الحكومية، ومع جميع أهل السودان على جميع مستوياتهم الاجتماعية، وأرجو فى يوم من الأيام أن يعرفوا بلادهم كما عرفتها أنا. بلاد مسالمة، عامرة بالود، ومليئة بتوقعات وآفاق واسعة لا تحدها حدود.

غوردون كلاو (Gordon Clow)



19

---

حكاية

الزوجة

---

*Sudan Canterbury Tales*

ذهبت إلى السودان أول مرة مع زوجي فيليب بعد حوالي أسبوعين من زواجنا . سافرنا عن طريق البحر إلى بورتسودان، حيث رست بنا السفينة في جو غائم شديد الحرارة لم أنسأه حتى اليوم، وتمنيت في تلك اللحظات أنني لم أغادر إنجلترا، ولكن كنت أمل أن الطقس لن يكون هكذا دائماً . تمالكت نفسي بالرغم من ذلك، وظللت أطمئن زوجي بأنني مستمتعة بالحياة.

استغرقت الرحلة من بورتسودان إلى الخرطوم، عاصمة السودان، متاً وثلاثين ساعة بالقطار . كانت محطتنا النهائية مدينة (الجنينة) في أقصى غرب البلاد على حدود ما كانت تسمى آنذاك بأفريقيا الاستوائية الفرنسية. كان علينا أن نصافر أولاً بالقطار مسافة أربع وعشرين ساعة أخرى من الخرطوم إلى نهاية خط السكة الحديد في مدينة الأبيض، ومن هناك باللوري لنقطع مسافة أربع مائة ميل إلى مدينة الفاشر، رئاسة مديرية دارفور. لقد بدا لي أن هذا الطريق لا بد أن يكون هو الأسوأ في أفريقيا - مجرد مجرى بين الكتيبان الرملية يشق منطقة شبه خالية من الماء، ولذلك كان الأعراب يخزنون مياه الشرب في جذوع أشجار التبلى المجوفة عند محطات توقفهم. لقد أدهشني سائق العربة الذي، بسبب ندرة الماء، وضع بيضة في الجزء العلوي من مبرد محرك السيارة (الرايبيتر) ليفطر بها.

كما نقضى الليل في استراحات مسقوفة بالقش، وأصبح معظمها آيل للسقوط بعد هطول الأمطار الأخيرة. وفي أم كدادة، محطتنا الأخيرة قبل

الفاشر، لفت أحدهم نظري لمشاهدة لوحة مثبتة على الباب تخليداً لذكرى شخص كان يقيم في هذا المكان، وأطلق النار على نفسه بسبب العزلة والملل. كان المكان بالفعل يبدو غريباً، وربما تكون فيه عظة للناس بضرورة الاهتمام بما لديهم من عمل. أما الغرفة التي أقمنا فيها فكان يميزها عيب آخر يتمثل في تلك الرائحة الكريهة التي كانت تتبعث من كتل الوطاويط المتدلية من سقف الغرفة. لذلك شعرنا بالارتياح عندما وصلنا إلى الفاشر في اليوم التالي.

كانت مديرية دارفور حتى عام ١٩١٦ سلطنة شبه مستقلة يحكمها السلطان الطاغية على دينار. في ذلك العام قامت حكومة السودان بتجريد حملة ضده من الجنود السودانيين عندما أعلن تحالفه مع الأتراك الذين دخلوا الحرب العالمية إلى جانب ألمانيا. اشتهر السلطان على دينار بأنه كان يملك عدداً كبيراً من الحريم بما في ذلك عدد لا يستهان به من السراري. وقيل أيضاً إنه كان يلبس في أيام معينة عمامة حمراء كإشارة إلى أنه سيهدم شخصاً ما. وكان إذا رأى شخصاً يخاطب حريم القصر ومن في طريقهن لجلب الماء من الآبار، فإنه يطلق عليه النار من سطوح القصر، ولذلك كان موته في النهاية خلاصاً جيداً للمواطنين.

بعد الفاشر كانت لا تزال تبقى أمامنا مسافة ٢٥٠ ميلاً لنصل إلى الجنيانة، وقد استغرق ذلك يومين بمرية الفوردي. كنا في هذا الجزء من الرحلة ننام في الهواء الطلق، وعندما سمعت زئير الأسود لأول مرة لم أستطع النوم جيداً. يقول بعض الناس إن الخوف يجعل الإنسان يتصبب عرقاً، لذا أعتقد أنني قد فقدت أرمالاً من وزني في تلك الليلة.

كان زوجي هو ممثل الحكومة المقيم في دار معالييت، وهي منطقة أخرى يحكمها سلطان أيضاً، ولكنها تقع ضمن سلطات حكومة السودان. كان وصولنا إلى مقر السلطان بهيجاً ورائعاً، فقد أحضرت خيول زوجي لمقابلتنا

خارج المدينة، وركبنا من هناك ترافقتنا ثلة من خيالة كتيبة المشاة بقيادة ضابط بريطاني متمطياً صهوة جواده. أما السلطان فقد كان هناك بنفسه، وقد اصطف فرسانه على جانبي الطريق مدججين بالرماح، وتبدو على وجوههم شدة وصرامة. لقد أقيم كل ذلك على شرف المروسة! كنت أمتطى حصانا فعلاً، وكان مصراً على مشاكسة الخيول الأخرى.

كانت حياتنا في الجنينة شديدة العزلة. لم أر سوى امرأة أوروبية واحدة طوال فترة السنة أشهر التي قضيتها هناك. وكنت في تلك المرحلة لا أجيد التحدث باللغة العربية، ولذلك كان الخدم السودانيون يؤدون لي جميع الأعمال بما في ذلك شراء احتياجاتنا من السوق. تعني كلمة "الجنينة" في اللغة العربية "الحديقة"، وهي فعلاً اسم على مسمى، ولكن بالنسبة لنا فقد كانت لدينا حديقة خاصة بهيجة. غير أن أول مغامراتي فيها قد أفسدت، ذلك أن حبة الجوز التي أهداني إياها (الجنائني) تحولت إلى مثير للقيء عنيف. وبالرغم من هذه العزلة، كانت هناك أشياء كثيرة مثيرة للاهتمام، من بينها النعام، والمديد من أنواع الحيوانات المتوحشة، وكان السلطان نفسه يملك قطعاً أليفاً من الزراف. غير أن كل الأشياء الخاصة برعايا السلطان كانت بدائية. كانت أكواز الملح وقطع القماش المنسوج منزلياً تستخدم كملة محلية، وكانت نقطة الفيار الصغيرة بالمدينة يديرها رجل يحمل مسمى "الحلاق المصني"، وهو مسمى مفلوط لأنه لا كان حلاقاً، ولا كان صحبياً! أقول ذلك وقد أجمعتي الدهشة أيضاً عندما زرت المستشفى المحلي لأول مرة فوجدت بجواره مجعاً يمج بالمجزومين، وقد فجر ذلك في نفسي تلك الفكرة القديمة عندما كان يطلب من المجزومين تغطية رؤوسهم، وحمل جرس أثناء سيرهم في الطرقات. عندما استقبلت مدينة الجنينة أول قابلتين حكوميتين، كادت نساء السلطان الفيورات اللاتي أثرت شكوكهن أن يمزقتهما إرباً إرباً عندما شاهدن المراتين الغريبتين في ملابسهما البيضاء النظيفة وهما تقتربان من قصر سيدهن!

كان المساليت يحترمون ويجلون سلطانهم وحكامهم، وكانت طريقتهم لتحيتهم هي الجلوس على الأرض، والاتفات برؤوسهم بعيداً، ثم التصفيق بهدوء.<sup>(١)</sup> أما في دار قمر، وهي سلطنة أخرى على بعد ثمانية أميال إلى الشمال، فكان الناس يحيون سلطانهم حبواً عندما يقتربون منه - ذلك الحاكم المطلق المجوز ذو اللحية البيضاء الذي تجاوز عمره التسعين عاماً وله عائلة كبيرة تشمل أبناء الذين تربوا أعمارهم على العتتين.

وبما أننا كنا قريبين من الحدود الفرنسية الاستوائية، فكنا نقوم بزيارة زملائنا الفرنسيين من وقت إلى آخر، وكان الضباط الفرنسيون يستقبلوننا بكل حفاوة وترحيب لدرجة أن وجبة الغداء التي تبدأ في العادة عند الظهر كانت قد تمتد أحياناً إلى حوالي الساعة الرابعة والنصف مساءً. وفي إحدى المناسبات قُدمت لنا ثلاثة عشر صنفاً متتالياً من الطعام، بدون القهوة. وهي مدينة أبشى، التي توجد بها رئاسة المديرية المحلية، كنا نرى نساء (الطوارق) الصحراويات الجميلات ببشرتهن البيضاء، وهن يسنن في الطرقات دون قناع، ومن ناحية أخرى كان رجال الطوارق ( غزاة الرمال) يحرصون على ارتداء القناع، والأعجب من ذلك أنهم كانوا يلقون صليباً على صدورهم رغم أنهم مسلمون.

بعد أشهر قلائل خرجنا في جولة طويلة بالخيول مستخدمين الجمال لحمل الأمتعة. وبعد أسبوع من مفارقتنا، وصل إلينا أحد المدائين حاملاً ورقة في عصاته المجوفة، وكانت تلك هي المرة الوحيدة التي أرى فيها بريداً يستلم بهذه الطريقة. كان البريد في الجنيّة يصل بالجمال مرتين في الشهر، وعندما نقلنا إلى جبال النوبة فيما بعد، كان ساعي البريد يصل إلينا على ظهر ثور.

كانت الرسالة الخطية التي حملتها العصاة المجوفة عبارة عن برقية تتضمن نقل فيليب إلى وظيفة جديدة في الخرطوم، تلك المدينة البهيجة التي عمّنا

---

(١) انظر أيضاً آر. جي. ديتجول في الملاحق (ج).

فيها عام زواجنا الثاني. وهناك تعرفت أكثر على زوجات الموظفين والأعيان السودانيين. كنت لا زلت أتحدث القليل من اللغة العربية، ولذلك كنت أكتفى في البداية بتبادل الابتسامات مع الآخرين بنوع من الاستحياء. وشعرت بالخجل أكثر عندما اضطررت إلى الاعتراف بأنه لا أولاد لي، ذلك أن إنجاب الأطفال كان موضع الاهتمام الرئيسي للنساء السودانيات. كن يفحصن بأصابعهن ما ارتديه من ملابس، وكنت بدوري استفسر عن أسعار ملابسهن، وهو استفسار مقبول، بل هو تعبير عن التحية والمجاملة في تلك البلاد. كانت النساء السودانيات لطيفات بصفة عامة، وشغوفات بتبادل النكات.

كما كانت النساء يتباهين بشعرهن الذي كان يجدل بمئات الضفائر الرقيقة التي يمكن أن يزداد طولها أكثر بضفائر من الصوف أو شعر الماعز. وكانت المرأة المتيسرة الحال تزين يديها بالحناء، وبعضهن يوشم الشفتين بلون أزرق، ويضعن كحلأ أسود حول العينين. وكان البمض (يشلخن) خدودهن كما يفعل الرجال، وتختلف (الشلوخ) وفقاً لمعادات كل قبيلة، وتتم هذه العملية في سن الثانية عشر، وتعتبر نوعاً من الجمال ربما عملاً بالقول الماثور لألفريد ماوسيت (Alfred Mousset) أنه «لا بد من المعاناة لتصبح جميلاً»، علاوة على مدلولها القبلى. بالإضافة إلى ذلك، كان السودانيون عموماً يحبون الأطفال الذين رغم أنهم في نظر الكثير من الغربيين يعتبرون مدللين أكثر من اللازم، إلا أنهم كانوا يتمتعون بطباع مرحة.

كنت أقوم من وقت لآخر بزيارة إلى مدرسة البنات، ونقطة الفهار في أم درمان اللتين كانتا تديرهما (جمعية الإرساليات الكنسية)، وكانت المسئولة عنهما امرأة مدهشة تدعى ميس نورتون (Miss Norton). كان عدد كبير من الأطفال المسلمين يلتحقون بهذه المدرسة تقديراً لمستواها العالي تربوياً وتعليمياً. ولكي يصل المرء إلى مركز جمعية الإرساليات الكنسية، كان عليه أن يسلك ألفة ضيقة

بين بيوت وحوائط مبنية من الطين، ليدخل في النهاية من خلال باب لا يختلف عن أبواب البيوت العادية. وفي الداخل كانت كل المباني طينية بلا زجاج على النوافذ أو إضاءة كهربائية، وبلا ماء نظيف، وحتى الأرضيات كانت من طين النيل. وجدت غرفة الانتظار في عيادة رعاية الأطفال مليئة بأطفال ييكون ونساء يصرخن - يبدو أن النساء السودانيات تمودن على الصراخ مع بعضهن البعض بالرغم مما يتمتعن به من روح الدعابة والمرح. كانت من نورثون، في هذا الجو الشبيه بمستشفى المجاذيب، تحتفظ بهدوء شديد، وتميش وتعمل؛ تزن الأطفال، وتعالج العيون والأوجاع، ويصفه عامة تقوم بصرف الدواء.

بعد هذه الفترة التي قضيناها في الخرطوم، تقرر نقل فيليب إلى الدنج بجبال النوبة، وكانت هي الأخرى محطة موحشة لا يوجد بها زوجات بريطانيات. كان هناك شرطى يتولى حراسة منزلنا في الليل عندما يخرج فيليب في إحدى جولاته، ولكنهم قد أكدوا لى أن هذا مجرد "إجراء رسمى". وفي إحدى الليالى استيقظت على صوت صراخ مرتفع وصوت ارتطام حول الحديقة، وعندما خرجت مندفة إلى الخارج، تمكنت من رؤية (حارسنا الشرطى) وهو يتأهب للمشاركة في مطاردة أحد المجرمين، قلت له: "لا يمكنك أن تخرج. عليك أن تبقى هنا لحراستى". وضع فى اليوم التالى أن عابر سبيل فى الجوار قد طعن بسكين حتى الموت وهو نائم على قارعة الطريق، ولذلك بدأت تلك المطاردة للقبض على القاتل.

كنت أقوم، تزجية للوقت، بتعليم الحياكة، واكتشفت لدهشتى أن صبية المدارس كانوا أحرص على التعلم من البنات اللاتي كن يبدن اهتماماً أكثر بتعلم الخياطة. ونظراً لعدم وجود إبر للحياكة، فكنا نستعمل أعواداً أو شوكاً طويلاً إلى أن تكرم أحد الأصدقاء وأرسل لى بعض إبر الحياكة من أرض الوطن. كان الصبية يفخرون بما يتجزونه من عمل، ويتباهون بالقناتلات (بلوفرات) الصوفية المختلفة التى قاموا بحياكتها بغرزات خيوط دقيقة مختلفة الألوان.

كثت من وقت إلى آخر أصعب في جولاته، وفي إحدى المرات ذهبت معه إلى (سلارا). كان الناس هناك يسكنون الجبال، وبالرغم من أنهم محاطون بالمسلمين العرب، إلا أنهم كانوا متمسكين بديانتهم الوثنية ويعبدون إلهاً يمكن التقرب إليه من خلال أرواح أسلافهم، التي يدورها يتم استحضارها بواسطة كاهن يسمى (الكجور)، وذلك بعد التضحية بمعزة أو دجاجة قرباناً للإله. ثم يذهب الكجور في غشوة يتكلم خلالها بلغة غير لفته، فيقوم كجور آخر بترجمتها ناقلاً الرسالة المستمدة من أرواح الأسلاف. لقد شاهدت ذلك بنفسى، وكان بالنسبة لى غريباً جداً. كان أهل سلارا من عنصر مرج مكتمل الرجولة يسمى (نايمانج)، ويعيشون في عزلة، ولكن كان يخرج منهم جنود ممتازون، وبالرغم من أن كبار السن منهم كانوا يرتدون ملابساً، إلا أن الفتيان والفتيات كانوا عراة، ويبقون كذلك حتى يتم تزويجهم، وعندها يرتدون حزاماً مصنوعاً من حوالى ثمانية خيوط من الخرز الأزرق، ويضعون في الأمام غطاء من الخرز الأزرق أيضاً، وذيل مصنوع من الجلد في الخلف يخطون عليه خرز من النحاس. وإذا شوهدت إحدى النساء بدون هذا الذيل، فإنها تُمرّض نفسها إلى ذات الحرج الذي كثت سأمرض إليه فيما لو سرت في شارع (التايمز) العام دون (إزار)!

كانت توجد في سلارا إرسالية تعمل في المجالين التعليمى والطبى. وكانت طبيبة الإرسالية، التى تزوجت فيما بعد بأسقف إنجليزى، خير عزاء وسلوى لى قبل وبعد ولادة ابنتى. لقد تم تعميد ابنتى جوديث (Judith) في كنيسة الإرسالية المحلية، وحضر الصلاة حوالى مائة من تلاميذ المدرسة النوبيين. كان من النادر وجود أطباء بريطانيين حيث أن غالبية أطباء حكومة السودان كانوا سودانيين - وكانوا دائماً محل تفتتا.

فى هذا الوقت بدأت أتحدث اللغة العربية بقدر من الطلاقة، وبطبيعة الحال لم يكن هناك مناص من ذلك، وإلا كنت سأظل صامتة. لم تكن هناك

زوجات بريطانيات، ويوصل ابنتى جوديث لم أعد استطيع الخروج مع فيليب فى جولاته، وكان على أن أبقى وحيدة فى المنزل.

كانت النساء فى غرب السودان يصنعن من الدخن نوعاً من البيرة يسمى (المريسة) وهى مشروب سميك كالعصيدة له قيمة غذائية، ولكن لا يشبه البيرة الإنجليزية. كان الأهالى يشربون منها كميات كبيرة، ويدعى كبار السن أنهم يعيشون عليها وحدها. وكان الناس فى جبال النوبة يشربون إلى جولات الدخن المكسدة ويتفاخرون بقولهم: "هذه ليصت للأكل، ولكن للمريسة". وعندما يأتى زمن الحصاد لم يكونوا يجلسون ويشربون المريسة بهدوء، وإنما كانوا يقيمون حفلات يحضرها ما بين مائتى و ثلاثمائة شخص، وتقوم الفتيات العاريات عادة بأرتداء أجمل ما لديهن من الثياب لحضور مثل هذه المناسبات. أما الفتيان فلم يكونوا يرقصون وحسب، وإنما يقيمون كذلك مباريات فى المصارعة. وفى النهاية يعلن أحد الكبار نهاية الحفل بالنفخ فى صافرة شرطة قبل أن يحمى الوطنى ويحتاج الجميع.

كان السودانيون عموماً مولعين بالمسكرات، وكان الشاى الذى يشربونه يعتبر حلاً جذاً بالنسبة إلى معظم الأوروبيين. كانوا يضمنون الشاى والسكر وغيره فى إناء مصقول يضمنونه على فحم مشتمل، وعندما يصبح جاهزاً ومركزاً، يقدم فى أكواب زجاجية صغيرة. وكان الشاى عند قبائل البقارة الرحل فى غرب السودان يشرب بكميات كبيرة، ولكن من الناحية الأخرى، كانت القهوة (البن) تشرب بكميات قليلة، بينما كانت تشرب بكثرة فى شرق وشمال السودان، وفى المدن. غير أنه يبدو أن النساء المتزوجات كن محرومات من شرب القهوة ، وكذلك من شرب اللبن الحليب، بل كان من المستحيل رؤية امرأة تشرب حليباً فى غرب السودان. لقد وجدت ذلك عنراً مناسباً لى فى إحدى المناسبات عندما كنت اصطحب فيليب فى زيارة إلى بعض مخيمات الأعراب حيث كانت تقدم لنا

سلطانية ملئت حليباً برغوته مباشرة من بقرة، أو ناقة، أو معزة، أو مهرة، وهو شيء لم أكن أرغب في شرايه إطلاقاً.

كانت النساء يتناولن الطعام بمفردهن وليس مع الرجال، وهو نفس طعام الرجال المكون من الكسرة التي هي عبارة عن فطائر مقلطحة مصنوعة من دقيق الدخن، وبعض اللحم المقلّى بزيت السمسم، والبامية الناشفة، والطماطم، وكل هذه تتبل بالملح والشطة.

كنت لبعض الوقت أشعر بأننى يجب أن أقدم المزيد من المساعدة للنساء السودانيات لتكون لهن اهتمامات أخرى إلى جانب الطبخ، ولكن لم تواتى هذه الفرصة إلا بعد أن نقلنا إلى كوستى، وهى مدينة متطورة نسبياً تقع على النيل الأبيض، وهناك استعدت ما استطعت تذكره من مناشط المعاهد النسوية فى إنجلترا على أمل أن تهتم بها الفتيات اللاتى تركن المدرسة، وكذلك النساء المتزوجات، غير أن فكرة إنشاء نادٍ للسيدات قد أثارت مخاوف الرجال الذين اشتموا فيها نوعاً من الحرية المفرطة. ولذلك ناقشت هذه المعضلة مع الدكتور عتبانى، الطبيب السودانى الذى أسعفنا بكلمة سحرية أدت الفرض وأزالت حساسيتهم، وذلك بتسمية المؤسسة (معهد السيدات). وحيث أن لفتى المريية كانت لا تزال مضطربة فى بعض الأحوال، فقد سألت رجلاً مسناً عما إذا كان سيسمح لزوجته بالانتماء إلى مؤسسة تسمى "معرض السيدات"، وإذا بى بسبب الاستعجال فى الكلام قد حولت ببساطة حرف (الهاء) إلى (راء) فتغير المعنى إلى معرض للسيدات. ورغم أنها كانت زلة لسان مؤسفة، إلا أننى قد ضمنت موافقة جميع الرجال القياديين فى المدينة بمن فيهم القاضى المدنى، والطبيب، والقاضى الشرعى.

كما نجتمع فى مدرسة البنات بمعاونة ناظرة المدرسة ومساعدتها، وكانت جدران المدرسة عالية بالشكل المناسب الذى يمنح الرؤية من الخارج. كان

الاجتماع يبدأ فى الساعة السادسة مساء بعد حلول الظلام من أجل أن تصل السيدات دون ملاحظة أحد. لقد استلطنا عدداً من مصابيح الجاز (الرتاين) من مصلحة سكك حديد السودان، وتم فرض رسوم قدرها قرش واحد (يمادل ٥.٢ بنس فى تلك الأيام) لحضور كل اجتماع، وذلك لتغطية تكاليف الشاي، والسكر، والجاز، مع هامش وفر صغير اشترينا منه إبريق شاي صغير وأكواب. سارت الأمور على أحسن ما يرام، وكان الحضور يقارب الثلاثين امرأة فى كل أسبوع. كان الاجتماع يبدأ بتخصيص ساعة للتواصل الاجتماعى نتناول خلالها الشاي، ثم يلى ذلك محاضرة تلقيها الناطرة. وكان يتم الحصول على هذه المحاضرات من بعض المسؤولين كالتبيب وضابط الصحة العامة فيما يتعلق برعاية الطفل، والتغذية وغيرها، وغالباً ما ينتهى اللقاء بمرض لبعض أعمال الخياطة، أو القباله، أو كيفية استحمام الطفل، أو خياطة الملابس النسائية.

كانت محطتنا التالية بعد كوستى هى كسلا فى شرق السودان حيث أصبح فيليب النائب الأول لمدير المديرية، ثم أصبح مديراً للمديرية فيما بعد. وأثناء وجودى هناك عرفت شيئاً عن مديرية كسلا الشاسعة التى تبلغ مساحتها ١٤٠ ميلاً مربعاً، وعن مدينة كسلا بالذات. كان الخط الساحلى على وجه الخصوص مثيراً للمجب، إذ يبلغ طوله حوالى ٢٠٠ ميلاً بمحاذاة تلال البحر الأحمر التى ترتفع من السهل الساحلى فى أقصى الشرق، ثم تمتد بمدى سهل واسعة إلى أن تقترب من النيل حيث يرمى فيها حوالى نصف مليون رأس من الإبل.

كان سكان تلال البحر الأحمر - الهدنوة، والبشاريون، والأمرار - مميزين فى نوعهم المرقى، وعاداتهم. إنهم أولئك القوم الذين وردوا فى أشعار كبلنج باسم فزى وزيز (fuzzy wuzzies) والذين ينتمون إلى الجنس الحامى، ولهم لهجتهم الخاصة أكثر من كونهم عرباً يتكلمون اللغة العربية. إنهم قبيلة ممتدة

من البدو الرحل الذين يعتزون بكبرياتهم، ويتميزون بوجوههم الصقرية، وكان أولادهم يتميزون بالوسامة ولكثهم ليمسوا نظيفين، أما نسلؤهم فينفردن فى السودان بارتداء ثوب بلون أحمر يختلف عن ذلك الثوب الأزرق أو الأبيض الذى كانت ترتديه جميع النساء تقريباً فى كافة بقاع السودان الأخرى.

لقد تحقق طموحى فى كسلا بإنشاء معهد نسوى منتظم. كنا نجتمع كل أسبوعين، وكانت أنشطتنا تشمل القراءة ودروس اللغة العربية. كان الوضع هنا يختلف عن كوستى، فقد وجدنا عوناً من بعض السيدات البريطانيات، ومن بعض زوجات السودانيين المتعلمات. وعندما غادرنا للتقاعد، سلمت المعهد إلى لجنة ترأسها سيدة سودانية.

من السمات البارزة فى السودان أن العلاقات العرقية كانت جيدة دائماً، ذلك أن سياسة الحكومة المعلنة منذ البداية هى أن "السودان للسودانيين". كما أنه لم يكن هناك مستوطنون يهض يمحرون صفو العلاقات بين الإداريين وزوجاتهم من جهة، وبين السكان المحليين من الجهة الأخرى. وأثناء وجودنا فى كسلا كانت قد تمت سودنة ٩٠% من وظائف الخدمة المدنية، وفى مديرية كسلا بالذات كان مفتش طبى المديرية ومعاونوه من الأطباء، وقاضى المحكمة العليا، وقمندان الشرطة، وعدد من مفتشى المراكز كلهم من السودانيين. لم يكن هناك تمييز منصرى فى السودان، ولا عزل عرقى فى القطارات، أو الفنادق، أو المدن. وكنا نقوم باستضافة الموظفين السودانيين فى منازلنا، وفى الواقع كانت أعظم صديقات ابنتى الصغيرة فتاة سودانية.

ميرى برودبنت (Mary Broadbent)



20

حكاية

عالم الحيوان

(كما روتها أرملة ليزلى لويس)

*Sudan Canterbury Tales*

نشأ ديفيد جيمز لويس (David James Lewis) ١٩٠٩-١٩٨٦ في بيت  
قسيس بمقاطعة إسكس (Essex)، ويدون أية خلفية علمية كان مولماً  
بالحشرات منذ طفولته المبكرة. كان منزلنا بالقرب من منزله، وكنت قد التقيت  
به لأول مرة ونحن في سن الحادية عشرة بجانب بحيرة عندما جاء هو وشقيقه  
لتناول الشاي. كان واضحاً آنذاك أن اهتماماته كانت تتعدى بكثير مطارداتنا  
الصبيانية للسحالي، والكريات، أو تققيم فراخ الضفادع دون ترتيب وهي لا  
زالت في طور الحضانة. بعد ذلك درس ديفيد علم الحيوان في جامعة  
كيمبردج، ثم تخصص في علم الحشرات بتركيز خاص على الحشرات الناقلة  
للأمراض البشرية. وبعد حصوله على منحة دراسية في كلية لندن لطب  
المناطق الحارة، عمل لدى مؤسسة روكفلر في ألبانيا التي كانت في ذلك الوقت  
بلداً بدائية تحت حكم الملك زوغ (Zog) بمساعدة موظفين أجانب غربيين  
الأطوار، وكان ديفيد يتولى مسئولية إحدى المحطات الخارجية التابعة لمركز  
المؤسسة في روما التي تكرر عملها لاستئصال ملاريا البحر الأبيض المتوسط.

وفي عام ١٩٢٥ تم تعيين ديفيد لدى حكومة السودان للمعمل في مشروع  
مكافحة الملاريا بمنطقة زراعة القطن المروية من خزان سنار على النيل الأزرق  
التي كانت المورد الاقتصادي الرئيسي لحكومة السودان. كان مقر عمله في مزرعة  
أبحاث الجزيرة ، وبالرغم من أنها كانت مؤسسة تعنى بالزراعة، إلا أنه كانت  
تتوفر بها المكتبات والإمكانات المختبرية التي استفاد منها كثيراً. وفي ظل  
السياسات بعيدة النظر التي وضعها السير إريك برايدي Sir Eric Prdie مدير

مصلحة الخدمات الطبية آنذاك، وبالتعاون مع الدكتور روبرت كيرك (Robert Kirk) بمعمل استاك بالخرطوم، امتدت أبحاث ديفيد لتشمل الأمراض الأخرى التى تنقلها الحشرات بفرض السيطرة عليها، ومنها الحمى الصفراء (الباعوض)، ومرض النوم (ذبابة التمسى تسمى)، وداء الكلب (يسبب أحياناً عمى الأنهار) الذى تنقله ذبابة (الذلفاء) المعروفة بلسعتها الشديدة، والكلازار (الذبابة الرملية). كانت هذه الأمراض تنتشر فى عدة مناطق بالسودان، ولذلك كان العمل يقتضى القيام بجولات إلى بعض الأماكن النائية. أثناء تمشى مرض الحمى الصفراء فى جبال النوبة، أرسل ديفيد بالطائرة إلى معهد للأبحاث بمدينة عنتبى بهوغندا من أجل تحديد نوع الحشرة التى يشتبه فى أنها ناقلة للمرض، ولحسن الحظ تأكدت إمكانية السيطرة عليها بسهولة. كان ذلك أثناء الحرب حيث كان مرور القوات عبر السودان يجعل من احتمال انتشار أى وباء أمراً خطيراً.

وفى عام ١٩٤٤، وأثناء أول إجازة لديفيد بعد الحرب، تم زواجنا وسط تساقط القنابل من الطائرات. وبعد غزو فرنسا، وعلى وشك انتهاء خطر الفواصات، سمح لنا بالسفر سوياً إلى السودان عن طريق البحر. وصلنا إلى بورتسودان فى أكتوبر بعد رحلة، ضمن قافلة بطيئة، استغرقت خمسة أسابيع، وفى سفينة شحن أجريت عليها بعض التعديلات لتصبح سفينة ركاب. تم إيجاد وظيفة لى كأمينة مكتبة وكاتبة مراسلات سرية بمزرعة أبحاث الجزيرة، وخصص لنا منزل فى ود مدنى، وهى مدينة جميلة تقع على النيل الأزرق، وبها كنيسة صغيرة، ونادٍ للجالية البريطانية التى كانت كبيرة نسبياً، حيث بلغ عدد أفرادها حوالى المائة موزعين على وظائف حكومية، أو أعضاء فى الشركة الزراعية السودانية (لزراعة القطن)، بالإضافة إلى قسمين، وبعض المشتغلين بالتجارة. كان مدير المديرية، وموظفو الخدمة السياسية يستبدلون كل بضعة سنوات، أما موظفو مزرعة الأبحاث، والمسئولون بمصلحة الري، والشركة الزراعية، فكانوا شبه مستديمين، وبالتالي أكثر استقراراً.

كان المناخ الاستوائي المتهب، بطبيعة الحال، يملئ علينا أسلوب حياتنا، إذ كان العمل يبدأ في السادسة والنصف صباحاً، وينتهي عند الثانية والنصف بعد الظهر، وتليه وجبة غداء سريعة، ثم قيلولة بعد الظهر، فبعض التمارين الرياضية في شكل سباحة، أو لعب (التنس)، أو العمل في الحديقة، أو ركوب الخيل (رياضة البولو للبعض). وعندما يحل الظلام في حوالى السادسة مساءً، وبعد الاستحمام، وارتداء ملابس المساء: للرجال، قميص أبيض وحزام أسود، وينتظرون أبيض أو أسود. وللصيدات، فستان طويل، يفضل أن يكون من القطن، بحيث يغطي جزئياً فقط حذاء البموز الذى يصل طوله إلى الفخذين. وعندما يكون الطقس بارداً كنا نجلس لمدة ساعة أو ساعتين في الفرنجة المحمية بشبكة سلكية (النملية)، وغالباً ما يكون ذلك بمعية بعض الأصدقاء. ثم نتناول طعام المشاء الذى كان يطبخ بمستوى جيد، ويتولى الخدم تقديمه إلينا بالطريقة الرسمية، وفي حوالى الساعة العاشرة مساء نذهب إلى النوم على السطوح داخل الناموسيات.

لقد تأقلمت بسهولة على هذه الحياة، ذلك أننى سبق أن عشت حياة مماثلة في الهند. وبما أننى كنت خالية من أية أعباء منزلية، فقد كنت أشغل وقتى في توافق تام، وأصبحت فيما بعد سكرتيرة لجمعية الكنيسة المحلية، وجمعية المرأة الناطقة باللغة الإنجليزية التى كانت قد بدأتها 'دوتس' بريدين (Dots Bredin) زوجة مدير المديرية. كانت هذه الجمعية أشبه بمعهد نسائى في طور التكوين، وكنا في كل شتاء نقوم بمقد عدد من الاجتماعات في حدائق بعضنا البعض، ونمارس خلالها التمثيل، والألعاب، وتتجاذب أطراف الحديث أثناء تناول الشاي. لقد ساعد هذا الجهد المتواضع عند بداية الاستقلال حيث أدى هذا التعارف الشخصى بين الزوجات السودانيات والبريطانيات وبعض نساء التجار، إلى خلق جو من الود والصداقة في تلك الظروف الصعبة.

بعد عامين تم إعزائي من وظيفتي في مزرعة الأبحاث، وأصبح بإمكانى فى النهاية أن أذهب مع ديفيد فى جولاته. كنا فى شمال السودان نساخر بالقطار أو اللوارى، ونبقى فى الجولة لمدة أسبوع أو أسبوعين حيث نحل ضيوفاً على الزملاء، أو نقيم فى استراحات الحكومة المزودة بقطع من الأثاث الأساسى، وبإمداد جيد للماء، مع (النمليات) والناموسيات، والخدم الأكفاء. غير أن الوضع كان يختلف تماماً فى جنوب السودان، ولذلك سوف تركز هذه الحكاية على تجربتنا هناك.

بدأت رحلتنا إلى الجنوب على ظهر إحدى بواخر النيل الأبيض التى تسيرها سكك حديد السودان كل أسبوعين من كوستى إلى جوبا - اثنا عشر يوماً ضد التيار، وثمانية أيام مع التيار. كان النهر ضحلاً مع قناة صالحة للملاحة بصورة متغيرة بقيادة ريان سودانى يرافقه فى العادة مهندس اسكتلندى يتولى مسئولية كافة الأشياء الأخرى. كانت هذه البواخر مزودة بمجالات تجديد فى مؤخرتها تقذف بصورة مستمرة ما يشبه الذيل الملون القنذر. وفى أغلب المنعطفات الممتدة أسفل النهر، كان يتم توجيه الباخرة لثرتعلم عمداً بإحدى الضفتين، ثم يدفعها التيار حول المنعطف، مما يؤدى أحياناً إلى أعطال بسيطة، وتحطيم لأوانى الصينى وهكذا. وتربط على جانبي الباخرة ومؤخرتها صنادل لحمل البضائع والركاب الذين هم أضعف حالاً من أولئك المسافرين على (كابينات) الباخرة الاثنى عشر، وتساعد هذه الصنادل على تثبيت الباخرة التى مع ضحالة غاطسها كما هو مطلوب يمكن أن تتقلب فى الماء.

كان المنظر بأكمله شبيهاً بقرية عائمة. لم أكن أعرف عن ماذا كان ديفيد يتحدث عندما أشار بأن الباخرة تنتظرنا فى كوستى. لقد قمت بهذه الرحلة ثمانية مرات، ولكن لم تكن اثنتان منها متشابهتين. كان الموسم هو الذى يحدد نوع الحياة البرية التى يمكن مشاهدتها على ضفتى النيل مع تنوع المسافرين.

كان هناك الكثير من الرسميين ورجال الإرساليات الذين يستغلون الباخرة في نزحات ترويحية قصيرة، ويختفون أحياناً في أماكن غير مأهولة، كما كان هناك نوع من الصواح يأتون من وقت إلى آخر، إلى جانب بعض الأشخاص الغربيين الذين كانوا يأتون إلى أفريقيا بحثاً عن حياة جديدة بعد انتهاء الحرب. كانت لعبة (البريدج) مفيدة لتزجية الوقت، حيث يتم تكوين ربايعات مرحة متعددة اللغات، بالإضافة إلى أخرى أعلى من مستوانا بكثير مع الزملاء الحكوميين.

كان لدينا كمية كبيرة من الأمتعة (انظر الملحق في نهاية هذه الحكاية) فقد كان ديفيد يحتاج إلى مجاهر، وطلولات للعمل، وبعض المعدات الأخرى. كذلك كان علينا أن نحمل معنا فراشنا، وحمام المشمع، والناموسيات، وأواني المطبخ، وبعض قطع الأثاث الضرورية. وإلى جانب ملابس العمل اليومية - القميص الكاكي والبنطلون القصير لديفيد، والفستان القطنى الخشن (أو ما كان يسميه ديفيد بمريلة لعب الأطفال) الذى كنت أرثديه أنا - كان يجب أن تكون معنا بعض الملابس المحترمة التى نقابل بها زملائنا فى رئاسة المديرية، أو فى المراكز، الذين عندما يكونون داخل بيوتهم يمشون بنفس طريقتنا عندما كنا فى ود مدنى. كان يرافقنا فى السفرية خادمان، واثان من هنبى المختبر، ولكنهم كانوا ضمن ركاب الصنادل، وقد حملوا معهم أيضاً أمتعتهم بما فيها أسرتهم، وتم فيما بعد شحن كل هذا العفش على ظهر ذلك اللورى البدفوردي حمولة ثلاثة طن الذى أقلنا من جوبا.

كما، إذا لم نمكن مع زملائنا أو نستلف منازلهم عندما يكونون فى إجازة، نقيم لمدة أسابيع بأكملها فى الاستراحات الحكومية المكونة من سقف مرتفع من القش ليحمى حوائط الطين المنخفضة التى تتألف منها الاستراحة. كان ارتفاع هذه الحوائط حوالى ثلاثة أقدام فيما عدا قسم منفصل أكثر ارتفاعاً

يستخدم للاستحمام وتغيير الملابس. لقد كانت حياة شبيهة بالإقامة في معسكر خلوى. كنا كتوع من البذخ ننعم بشيء من الرفاهية يتمثل في ناموسية من الشاش في شكل غرفة مضادة للباعوض تتدلى من السقف ونستخدمها عند النوم وعندما نتناول الطعام، وكانت تحمينا أيضاً من تلك الوطواط الصغيرة بلونها البنى والأبيض التي كانت معلقة على العارضة الخشبية للسقف خوفاً من أن تسقط على طبق الشورية أثناء تناولنا لوجباتنا. كذلك من بين وسائل الترف الأخرى كنا نضع على الأرضية بساطاً أو اثنين من النوع الخشن الذي سرعان ما يتحول إلى كتلة من الطين حالما ابتل بالماء.

كان طبّاخنا يصنع لنا المجائب مستخدماً (وابور الجاز)، وصينية، وسطح حديدي، ومشواة، وعلبة بسكويت فارغة كفرن. غير أننا كنا نواجه بعض الصعوبات في التزود بالمؤن، خاصة اللحوم في مناطق ذبابة التمسى تسي، والخضروات الطازجة. ولذلك كنا نحمل معنا الأطعمة المعلبة المركزة، أو الفواكه والخضروات المجففة، إذ لا شيء غيرها يمكن الاحتفاظ به لأكثر من يوم واحد. وكان ديفيد في بعض الأحيان يصطاد بعض دجاج الوادي المعروف بلحمه اللذيذ، وكنت أقوم بزراعة الخردل والرشاد إذا مكثنا في مكان لأكثر من أسبوع. وكان الخدم والموظفون يحصلون على احتياجاتهم في الأسواق المحلية، ويربون الدجاج الذي كانوا ينزلونه ليلتقط الحب في كل مكان نتوقف فيه، وكانوا أحياناً يحصلون منه على البيض الذي مع أنه كان عسير المضغ ولكن بالرغم من ذلك كان من بين وجباتنا الممتعة. أما إذا توقعنا لقاء مع بعض الزملاء، فنحن نشترى خروفاً أو تيمساً نحمله معنا وننظمه إلى أن يحين وقت الحاجة إليه. وكانت ذروة كرم الضيافة تتجلى حينما نقوم بإعداد وجبة للجميع بمن في ذلك الموظفين، حيث يؤكل الطعام بأكمله مرة واحدة مثلاً يحدث في مأدبة عيد الفصح. إن الشمبانزا مع ألد الأطعمة ما كان يمكن أن توفر لنا وضيوفنا أكثر من ذلك الجو الملىء بالمرح والسرور.

كان الكثير من عمل ديفيد يشتمل على جمع، وفحص، وتصنيف الحشرات التى يحتمل أن تكون ناقلة للأمراض، وكان عليه أن يستفيد من ضوء النهار القصير. وحيث أننا لم تكن نستمتع بقبولة بعد الظهر، فكنا نتشوق إلى النوم فى حوالى الثامنة مساءً، ولكن كما تفضل البقاء مستيقظين إلى وقت متأخر حتى ننام جيداً طوال ما تبقى من الليل. كانت معنا بعض الكتب من بينها (الأعمال الكاملة لشكسبير) التى قرأناها خطية بالنتاب، وكنا نفاجئ بعضنا بقراءة بعض المقاطع البالغة البذاءة التى ربما تكون قد حذفت من المقرر الدراسى. وبما أنه لم تكن لى معرفة بمادة العلوم، فكنت نادراً ما أساعد فى أعمال المختبر، ونظراً لرداءة المناخ، وتأثيره على كل شيء، فكان على القيام دوماً بتصليح الملابس والمعدات أو اختراع بدائل لها.

بعد أيام قلائل، ونحن على بعد أسبالي من المستشفيات والأطباء، أصبحت لدينا شفخانة بدائية. كانت معرفتى القليلة بالإسماقات الأولية، وبعض المعلومات عن التمريض المنزلى العالقة فى ذاكرتى منذ أيام جمعيات المرشدات والصليب الأحمر، مع بعض الأدوية البسيطة لعلاج الإسهال أو العكس، والصداع، والتقيحات الناجمة عن طعنات الشوك، وبمساعدة الحظ، قد أفادتنا كثيراً فى مواجهة معظم هذه الحالات. أما الحالات السيئة فكنا نقوم بتحويلها إلى المستشفى، أو نكمن لطبيب فى جولة لنعرضها عليه. كانت معرفتى بالنواحى العلمية محدودة جداً إلا فيما يخصنى مباشرة.

شرحت لديفيد كيف يمكن ضرب الذبابة المنزلية من الخلف، لأنها فى العادة تعلق متجهة إلى الخلف، ولكن لم يكن مسموحاً لى فى الأيام العادية أن أضرب أى شيء. أما أنواع الحشرات الجديدة أو غير المألوفة التى قد تظهر فى أى مكان، فكنت قد تلقيت تدريباً جيداً على كيفية التعامل معها، فإذا لسعتى حشرة فى الجزء الأسفل من جسمى عند النوم، كنت أغطيها بيدي وأصرخ منادية ديفيد الذى بدوره يقوم بوضعها فى أنبوبة اختبار ثم يرفعها إلى

الضوء ويقول: "عجباً، إنها من النوع الذى يمتص النبات؛ كان الأفضل لها أن تحل على نبتة دون أن يقول شيئاً عن كونها قد ضلّت طريقها معتبرة أننى زهرة جميلة أو أى شيء من هذا القبيل. وهكذا تصبح الضحية عينة، وينتهى بها المطاف فى متحف التاريخ الطبيعى وعليها ديباجة تقول: (وُجِدت وهى تلسع "رجلاً" (Found biting "Man") والرجل فى السودان هو العنصر المسيطر بلا جدال!!

كانت أغلب جولات ديفيد إلى جنوب السودان فى زمنى تتعلق بالذبابة الذلفاء (أو السوداء) التى تنقل داء كلابيات الذنب، وكان هذا المرض ينتشر بالقرب من الأنهار سريمة الجريان التى كانت قليلة هناك، ويسبب للناس تماسة شديدة. وكانت لسعة هذه الذبابة مؤلمة جداً لمن يرتدون القليل من الملابس ويقضون كل اليوم خارج المنازل، كما أنها قد تودع فى جسم الإنسان بعض الطفيليات التى تستمر فى التكاثر، مما يسبب حكة وأضرار جلدية تؤدى إلى الإصابة بالمرض، ولربما فى حالات وأماكن معينة إلى مرض (عمى الأنهار). وبما أن الذباب الأسود يطير بسرعة وبمبدأ عن أماكن توالده الأصلية، فلا اعتقد أن أبحاث ديفيد وغيره من العلماء فى مختلف الدول قد توصلت إلى أية تدابير للسيطرة عليه. لقد ذهبنا إلى أماكن المياه الجارية التى يمكن أن تكون موطناً للطيور والأزهار الجميلة، وهناك كنا نقى أنفسنا بارتداء البناتالين والأكمام الطويلة، ونمسح الأجزاء المكشوفة من أجسادنا بدهان طارد للحشرات، وفى المادة كان البعوض والذباب الرملى أكثر ما يزعجنا فى الليل، أما الذباب الأسود (الأذلف) والتسمى تسمى، فكان يقوم بأداء خدمة اللسع طوال الأربع وعشرين ساعة)

كانت أول جولة لى فى الجنوب من أشق الجولات التى قمت بها أبداً، فقد سلكنا ذلك الطريق الوعر المشهور المؤدى من واو إلى راجا التى تقع بالقرب من حدود أفريقيا الاستوائية والذى يعبر العديد من الأنهار، بعضها موسمى

شيدت عليه جسور كانت تنهار أحياناً. كان لورى (الغورد) الذى أفلنا يفعل بنا أشياء أوكد أنها لم تكن تدور فى خلد من قاموا بصناعته، منها أنه يستطيع أن يسير فى اتجاه لا يوجد به أى طريق، أو يزحف داخلاً وخارجاً من الخيران الجافة. كان أغلب السكان المحليين التمساء من بقايا تلك القبائل التى عانت كثيراً من تجارة الرقيق فى القرن الماضى، وكان يتقصها التنظيم الذى مكن زعماء القبائل فى الأماكن الأخرى من المحافظة على مواردهم الطبيعية. وبالرغم من أنه كانت هناك بعثة إرسالية من القساوسة الإيطاليين تقدم لهم بعض الخدمات، إلا أنهم كانوا فى مثل فقر القوم الذين جاءوا لخدمتهم. وصلنا إلى راجا على أى حال، وعدنا منها ونحن فى أسوأ حالة من التعب والإعياء، ولكن انتهى بنا الأمر بالإقامة مع مفتش المركز الكريم المضيف. وعندما غادرنا وابتمد بنا اللورى مسافة، صاح فينا المفتش قائلاً: "إحذروا الفيلة"، فتوقفنا وطلبنا منه أن يشرح لنا ما كان يقصد، فأوضح لنا أن الأفيل فى بعض الأوقات تغير أماكن شربها، وتتجه إلى (نيام ليل) وهى البلدة التى كنا نقصدها، ولكنه أضاف بارتياح أنها لن تصل إلى هناك قبل أسبوعين، ثم قال: "تسلقوا الشجر، وسوف ترون المسامير". كان هذا هو أول شيء بدأنا البحث عنه عندما وصلنا، وبالفعل وجدنا سلباً من المسامير التى دقت على جذع شجرة، ومع أن تسلق هذا السلم كان يبدو صعباً، لكن من المؤكد أننا كنا سنقدر عليه إذا لزم الأمر.

كانت تحكى فى السودان الكثير من القصص عن الرجال الذين قاموا بإمداد أسلاك التلغراف عبر الغابات التى لم يعرقها أحد من قبل، والذين لم يصدقوا فيما بعد ما كانوا يتسلقونه للنجاة من حيواناتها المفترسة. كانت الحيوانات فى العادة تحرم على تجنبنا، كما كنا أيضاً نبتعد عن طريقها، والمرة الوحيدة التى اضطررنا فيها لبناء (زريبة) من الأشواك كانت بالليل فى مكان موحش يسمى (كبيوتا)، وذلك لنحمى أنفسنا من الضباع. أما فى نيام ليل، فكانت الأحوال هادئة، فيما عدا بعض القروء التى كانت تتحرك من أكواخ

الاستراحة وهي تثرثر، بينما كنا نجلس على ضفة نهر جميلة، وكان أحد طيور (الرفراف) المملاقة يلونه البنى، وهو الوحيد الذى رأيته فى حياتى، يفوص باستمرار بحثاً عن سمكة يقتات بها. لقد استطاع الطباخ أن يعد لنا بمعجزة وجبة عشاء طيبة من ما تبقى لدينا من مؤن، حيث احتفلنا فى تلك الليلة بعيد ميلادى ونحن نحتسى آخر كأس تبقى لنا من زجاجة الجن.

هناك حدث عارض جعلنى أشعر بجهلى العميق لعملى الطبى الجانبى. كنا ذات يوم نسير بالمرية فى منطقة الزاندى بالاستوائية، ومررنا برجل صغير الحجم يحمل عل ظهره رجلاً آخر أكبر منه حجماً بكثير. وعندما توقفنا رأينا الرجل الكبير ملطخاً بالدم بينما كان الرجل الآخر يحمله فى الطريق إلى المستشفى. كان الرجل مصاباً بجرح عميق بالقرب من الشريان الفخذى، مع خدش عميق يمتد من أربية الفخذ إلى الكتف. لذلك حملناه معنا على العربة، وطلبنا من مرافقينا أن يمنعوه من الحركة والكلام. ياله كان من أمل! لقد علمنا من خلال ما كان يدور من حديث صاخب أن الرجل كان ذاهباً إلى المستشفى بشكوى بسيطة، وفى الطريق فكر فى تناول بعض الفاكهة، ففرز رمعه فى الأرض تحت شجرة الفاكهة ثم سقط عليه. وحيث أنه كانت للزاندى طقوس دينية تستلزم ذبح دجاجة وفحص أممائها للتكهن بأسباب المرض، فقد كان المريض يحمل معه دجاجة لهذا الغرض. غير أن نقله إلى المستشفى الذى تم بهذه الطريقة الفخمة جعله يفكر فى حيلة ينتفع بها بأى حال من الأحوال، ولذلك قرر أن يبيع لنا الدجاجة ودخل معنا فى مساومة استغرقت وقتاً طويلاً. وصلنا إلى المستشفى بعد الظهر، ووجدنا الجميع نائمين، فأبقظنا بعضهم، وطلبنا منهم إحضار نقالة. حملوا المريض على النقالة، ولكنهم اسقطوها فوراً، وأخذوا يضعكون بصوت عال لم أسمع مثله من قبل، والمعجب فى الأمر أن مريضنا كان يشاركهم الضحك بحماس شديد. أدت راسى من فرط اليأس، ولكن لم يكن هناك ما يدعو إلى القلق، ذلك أن بيتر أبوت،

الطبيب المسئول عن المستشفى، قرر أن الرجل بحالة صحية جيدة حيث غادر المستشفى بعد أيام قلائل. (أما نحن فوجدنا أننا قد اشترينا الدجاجة!).

لا جدال أن روح المرح والدعابة لدى السودانيين كانت تتسم بنوع من الفجاجة، ولكنى سأظل أذكر ببألغ القبضة والسرور ما كنت أسمعه حولى من الضحكات المدوية. كانت تحدث بعض الإخفاقات المنزلية القريبة والمدهشة، خاصة إذا قام المرء بمجهود اجتماعي غير عادى. لم نعد نهتم بما يحدث من تصرفات كإحضار فطيرة مع بطاطس مهروس ملون بالقرمز، فقد تعلمنا أنه لا بد من حدوث مثل هذا الارتباك إذا ما أريد لأى حفل أن يستمر، ولا بد أن يأتى اليوم الذى سنعود فيه إلى وطننا فتتسمى كل تلك الزلات السلوكية. وفى هذا الأثناء فإن الضحكات الصادقة بكل ما فيها من شفاء للنفوس لن تجد من التقدير والعرفان بأكثر مما لقيته منا فى السودان.

أذكر أننى فى إحدى المرات قد أصبت برعب مطبق، واعتقد أن ديفيد قد شاركنى فى ذلك أيضاً. كنا فى مدينة طمبيرة ننزل فى إحدى استراحات الغابة من النوع الذى وصفته آنفاً. وبينما كنا نتناول بعض المشروبات فى المساء حول المصباح، إذا بنا نسمع صوت انزلاق ثم هدير خافت. نظرنا إلى بعضنا ولكن دون أن نطلق بكلمة، حيث اتضح فيما بعد أن كلاً منا كان لديه نفس الاعتقاد بأنه يوجد فهد على السطح يرانا ولا نراه. أطلقاً ديفيد المصباح، وأحضر بندقيته التى رغم أنها كانت من عيار ٢٢.٠، إلا أن تأثيرها كان مخيفاً. جلسنا نسترق السمع، فجاءنا صوت الانزلاق والهدير مرة أخرى. بدأت أتصيب عرقاً وأنا ملتصقة بالمكان الذى كنت أجلس فيه، وقد شلّنى الخوف والرعب تماماً. ثم سمعنا صوت هدير آخر، ولكن فى هذه المرة كان يبدو مختلفاً. تكلمنا إلى بعضنا لأول مرة منذ أن بدأنا نسمع الصوت مما شجعنا للبحث عن مصدره. كان مشمع الاستحمام مسنداً على الجدار ليحف، ولكنه بدأ ينزلق عدة بوصات إلى الأسفل. مصدراً ذلك (الهدير). لم ينتابنى فى حياتى مثل ذلك الشعور

بالارتياح، ليس لأن الخطر كان مجرد خيال فحسب، وإنما كيف كانت ستبدو القصة فيما لو أطلق ديفيد رصاصه من بندقيته؟ إن القصص في السودان تعيش طويلاً، ولذلك كنا سنظل إلى الأبد (أولئك الناس الذين استبد بهم الخوف فاطلقوا النار على "حماهم" معتقدين أنه فهدا).

عندما جاء الاستقلال في عام ١٩٥٥، ذهب ديفيد أولاً إلى سيراليون لبضعة أشهر قضاها لوحده في الجزء الداخلي من البلاد لأنه لم يجد سكناً لى. كانت شركة للحديد تنقب هناك، وطلبت من معهد روس (Ross Institute) إجراء دراسة لبحث إمكانية وجود أى نوع من أمراض المناطق الحارة التي تنقلها الحشرات في نطاق المنطقة الصغيرة التي تم التنقيب فيها. لم يكن هناك طريق معبد إلى الداخل، ولذلك كان عليه أن يذهب مسافة اثني عشر ميلاً سيراً على الأقدام حتى يصل إلى القاعدة. كنت أخشى عليه أن يتوه أثناء إجرائه لأبحاثه، ولذلك أعطيته بوصلة، ولكنه لم يستفد منها لوجود كميات كبيرة من الحديد في المنطقة. غير أنه عاد من هناك بسلام، وتم تعيينه في وظيفة مستديمة لدى مجلس البحوث الطبية لينضم إلى المجموعات التي كانت تعمل في جميع أنحاء المناطق الحارة بالعالم، كما كان أحياناً يعمل بالإعارة لدى منظمة الصحة العالمية.

كان مركزنا في لندن، حيث منح ديفيد تسهيلات للعمل في متحف التاريخ الطبيعي. كنت أذهب معه، متى ما تيسر لى ذلك، إلى الأماكن الساحرة في كل من الهند، وإيران، وماليزيا، وأمريكا الجنوبية والوسطى، وبعض الأجزاء في أفريقيا، وإلى بعض المدن مثل نيويورك، وواشنطن، وكامبيرا، وجنيف، ومونتوبيليه لحضور بعض المؤتمرات. وكان آخر عمل قام به خارج البلاد في بورنيو مع فريق من مجلس البحوث الطبية لفحص طفيليات الملاريا لدى نوع من القرود من الفصيلة العليا التي يحتمل أن تساعد في تشخيص الأمراض البشرية. غير أنه بالنسبة لكليتنا معاً، لم نجد مكاناً أفضل من السودان، حيث

كان لدى ديفيد فريقه الخاص الذي ارتبط به من خلال علاقة طويلة. لقد  
افتقدنا صداقة ورفقة العمل في حكومة السودان، ذلك المجتمع الذي ربما تم  
اختيار أفراد بعناية فائقة، ووفقاً لقناعاتهم الذاتية، ولذلك جاء متجانساً  
روحاً وطبعاً. كذلك افتقدنا المساعدين السودانيين الذين كانوا يعملون معنا  
بروح الفريق، والذين كنا نعرفهم معرفة جيدة، ولا أظن أننا كنا الوحيدين  
الذين نعتقد أن السنوات التي قضيناها في السودان كانت من أفضل سنوات  
حياتنا.

ليزلى لويس (Lesley Lewis)



## ملحق

### نسخة من القائمة التوكنت استخدمها انما لتجميع ما نحتاجه منه القيام بجولة

أسرة خلوية - أنية فخارية واكواب زجاجية - ويسكى - مراتب - ملاعق  
وسكاكين وشوك - جن - ناموسيات مع أعوادها - فوطة طاولة - غرفة بموض -  
أغطية وقاية من الذباب - عصير ليمون - حمام مشمع - زمزميات - آلة تصوير  
وأفلام - بشاكير وممسحة أرجل - جردل مشمع - مخدات - صابون - حبل -  
نظارات سوداء - طاولات قابلة للطي - تلك ماء - صندوق إسعافات أولية -  
كراسن - مطرقة ومسامير - مضرب ذباب - حصير - بطاطس - فليت - علاقات  
ملابس - دقيق - أحذية بموض - صينية - أرز - ورق تواليت - رتينة بتروماكس مع  
قطع الفيار - شاي - ورق للكتابة - سكر - أقلام وحبر - مصابيح هوريكين - ملح  
وفلفل وخردل - ناع أحذية - شمع - زبدة معلبة - كتشنينة - طورشي وحجارة  
بطارية - حليب معلب - كتب - وأبور جاز وإبرة - دقيق ذرة شامى - نشاء - بكرة  
خيطة - سبيرتو - مسحوق كرى - أمتعة شخصية - جاز - فواكه مجففة ويسلة  
وعدس - أدوات مكتبية - كبريت - بصل - سجائر - فاس - فواكه معلبة - حلويات -  
عدة مطبخ حسب ذوق الطباخ - مرية ومرمليد - مجهر ومبرائح وإبرة - مكواة  
وقطعة قماش لكى الملابس - لحم بقرى مملح - خذاء للوحل.

••

21

---

حكاية

الحفيـدة

---

*Sudan Canterbury Tales*

## حائلية

نُشرت الحكاية التالية في صحيفة الاسبيكتاتور الصادرة بتاريخ ٢١ سبتمبر ١٩٩٧، وقد كتبها لوسيندا بريدن Lucinda Bredin حفيدة جورج ودوتس بريدن. ذهب جورج بريدن إلى السودان بعد تخرجه من كلية أوريل (Oriol College) بجامعة أوكسفورد في عام ١٩٢٢ بعد نهاية الحرب العالمية الأولى التي التحق خلالها بسلاح المهندسين الملكي، وفي السودان عمل بمديريات النيل الأبيض، وكردفان، ودارفور قبل أن يصبح مديراً لمديرية النيل الأزرق من عام ١٩٤١ إلى عام ١٩٤٨. وبعد أن تقاعد من السودان عمل مسجلاً لكلية بمبروك (Pembroke College) بأوكسفورد حتى وفاته في عام ١٩٨٢ التي حدثت فور إلقائه خطاباً رائماً أمام حفل عشاء بالكلية. أما زوجته دوتس، فقد وصفها ابنها هيو (Hugh) في خطابه التذكاري الذي ألقاه في أغسطس عام ١٩٩٧ بأنها "غريبة الأطوار حقاً". رافقت زوجها طوال فترة عمله بالسودان، وكانت شريكه حياته في رئاسات المراكز، والمديريات، وفي الخرطوم.

ولدت دوتس في جالفستون بولاية تكساس، وكان والدها توماس إليمسون Thomas Ellison يعمل في بورصة القطن بمدينة ليفريول، ويتنقل في شكل ممثل بين جالفستون، ونيويورك، وليفريول، ولكن سرعان ما ارتحلت عائلة إليمسون إلى ويست كيربي (West Kirby) بمقاطعة ويرال (Wirral) وفي مدرسة (وايكومب أبي Wycombe Abbey) نجحت دوتس في بناء العديد من

الصداقات السريعة، وبصفة خاصة مع فتاة خجولة ذكية هادئة الطبع تسمى إيلين بريدين Eileen Bredin. كانت دوتس بطلة في لعبة (اللكروس)، وهي التي سببت حرجاً لناظرة المدرسة، من وايتهايد، (Miss Whitehead) عندما كانت تقطع شريحة جمدة من لحم الخنزير مما تسبب في طهران نصفها ليستقل في طبق رئيس مجلس العموم، الشخصية المشهورة التي دعته المدرسة لحضور حفل اختتام الفترة الدراسية.

في عام ١٩١٤ استسلمت وايكومب لظروف الحرب، فأتجهت دوتس وابنة عمها هيلين إلى تلقى دروس في قيادة السيارات وصيانتها، بما في ذلك فك وربط (الكاربوريتر) وهي مهارة لا أحد يذكر أن دوتس كانت تمارسها في أواخر عمرها، بل بالعكس كانت علاقتها بأي شيء آلى يشوبها نوع من التوتر إن لم نقل المقاومة، فكانت سحابة البن مثلاً تبطل في العمل إلى أن تعطلت تماماً، وكان جهاز نقل السرعة في السيارة يصرخ طالباً الرحمة، وغصالة الأواني الهالكة تسحق صحنون الصينى وتحولها إلى شظايا صغيرة. كانت الحرب، بالنسبة لدوتس، تعنى من بين أشياء أخرى كثيرة، قيادة سيارة أحد أطباء ليفربول، أثناء مروره على مرضاه، وانقزاع قطع خيوط طويلة من رغيف ذى نوعية رديئة، وفوق ذلك كله قلق شديد على شقيقها فرويز (Froize) الحاصل على النيشان العسكري في الجبهة الغربية.

بالرغم من رداءة المناخ في السودان، وما ينتشر فيه من أمراض ، خاصة الملاريا، التي أصابت كل من عمل هناك تقريباً، إلا أن طول العمر كان هو السمة البارزة لعدد مدهش من الأشخاص الذين قضوا فترة طويلة من حياتهم هناك، وكانت دوتس بريدين واحدة من مجموعة أشخاص تجاوزوا المائة من العمر.



## حكاية الحفيدة

عندما اقترب العيد المثلوى لميلاد جدتى، أصبح مثار أهمية قصوى أثناء محادثة مع والدى الذى قال لى: "أقد وضعت جدولاً زمنياً يغطى خمسة وأربعين شخصاً موزعين على ثلاثة أيام، بحيث يسمح لكل منهم بقضاء ساعتين معها، ثم يتمين عليهم أن يغادروا بعد ذلك". كانت جدتى تعيش لوحدها فى الريف، وهى من النوع الذى لا يحب الحفلات، خاصة إذا تعارضت مع مواعيد سباق الخيل، ولكن نسبة إلى اقتراب عيد ميلادها المثلوى، فكان لا بد من عمل شيء ما.

تلى ذلك مناقشات لا نهاية لها: حول الطعام، والمدعوين، والتوقيت، وباقات الورد، "ثم هناك البرقية"، قال الوالد، "البرقية الرسمية من الملكة". "البرقية؟"، سألت الوالد لاهثة. كان البريد يأتينا بتهانى عيد ميلاد غير مرغوب فيها من ماكدونالدز، وريدرز دايجست، ومن أحد الفنادق باليونان له اسم مرعب، وكنا نفترض أن القصر يُعطى نسخة من تهانى الميلاد المثلوى التى تقوم بإعدادها دار سانت كاترين. آه، ليس ذلك صحيحاً، قال أبى، ثم أضاف: "فى الواقع أنتى للتو اتصلت هاتفياً بالمكتب الصحفى للملكة".

جاء اهتمام والدى بمشكلة البرقية بعد أن نبهته إلى ذلك ابنة عمه التى سبق أن طلبت برقية مماثلة لوالدتها، العممة (دوت) التى يناهز عمرها الآن ١٠٢ سنة حيث قالت للوالد بفرور: "طلبنا البرقية بواسطة اللورد الملازم الأول قبل ثلاثة أشهر. كان ذلك قبل ثلاث سنوات، ولكن يبدو أن الإجراءات قد تغيرت الآن". لذلك نُصح الوالد بالاتصال بمكتب الاحتفالات السنوية بقصر بكجهام، وهناك أكدوا له ضرورة أن يطلب (رسالة تلفرافية)، وكان بإمكاننا أن نطلبها بواسطة هذا المكتب، ولكنهم طلبوا أن يصلهم إخطار قبل ثلاثة أسابيع، كما طلبوا نسخة من شهادة الميلاد. غير أن الإجراء الصحيح هو تقديم الطلب

بواسطة وزارة الضمان الاجتماعى لأن كافة المعلومات موجودة لديهم فى ملفاتهم، ولا بد من قيام مكتب الإعانات المحلى بإجراء مقابلة مع (المعمرة) للتأكد من رغبتها فى إرسال برقية لها".

يبدو أن هذه الإيماءة العفوية قد تلاشت بأسرع من حافظة استثمارية مودعة لدى بنك مورجان جرينفيل. ثم كانت هناك مشكلة أخرى. كان لجذتى موقف ربما يكون تقليدياً، بصفتها أرملة لمدير مديرية كان يعمل فى مستعمرة أفريقية، تجاه بعض الكلمات مثل "الإعانات" و"الضمان الاجتماعى". وقد طرأت فى الواقع حادثة مع وزارة الضمان الاجتماعى عندما عرضت عليها خدماتها بتقديم بعض المساعدات المنزلية، فقد عالجت هذا الأمر بطريقة غير مهذبة عندما أعلنت لهم عبر الباب الذى كان مفتوحاً أنها لا تريد أن يأتى أحد من المجلس ليحشر نفسه فى شؤونها الخاصة. كان كل ذلك واضحاً فى ذهن الوالد، ولكن كيف يستطيع مندوب المجلس دخول المنزل، ناهيك عن أن يعرف ما إذا كانت ترغب فى البرقية أم لا؟ قال الوالد بنبرة استسلامية: "ستقول لا ... إنها تقول لا لجميع الأشياء الأخرى".

لقد أبدت السيدة التى كانت تعمل بالفرع المحلى لوزارة الضمان الاجتماعى - كان بيتر ليلي (Peter Lilley) وزير دولة بهذه الوزارة بمقر الحكومة فى وايت هول - تعاطفها تجاه الموضوع قائلة: "نحن نتفهم المشكلة. إن كبار السن لا يبالون بالقانون، ولكن للأسف لا بد من إجراء المقابلة مع السيدة المجوز لأجل ... مراجعة أوراقها الثبوتية، وأخشى أننا بحاجة إلى دليل. كانت هناك حالات سابقة .." قالتها وهى تتمتم، ثم أضافت: "والشئ الآخر أننا يجب أن نسالها عما إذا كانت تريد البرقية، خاصة أن كبار السن قد يخدعوك فيما يتعلق بأعمارهم". وهكذا اتضح أنه لا مجال لأن تكون البرقية مفاجأة.

كانت المرة الأولى التي علمت فيها أن وزارة الضمان الاجتماعي قد قامت بزيارة جدتي عندما اتصلت جدتي بنا هاتفياً. كان صوتها يدل على أنها غير مسرورة عندما قالت: "جاء رجل من المجلس يطلب الكثير من الأشياء، ولم أجد منها أى شيء. إتنى مشوشة الذهن". لقد سمعت له جدتي بالدخول، ولكنها مع الأسف لم تكن تلبس سماعة الأذن، ولذلك فإن التشاور المسبق بشأن البرقية قد تلقته في الواقع أذان صماء. تقابلنا مع مندوب الضمان الاجتماعي في زيارته الثانية. كان رجلاً ضخماً من يوركشير يحمل حقيبة أوراق منتفخة تبدو كأنها تحتوي على (سندوتشات) بائنة. ابتدونا بالحديث قائلاً: "هناك معضلة؛ ليس لوالدتك شهادة ميلاد". أردنا أن نقول له: "طبعاً ليس لديها شهادة ميلاد وهي في عمر المئة". من يستطيع أن يحتفظ بقطعة من الورق قد كتبت عندما كانت الملكة فكتوريا لا تزال على المرش؟ ثم كانت هناك معضلة أخرى أشد وأكبر، فلقد شاء القدر أن تولد جدتي في جالفستون بتكساس، ومعنى ذلك أننا لا نستطيع حتى أن نهرع إلى مكتب السجلات لنستخرج لها شهادة ميلاد جديدة.

وهكذا بدأت البرقية تسبب لنا مشاكل أكثر بكثير من أى شيء أرسله زيمرمان<sup>(١)</sup> (Zimmermann)، ولكن مندوب الضمان الاجتماعي تدخل في الحديث وقال ببساطة: "انظروا؛ يمكن أن نكتفى بجواز السفر، أو شهادة الزواج، وحتى بدون هاتين الوثيقتين أرى أن لديها حجة قوية، ولكن هل يمكن إقادتنا إذا لم يعد هناك سبب للاحتفال؟". فهمنا من ذلك أنه يعني إذا سقطت جدتي عند الحاجز الأخير. ثم أردف قائلاً: "كانت هناك حالات سابقة مؤسفة جداً حيث تم تسليم برقيات التهاني أثناء الجنازة".

---

(١) زيمرمان هو وزير خارجية ألمانيا عام ١٩١٧ والذي أرسل برقية إلى حكومة المكسيك يطلب تمازجها مع ألمانيا نظير إعطائهم ولايات نيو مكسيكو، وأريزونا الأمريكية. وقعت البرقية في أيدي الأمريكيين الذين أعطوها، وكانت السبب المباشر لدخول أمريكا الحرب لصالح الحلفاء ضد ألمانيا. (المترجم).

واخيراً جاء اليوم الموعد، وكذلك جاءت جدتي. قام بيريز، ابن عمي، بإعداد جهاز الفيديو المسجل، وضغط على زر الصمت، بينما ظل أجيال العائلة الأربعة ينتظرون. في الساعة التاسعة والنصف تم تنظيف مائدة الإفطار وهي المكان المعتاد لفتح الرسائل، ولكن لم يكن هناك ما يشير إلى وصول البريد. الساعة العاشرة، الحادية عشرة، الظهر، ولم يأت البريد. أي نوع من البرقيات هذه - أو الرسائل التلفزيونية - التي تصل بعد الفداء؟ لم يستطع والدي أن يتحمل أكثر من ذلك، وفكر في الاتصال هاتفياً لمعرفة ما إذا كان قد حدث إضراب مفاجئ، خاصة وأنه كان هناك شيء من هذا في اليوم السابق.

ثم سمعنا جلبة على الطريق الخاص المغطى بالحصى والمؤدي إلى المنزل. كانت عربة البريد الحمراء تشق طريقها إلى الباب الأمامي. جاء ساعي البريد بشمعه الطويل غير المنتظم يحمل حزمة كبيرة، ويمسك في يده برسالة تلفزيونية 'مطبوعة على ورق منتج من غابات محمية بالكامل'. فتحنا البرقية التي كانت تقول:

تهانى حارة بمناسبة عيد ميلادكم المئوى

مع أطيب أمنياتى لكم بيوم متعم

(توقيع) بيتر ليلي



بيتر ليلي؟ لا أعرفه، قالت جدتي. هل كان في السودان؟ كانت لحظة لا تحتمل. لقد وصلت أكثر من ستين بطاقة تهنئة من أماكن نائية مثل مونتريال، ونيو ساوث ويلز، وهاوستون، ولكن لم يصل أى شيء من الملكة. لا شك إذن أن الملكة في مشكلة. يبدو أن ساعي البريد أراد أن يستغل المناسبة ليكمل منها نوعاً من الدراما، فأخذ يلوح بمغلف آخر منتج أيضاً من غابات صحيحة من الناحية السياسية، ويكشف عن صورة لقلمة ويندسور رسمها بول هوجارث (Paul Hogarth) بألوان مائية، ويبدو كأنه قد قذف به بعنف من موقف حافلة

سياحية لا زالت ماكينتها تدور، وكان على جانبه الآخر الشارة الملكية منقوشة بالذهب، وورد فيه شيء من هذا القبيل:

يسرنى أن أبعث إليك بتهانى الحارة بمناسبة عيد ميلادك المشوى، مع أطيب أمنياتى لك بحفل ممتع فى يوم الخميس ٨ أغسطس

إليزابيث

رفعت جدتى البرقية إلى أنفما لتتظر إليما عن قرب ثم قالت: "من أخبرها؟".

لوسيندا بريدين (Lucinda Bredin)



## ملحق (أ)

لقد تم من خلال هذه الحكاوى تغطية جميع المجالات التى عمل فيها الموظفون البريطانيون بالسودان بمختلف تنوعها، وكان من المستحيل فى هذه المرحلة تغطيتها بصورة أوسع من ذلك.

غير أنه يمكن الحصول على المزيد من المعلومات حول أعمال الأشخاص الآخرين فى المجالات الموضحة أدناه بالرجوع إلى المرشد الموجز لأرشيف السودان بمكتبة جامعة درم (Durham University Library Summary Guide To Sudan Archive) :

- \* الإدارة
- \* البحوث الزراعية
- \* الأنثروبولوجيا (علم الإنسان)
- \* الآثار
- \* التدقيق المحاسبى
- \* الكنائس والبعثات التبشيرية
- \* الجمارك
- \* الاقتصاد والتجارة
- \* التربية والتعليم بما فى ذلك تعليم البنات
- \* الجيش المصرى
- \* الحشرات
- \* المالية
- \* الأسماك
- \* الغابات
- \* الصيد

- \* الجيولوجيا
- \* مشروع الجزيرة
- \* كلية غردون
- \* البستنة
- \* الرى: مصلحة الرى السودانى ومصلحة الرى المصرى
- \* الأراضى وسياسة الأراضى
- \* القانون والقضاء
- \* الحكومة المحلية
- \* الطب
- \* التغذية
- \* الشرطة
- \* الخدمة السياسية
- \* البريد والبرق
- \* الصحة العامة
- \* الأشغال العامة
- \* السكة الحديد والبواخر
- \* مكافحة تجارة الرقيق
- \* صيانة التربة
- \* المخازن والمهمات
- \* وكالات السودان فى لندن والقاهرة
- \* قوة دفاع السودان
- \* الشركة الزراعية السودانية وشركة كسلا للأقطان
- \* الجامعة
- \* البيطرة
- \* مختبرات (ولكم) لأبحاث المناطق الحارة



## ملحق (ب)

كتب كثبيرت سكوت (Cuthbert Scott) الذي كان قد تحول من الخدمة السياسية إلى مصلحة المعارف، هذه القصيدة الذكية بعد أن قرأ منشوراً حول أنشطة دار الإكليروس بالخرطوم، يقول المنشور:

"سيقدم المستر بار، مدير المديرية الاستوائية، في يوم الجمعة القادم ورقة أمام جماعة النقاش بدار الإكليروس، وسيكون موضوع الورقة كيف يكون الإله وكيف يعمل؟".

"ما شكله الإله بل كيف يعمل؟  
أواه من سؤال يكتمه تحاشياً  
موظفون دولتنا رفعة ودرجة  
أما نحن موظفي السلك السياسي  
فهاماتنا يا صاحب بنور المعرفة تأتلق  
لأن الإله هو من يرمانا (بالاحترام موقر)  
فدعنا نقولها تواضعاً مترعاً  
إنه يعمل معنا بجهد لا يدخر  
إن كن شاكراً وأنت تؤمها  
محاضرة بها الأذان تشنف  
بليخها مدير مستنير يسوقها إليك  
حديثاً شائعاً محوره (الإله، السلك السياسي السوداني)

## ملحق (ج)

### من ضمن العمل اليومي

فى منتصف الثلاثينات، وفى صباح يوم باكر، كنت مسافراً بالجمل من كتم إلى كيكابيه، وهى مسافة تقرب من خمسين ميلاً، وكان يحرسنى رجل شرطة بمفرده، وقد سبقنا متاعنا إلى هناك. كنا قد وصلنا إلى طريق ضيق متعرج عندما ظهرت من بين الأشجار امرأة ربما يتراوح عمرها بين الثلاثين والخامسة والثلاثين، وهى تسير فى الاتجاه المعاكس. عند رؤيتنا جثت على رقعة معشوشبة من الأرض، ولدهشتى بدأت تريت على المشب الموجود أمامها.

تبادلنا التحية باللغة العربية التى كانت تعرف منها بعض الكلمات، ثم تولى رجل الشرطة ترجمة لغتها (الفورايوة) إلى العربية فامكنا أن نتفاهم. سألتها ماذا تفعل هنا، فأجابت أنها فى طريقها إلى كتم فى شان خاص.

قلت لها: "هل تحتاجين إلى مساعدة؟"، فأجابت: "لا، أريد فقط أن أقول شكراً لكم". قلت لها: عماذا؟ لم أقم تجاهك بأى عمل؟

جاءت إجابتها دافئة من القلب.

قالت: انظر، إنتى الآن أقوم بمسيرة يومين إلى كتم، وقبل مجيئكم ما كنت أستطيع أن أخرج بمفردى من بيتى وأسير بأمان لمدة ساعتين. إنتى لم أشاهد "انجليزى" من قبل. شكراً لكم.

قلت لها مرة أخرى: هل تريدن أى شىء؟ أجابت: لا، أريد أن أقول فقط (شكراً لكم)، ويسرنى أنتى قد قابلتك.

واصل كل منا رحلته، وآمل أنها قد شعرت بنوع من النشوة كما شعرت بها آنذاك، وفي مناسبات أخرى فيما بعد عندما أصبح العمل في السودان صعباً، وأنا أسمع صوتها وهي تقول لي: (شكراً لكم).

ريجナルد دينجوال<sup>(١)</sup> (Reginald Dingwall)



(١) ريجنالد دينجوال عمل مفتشاً لمركز سنكات بمديرية كسلا في أواخر الأربعينيات. كنت وقتها تلميذاً بالسنة الثانية بمدرسة بها الأولية. ولن أنسى ذلك اليوم الذي زار فيه المدرسة، وجاء إلى فصلنا لحضور حصّة الحساب مع الناظر. كان يضع نظارة سوداء على عينيه، ويرتدي قميصاً أبيض و(رداء) كاكي مع جوارب طويلة. جلس على كرسي بالقرب مني. كانت هذه أول مرة أرى فيها (خواجة) عن قرب، ويهزني شكله ونظارته السوداء التي كانت تلمس عليها صورتي. لا أدري ما الذي جعلني أعتقد أنه لا يراني. فكنت كلما اتجه الناظر إلى السبورة أقوم بأداء حركات صبيانية؛ فتارة أخرج لساني، وتارة أخرى أمد أصابعي حتى توشك أن تلامس النظارة، وأشهد كل ذلك منكمساً على النظارة فابتسم ابتسامة عريضة اتبهاً وإعجاباً. الغريب في الأمر أن سماعة المفتش لم يابه بذلك. ولم يحرك ساكناً. وعندما انتهى زمن الحصّة إذا به يمسك بيدي ويأخذني معه إلى مكتب الناظر وأنا ارتجف من الخوف. وهناك خلع النظارة وأبسمني إياها. وبدأ يأتي بنفس الحركات التي كنت أؤديها في الفصل. يا للهول! ما كان مني إلا أن رميت بالنظارة وأطلقت ساقى إلى الريح. غبت عن المدرسة يومين متصنعاً المرض. إلى أن علم والدي بالأمر فأخذني إلى المدرسة بعد (علقة) مائة، وما كان يعلم - لسوء حظي - أن مستر دينجوال قد ترك تعليمات مشددة بعدم عقابي مكتفياً بذلك الدرس العملي البليغ، وبأله من درس!! (المترجم).

## المصادر

- المصدر: الموسوعة العربية العالمية.
- جزر من النباتات الطافية تمتد مجرى النهر
- عواصف محملة ببقار كثيف.
- سير ويليام أوبرين ليندساي ("Wob" Sir William O'Brien Lindsay, KBE)
- سيريل ليونيل آرمسترونج "Stuffy" Cyril Lionel Armstrong, DSO MC,
- جورج أوريسا ماكسويل تايلور (George Orissa Maxwell Taylor)
- إدارة قبلية مستقلة.
- 'Observations on Leprosy among the Azande of Southern Sudan' (East African Medical journal, 1951,28, p.503)
- 'A Survey of Signs of Nutritional Ill-Health among the Azande of the Southern Sudan' (Transactions R.Soc. Trop Med. Hyg. 1950, 43, p 477)
- 'A Survey of Signs of Nutritional Health - III among the Azandi of the Southern Sudan' (Transactions R Soc.Trop. Med. Hyg. 195, 43, p.477)
- Transactions R.Soc. Trop.Med. Hyg. 1953, 47,p.221
- Proceedings of VITH Internat. Congress Trop.Med. and Malaria, 4,565
- Transactions R. Trop. Med. Hyg. 1956,50, pp 11-30
- أنظر الملحق "ب"
- أنظر سيرته الذاتية التي كتبها في مجلدين، وقام بترجمتها جى. سى. سكوت وبير هوج. المجلد الثاني يحتوي على مقالة نقدية مفيدة حول سياسة التعليم البريطانية كتبها جى. إن ساندريسون.
- أصبح نيميرى رئيساً للجمهورية ودكتوراً (يساريا) خلال سبعينات القرن الماضي. دعينا، براون وأنا، لحضور العيد الأول لانتقاله المسكرى (١٩٧٠). كان القذافي (الذي استمر مدة أطول في الحكم) يجلس في الصف الأمامي ويشاهد عرض الدبابات الروسية، بينما كان لويس براون يتهاشم مع نيميرى.

● لقد تسلقنا جبل كسلا في ديسمبر ١٩٤١ ، وكان تسلقاً شاقاً استغرق زمناً طويلاً . ثم كررنا التجربة في عام ١٩٤٢ مع اثنين من طلبة الثانوى، ولا أعرف بعد ذلك غير تسلق واحد تم في السبعينات. لم تكن شجرة الأكسير لذيذة الطعم.

● خير مثال على ذلك - في رأيي - هو كتاب "سبل كسب العيش في السودان" الذى يصاحبه دليل للمعلم ملئ بتفاصيل مفيدة عن تسع عائلات ريفية وثلاث حضرية، مع الرسومات والخرائط لتلاميذ السنة الثالثة بالمدارس الأولية. وضع الكتاب فريق من الأساتذة، وصمم الرسومات باتقان جرينلو (Greenlaw).

● توجد قائمة كاملة باللغتين العربية والإنجليزية وتتوفر كذلك مجموعة مختارة بالمصادفة، لربما من ربع عناوين الهدايا التذكارية الخاصة بجريفس وشخصى، في أرشيف درم (Durham Archives) ولكن أشك في وجود أى منها في الخرطوم أو بخت الرضا.

● كان الجنه المصرى في ذلك الوقت يبادل واحد جنهيا استرلينى وستة بنسات. ● إحدى قبائل البجا الرئيسية الثلاث في شرق السودان، ويسكنون في تلال البحر الأحمر، وهم الذين أوحوا للشاعر كيلنج بقصيدته المشهورة (Fuzzy Wuzzies).

● تجويف في الأرض يتم حفره آلياً أو يدوياً ليصبح خزاناً لمياه الأمطار.

● جميعهم كانوا بريطانيين حتى عام ١٩٥٥.

● سلسلة من الجزر الطافية التي تغطي مساحة كبيرة من النيل الأبيض، وتحتوى على مختلف النباتات الطافية مثل نبات البردى والحشائش الخ .

● حسب عادات التنوير يكون الشخص مسئولاً عن القتل إذا كان هو أول من سدد للميت طعنة برمح بصرف النظر عن أى رأى آخر يديه الطبيب حول احتمال أن يكون قد أعقب ذلك طعنة أخرى من شخص آخر وتكون هي سبب الوفاة. وقد أدى قبول هذا المبدأ إلى تسهيل عملية تحديد الجناة ومقابليهم، ولم يحدث أن ترددت في تطبيق هذا المبدأ طوال فترة عملى بين التنوير.

● شجر دائم الخضرة أصله من الهند، واستورد إلى السودان في عهد الحكم الإنجليزى.

● ساحة كبيرة مفتوحة تمتد إلى مئات الهاردات، وتتناثر فيها أشجار السنط والنيم.

● يوم ٢٦ ديسمبر التالى لعيد الميلاد الذى تقدم فيه الهدايا إلى سعاة البريد وغيرهم من المستخدمين الآخرين.(المترجم)

- كان لقب "أفتدى" يطلق على الموظف المصري أو السوداني، فمثلاً إذا موظف في السكة الحديد اسمه محمد حسن عبد الله، فإنه يصبح محمد أفتدى حسن عبد الله.
- تدعى الأسرة أنها من سلالة جاي هوكز المشهور.
- الأميرالاي رتبة عسكرية كان يرقى لها الضباط في ق. د. س. أو (الجيش المصري)، وهى تعادل رتبة الكولونيل أو الليفتمنت كولونيل لدى الجيش البريطاني، ويمكن أن تسند إليه قيادة فرقة كاملة مثل فرقة العرب الشرقية، وكانت الفرقة في ق. د. س. تعادل باتليون (Battalion) لدى الجيش البريطاني.
- استحكامات دفاعية تبني من الحجر وتخدم نفس أغراض الخنادق.
- آر. سي. ويكفيلد، شقيق اللورد ويكفيلد، وقد اشتهر ضمن أشياء أخرى كلاعب رجبى عالمي، ورئيس اتحاد الرجبى.
- لم يكن ذلك يفرض وضع أطار عمل وإنما لأجل تسجيل التفاصيل.
- يتميز أيضاً بأنه أكثر دقة لأن حرارة الشمس تؤثر في طول الشريط.
- موظف بمكتب السكرتير الإداري آنذاك.
- مع بداية الحرب الباردة في عام ١٩٥٠ تم منع الصور الأخرى من التداول بحيث لا يمكن رؤيتها في الوقت الحاضر، ولكن إذا تفهر ذلك فإنه سيوفر سجلاً فريداً للصحراء عبر شمال أفريقيا عن الفترة ١٩٤١-١٩٤٢.
- ما جنوس ماجنسون مقدم لبرنامج مسابقات تلفزيونية، وعندما يبدأ سؤالاً ويقاطعه أحد المتسابقين كان يقول: لقد بدأت ولذلك سأواصل (I have started, so I will finish).
- تطبع على القماش لتكون قابلة للتحمل، وكان يشار إليها باسم (الخراطة المنديلية).
- أنظر أيضاً آر. جى. دينجول في الملحق (ج).
- زيمرمان هو وزير خارجية ألمانيا عام ١٩١٧ والذي أرسل برقية إلى حكومة المكسيك يطلب تعاونها مع ألمانيا نظير إعطائهم ولايات نيو مكسيكو، وتكساس، وأريزونا الأمريكية. وقعت البرقية في أيدي الأمريكان الذين أعلنوها، وكانت السبب المباشر لدخول أمريكا الحرب لصالح الحلفاء ضد ألمانيا. ( المترجم).
- ريجنالد دينجول عمل مفتشاً لمركز سنكات بمديرية كسلا في أواخر الأربعينات. كت وقتها تلميذاً بالسنة الثانية بمدرسة هيا الأولية، ولن أنسى ذلك اليوم الذي زار فيه المدرسة، وجاء إلى فصلنا لحضور حصة الحساب مع الناظر.

## الفهرس

- حكاية الضابط الإدارى يوم الانتخابات فى ام بطيخ ..... ١٣
- حكاية مفتش الزراعة..... ٢٧
- حكاية الطفل ..... ٥٥
- حكاية مفتش المركز ..... ٦٥
- حكاية الطبيب ..... ١٤٥
- حكاية التربوى ..... ٢٠١
- حكاية مهندسة الجيولوجيا ..... ٢١٥
- حكاية القاضى ..... ٢٢٧
- حكاية الراهبة ..... ٢٤١
- حكاية مفتش مركز النوير ..... ٢٦١
- حكاية الممرضة ..... ٢٧٣
- حكاية موظف السكة حديد ..... ٢٩٥
- حكاية الطالبة ..... ٣١٥
- حكاية الجندى..... ٣٢٥
- حكاية مهندس المساحة ..... ٣٥٣

٣٨١ .....	■ حكاية جيلين
٣٩٧ .....	■ حكاية محاضر الجامعة
٤١٣ .....	■ حكاية مفتش البيطري
٤٢٧ .....	■ حكاية الزوجة
٤٤١ .....	■ حكاية عالم الحيوان (كما روتها أرملة ليزلى لويص)
٤٥٩ .....	■ حكاية الحفيدة



- |       |                           |   |                       |
|-------|---------------------------|---|-----------------------|
| ----- | Political boundary        | ■ | Province capital      |
| ----- | Province boundary         | ● | District headquarters |
| ..... | Administered by the Sudan | ○ | Other places          |
| ————  | Rivers                    |   |                       |

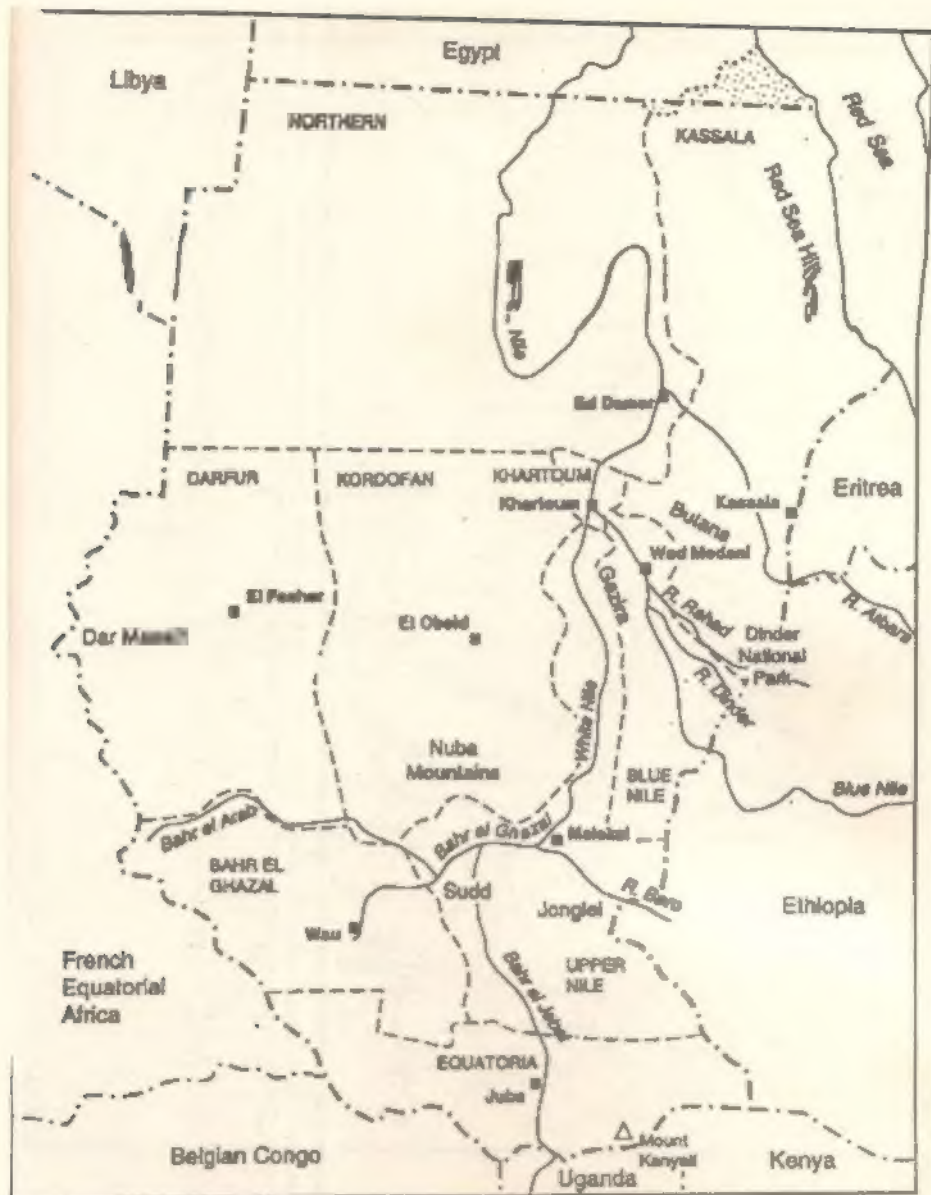
### District Headquarters



----- Political boundary  
 - - - - - Province boundary

..... Administered by the Sudan  
 ————— Rivers

**Tribal names**



- |       |                           |           |                  |
|-------|---------------------------|-----------|------------------|
| ----- | Political boundary        | ■         | Province capital |
| ----- | Province boundary         | R. Nile   | River names      |
| ..... | Administered by the Sudan | BLUE NILE | Province name    |
| ————  | Rivers                    | Kassala   | Province capital |

The Anglo-Egyptian Sudan

